الفكر الاستخباري الإسلامي

دراسة توثيقية بمنظور معاصر

اللواء الدكتور / عبد العزيز بن عبد الله الأسمري



الفكر الاستخباري الإسلامي

دراسة توثيقية بمنظور معاصر
للنشأة والتطور والتطبيق

اللواء الدكتور
عبد العزيز بن عبد الله الأسمري

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الاسمري ،عبدالعزيز عبدالله

الفكر الاستخباري الاسلامي . / عبدالعزيز عبد الله
الاسمري .- الرياض ، ١٤٣٨هـ
٣٦٤ص ؛ ١٧ × ٢٤ سم
ردمك : ٤-٨-٥٢٠٨-٠٢-٦٠٣-٩٧٨
١-المخابرات - تاريخ - عصر صدر الاسلام ٢-الاسلام والامن
أ.العنوان

ديوي ٢٥٧,١ ١٤٣٨/١٠٤٣٨

رقم الايـداع: ١٤٣٨/١٠٤٣٨
ردمك: ٤-٨-٥٢٠٨-٠٢-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٣٩هـ / ٢٠١٨م



المحتويات

الفهرس

قائمة الصور والرسوم التوضيحية والخرائط

مقدمة

مقدمة

يستعرض هذا الكتاب بمنهج استقرائي منابع الفكر الاستخباري العربي الإسلامي، ويسعى إلى تفسير القواعد الشرعية للأنشطة الاستخبارية في القرآن الكريم وما طبق منها من سنن نبوية في المدينة المنورة في ظل الدولة الإسلامية الأولى. وقد تم التركيز على العهد النبوي الشريف الذي تمت مقاربته من خلال النظرية العلمية الحديثة في علم الاستخبارات. فإلى جانب الأسلوب المسحي الذي تم اعتماده لدراسة الوقائع التاريخية التي انطوت على العمل الاستخباري فقد سعينا أيضًا إلى مناقشة الدورة الاستخبارية للمعلومات وإلى تصنيف النشاطات الاستخبارية وفقاً للعناصر المكونة للنظرية الاستخبارية الحديثة.

ينبثق هذا الكتاب من أصلين مزدوجين. الأول هو ممارستي كمهني محترف للعمل الاستخباري خلال خدمتي العملية الطويلة في هذا المجال والتي تزامنت مع كثير من الأحداث على المسرح الدولي، كانت الاستخبارات فيها محط الأنظار. وإبان هذه الفترة الحرجة من تاريخنا المعاصر كانت الأجهزة الاستخبارية تحقق نجاحات ملحوظة يشُهد لها، أو تتكبد فشلاً ذريعاً يضعها تحت المجهر ويدفع بمحاسبتها كما هي الحال في نتائج عمليات التفتيش عن أسلحة الدمار الشامل في العراق، وكارثة الحادي عشر من سبتمبر/أيلول وما تلاها من أحداث إرهابية متفرقة دفعت البشرية فيها ثمنًا باهظاً، لم يقتصر على المال والممتلكات بل لما هو أثمن ألا وهي الأنفس البشرية البريئة. فبعد أكبر كارثة إرهابية وقعت في العصر الحديث والمتمثلة في تفجير برجي مركز التجارة العالمية في نيويورك، أدرك العالم أهمية

«الاستخبارات اللحظية» «Timely Intelligence» ودورها الفعال في محاربة الإرهاب والحيلولة دون وقوع كوارث جسيمة في المستقبل.

والأصل الثاني هو الفرصة التي أتيحت لي أثناء عملي الرسمي في الخارج والذي مكنني من الاتصال بعالم العلماء والبحوث العلمية والدراسات الاستخبارية في الجامعات من الأكاديميين والقائمين على مراكز الأبحاث، وكان بشكل رئيسي في المملكة المتحدة، حينها كنت أواصل دراساتي العليا. خلالها استطعت أن أطلع عن كثب على أدبيات هذا الفرع من المعرفة وما نشر حديثاً فيه ومناقشة ما كان يطرح في المؤتمرات التي تعقدها الجامعات الغربية في مراكزها المتخصصة بحضور الأكاديميين وقدامى المحترفين والممارسين الفعليين آنذاك.

من هذين المنبعين إذن تأتي هذه المحاولة لإعداد دراسة علمية تلتزم بالمنهج العلمي نحاول فيها التقصي والتقييم والسعي لبحث ونشر المفهوم المعاصر للاستخبارات، بهدف بيان منابع وملامح الفكر الاستخباري العربي والإسلامي على نحو أفضل، وعلى نطاق أوسع. فالكتاب يستهدف القارئ العام المهتم بالموضوع داخل وخارج الدوائر الرسمية الذي قد لا تكون لديه خلفية واسعة في الدراسات القديمة والتاريخ الاستخباري، كما أنه في الوقت نفسه يخاطب المتخصصين الذين يتوفر لديهم المعرفة العميقة والخلفية العلمية العريضة في التاريخ العسكري وعلوم الاستخبارات.

ويمكن فهم مضمون هذا الكتاب من المقولة الشهيرة التي تنص على «أن التجسس قديم قدم التاريخ نفسه» لذلك كان ولا زال عبر العصور محط اهتمام بالغ من القادة، والساسة، والعسكريين، وصناع القرار، وأصحاب المصالح والنفوذ وزعماء المجتمع على حد سواء.

ولم تعدم المكتبة العربية من بعض المؤلفات والبحوث التي تناولت هذا الموضوع على نحو عام أو من زوايا ومنطلقات مختلفة، إلا أن بعض هذه الكتب قد شابها شيء -قل او كثر- من الضعف الواضح في الخلفية العلمية والخبرة العملية في مجال الاستخبارات. لذلك لم تخرج مضامين هذه الكتب عن سياق النتائج المسحية للأحداث دون تمييز أو تصنيف علمي لها. ومن المأمول أن يسهم هذا الكتاب في سد ثغرة ظلت شاغرة يشعر بها كل من له اهتمام خاص في العلوم الأمنية والاستخبارية ذلك أن الكتاب يؤصل ويؤطر لأعمال الجاسوسية وفنونها وفقاً لمنظور علمي حديث له معاييره المهنية والعلمية وأحكامه الدقيقة في هذا المجال.

نشأت فكرة إعداد هذا الكتاب منذ أن كنت طالباً في مرحلة الماجستير وأذكر مرة أن أحد المحاضرين الأمنيين افتتح محاضرته في «مركز جامعة برونيل للدراسات الأمنية والاستخبارية» في لندن بالتشديد على أن جذور الفكر الاستخباري الحديث تعود إلى عصر النهضة الأوربية.... وأن المفهوم الأمريكي للاستخبارات هو المفهوم السائد الذي تعمد إليه دول العالم الثالث على نحو خاص لاستنساخه والعمل به، «لا لكونه الأمثل وإنما لافتقار تلك الأمم والشعوب إلى مفاهيم استخبارية تُستمد من ثقافتها الأصلية». وبالرغم من أن ذلك التعميم ينطوي على الكثير من الصواب، إلا أنه كان مجحفاً بعض الشيء بالنسبة للعديد من الشعوب والمجتمعات التي مارست العمل الاستخباري منذ القدم ومنها شعبنا العربي. وقد تلت تلك المحاضرة عدة لقاءات ونقاشات مع المحاضر الكريم أدت بالتالي إلى تبلور فكرة هذا الكتاب وإلى السعي لاستشراف جذور الفكر العربي. فالعرب كسائر الأمم مارسوا الأنشطة الاستخبارية وبرعوا فيها منذ أقدم الأزمان ففي تلك العصور كان الرومان يملكون جيوشاً جرارة وقوية بحيث كانت لهم اليد العليا في أي نزال، إلا أنهم لم يعيروا الاهتمام الكافي للاستخبارات، وكان

على خصومهم الأضعف الذين لا يملكون جيشاً قوياً أو جيد التنظيم الاعتماد على الاستخبارات ليدافعوا عن أنفسهم وليحققوا النصر عليهم من خلال استخدام المباغتة، والمراوغة، والخداع، وسرعة الحركة، وغير ذلك من التكتيكات التي تحقق امتيازات ذات قيمة عسكرية فعالة. وكان العرب يعتمدون على الاستخبار في إدارة تكتلاتهم البشرية وإدارة شؤون حياتهم. وعندما ظهر الإسلام وجد الأوائل هذا الإرث التاريخي القديم من أنواع النشاط الاستخباري وفنونه، فقاموا على تشذيبه وتهذيبه ليتفق مع طبيعة النفس البشرية وحرمتها وخصوصيتها وفق الشريعة السمحاء، ثم طوروا تلك الأنشطة لتواكب التغير الزمني وتسد حاجة مستخدميها آنذاك.

وستبرز هذه الدراسة نشوء النموذج العربي/الإسلامي للاستخبارات، الذي سيتضح بجلاء أنه ليس منسوخًا عن تجارب الآخرين، أو أنه نتاج مؤثرات أجنبية، بل يمثل توجهاً عربياً/إسلامياً يستلهم الإرث الثقافي والاجتماعي العربي الإسلامي، ويُبنى على ما تراكم من خبرات وتجارب عبر التاريخ. فهذه العقيدة العربية الإسلامية للاستخبارات كانت المنبع الأساس لبناء وتطوير الأجهزة الاستخبارية والأمنية لدى كثير من الدول عبر العصور. ورغم كل ما تحقق من إنجازات تقنية وفنية في العمل الاستخباري، فإن الميراث العربي الإسلامي، يمثل حجر الزاوية الذي أقيم عليه مفهوم الإستخبارات، وأصبح مرجعًا يقيسون عليه مستوى أدائهم.

إن الهدف الآخر من هذه الدراسة هو تفحص المنابع والجذور التاريخية التي ينطلق منها المفهوم الاستخباري الإسلامي المعاصر، واستجلاء خصائص العقيدة الاستخبارية الإسلامية لتحديد أبرز ملامحها، واستبيان طرائق عملها، وتثبيت ما يميزها عن المدارس الأخرى. وسنتعامل معها في ظل المنظور الحديث للاستخبارات أي في ظل العناصر الاستخبارية التي

حددها شيخ الدراسـات الاسـتخبارية ومنظرّها «روي غودسـون، Roy Godson» ذلـك أن تلك العناصـر تمثل منهجـاً بحثيـاً معتمدًا على نحو واسـع فـي المعاهد العلميـة حول العالـم لدراسـة وتقييم أنشـطة المنظمات الاسـتخبارية الرسـمية وغير الرسـمية.

وهنـا لا بـد مـن الإقـرار بـدءًا أن نـدرة المصـادر المفتوحـة والبحـوث المنشـورة فـي هـذا الموضوع الحسـاس شـكلت ولا تـزال تشـكل عقبـة كبيرة تقـف أمـام أي باحـث فـي هـذا المجـال، إلا أن التنقيـب الدقيـق المضنـي فـي المصـادر المفتوحـة المتوفـرة مـن أمثـال كتـب السـيرة والتاريخ والتفاسـير والمنشـورات والمدونات، والكتب الإلكترونية، ومواقع الشـبكة العنكبوتية، ينتج فـي النهاية مـا نتوخـى معرفته، ويفـرز في معظـم الأحيـان التوجهـات العامة في العمـل الاسـتخباري، ويمـدك أيضاً بنـزر قد لا يكـون يسـيرًا عن جـذور الفكر الاسـتخباري الاسـلامي، وتشـريعاته وأسـاليبه، وعملياتـه كمدرسـة مسـتقلة متميزة بحـد ذاتها. وبالرغم مـن أن الأبحاث المنشـورة عن أجهزة الاسـتخبارات في دول الشـرق الأوسـط عمومًـا وعن العالـم العربي خاصـة، تكاد تكـون نادرة ومتفرقـة.[1] إلا أن السـنوات القليلـة الماضية شـهدت بعـض التغيـرات التي أدت إلى تحسـن فـرص إجـراء البحـوث في هـذا الموضـوع الحسـاس. فمنـذ أوائل التسـعينيات ولاحقـاً، صـادف الباحثـون والخبـراء المتخصصـون، صعوبـة أقل في إنجـاز دراسـاتهم ومشـاريعهم البحثية بعد أن سـمحت الأجـواء الدولية السـائدة، بتدفق المعلومات بحريـة أكبر وتمكن كثيـر من الباحثين والدارسـين من الاطلاع عبر شـبكة الإنترنت علـى كم لا بأس به مـن المعلومـات والتفاصيل التي كانـت حتى إلى فتـرة قريبة تعد من الأسـرار التـي لا يمكن الاطـلاع عليها البتة. فقد تميزت السـنوات القليلـة الماضية برفـع تدريجي متصاعـد عن الكثير من القيـود التي كانـت مفروضـة على حريـة الحصول علـى المعلومة فـي عهود سـابقة ليسـت ببعيدة.

وفـي تتبعنـا لأصـل وتطـور النشـاطات الاسـتخبارية فـي العالـم العربي، وجدنا أدلة واضحة تشـير إلى وجود نشـاط اسـتخباري عربي في فتـرات قديمة تعود إلـى القرنين الثانـي والثالـث الهجرييـن. ولكن لم يتم تسـجيل أي نشـاط اسـتخباري بـارز فـي الفتـرة التي سـبقت بـروز الإسـلام مباشـرة، فيمـا يُعرَف عموما عند العـرب بالعصر الجاهلـي، أي ما يوافـق القرنين الخامس والسـادس الميلادييـن عنـد المؤرخين. وحيث أن بـدو الجزيرة لـم يكونوا تحـت خطر غزوٍ من أي غـاز أجنبي فإن نشـاطهم الاسـتخباري كان معظمه منصبـاً ضد بعضهم. حيـث أنهـم كانـوا منهمكين باسـتمرار فـي حـروب قبليـة إما بدافـع الانتقـام أو الثـأر، أو بدافع التنافس الشـديد علـى المصادر المائية الشـحيحة، والسـيطرة على مواقـع الـكلأ والمراعي.

ويزخـر التاريـخ العربـي بالأحـداث والوقائـع والسـير والأعمـال الأدبيـة العديـدة والأسـاطير والقصـص الشـعرية، والمقامـات الأدبيـة والمسـاجلات ومـا إلـى ذلـك مـن مصـادر تراثيـة غنيـة بالمعلومـات القيمـة عـن النشـاطات الاسـتخبارية القديمة. فهذا التـراث الغني إلى جانـب قيمته كمنتـج أدبي وفكري وفلسـفي إلا أنه يجسـد أيضاً سـلوك المجتمـع وعاداتـه ومعتقداته وممارسـاته ويسـلط الضـوء علـى آمـال ذلـك المجتمـع وطموحاتـه فـي الحيـاة وجهـود القائمين علـى الأمر للإبقـاء على مواقـع نفوذهم وتثبيـت دعائم سـلطتهم.على أن أهم مصدرين علـى الإطلاق تم الرجـوع إليهما والاسـتنارة بهما باسـتمرار، هما القرآن الكريـم والسـيرة النبوية العطـرة. فالقـرآن الكريم هـو الدسـتور الجامع لأحكام الإسـلام ولا منـاص لأي باحث في مثـل مبحثنا هـذا من الاسترشـاد به والركون إليه لاسـتجلاء ركائـز المفهوم الاسـلامي العـام للعمل الاسـتخباري. أما السـنة النبويـة الشـريفة فإنها كمـا لا يخفى علـى أحد تمثل سـجلاً لأحاديث الرسـول الكريـم ﷺ وأفعاله فـي مجـالات الحياة كافـة ومنهـا بالطبع مـا يتصل بالنشاط الاسـتخباري.

وهناك بالطبع العديد من المصادر الغنية بالمعلومات عن حياة الرسول ﷺ ومن أبرز تلك المصادر وأهمها كتابي «المغازي» لـ «لواقدي» و«السيرة النبوية» لـ «ابن هشام»، وهما سيرتان كُتِبتا بعد أقل من مئة سنة من بعد وفاة الرسول ﷺ. هاتان السيرتان قائمتان على روايات شفوية لأشخاص عاصروا حياة الرسول ﷺ، ونقلوا إلينا ما رأوه وما سمعوه عنه. ويتسم هذان المصدران المهمان بمصداقية عالية في نقل المعلومات عن حياة الرسول الكريم ﷺ بما في ذلك تعاليمه ومواقفه إزاء هذا الجانب من أنشطة المسلمين في عصر الرسول ﷺ. ومن خلال استقراء ما ورد في هاتين السيرتين وغيرهما يمكن للمرء أن يستخلص بسهولة ويسر أن الفترة الأولى من الإسلام كانت زاخرة بما قد يسمى بالمصطلحات الحديثة بـ«النشاط الاستخباري» وأن هناك من بين المسلمين الأوائل رجال استخبارات ماهرين، وأن أساليبهم وخططهم كانت دقيقة ومتقنة. ولحسن حظنا، فإن جميع الروايات المتعلقة بالمعارك التي قادها الرسول ﷺ وخطط لها، والتعليقات الخاصة بها موثقة إما على نحو مستقل، أو مشار اليها في ثنايا النصوص التاريخية والأدبية التي تزخر بهذه الروايات التي أصبحت الآن متوفرة على شكل رقمي يسهل البحث فيها.

ومن الصعوبات التي واجهتها عند إعداد هذه الدراسة هي كيفية التوفيق بين الروايات المختلفة أو حتى المتضاربة والمتناقضة لبعض الأحداث التي تطرق لها البحث. وحسمًا لهذا الإشكال الجدي فقد بنيت حكمي واختياري لما رأيته أصدق وأقرب إلى الواقع وإلى التطور المنطقي للأحداث، وسمعة الأطراف الواردة في الروايات، وبالطبع على آراء الباحثين والعلماء الأخصائيين في ذلك الحقل. وفيما يتعلق بالتفسير الإسلامي للنصوص، فقد مِلتُ مع قوة الأدلة التي يوردها مفسرو القرآن الكريم كـ «ابن كثير» و«الطبري» و«القرطبي» و«القاسمي».

ويجب الاعتراف بان الدراسات الاستخبارية شكلت على مدى التاريخ صعوبة للمؤرخين ومن يعنون بالدراسات القديمة والدراسات الاستراتيجية على حد سواء، لا لشيء معين، إلا لكونها لم تسجل وتدون تفاصيل احداثها بسبب طبيعتها السرية وما يكتفها من غموض. ولهذا أطلق عليها «البعد المفقود» من التاريخ السياسي والدبلوماسي.[2] فغالباً ما تنقل لنا الروايات والكتب التراثية في هذا الجانب ما يشير إلى حدوث نشاط استخباري دون أن تأتي على تفاصيله، فعبارة «أتى الخبر بكذا..» أو «نقل عين له بكذا وكذا...» هو ما رشح إلينا من عالم السرية والجاسوسية عبر الحقب التاريخية المتتالية، بل هو لا يمثل إلا الجزء اليسير من تلك العمليات، فيما لو قورن بالثراء اللغوي للمسميات والمفردات الذي منحها العرب الأوائل للعاملين في هذه الحقل من المعرفة، وهو ما يؤكد على كثافة الممارسة وتعدد المحترفين لها عبر تلك الأزمان.

كما أن العرب الأوائل كان غلب عليهم أمية الكتابة، فكان التدوين نادراً، والنقل لا يروى إلا عبر الأشعار التي كانت ترتجل وتتلى شفوياً، مما جعل تفاصيل الممارسات الجاسوسية يشوبها الندرة في النقل، والضعف في التفاصيل. وقد وصف الله تعالى حال العرب العلمي قبل البعثة النبوية فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾[3] وقال تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾[4] ويعني بالأميين في كلا الآيتين الشريفتين الأعراب.[5] ويمكن القول أن كل الأمم التي خلت، مارست بشكل أو بآخر النشاطات الاستخبارية التي تفي بمتطلبات وجودها، والأمة العربية والإسلامية ليست استثناء من ذلك، فمتى ما كانت هنالك حاجة لاتخاذ قرار متنور كانت هناك حاجة لممارسة نشاط جمع المعلومات وبالتالي استمرار العمليات الاستخبارية. إن لكل أمة طريقة في كيفية أداء نشاطاتها الاستخبارية والتي عادة ما ترتبط بموروثها الثقافي ارتباطاً وثيقاً. فدراستنا للنشاطات

الاستخبارية العربية في التاريخ القديم يحقق لنا معرفة «ماذا تم، وكيف تم» في عصور كانت تفتقد لوسائل التواصل الألكتروني والجمع والنقل السريع للمعلومات. وهنا تكمن أهمية دراسة التاريخ الاستخباري للعالم القديم لبيان كيف كانت، حتى في العصور البدائية، الاستخبارات تؤدي دورًا أساسياً في تشكيل ما قد نسميه في عصرنا هذا بالسياسة الدفاعية والخارجية للدولة، وذلك في زمن الحرب والسلم معاً.[6] ففيها نلاحظ كيف كان القرار يتخذ، وكيف وقعت الكوارث، وكيف لعبت العمليات السرية دوراً في قيام الدولة وتشكيل سياستها.

يتناول هذا الكتاب منابع المفهوم الاستخباري الإسلامي، ويناقش النشاطات السرية لفترة الدعوة الإسلامية بمراحلها الثلاث. فيستعرض النشاطات الاستخبارية التي مورست آنذاك ويصنفها وفقاً لنوع النشاط وطبيعته، مبيناً أن النظرية الحديثة للاستخبارات حية في المفهوم الاستخباري العربي الإسلامي منذ أقدم العصور. كما يناقش المفهوم الاستخباري المعاصر لهذا قسم هذا الكتاب إلى مقدمة وتمهيد وسبعة فصول وخاتمة. ونناقش في التمهيد أهمية الاستخبارات والدور الذي تلعبه منذ الأزل في حماية المجتمعات والذود عن الأوطان بالإضافة إلى عرض سريع للخلفية النظرية التي تنطلق منها مفهوم الاستخبارات الإسلامي في محاولة جادة لتحديد معالم العمل الاستخباري واستعراض بعض أساليبه المستعملة بهدف رسم ملامح النموذج الإسلامي وتحديد معالمه.

ويتناول الفصل الأول القرائن المبكرة الأولى الدالة على حدوث نشاط استخباري في الجزيرة العربية. وسنرى أن ما وصل إلينا من أدلة تاريخية من وثائق ومخطوطات ونقوش خاصة بالمناطق القحطانية القديمة في جنوب الجزيرة، تؤكد أن هذه القبائل كانت لها قدرات استخبارية عسكرية لا يستهان

بها. فاستعمال العيون كمصادر سرية مشهود له في عصور ما قبل الإسلام. وسنرى أيضاً أن القحطانيين مثلاً تمكنوا من خلال عمليات التجسس السرية بأنماطها المختلفة، من الدفاع عن وجودهم وضمان ديمومتهم في بيئة رملية جدباء، جلها من الهضاب القاحلة الممتدة عبر الجزيرة العربية. وعلى الرغم من أننا لا نعلم الكثير عن التاريخ القديم لجنوب الجزيرة، إلا أن الأدلة التي وردتنا والتي تمت مناقشتها في الفصل الأول، تشير إلى أن سكان جنوب الجزيرة وبعضاً من أجزائها الشمالية، قد مارسوا بالفعل استخبارات بدائية، لا عندما وجدوا أنفسهم في حالة حرب، ولكن حتى في حالة السلم لضمان أمنهم وتدعيم ما ينعش اقتصادهم البدائي أيضًا.

اما في الفصل الثاني فسنناقش فيه الأهمية التي يوليها القرآن الكريم للاستخبارات، وسنحاول أيضاً استقراء بعض ما ورد في الكتاب الكريم لنتفحص شرعية العمل الاستخباري في الإسلام. وحيث أن القرآن يعتبر المصدر الرئيس للقوانين الإسلامية والمرجع الأول للإرشاد القانوني والروحي والأخلاقي للمسلمين، فإننا سنذكر الكثير من الآيات ونتطرق إلى تفسيرها. وسنرى أن عدداً من السور القرآنية تتناول على نحو مباشر أو غير مباشر العمل الاستخباري وتميز بين المشروع في ممارساته وغير المشروع منه. فالقرآن يحوي العديد من الأمثلة والدروس الأخلاقية، إما بإشارة مباشرة أو بالتمثيل أو برواية قصصية مثل قصة سيدنا سليمان عليه السلام والهدهد، وهي قصة يمكن فيها وبكل سهولة رؤية ما يسمى في علم الاستخبارات بـ(الدورة الاستخبارية) وعناصر التقرير الاستخباري.

في الفصل الثالث ستركز هذه الدراسة على النشاطات السرية في عهد الرسول ﷺ في ظل التعريف الحديث لمفهوم العمل الاستخباري، والذي يشمل التجميع السري للمعلومات، والاستخبارات المضادة، والتحليل

والنشر، والعمليات السرية حيث نفصل سُنن الرسول ﷺ الاستخبارية أثناء مراحل الدعوة الثلاث. فيبدأ الفصل بما يعرف بالمرحلة السرية عندما بدأ الرسول ﷺ بالدعوة إلى الإسلام سرًا، ثم نقدم وصفاً لنشاطات الرسول ﷺ في المرحلة الثانية أي إبان دعوته السلمية إلى الإسلام، وأخيرًا نتناول مرحلة المدينة عندما قام الرسول ﷺ بتأسيس نواة الدولة الإسلامية بعد هجرته من «مكة» بوقت قصير.

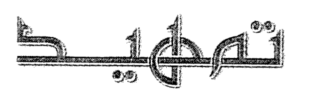
نستعرض في الفصل الرابع أهمية استخبارات المعارك وذلك أثناء الغزوات التي قادها الرسول ﷺ أو أحد أصحابه، ونركز فيه على المعارك الأربع الكبرى التي قادها الرسول ﷺ بنفسه وهي «بدر» و«أحد» و«الخندق» و«حنين». فمن بين جميع المعارك التي دخلها النبي ﷺ، فإن هذه الغزوات الأربع مليئة بالنشاط الاستخباري السري. بعض هذه النشاطات كانت عسكرية محضة (إرسال الكشافة للتعرف على ساحة المعركة واستغلال طبيعة تضاريسها لصالح الجيش... الخ). أما النشاطات الأخرى فشملت استعمال العيون لجمع المعلومات، وتنفيذ عمليات سرية استطاع من خلالها الرسول ﷺ كسر تحالف كبير تجمع ضده.

وسنناقش في الفصل الخامس بشيء من التفصيل مهارات الاستخبارات في الفترة الإسلامية المبكرة. فمن بين القضايا المتعددة التي سيناقشها هذا الفصل نذكر الأمن والاستخبارات المضادة، والآليات التي كان العرب ينقلون بها المعلومات الاستخبارية (كالإشارات المشفرة، والرسائل المكتوبة والشفوية)، واستعمال البيوت الآمنة ملاذًا آمنًا لتجمعاتهم السرية، وأساليب الإخفاء، والرشاوى، وطرق التحايل والتضليل المعلوماتي، والتمويه، الخداع، خفة الحركة، وما إلى ذلك من مهارات العمل الاستخباري، كما يبين أهمية الاستخبارات العسكرية.

ويتناول الفصل السادس تقسيم مصادر المعلومات البشرية العلنية منها والسرية وبيان خارطة توزيعها بين القبائل المتناثرة في شبه الجزيرة العربية بالإضافة إلى الامبراطوريات المجاورة. كما سنبين من كان له ارتباط مباشر بالقيادة في المدينة من هذه المصادر والأدوار التي لعبتها في كثير من المواقف والأحداث والتي ساهمت في درء المخاطر عن الدولة الإسلامية الفتية.

ويتناول الفصل السابع المفاهيم المعاصرة للاستخبارات وأبرز تعريفات المختصين فيها، بالإضافة إلى توضيح العناصر الأربعة المكونة للمفهوم الاستخباري الحديث، ودورة الاستخبارات في المفهوم المعاصر.

وتلخص خاتمة الكتاب الملامح الرئيسة للعمل الاستخباري العربي منذ عهوده الأولى حتى بزوغ الإسلام. وسنسعى في الخاتمة إلى التأكيد على استمرارية هذه الأنشطة الاستخبارية إلى الحد الذي باتت فيه هذه الممارسات تشكل مفهومًا استخباريًا عربيًا إسلاميًا. وتسلط الخاتمة أيضًا الضوء على أهمية الدور الذي تلعبه الثقافة والدين في تشكيل المفهوم الاستخباري عند المسلمين، وتحدد أيضًا أبرز معالم النظرية الإسلامية للاستخبارات.



تمهيد

أدت الاستخبارات ومنذ قديم الزمان دوراً بالغ الأهمية في الذود عن الأوطان، وحماية الاستقلال، والدفاع عن الدول، والكيانات، والفصائل المسلحة على حد سواء. فمن خلال العمل الاستخباري، أمكن تجنب العديد من الأخطار والمهددات، الخارجية منها والداخلية التي كانت تحيق بها. وبفضل المنظومات الاستخبارية التي تنهض بمهمة استشراف آفاق المستقبل، وتقديم المعلومات الموثوقة، في شتى الميادين، وعلى مختلف الصُعد، أصبحت الدول والكيانات والفصائل أكثر جاهزية واستعداداً، لاتخاذ القرارات المناسبة، وتنفيذ السياسات الهادفة إلى تحقيق مراميها، ومخططاتها الخاصة.[1] وقد بات من المسلمات أن الاستخبارات عبر التاريخ، كانت على الدوام، ذات أهمية قصوى لا عند السياسيين وصناع القرار فحسب، بل عند القادة العسكريين، وزعماء الفصائل، والمجموعات المسلحة. وقد أدى استخدامها على نحو فعال الى "إنقاذ ملايين الأرواح".[2]

ولكي نتمكن من استخلاص وتحديد المفاهيم والعقائد الاستخبارية لأي شعب من شعوب العالم، فإنه لا مناص من التوقف ولو على عجالة، عند بعض معالم البيئة الثقافية، والاجتماعية، والعقائدية التي نشأ العمل الاستخباري في كنفها. فالعمل الاستخباري -شأنه في ذلك شأن أي مجهود بشري نوعي- ليس من المسلمات الكونية العامة، بل هو -كما تؤكد خبيرة العلاقات الدولية «أدا بوزمن، Adda Bozeman» - "مشتق من منظومة القيم السائدة في المجتمع، ومن الثقافة العامة التي ينشأ داخلها".[3] ولهذا السبب تحديداً فانه لا يحسن في رأينا أن تجرى أية دراسة عن التراث الاستخباري في آسيا

أو في العالم الإسلامي، على سبيل المثال لا الحصر، من خلال منطلقات ومقاربات أوربية غربية لا تصلح لهذا الغرض.

وهكذا سنسعى في هذه الدراسة إلى الأخذ بعين الاعتبار عوامل شتى كان لها أثر بالغ في تحديد طبيعة العمل الاستخباري وهويته على مر السنين والعصور. ويأتي في مقدمة العوامل التي طبعت العمل الاستخباري في الشرق -الدين الاسلامي الحنيف- والتراث الثقافي، والقيم المجتمعية، والقبلية، ودور الفرد، والعائلة في المجتمع. فالثقافة كما يرى أستاذ الدراسات الأمنية والاستخبارية «فيليب ديفيز، Philip Davies» تؤدي دورًا مهماً في تحديد الإطار الذهني للإستخبارات ومفاهيمها العامة في أي مجتمع.[4] بل إن كثيراً من خبراء الأمن والاستخبارات ومنهم «ألن غودمن و Allan Goodman» و«برووس بركوفيتز Bruce Berkowitz» على صواب عندما يؤكدون على أن الوقوف على أصول الثقافة وسماتها الخاصة لأي مجتمع كان، أي فهم العناصر المتشابكة التي تقوم عليها تلك الثقافة (مثل القيم المشتركة والمعتقدات والممارسات والأفكار الشائعة حول العالم الخارجي وسبل التمييز بين ما هو شأن محلي أو خارجي طارئ... الخ) من شأن كل ذلك أن يكون عوناً لنا عند تحليل المعلومات واستشراف آفاق المستقبل الذي ينتظر ذلك المجتمع والتقرير فيما بعد إن كان ذلك المجتمع سينعم بالاستقرار أم غير ذلك.[5]

عليه فإن فهم الركائز الدينية والعقائدية والوقوف على الموروث الثقافي لأي شعب، يعد شرطاً لازماً، إذا ما أريد تجنب الإحباط والفشل في فهم العقلية التي تقف وراء هذا الحدث أو ذاك من الاحداث أو التطورات أو حتى المفاجآت التي قد تشهدها أية بقعة من بقاع الأرض. ولنا من تجربة غزو العراق عام 2003 م أحد الأمثلة الصارخة في هذا الشأن، حيث سقط آلاف

الضحايا نتيجة جهل الذين أقدموا على مشروع الغزو بديناميكيات المجتمع العراقي وتراثه الثقافي وروافده الفكرية. ومما لا شك فيه فإن هذا الجانب ينطوي على أهمية قصوى في المرحلة الحاضرة، لا سيما إذا استذكرنا على وجه التحديد أن الدين يمثل الركيزة الأساسية للعقائد والمشارب الفكرية في معظم أنحاء العالم، وإنه "لا يرتبط عادة ارتباطاً تاماً بالسياسة، كما هو الحال في الشرق الأوسط".[6]

وما ينصرف إلى الأمم والشعوب الأخرى ينصرف دون شك إلى العالم الإسلامي الذي ورث حضارة شاملة متكاملة متجسدة بتعاليم الدين الإسلامي التي تضم كل ما يحتاجه البشر من حقائق وضوابط وإرشادات تضمن للجميع العيش الآمن في ظل مجتمع منظم متكافل. فالإسلام بكتابه المبين وسيرة نبيه الأمين لم يغفل جانبًا من جوانب الحياة إلا تولاه بالرعاية والتنظيم والإصلاح قال تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾.[7] ويفسر الأوزاعي «تبيان كل شيء» بأنها السنة النبوية الشريفة.[8]

إن الأسس التي ارتكز عليها المفهوم العربي للاستخبارات قديمة، بل سبقت بزوغ فجر الإسلام بأربعة قرون تقريبًا، أي أن بذرتها الأولى كانت في القرن الثاني الميلادي. فالقبائل القحطانية في جنوب الجزيرة العربية، وكما الحال في شمالها ووسطها، كانت تمارس مختلف الأنشطة الاستخبارية من خلال شبكاتها الخاصة من الرقباء السريين والعملاء. وكان هؤلاء الرقباء والمخبرين ينهضون بمهمات ذات شأن كبير، لا أثناء فترات الحروب والأزمات فحسب، بل في أوقات السلم أيضًا. وقد أثبتت الوقائع أن الرسول ﷺ وأصحابه لجأوا إلى استخدام الاستخبارات في المراحل الأولى من الإسلام حين كلفوا من الله تعالى بنشر الدين الجديد بل إنهم أمهروا في استعمالها وأضافوا إليها أبعاداً جديدة، وشذبوا وطوروا ما ورثوه من ممارسات وأفكار

استخبارية عن أسلافهم العرب، وقننوها ووضعوا لها أسساً وقواعد تضبط أداء من كانوا يكلفون بهذه المهمة الحساسة.

وقد انطوت عمليات جمع المعلومات وتوظيف العيون، سواء من أجل نشر الدعوة إلى الدين الجديد أو لأغراض عسكرية محضنة، على أهمية قصوى لأولئك الذين أسهموا في وضع اللبنات الأولى لبناء الدولة الاسلامية. فالأساليب والخطط التي ابتكرها وأتقن أداءها مؤسس الصرح الاسلامي، تشكل بداية التكوين لما نسميه «المفهوم الإسلامي العربي للإستخبارات». ورغم أنه قد يُعتقد لأول وهلة أن هذا المفهوم لا يختلف بأي شكل من الأشكال عن سواه من مفاهيم الاستخبارات الحديثة المألوفة، إلا أن هناك في واقع الحال عدة فروق بين هذه المفاهيم من جهة والمفهوم الاسلامي العربي الذي نحن بصدده. ومرد هذه الفروق أن الأسس التي يقوم عليها المفهوم العربي الاسلامي تختلف اختلافات جذرية عن أسس المفاهيم الاستخبارية الأخرى. وأبرز هذه الفروق أن الثقافة الإسلامية الغنية القائمة على تعاليم القرآن والسنة، توفر مصدراً ثرياً للعمل الاستخباري، الذي لم يتوقف مجتمع الاستخبارات الإسلامي، وعبر أجياله المتتابعة، عن استلهامه والاسترشاد به، ومحاكاته.[9]

من المؤكد أن الدين الإسلامي تخلل الثقافة العربية إلى أبعد الأعماق، حتى بات من الصعب التفريق بين ما هو إسلامي وما هو عربي. فالإسلام يمثل الأساس الروحي والأخلاقي والتشريعي الذي تقوم عليه المجتمعات العربية كافة من ممارسات، وقيم، وعادات، وآمال، وطموحات. بل إن المراحل المتقدمة من تاريخ العرب باتت متسقة ومتداخلة مع الإسلام إلى درجة أن المصطلحين، إسلامي وعربي، أصبحا مترادفين وأن أحدهما بات يدل على الآخر، لاسيما في فترة التوسع الإسلامي خارج الجزيرة العربية، حيث رفعت

رايات المسلمين في بلاد الفرس والروم، وتغلغلت إلى أعماق آسيا وشمالي إفريقيا وما بعدها. وقد تبنت الدول والممالك والإمبراطوريات التي اعتقنت الإسلام اللغة العربية، ليس فقط كوسيلة للتخاطب أو كجسر تواصل مع العالم الخارجي، بل كوسيلة للتفاهم بين أفراد شعوبهم في شتى مجالات الحياة. ولا يقتصر استخدامها على ممارسة شعائر العقيدة الاسلامية. فأثر العربية -لغة القرآن- بات يتضح عاماً بعد عام في العديد من اللغات الآسيوية والأفريقية، بل حتى الأوربية الحديثة والقديمة. وقد تمثل هذا التاثير بأن أصبحت العربية اللغة المعتمدة في العلوم التطبيقية، والنظرية، والفلسفة، والفقه، وفي سائر مجالات البحث العلمي في بقاع العالم الإسلامي كافة. كما أن من الإنصاف القول أن اللغة العربية هي الأخرى استفادت من بعض تلك اللغات الآسيوية والأوربية واستعارت أو أضافت إلى كنوز مفرداتها الشيء الكثير.

وتدور عجلة التاريخ، وتبدأ السطوة العربية الإسلامية بالانحسار إزاء ما يعرف بالنهضة الأوربية، ومن بعدها الثورة الصناعية، ولم يعد العرب والمسلمون على ما كانوا عليه من بأس وسؤدد. وفي القرون التي سبقت الصحوة العربية الحديثة، التي بدأت في القرن الثامن عشر الميلادي لم يكن العرب والمسلمون يشعرون بالزهو، والفخر، بانجازاتهم الفكرية والحضارية التي كانت موضع إعجاب الدنيا قاطبة. ولكن مع أول احتكاك جدي بين الغرب الأوربي والشرق العربي الاسلامي المتمثل بغزو نابليون لمصر، في أواخر القرن الثامن عشر تبين لسكان الشرق أن هناك هوة كبيرة تفصل بينهم وبين الزاحفين الجدد. فقد أدرك كثيرون في المشرق العربي الإسلامي أنهم باتوا متخلفين عن ركب الحضارة الأوربية، وأنه لا يمكن أن تقوم لهم قائمة حتى يستفيقوا ويستعيدوا هويتهم التي اهتزت إبان قرون التخلف. ولن يكون ذلك إلا حين يتملكوا زمام المبادرة، وينفضوا عنهم غبار الكسل والخمول، فان لم

يفعلـوا ذلك فـإن هويتهم الحضارية ســتكون عرضــة للتلـف والاضمحلال.

وهكذا ومـع ولادة الصحـوة العربيـة الحديثة بزغت مـن جديد مسـألة هوية العـرب والمسـلمين، وذلـك كـرد فعل علـى الصحـوة الأوربيـة التي تـم رفض قيمهـا ومبادئهـا. ويتضح هـذا الميل في نشـوء عـدد مـن الحـركات المناهضة للغـرب، حيث كانـت هـذه الحـركات تعـارض كل المحـاولات التـي أقـدم عليها الغربيون لترسـيخ ثقافتهم وقيمهم في الشـرق. فقد كان المسـلمون ينظرون إلى تلك المحـاولات على أنهـا تهدف إلـى إحكام الغـزو الثقافـي للعالم الاسـلامي.[10]

وفـي الشـرق الأوسـط تطـور الموقـف المناهـض للمخططـات الغربية مع الزمن علـى نحو أدى إلى نشـوء فكر أصولي عربي وإسـلامي لاسـيما منـذ نهاية الحرب العالمية الثانية، وإنشـاء دولة اسـرائيل منتصف القرن العشـرين تقريباً. فقـد اخـذت الكثيـر مـن الحـركات الراديكاليـة، والمجموعات شـبه العسـكرية، تدعو وبدرجـات متفاوتـة إلـى اعتمـاد «العنـف»، أو «المقاومـة المسـلحة»، أو «الإرهاب» للوقـوف بوجه المطامـع الغربية فـي المنطقـة، بدءًا بحركـة الإخوان المسـلمين، وتنظيمات الشـباب القومـي، والعديد مـن المنظمات الفلسـطينية، وانتهـاء بالمجموعـات المسـلحة المشـهورة أمثـال حركـة طالبـان، وتنظيـم القاعـدة، ومـا تفرع عنهـا، وتنظيـم ما يسـمى بالدولـة الإسـلامية وغيـر ذلك.[11] ومعظم هـذه الحركات والتنظيمـات، سـواء الراديكالية منها أو غيـر الراديكالية، سـعت ولو بدرجات متفاوتة إلى اسـتلهام أو توظيـف بعض جوانب هـذا الميراث الإسـلامي الغني، لخدمة أغراضها الخاصة عندما دشـنت مشـاريعها السياسـية، أو بـدأت تبني أجهزتهـا العسـكرية والأمنية.

إن أهـم مصـدر للمفاهيـم الاسـتخبارية بالنسـبة لمعظـم المسـلمين، هـو القـرآن الكريـم. حيـث ظـل كمـا هـو لا تؤثـر فيـه التطـورات التـي شـهدتها

العصور، لكونه صالحاً لكل زمان ومكان. فآيات القرآن الكريم تؤكد على وجوب الذود عن ديار المسلمين، والدفاع عن بيضة الإسلام، ودفع العدو. ومن هذه الزاوية -زاوية الدفاع عن الدين والوطن- يمكن القول عموماً إن الإسلام يبيح العمل الاستخباري وفقاً لأحكامه، لاسيما إذا أخذنا في عين الاعتبار الصعوبات والتضحيات والمخاطر التي يواجهها المدافعون عن شرع الله. ويؤكد ذلك قوله تعالى:

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [12]

تشير الآية، حسب ما شرحه المفسر محمد القاسمي، إلى أنه من أجل الدفاع عن الدين، ألزم الله المسلمين بأن يلحقوا بالعدو أكبر قدر ممكن من الضرر. ولا اختلاف في ذلك بين العامل في حقل الاستخبارات وبين أي فرد يعمل للذود عن بلاده ودينه. وعلى ذلك فانه يمكن القول بأنه كلما تعرض العامل في حقل الاستخبارات إلى الأخطار والمحن، كلما اقترب من الجزاء الحسن مقابل ما بذله في سبيل الله.[13] وأكثر تحديداً فإن الآية لها سبب نزول. عن ذلك يقول «ابن كثير»:

"يعاتب تعالى المتخلفين عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، من أهل المدينة ومن حولها من أحياء العرب، ورغبتهم بأنفسهم عن مواساته فيما حصل من المشقة، فإنهم نقصوا أنفسهم من الأجر؛ لأنهم «لا يصيبهم ظمأ» وهو: العطش «ولا نصب» وهو: التعب «ولا مخمصة» وهي: المجاعة «ولا يطئون موطئا يغيظ الكفار» أي: ينزلون منزلاً

يُرهب عدوهم «ولا ينالــون» منه ظفراً وغلبة عليــه إلا كتب الله لهم بهذه الأعمال التي ليســت داخلــة تحت قدرتهــم، وإنما هي ناشــئة عن أفعالهم، أعمــالاً صالحــة وثواباً جزيــلاً ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ".[14]

وفي الوقــت الذي يحوي القــرآن الأساســيات الأخلاقية، والأُطر التشــريعية التــي تنظــم العمــل الاســتخباري، فــإن ســنة الرســول ﷺ تجســد الأمثلــة العمليــة لهــذه الأســس والتشــريعات، التــي يمكــن أن تســتمد منها نظــم العمل الاســتخباري. فالإســلام يلــزم جميــع المســلمين اتبــاع خطــوات الرســول ﷺ والامتنــاع عــن عصيان مــا أمر بــه، لكونه هــو مــن اختــاره الله واصطفــاه ليعلم الأمــة، ويرشــدها الــى ســواء الســبيل، فالرســول ﷺ يعتبــر النبــراس والدليل الــذي ننهج خلفه ما ســن لنــا فــي كل المجالات، بمــا في ذلك ســننه فــي المجال العســكري وفروعــه الأخــرى. ففــي مجمــل الضميــر الإســلامي يعتبــر رســول الله ﷺ القائــد المثالــي والمجاهــد الملهــم، ولــم لا وهو الرســول الذي شــهد له الخصوم، قبل الأصحــاب، واعترفــوا بعبقريته وقيادتــه، وهو في غنــىً عن تزكية البشــر، إلا أنه حتى الآن يشــهد له حتــى غير المؤمنيــن به، فيقــول رئيس مركز الدراســات الدولية في جامعة هارفارد البروفســور «صموئيــل هنتغتون، Samuel Huntington » فــي كتابــه «صــراع الحضــارات» إن «محمــداً كان مقاتــلاً عظيماً وقائــداً عســكرياً محنــكاً».[15] أمــا المــؤرخ العســكري وخبيــر الدراســات الأمنية «ريتشــارد غابريــل، Richard Gabriel» فيقــول فــي كتابــه (محمــد: أول جنــرال عظيم في الإســلام) "إن ذكــرى محمد لا تزال راســخة في عقــول المجاهدين من عصرنا ."[16]

وإلــى جانــب القــرآن والســنة، هنــاك مصــدر ثالــث هــو الفقــه الاســلامي، فمــن خــلال مبــدأ الاجتهــاد الــذي يتــم بــه الســعي إلــى اســتنباط الفــروع من

الأصول، أي استعمال الحُكم الفقهي في اشتقاق واستنتاج الرأي الفقهي في أمر لم يرد ذكره في القرآن أو سنة الرسول ﷺ. ويقوم الاجتهاد على مبدأ واسع القبول في الفقه الإسلامي مفاده أنه مباح للشخص أن يفعل أي شيء لم يرد بخصوصه حظر من الله أو الرسول ﷺ. ولا شك أن هذا الأمر ينصرف أيضاً إلى حقل الاستخبارات والأمن. ففي هذا الحقل تحديداً يوفر الاجتهاد المرونة والحرية المطلوبة لتنفيذ ما يخدم مصالح المسلمين في أي مكان وزمان. ومن جوانب الاجتهاد -كما هو معلوم- التوفيق بين الشريعة الإسلامية من جهة وبين المستجدات العصرية من جهة أخرى، كالاختراعات الجديدة، والتقنيات الحديثه، والابتكارات، والأنماط الحياتية المتغيرة، على أن لا تتنافى تلك المستجدات بأي شكل من الأشكال مع مبادئ الإسلام الواردة في القرآن والسنة النبوية الشريفة.

ومن هنا يتضح الدور المهم الذي يؤديه المفهوم الاستخباري في الإسلام في ضبط وتوجيه العمل السري، والنشاطات الاستخبارية، في الكيانات، أو المنظمات، أو مؤسسات الدول الإسلامية. فالنموذج الإسلامي في مجال العمل الاستخباري يجسد للقائمين على هذه الكيانات والتنظيمات والدول، أنموذجاً ومثالاً حياً تحتذي به أجهزتهم الخاصة وتُقلده. وليس من المبالغة الزعم بأن معظم التنظيمات والحركات السياسية في العالم العربي، وخاصة شبه العسكرية منها، تعمد إلى محاكاة الأنموذج الاستخباري الإسلامي في ممارساتها، وأنشطتها السرية، سواء عند تأسيسها أو في المراحل التي تلي ذلك، مما أنجح بعض ممارساتها كلاعب استخباراتي.

على أن العمل الاستخباري الإسلامي -كما أسلفنا- لم ينشأ من عدم، فالنشاطات الإستخبارية الإسلامية الأولى كانت امتداداً واستمراراً للنشاطات السرية في الجزيرة العربية في فترة ما قبل الإسلام. ففي تلك

الأزمنة المبكـرة، وحيـن كان الولاء لزعيـم القبيلة فوق كل شـيء آنـذاك، كانت القبائـل في العصـور الجاهليـة تنيـط المهـام الاسـتخبارية والأمنية فـي الغالب الأعم لشـباب أصحاء أشـداء يتم اختيارهـم بعناية وحـرص، بهـدف تنفيذ بعض العمليات السـرية ضـد الخصـوم، أو القبائل المنافسـة. ولا يقتصـر عمل هؤلاء الشـباب على زمـن الأزمـات والحـروب بل إنهـم كانـوا يكلفـون بواجبات سـرية حتى فـي زمن السـلم. هـؤلاء الشـباب، كان يطلق عليهم أسـماء محـددة تصف نـوع العمـل المنـوط بهـم مثـل: «العيـن» و«الربيئـة» و«الطليعـة» و«الدليـل» ونحـوه. فالربايـا (جمـع ربيئـة) مثـلاً كانـوا يقومـون بمهـام تشـبه مـا يقـوم بـه هذه الأيـام جهـاز الإنـذار المبكـر، إذ كانـت هذه الزمـرة مكلفـة بمراقبـة أرض الخصـوم عن بعـد، وتقـوم بأعمـال الرصد للهـدف. أمـا الطلائع فكانـوا بمثابة الكشـافة، يستكشـفون أرض المعركـة قبـل انطـلاق غـارة علـى هـدف معين.[17] ورغـم بدائيـة هـذه الوسـائل التي لـم تكـن تطـورت بعـدُ، فإن هـذه النشـاطات الاسـتخبارية والأسـاليب العسـكرية كانت كافية لسـد حاجة المجتمعات القديمة بالمعلومات السـرية المطلوبة. وكانت هذه النشـاطات -رغم بسـاطتها- وبدائيتها تؤلـف مفهومـاً إسـتخبارياً يجسـد الثقافـة السـائدة، والظـروف المحيطـة بهذه المجتمعات، ويمكن أن توصف بأنهـا كانت بواكير المفهوم الاسـتخباري العربي.

الفصل الأول

الاصطلاحات الاستخبارية والسجلات العربية الأولى

1.1 تقديم

يقول الجاحظ في رسالته «كتمان السر وحفظ اللسان»: أن من طبيعة البشر ومنذ أقدم الأزمان "محبة الأخبار والاستخبار".[1] وليس من الصعب على المرء أن يفهم سبب ذلك. فالبقاء على قيد الحياة يتطلب أول ما يتطلب الصراع مع الطبيعة، وتطويعها، والتغلب على كل ما أو من يقف في وجه التطور والنمو. ولن يكون ذلك ممكناً إلا إذا استطاع الفرد أن يحمي نفسه من المخاطر، ويبقى يقظاً طول الوقت، ويواصل استعداداته للتعامل مع ما هو غير متوقع أو منظور. والعرب مثلهم في ذلك مثل شعوب أخرى في الكون، لجأوا منذ أقدم العصور -ولأسباب ليست عصية على الفهم- إلى جمع المعلومات الاستخباراتية وإلى ممارسة مختلف أنشطة التجسس خلال أوقات السلم، وزمن الحرب على حد سواء. بل إن العمل الاستخباري العربي قطع شوطاً بعيداً إلى الحد الذي تم فيه إفراد مصطلحات فنية دقيقة خاصة تصف بدقة وتفصيل عمل المنخرطين في هذا الحقل، وتحدد واجباتهم ومسؤولياتهم، وتثبت المتطلبات البدنية أو المعرفية التي ينبغي توافرها لدى كل صنف منهم.

ولا شك أن العنصر البشري أو ما يطلق عليه «Humint» في علم الاستخبارات يبقى هو العمود الفقري في العمل الاستخباري، مهما تطور العلم والتقنية لإحلاله. وقد أدرك الأوائل أهمية العنصر البشري في العمل

السـري وميزوه وصقلوه وحددوا مهـام كل فرع مـن فروعه، فلا غرابـة أن تعج قواميـس اللغة وكتـب الأدب بمسـميات تصف كل نـوع من ممتهني هـذا الفرع مـن المعرفة.

إن المرادف العربـي لكلمـة «Intelligence» الإنجليزية هي «الاسـتخبارات» أو «المخابـرات»، وكلاهما مشـتق من كلمـة «خبر». ولهـذه الكلمة أو الإسـم اسـتعمالات ودلالات عديدة فـي أكثر من سـياق وعلى أكثر مـن صعيد. ويمكن اسـتعمال هـذه الكلمـة للدلالـة علـى أي مـن الآتـي: «الأخبـار»، «الرواية»، «النصيحة»، «المقولة»، «الرسـالة»، «الشـائعة»، «العلم»، «الجـواب»، «الرد»، «الخبـر»، «التقريـر»، «القصـة». ويمكن اسـتعمالها أيضـاً لتدل علـى «كمية كبيرة مـن الأخبار»، أو «غـزارة في العلـم أو الخِبْـرة». وقد تـدل كلمة «خبر» أيضـاً على الخبـر الأخيـر، أي خبـر الموت وهكـذا يقال علـى سـبيل المثال: مـن يأتنـي بخبـره؟ أي مـن ينبئني بخبـر وفاتـه؟ أمـا اسـم الفاعـل «المُخبِر» وهـو مشـتق مـن «الخبـر» أيضـاً فيعنـي «الشـخص الـذي ينقـل الأخبار» أو «الـذي يتجسـس علـى الآخريـن» لأي سـبب مـن الأسـباب، وإن كان هذا المصطلـح يسـتعمل عـادة للإشـارة إلـى عمـلاء «مصـادر» الدولـة.[2] ويكاد اسـتعمال المصطلح الحديـث الشـائع «المخابـرات» ينحصر هذه الأيـام ليدل علـى «الاسـتخبارات» دون غيرهـا، وإن كان قد اسـتُعمِل في العهديـن الأموي والعباسـي ليـدل علـى «المـراسـلات»، و«الـتـقـاريـر»، و«الـخـطـابـات»، و«الاتـصـالات».[3]وفـي العـالـم العـربـي المـعـاصـر، يـسـتـعمل المـصـطـلـحان «المخابرات» و«الاسـتخبارات» للدلالة على شـيء واحد هو «الاسـتخبارات»، وهـذه الكلمـة تسـتعمل عـادة للدلالـة علـى الاسـتخبارات الخارجيـة، فـي الوقـت الـذي يسـتعمل فيـه مصطلـح المخابـرات للإشـارة إلـى أنواع شـتى مـن الاسـتخبـارات: الداخليـة «المضـادة»، والخارجية «الاسـتراتيجيـة» و«العسـكرية».[4]

1.2: المصطلحات الاستخبارية في التاريخ العربي

تستعمل كلمة «Spy» في اللغة الإنجليزية لتدل على عميل أجنبي، أو محلي، يقوم بالمراقبة، أو التحقيق، أو الانخراط في المراقبة السرية، أو التجسس لمصلحة هذا الفريق أو ذاك. واشتق الإنجليز هذه الكلمة من الفرنسية القديمة «Espy» التي تعني «راقب»، أو «رأى»، أو «لحظ»، أو «تابع». ومن هذه الكلمة أيضاً اشتُق المصطلح الإنجليزي «Espionage» الذي يعني التجسس، سواء أكان هذا التجسس لمصلحة البلد الذي ينتمي إليه الجاسوس، أم لحساب دولة أو جهة أجنبية أو معادية. أما في العربية فثمة تمييز واضح بين المصطلح الذي يستخدم للدلالة على الذين يتجسسون لشعوبهم، أو دولهم، أو مصالحهم، وبين أولئك الذين يتم توظيفهم من قبل الأعداء أو المنافسين، أو الجهات الأجنبية أيا كانت. فكلمة «جاسوس» استعملت أصلاً وعلى نحو شبه حصري للدلالة على الذين يتم تجنيدهم ليكونوا عملاء وجواسيس للمنافسين، أو الخصوم، أو الأعداء الأجانب على وجه العموم. أما على المستوى الشعبي، فقد باتت هذه الكلمة تطلق على الذين يبحثون عن معلومات مشينة، أو مخجلة، أو فاضحة عن الآخرين بهدف القذف، أو التهديد، أو الطعن، أو التزوير، أو الابتزاز، أو لأي غرض آخر غير شريف.[5]

فكلمة «جاسوس» أصبحت إذن مثقلة في مدلولاتها العامة بالمعاني السلبية المعيبة، التي تلقي بظلال غير حميدة على من تطلق عليه. أما كلمة «ناموس» فتطلق عادة -ولو على نحو غير حصري- على كل من بحوزته معرفة خاصة، أو إلمام أو اطلاع على خفايا سلوك الآخرين، وأسرارهم وخباياهم. وبخلاف كلمة «جاسوس» فإن كلمة «ناموس» محملة بالدلالات

الإيجابيـة، التي توحـي بالاطـلاع الواسـع، والعلم الغزيـر، والحكمـة والحنكة والتأنـي. بـل إن هـذه الكلمة باتـت -فـي بعـض جوانبها- تـرد مرادفـة لكلمة «كرامة» أو «شـرف» أو «الضميـر الحي». ويزيـد صاحب «لسـان العرب» إلى ذلك كلـه فيقـول: "إن المصطلح اسـتخدم أيضـاً للدلالة على أعظـم وأصدق مصدر «للأخبـار» و«الاسـتخبار»: الملك جبريل الـذي أرسـله الله تعالى إلى الرسـول محمـد ﷺ، ليحمل إليـه الأوامـر الإلهية والوحـي القرآنـي الكريم".[6]

وللتمييـز بيـن «التجسـس» لغـرض مشـروع أو حميـد، وبين اسـتراق المعلومـات واقتناصها لأغراض سـيئة، فقـد اسـتعمل العرب فعليـن مختلفين همـا «تجسـس» و«تحسـس». ويـكاد اسـتعمال الفعـل «تجسّـسَ» ينحصـر للإشـارة إلى محاولـة الحصول علـى معلومات سـرية أو خفيـة. وبينمـا لم يرد الاسـم «جاسـوس» في أي نـص قرآني، فـإن الفعل «تجسـس» يرد في سـورة الحجرات، حيـث يأمر الله المسـلمين ألا يتجسسـوا علـى بعضهـم بعضاً. في إشـارة إلى النشـاط السـري لأي فرد يمارس التجسـس لحسـاب فرد أو جهة معاديـة، لاسـيما إن كان ذلـك خصماً، أو عـدواً، أو قـوة خارجيـة.[7] وينصرف معنى اسـم «جاسـوس» أيضاً إلى عملية تسـقُّط أو رصد المعلومات الشخصية لأي فرد كان لأغراض نفعيـة أنانيـة، أو مكسب مادي غير مشـروع، أو لأغراض أخرى غير شـريفة. فلفظ «تجسـس» مخصص لأعمال الشـر فقـط، يقول الله تعالى في سـورة الحجـرات عند الإشـارة إلى التجسـس:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ١٢﴾.[8]

وعلى الرغـم من أن الفعلين «تجسّـسَ» و«تحسّـسَ» يلتقيان فـي أكثر من نقطة، لاسـيما فـي ارتباطهمـا المشـترك بعمليات الحصـول علـى المعلومات

بصفة عامة، إلا أن استخدام الفعل «تجسس» يخص أعمال الشر وحده، بينما «تحسس» أعمّ وأشمل، ويكاد ينحصر في الحالات التي يُراد بها الإشارة إلى جمع المعلومات لغرض مشروع، أو بريء أو شريف أو حماية للأمة. وفي هذا السياق يرد الفعل في سورة يوسف،[9] حين طلب يعقوب -عليه السلام- من أولاده أن يبحثوا عن أخيهم يوسف. قال تعالى ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٧﴾.[10] ومن المناسب في هذا المقام، ما دمنا نتكلم عن دقة العرب في اختيار الألفاظ وفي مقصودهم من الكلام أن نذكر ما قاله المفسر ابن كثير في هذا الخصوص:

> (ولا تجسسوا) أي: على بعضكم بعضاً. والتجسس غالباً يطلق في الشر، ومنه الجاسوس. وأما التحسس فيكون غالباً في الخير، كما قال تعالى إخباراً عن يعقوب -عليه السلام- أنه قال: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ﴾ «يوسف: 87» وقد يستعمل كل منهما في الشر، كما ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: "لا تجسسوا، ولا تحسسوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً".[11]

كان الجاسوس عبر تاريخ العرب، -سواء العميل الأجنبي أو العامل المحلي منهم- يُعرف «بالعين». وهنا لابد من الإشارة إلى أن مصطلح «العين» يطابق تماماً الفعل الإنجليزي «Espy» من حيث المعنى والترميز والاستعمال. فكلاهما يشير إلى الرؤية والنظر والملاحظة. وكلمة «العين» التي تداولها العرب طوال القرون الماضية، لا تزال تستعمل على نحو مكثف في حقل الاستخبارات والتحقيقات وفي سياقات مختلفة شتى لاسيما في الإعلام والوسائل المتعددة للاتصال بالجماهير. ويشير مصطلح العين من

بين أمـور أخرى إلـى الرقيـب، أوالمبتعـث، أو الرسـول، أو المراقب السـري، أو جامـع المعلومـات، أو أي فرد يكلف باستكشـاف موضـع أو حالة مـا، أو كل من يعمـل عموماً فـي مجال الاسـتخبار ونقـل المعلومـات. ويشـير المؤرخون العرب وأصحـاب المعاجم أمثـال «محمـد مرتضى الزبيـدي» إلـى أن «العين» -والتي تعنـي أيضاً «الطيـر الجـارح» وبالتالـي «امتـلاك بصر نافـذ»- كانت تطلـق علـى الجواسـيس والمخبريـن لأن معظـم عملهـم يعتمـد علـى مـا يلاحظونـه، لاسـيما بالعيـن.[12]

من المصطلحات العربية الأخرى التي تدل على طبيعة العمل الاستخباري الذي يقوم به العين سواء كان «جاسوساً» أو «عميلاً سرياً» أو «ناقلاً للرسائل» أو «عميل توصيل» أو «مراقباً سرياً» أو «عميلاً مزروعاً» أو «عميل تأثير».. وخلافه، وفقاً للمصطلحات الحديثة، نذكر: «دسيس»[13]، و«دليل»[14]، و«طليعة»[15]، و«ديدبان»[16] ، و«ربيئة»[17]، و«مهرول»[18]، و«حواس»[19]، و«فيج»[20]، و«شيفة»[21]، و«بَغِيَّةُ»[22]، و«خِرّيتُ»[23]، و« مِئَمٌّ»[24]، و«نقْرِس»[25]، و«حَمَك»[26].

فالإسـم «دسـيس» مشـتق مـن كلمـة «دس» التـي قـد تسـتعمل لتدل علـى «التغلغـل» أو «الدخـول خلسـة»، أو «الاختـلاط»، أو «التدخـل» وفي المصطلـح الحديـث تعنـي المصـدر المـزروع فـي منطقـة الهـدف. وعموماً فـإن كلمـة «دسـيس» تعني الشـخص الـذي يرصـد ويراقـب سـراً، أو الذي يدخل أرضاً دون علـم الآخريـن، أو موافقتهم بهـدف الرصد والمراقبـة. وتأتي وصفاً لمن «يبعثـه قومه سـراً ليأتيهـم بالأخبـار.»[27] والعلاقة بين هـذا المفهوم وبين كلمـة «الجاسوسـية» واضحة لا تحتـاج إلى بيـان. يقول الشـاعر العربي في هـذ المعنى:

"لا تسـأما لـي من دسيس عـداوة   أبداً فليس بمسـئمي أن تسـأما"[28]

وتسـتعمل كلمـة «دليـل» عـادة لتـدل علـى «المرشـد»، أو «الكشـاف»

الـذي لـه درايـة بالطـرق المسـلوكة مـن قبـل عامـة النـاس، وتلـك النائيـة الاسـتخدام والأماكـن التـي تمـر بهـا، ويتـم اختيـار «الأدِلَّاء» لا لمعرفتهـم بالأمكنـة فحسـب بـل لدرايتهـم وحسـن اطلاعهـم علـى شـؤون العـرب، ومعرفتهـم بالقبائـل والبطـون، وإلمامهـم بالعديـد مـن الجوانـب المهمـة المتصلـة بالخصومـات، أو العـداوات والحـزازات أو المعاهـدات والمهادنـات والأحـلاف التـي تنشـأ بيـن هـذه القبيلـة أو تلـك. ويعنـي هذا أن الدليـل ينهـض بالكثيـر مـن مهمـات «العيـن»، أو «الجاسـوس»، لكـن الفـرق بينهمـا أن «الدليـل» يتحلـى بمهارات متعـددة، قـد لا تتوفر في سـواه مـن «العيـون والجواسـيس».[29] وهنـا يشّـبه الشـاعر «الدليـل» بأنـه كالنجم الذي يهتـدي بـه، وهو خفـي ولا يبـدو منـه بين النجـوم إلا الشـيء اليسـير فيقول:

"يكـون بهـا دليـل القـوم نجـم كعيـن الكلـب فـي هبـى قبـاع"[30]

أما كلمـة «الطليعـة» وهي مشـتقة من «طلعـة»، فيـراد بها مـن كان «في المقدمة»، وتسـتخدم في العادة بمعنى «فاتـح الطريـق»، أو «المقتحم» أو«قائد الطليعـة»، أو«المستكشـف»، و«المسـتطلع» الـذي يقـوم «بكشـف الخبر»[31] ويأتي بـه، وتكتسـب المهمات التـي ينهض بهـا «الطليعـة» زمن الحـرب أهمية كبيـرة لاسـيما قبل بـدء المعـارك أو حين تتقـدم الوحـدات المسـلحة لتنفيذ مهماتها القتاليـة. وإلى جانب المهـام التي يؤديهـا «العيون» وهي الاستكشـاف والاسـتطلاع، فـإن أفـراد «الطليعـة» يشـتركون فـي كثيـر من الأحيـان في العمليـات القتالية أيضاً ويشـنون هجمـات ذات أهداف محددة إمـا لغرض إرباك العـدو أو مباغتتـه أو صرف نظـره أوالتمويـه عليه كقول الشـاعر:

"يـقـاتـل مـرة ويـعـيـن أخـرى فـفـرت بـالـصـغـار وبـالـهـوان"[32]

وفي رد لشـاعر مـن «بني قريم» علـى أحد شـعراء الصعاليك وهـو «تأبط

شــراً» عندما رصدوا له وقتلــوه، قوله:

"فــزلــتــم تــهــربــون ولــو كــرهــتــم   تــســوقــون الــحــرائــم بــالــنــقــاب
وزال بــأرضــكــم مــنـــا غـــلام   طــلــيــعــة فــتــيــة غــلــب الــرقــاب" [33]

إن تســمية «الطليعــة» لا تــزال حيــة ومتداولة حتى فــي وقتنــا الحاضر، حيــث يشــار إلــى «طليعــة الجيــش» أي «مقدمتــه»، ولم تفقــد هذه التســمية مدلولاتهــا الأصلية الأخــرى التي تعني «الشــخص الــذي يبحث عن الأســرار ويستكشــف» أي «الجاســوس».

وتعتبــر تســمية «الديدبان» مــن المصطلحــات الخاصــة التي تشــير إلى صنف خاص مــن رجــال الاســتخبارات، ونقصــد بهم أولئــك الذين يمارســون مهماتهــم الاســتخبارية لرصد العــدو وطلائعه مــن مكان مســتو ليس بــه علُوّ. ويكثــر اســتخدام «الديدبــان» زمــن الحرب لا ســيما حيــن يتوقــف الجيش أو المجموعــة التــي ينتمــي إليهــا «الديدبــان» لأي غــرض كان، ســواء أكان ذلك للتمويــن، أو ،لتأدية الصــلاة، أو المبيت، أو الاســتراحة، أو قبيل شــن الهجوم حيث تكــون مهمــة «الديدبان» إنذار جيشــه للاســتعداد والاســتجابة الســريعة لأي طــارئ.[34] ويصــف أحد الشــعراء مهــام «الديدبــان» فيقول:

"أقــامــوا الــديــدبــان عــلــى يــفــاع   وقـــالـــوا لا تــنــم لــلــديــدبــان
فــإن أنــســت شــخــصــاً مــن بــعــيــد   فــصــفــق بــالــبــنــان عــلــى الــبــنــان" [35]

وإذا كان العــرب يســتخدمون «الديدبــان» لوصــف العيــون الذيــن يؤدون مهامهم فــي الأراضي المســتوية، فإنهم أفــردوا مصطلحاً خاصــاً لأولئك الذين يكلفون بمهمــات الرصــد والمراقبة مــن الأماكــن العاليــة والتــلال أو الجبال. وتطلق على هؤلاء تســمية «الربيئــة». ولا تختلف المهام المنوطــة بهذا الصنف من العيون عــن تلك التــي يؤديها «الديدبــان» لكــن متطلبات «الربيئــة» تختلف

بعض الشـيء لأنهـا تفتـرض في مـن يتخـذ مـن الأماكـن العاليـة والطبيعة القاسـية موقعاً لعملـه أن يكـون قوي البنيـة، وذا بصـر ثاقب يتمكـن من خلاله التعرف علـى الأهـداف المراقبة وتزويـد مسـئوليه بتفاصيلها.

ومسـمى «الربيئة» كما لا يخفى مشـتق مـن «الربـوة» أو «الرابيـة» التي تعني المـكان العالي. ويسـتعمل هذا المسـمى أيضـاً كناية عن الكشـاف الذي تسـهل عليه مهمتـه إذا راقب من علـو. وكان هذا المصطلح شـائع الاسـتعمال قديماً، حيث ظهر فـي عدد مـن الوثائق العربية القديمة لا سـيما فـي النصوص الشـعرية التي نظمـت قبل الإسـلام. ومن ذلـك أن الشـاعر الجاهلـي الفارس «عـروة بن الورد» أشـار فـي إحـدى قصائده إلـى الربيئـة، وإلى الـدور المهم الـذي كان يؤديه فـي الصحراء العربيـة عندما يقـول في إحـدى قصائده:

"إذا مـا هـبطنا منهلاً في مخوفةٍ بعثنا ربيئاً في المرابي كالجذلِ
يقلبُ في الأرض الفضاء بطرفهِ وهــنَّ مناخـاتٌ ومرجلنـا يغلـي"[36]

ويشـير شـاعر جاهلـي آخـر هـو «أوس بـن حجـر» (530-620) إلـى الظروف الصعبة التـي كان علـى الربيئة تحملهـا والأخطار الكثيـرة التي كان يتعرض لها كي ينهـض بواجباته على نحو سـليم حيـن يصف عاشـقاً خاب أمله وبهـت لونه فيقـول عنه أنـه يترقب مـا حوله وكأنـه ربيئة يتجسـس:

"فأضحـى بقـاراتِ السـتارِ كأنه ربيئـةُ جيـشٍ فهو ظمـآن خائفُ
يقـولُ له الـراءون هـذاكَ راكبٌ يُؤبّنُ شـخصاً فوقَ عليـاءَ واقفُ"[37]

لكـن «امـرئ القيـس» يقـول أن كل مـن يقـوم بمهمـات الربيئـة لا بد أن يكون مثـل الذئب الأجـرد كثيـر الأذى، أي من الأفـراد المعروفين بالشراسـة والفظاظة:

بَـعـثْـنَـا رَبِـيـئـاً قـبـل ذاك مُـخَـمّـلاً كذئب الغَضَا يمشي الضَّرَاء ويَتّقِي

فَظَلَّ كمِثلِ الخشْفِ يَرْفَعُ رَأسَهُ وَسَائِرُهُ مِثلُ التُّرَابِ المُدَقّقِ

ويذكر «الأصفهاني» في كتاب «الأغاني» إحدى رواياته لنهاية أشجع العرب «عنترة بن شداد» عندما قتله ربيئة من طيء في غزوة له مع قومه انهزمت فيها «عبس» وسقط «عنترة» عن فرسه ولم يستطع معاودة ركوبها لكبر سنه فلجأ إلى مغارة، رصده ربيئة وهو يدخلها، فنزل إليه وهاب أن يأسره فعمد إلى قتله رمياً.[38]

وهناك نفر آخر من العيون هم «الفُيُوج» (مفردها فَيْج). تعني كلمة «فيج» «الشخص الذي يمشي سريعاً أو يجري من مكان إلى آخر ويحمل الأخبار من بلد لآخر». ولأن السرعة مهمة جداً في نقل المعلومات الاستخبارية، فقد استخدمت الكلمة لاحقاً عند العرب في وصف طائر الحمام الذي يقوم بنقل الرسائل، حيث قالوا عنها بأنها «برائد الأنباء المخصوصة بفضيلة الإلهام والإيحاء، و فيوج الرسائل المأمونة الإبطاء، والسابقات الهُوج في الاهتداء، والحاملات مُلطّفات الأسرار في أقرب مدة إلى أبعد غاية»[39] وقد استخدم اسم «فيوجيه» الذي يدل على «البريد، وناقلي الرسائل»[40] للإشارة إلى من يعمل من العيون في «نقل الرسائل السرية» سواء الشفوية منها أو المكتوبة، لذا أصبح هذا المصطلح يدل على نحو شبه حصري على تلك الفئة من «العيون» أو «الجواسيس».

وهناك مصطلح عربي آخر قريب في معناه من مصطلح الفيوج وهو «المهرول». ويستدل من معنى المصطلح أن مهمة المهرول هي نقل الرسائل السرية السريعة. ولا يخفى أن المتطلبات البدنية تقتضي أن يكون من ينخرط في هذا الصنف من العمل الاستخباري سريع الجري خفيف الوزن وذا لياقة بدنية عالية يمشي دائماً منفرداً ويتضح ذلك من وصف

الشـاعر له فـي قوله:

"ويـــدل الـفـيـج بـالـزرافـة والأيـــام خـون جـم عـجـائـبـهـا"[41]

واستعمل العرب مصطلح «الشّـيّفَةِ» (الجمع شّيَّفان) المشـتق من الفعل « شُـفْتُ» الذي يدل على «رفع الشـخص لرأسـه كي يرى بوضوح»، أو أن يكون فـي المقدمـة أو في موقـع يرى فيـه على نحـو أفضل مـن الآخريـن. فالارتباط بين «التشـوف لمعرفة الأسـرار» وبيـن «التجسـس» ظاهرة هنـا لا لبس فيها. ويقـول الفرزدق مسـتخدماً هذه الكلمـة في وصفه خيلاً نشـيطة جـداً إذا رأت شـخصاً بعيداً انتبهت إلـى ذلك فصهلت بصـوت عال:

يَـشْـتَـفْـنَ لـلـنـظـر الـبـعـيـد كـأنـمـا ارنـأنـهـا بـبـوائـن الأشْـطَـان[42]

وحيث أن الواجـب الأول «للعيـن» و«الجاسـوس» هو البحـث والحصول علـى معلومـات سـرية، فـإن مصطلـح «بغِيَّـة» (الجمـع بغايـا) الـذي يعنـي «الباحـث»، أو مـن هو فـي مهمة خاصـة، أو مـن يطالب بـأن يعـرف أو يتملك شـيئاً، كان يسـتعمل أحيانـاً ليـدل علـى الذيـن يجمعـون المعلومات سـراً.[43] وباختصـار شـديد فـإن مهمـة «البغية» هـي تحقيـق الهـدف أو الوصـول إلى «المبتغـى» وهـو جمـع المعلومـات. وكثيراً مـا يسـتخدم البغايا فـي المعارك حيث يتقدمـون صفـوف المقاتليـن لكي يقومـوا بمهمـة الرصد والاستكشـاف علـى نحو مـا يقـوم بـه الطلائـع أو الربايـا.[44] قـال «طُفَيل»[45] عـن ذلك:

"فـألـوتْ بـغـاياهـم بـنـا وتـبـاشـرتْ إلى عرضِ جيشٍ غيرَ أن لم يكتبِ"[46]

وقال بهما «النابغة الذبياني» أيضاً:

"فـأوردهـن بـطـن الأتـم شـعـثـاً يـصـن الـمـشـي كـالـحـدإ الـتـؤام

عـلـى إثـر الأدلـة والـبـغـايـا وخـفـق الـنـاجـيـات مـن الـشـام

فـبـاتـوا سـاكـنـيـن وبـات يـسـري يـقـربـهـم لـه لـيـل الـتـمـام"[47]

أمـا «الخَرّيتُ» وهو اسـم لذلك الصنـف مـن الأدلّاء الماهريـن الحاذقين بالدلالـة، فيقال «دليـلٌ خَرّيتُ برّيتٌ»، وهـو الذي يهتدي إلى الطرق والمسـالك غير المسـلوكه من عامة النـاس، لكونهـا خفية أو وعـرة، وله معرفـة بمضايقها ومنافذها.[48] وقـد ورد في الحديـث عن هجرة رسـول الله ﷺ أنه اسـتأجر رجلاً دليـلاً إلـى المدينة، مـن بنـي الديل، وصـف بأنـه كان «هاديـاً خريتـاً».[49] كما وردت كلمـة «خريت» على ألسـنة شـعراء العـرب ومنهـم «رؤبة بـن العجاج»[50] حين قال:

"أرمـي بأيدي العيس إذا هويت   فـي بـلـدة يـعـيا بـهـا الـخـريـت"[51]

كما أطلق على «الدليـل الهادي»[52] «مُئْـمُّ»[53] وأطلقت كلمـة «نقرس» على الدليل الداهية، وقـد قال «المتلمـس» يخاطب «طرفة بـن العبد»:

"مـــروان أن مـطـيـتـي مـعـقـولـة   تـرجـو الـحـبـاء وربـهـا لـم ييأس
آتـيـتـنـي بـصـحـيـفـة مـخـتـومـة   يـخـشـى علي بها حـبـاء الـنـقـرس
ألـق الـصـحـيـفة يا فـرزدق لا تكن   نـكـراء مـثـل صـحـيـفة الـمـتـلـمـس"[54]

أمـا الأدلّاء الذيـن كانوا يمارسـون نشـاطهم فـي الصحارى والقفـار فقد أطلق عليهم نعـت «الحَمَكِ». ويشـار هنا إلى أن هـذه الكلمـة لا تخلو من بعض الدلالات السـلبية، لا سـيما أنها كانت تسـتعمل من بيـن أمور أخرى للإشـارة إلى مـا هـو رديء، أو ضئيـل، أو عديـم الفائـدة. ومـن الكلمات الأخـرى التي اسـتخدمها العرب في هذا السـياق -أي ربط بعـض أنواع التجسـس بالوضاعة والتدنـي- كان العـرب المسـلمون يطلقـون لفظـة «المنافق» للإشـارة بصورة حصرية إلـى «الجاسـوس» الذي يعمـل تحت غطاء الإسـلام حتـى يقوضه من الداخل وذلك من خلال نشـر الشـائعات والأكاذيب والأراجيف وكل ما يسـيء إلـى الإسـلام والمسـلمين. وقـد أورد القـرآن الكريم كلمـة المنافـق في هذا السـياق مرات عديدة.[55]

3.1: التجسس في الوثائق والتدوينات العربية الأولى

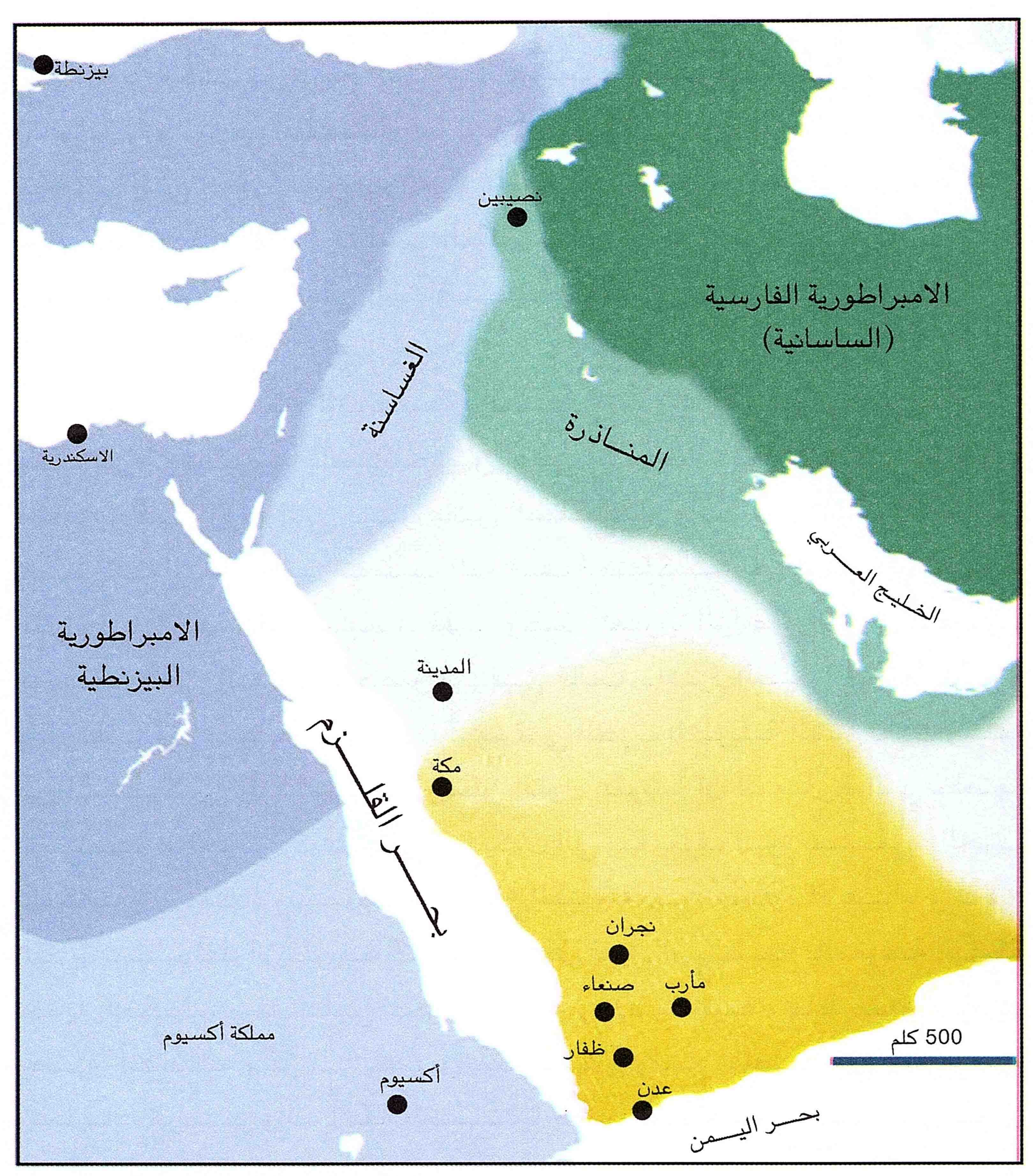
لعل جهلنا بتفاصيل تاريخ الحضارات العربية التي سبقت بزوغ فجر الإسلام في القرن السادس للميلاد، وعدم توفر سجلات تاريخية لهذه الفترة الزمنية يجعل بحث ودراسة ما نحن بصدده بشكل تفصيلي أمراً يشوبه بعض الصعوبة. إن اهتمام الأوربيين حديثاً بدراسة تاريخ ماقبل الإسلام وإنشاء مراكز بحثية لاستكشاف الحضارات التي نشأت في الجزيرة العربية قديماً، ولا سيما تلك التي قامت في شمالها ووسطها وجنوبها، سيكشف لنا جزءاً من جوانب تاريخ هذه الحقبة الزمنية. وبالرغم من ذلك، فإن هناك بعض الإشارات المتناثرة في المصادر القديمة للمؤرخين والجغرافيين اليونانيين والرومان، والحوليات الآشورية، تؤكد أن هذه البقعة من الأرض سكنتها منذ القدم شعوب يربطهم مزيج من اللغة والسمات الثقافية المشتركة ويتحدرون من أصل واحد ويدعون عرب. وهذا المسمى استمر على مر العصور لسكان هذ الرقعة الجغرافية ومنذ القدم.[56]

وقد بينت العديد من النقوش التي عثر عليها حديثاً في أنحاء متفرقة من الجزيرة العربية، أن هؤلاء العرب القدماء الذين عاشوا قروناً قبل الإسلام أسسوا حضارات ذات علم ومعرفة، وفيها تنوعت طرق حياتهم. فمنهم من سكن المدن واشتغل بالتجارة، ومنهم من استقر واشتغل بالزراعة، في حين كان هناك آخرون كثيرو التنقل من البدو الرحل. وقد استوطن بعض منهم شمال الجزيرة العربية على امتداد مناطق شاسعة وأنحاء متفرقة من الهلال الخصيب، وأسسوا دويلة مماليك ذات حكم ذاتي إبان حكم امبراطورية الرومان والبيزنطينيين للشرق الأدنى، الذي امتد لأكثر من 600 عام (من

64 ق.م. إلى فتح المسلمين لها في 635-640 ب. م)، كانت الحرب سجالاً على الحدود بين الامبراطوريتين المتنافستين آنذاك، الفارسية/الإيرانية والرومية/البيزنطية، إبان حكم الساسانيين لبلاد فارس وإطلاق اسم إيران عليها في القرن الرابع للميلاد.[57]

ومع ضعف موقف البيزنطيين في سوريا وشمال بلاد الرافدين خلال منتصف القرن الثاني للميلاد، تمكن المهاجرون الأوائل من الجزيرة العربية من إقامة دولتهم المستقلة (دولة المناذرة) في وادي نهر الفرات في العراق متخذين من مدينة الحيرة الواقعة قرب مدينتي «النجف والكوفة» الحاليتين عاصمة لهم.[58] ونجح عرب الجنوب أيضاً في تأسيس دولة أخرى في شمال الجزيرة هي دولة الغساسنة في سوريا متخذين من بصرى الشام (قرب درعا الحالية) عاصمة لهم. وكان «جفنة بن عمرو» أول ملك لهم في سلسلة طويلة من الملوك، حكموا الركن الشمالي الغربي من الجزيرة العربية.

ولم يكن «البيزنطيون» يرون دولة «الغساسنة» قوة منافسة، بل حليفاً لهم ضد «الفرس» الذين كانوا معهم في حالة حرب مستمرة. وكان «الفرس» من جانبهم يعدوّن دولة «المناذرة» في العراق التي كانت ممتدة على طول حدودهم الغربية والشمالية الغربية بمثابة درع واق أو منطقة عازلة بينهم وبين أعدائهم «البيزنطينيين». ولهذه الأسباب كان «الفرس» يقدمون الدعم «للمناذرة» ويضمنون عدم سقوطهم فريسة سهلة للغزاة الأجانب. أي أن كلا الطرفين المتناحرين أي «البيزنطينيين» و«الفرس» كانا يدافعان عن الدولة العربية المحاذية له، لأن ذلك يحمي مصالحه ويخدم استراتيجيته العامة. ولم يكن «الفرس» أو «البيزنطينيون» يعاملون الدولتين العربيتين على أنهما دولتان مستقلتان كاملتا السيادة بل «مشيختان مواليتان» شبه خاضعتين لهما، تكمن أهميتهما في حماية الصحراء المترامية الممتدة على



خريطة للجزيرة العربية وما حولها في القرن السادس للميلاد.[59]

طول خاصرتي الدولتين المتنافستين، وفق ما يقوله العسكري المخضرم مؤسس الجيش الأردني «Sir John Glubb السير جون غلوب» في كتابه الموسوم «مختصر تاريخ الشعوب العربية» الذي ضمّنه خلاصة دراساته وبحوثه وتجاربه في المنطقة العربية.[60] فقد كان ملوك الغساسنة والمناذرة يتوددون إلى أباطرة الروم والفرس، ويسعون لكسب رضاهم للحفاظ على عروشهم. وهذا يعنى أن دولتي الغساسنة والمناذرة لم تكونا سوى امتداد لنفوذ القوتين العظميين المتنافستين آنذاك.[61]

ولما كانت مملكتا الغساسنة والمناذرة تدوران في فلكي امبراطوريتي «الفرس» و«الروم» المتناطحتين على الدوام، فقد ارتدت خلافات «الفرس» و«الروم» إلى ديار هاتين المملكتين، وأدّت مع تقادم الزمن إلى تعمق الخلافات، وإلى تصلب المواقف المتعاكسة، وبالتالي إلى نشوب المواجهات المسلحة بينهما. فقد وجد العرب الزاحفون من الجنوب أنفسهم على الدوام منحصرين في قلب دائرة الصراع «الفارسي» «الروماني»، ومحشورين رغماً عنهم في الحرب الطويلة التي دارت رحاها بين المعسكرين المتنافسين. ويمكن القول عموماً أن المعارك التي خاضها الغساسنة والمناذرة كانت أقرب ما يكون إلى ما يعرف اليوم بمسمى «الحرب بالوكالة»[62]. وهكذا وبسبب الأوضاع المتأزمة بين الأخوة الأعداء واندلاع الحرب بينهم لفترات طويلة كان لا بد لكل فريق أن يتسلح بالمعرفة الدقيقة لخبايا الخصم، ويقف على حجم أسلحته وعدد مقاتليه ونقاط ضعفه وقوته وطرق إمداداته وكل ما يتصل بتحركاته ونواياه. ولذلك فإن التجسس وعمليات الرصد والمراقبة المستمرة كانت قائمة على قدم وساق طوال فترات النزاع المستفحل بينهما.

وعلى الرغم من أن العلاقات العسكرية بين «الفرس» و«المناذرة» من

جهة وبين «الروم» وجيرانهم «الغساسنة» من جهة أخرى كانت وثيقة جداً، فليس هناك في الوثائق والمدونات التاريخية ما يشير إلى وجود تعاون أمني أو استخباري يذكر بين الامبراطوريتين الراعيتين وحليفتيهما في الحيرة وبصرى الشام. بيد أن هناك الكثير من الإشارات والمخطوطات التاريخية التي توثق الأنشطة التجسسية التي كانت تدور في أراضي المناذرة والغساسنة.

ومن أقدم الإشارات إلى الأعمال التجسسية ما هو مثبت في كتاب «الأغاني» الذي جمعه وصنفه «أبو الفرج الأصفهاني» (284هـ/897م 14- 356 هـ/ 967) الذي أشار في بعض صفحاته إلى واجبات «العيون» والمكلفين بالعمل السري قائلاً: إن أهم عمل يقوم به العين، أو العميل السري، هو توفير الحماية الشخصية للملوك وعلية القوم وأسرهم.[63] ويذكر «الأصفهاني» في هذا السياق حادثة مهمة تمكن فيها أحد عيون «المناذرة» من إنقاذ حياة «النعمان بن المنذر» (582-610)[64] الذي يعّد أشهر ملوك دولة المناذرة. يقول «الأصفهاني» أن أحد العيون أبلغ سيده أن هناك من يتربص بملك المناذرة لقتله، وأشار هذا العين على «النعمان» أن يلتزم الحذر ويبعث برجاله للإمساك بالعميل الذي دخل أرض المناذرة خلسة. وبفضل هذه المعلومة الاستخبارية المهمة، أمر «النعمان» رجاله في الحال بالبحث عن الرجل وتعقبه. وبالفعل تم الإمساك به وهو يعد العدة لبلوغ مرامه. وقد قضى رجال النعمان عليه قبل أن يتمكن من تنفيذ مخططه.[65]

ومما يذكر في هذا السياق ما يورده «الأصفهاني» حول الملك «الحارث بن مارية الغساني الجفني» الذي كان لديه نديم يدعى «زهير بن جناب الكلبي». وكان الملك يجالس «زهيراً» هذا ويستأنس برفقته، حتى وفد إلى بلاط الملك شخصان من «بني نهد» هما «حزن» و «سهل» ابنا «رازح»، وكان

لهما نصيب وافر من الأدب العربي، وأيام العرب وتاريخهم. فاستحسنهما الملك وابقاهما لديه يجالسانه، فغار منهما «زهير» لأخذهما موضعه عند الملك، فدبر لهما مكيدة للتخلص منهما، واتهمهما بأنهما من عيون «ذي القرنين» ويعني بذلك «المنذر الأكبر» جد «النعمان بن المنذر»، وأنهما قدما للتجسس على الملك وكانا طوال الوقت يكاتبان «النعمان» ويبلغانه بما يحصلان عليه من معلومات. فلم يسمع الحارث منه في باديء الأمر حتى أوغر بذلك صدره، فبعث لهما ناقة وركباها مردفين ثم قتلهما، وتبين للملك بعد ذلك بطلان كلام زهير، فعاقبه بطرده إلى بلاده، ثم قدم «رازح» أبو الغلامين إلى الملك، وكان ذا علم وحضور، فأكرمه ودفع له ديتهما. وعندما علم «زهير» بذلك دعى ابنا له وطلب منه الذهاب إلى الملك، وبيّن له أن عليه ذم والده عند الملك للتقرب منه. وعندما وصل ابنه إلى بلاد الشام تلطف حتى دخل إلى الملك، وكان فصيحاً فأعجب به، وعندما سأله عن اسمه قال «عامر بن زهير بن جناب»، فغضب منه الملك ونعت أباه بالغادر الكذوب، فرد عليه «عمير» موافقاً الملك على ما قال في أبيه، ثم كشف عن ظهره وبه أثار ضرب، وقال انظر ما فعل بي، فقنع به وقبله في ندمائه. وأثناء الحديث معه ذات يوم قال «عمير» للملك والله لقد نصحك والدي ولكن لم تأخذ بمشورته، وتركه أياماً ثم عاد إليه وقال أيها الملك ما رأيك بحية قطع ذيلها وبقي رأسها؟ قال ذلك أبوك وما فعله بالغلامين. قال لا والله إنه «رازح» الذي يعتزم الثأر لهما. قال وما دليلك على ذلك؟ قال اسقه خمراً ثم ابعث معه عيناً يأتيك بما يجول بخاطره. ففعل ذلك الملك ولما انتشى أخذته بنت له إلى مكانه، وبعث الملك عليه عيوناً ترصده. وعند دخوله إلى مكانه سندته ابنته، فقال:

دعيني سنادك إن حزناً	وسهلاً ليس بعدهما رقود
ألا تسليني عن شبلي ماذا	أصابهما إذا اهترش الأسود
فإني لوثأرت المرء حزناً	وسهلاً قد بدا لك ما أريد

وعـادت العيون إلـى الملك وأبلغـوه بما قـال النهـدي «رازح»، فأمـر بقتله وأعاد «زهيـراً» إلـى منادمته.[66]

وتشـير الوثائق والمدونـات العربية القديمـة إلى أن القحطانييـن في جنوب الجزيـرة العربية سـبقوا العـرب جميعاً فـي اسـتخدامهم للعمل الاسـتخباري وتطويره. وقـد وردت فـي بعض النصـوص المنقوشـة فـي القـرن الثاني قبل الميلاد إشـارات واضحـة إلى هذا النشـاط الـذي كان، رغم أسـاليبه وخططه البدائية، منظمـاً ودقيقاً في توصيف العمـل وتحديد الوسـائل والأهداف. وبينت إحـدى الدراسـات الحديثة التـي تناولـت النقـوش العربيـة القديمـة أن هناك نسـبة كبيرة مـن الجيـوش القحطانيـة كانـت مكلفة بمهمـات محـددة لها صلة وثيقة بالاسـتخبارات. ويوضح المستشـرق البريطانـي «Alfred Beeston، ألفرِد بيسـتن» الذي كـرس معظـم مؤلفاته لدراسـة أحـوال اليمـن، وتاريـخ جنوب الجزيـرة العربية، أن عشـرة بالمائة مـن المقاتلين كانـوا مكلفين بهـذه المهمات الاسـتخبارية، التي شـملت الاسـتطلاع، والاستكشـاف، والتعقب، والمناوشة. ويشـير «بيسـتن» في كتابـه الموسـوم «الحـروب في جنـوب الجزيـرة العربية القديمـة» أن القحطانييـن أضافوا إلـى تنظيماتهم الاسـتخبارية بعـض البدو، والمرتزقة، لتنفيذ مهمات تجسسـية، علـى الرغم من أن الزعامـات القحطانية أو الذين كانوا يديرون مهمـات البدو والمرتزقة لـم يكونوا يثقون تمامـاً بالمعلومات التـي تصلهم عن هـذه المصـادر إلا بعـد تمحيص وتدقيـق شـديدين، ذلك أن هـذا النفر مـن المخبريـن كان موضع شـك وريبة على الـدوام.[67]

وبخـلاف أهـل مكـة والمدينـة الذيـن كانـوا يمارسـون أعمـال التجـارة، ويكسـبون قـوت يومهـم مـن الحـرف اليدويـة، والأعمـال الحـرة، والزراعـة، ونحوهـا، فإن معظـم سـكان الجزيـرة العربية كانـوا بـدوا رُحّـلاً، يتنقلون من

مكان إلى آخر بحثاً عــن الماء والــكلأ. وكانت الأعــراف العشــائرية العامة التي تحكم العلاقــات الاجتماعية بين هــؤلاء البدو تقــوم على مبدأ الــولاء التام لقائد القبيلــة أو العشــيرة. وهكذا عاش هــؤلاء البــدو، الذين كانــوا يمتهنــون تربية الجمــال والأغنام والماعــز، حياة «شــبه منعزلــة عن بقيــة العالــم.... وفي حالة من الاحتــراب الدائــم».[68] وقد أنتجــت تلك الحيــاة البدويــة القاســية والطبيعة الصحراويــة التي لا ترحم ثقافــة خاصة، تســتجيب لمتطلبات البيئــة وظروفها، وخلقت من البدوي إنســانًا غليظًا شــديد القســوة علــى وفق المقولــة المعروفة عن «ابــن خلدون» وذلــك بســبب صراعه الدائــم مع محيطه الخشــن، وســعيه لتأميــن لقمة العيش لنفســه.

وفي إطــار التنافس علــى البقاء والســيطرة كانــت القبائل الأقــوى كثيراً ما تلجــأ إلى الإغــارة وشــنّ الغــزوات علــى ســواها مــن القبائل الأخــرى كي تظفر بمــا يســد احتياجاتها من المــاء والطعام والــكلأ. ولم تكن هــذه الغزوات ســوى لون من ألــوان اللصوصية أو الســطو المســلح علــى أمــلاك الغير بكل المقاييــس المدنيــة والاخلاقيــة والدينيــة، لكن هــذه الغــزوات باتت منــذ أقدم الأزمان أســلوباً متبعاً لتأميــن متطلبــات الحيــاة الصحراوية، بــل أصبحت من المســلمات التي كانــت تســتدعيها الظــروف الاقتصاديــة والاجتماعيــة لتلك الحيــاة الصحراويــة القاســية، بحيــث باتــت جــزءاً عضويــاً يكمن فــي صميم الدســتور البــدوي، ويرتبــط بعصــب الهيــكل الاقتصــادي للمجتمــع البدوي الرعوي. وهكذا ترســخت نزعة مســتحكمة يطلق عليها عالم الاجتمــاع الدكتور علــي الوردي مســمى نزعــة «التغالــب» في ثنايــا عقــول البــدو وضمائرهم إلى الحد الــذي كان الغزو لديهم يعــد من أبرز خصــال الرجولة والشــجاعة ومدعاة للفخر والزهــو. ولم يتورع البــدو من الإغارة علــى جيرانهم، أو حتــى على أبناء عمومتهــم إن اقتضــى الحال، فثقافــة الصحراء التي نشــأت في ظــل الاحتراب الدائــم، والتنافس الشــديد على المــوارد الطبيعية الشــحيحة كانــت تبيح هذا

المنحى، ولا تجـد في ذلك أي حـرج أو عائق أخلاقي أو اجتماعـي.[69] وللحصول علـى المغانم فقـد كان بعض أصحـاب الغـارات يمعنون فـي الغـارة، فيبتعدون عن منازلهـم. ويعدّون «بُعـد الغارة» نوعـاً من أنواع الشـجاعة والفروسـية، لما تكتنـف المغير مـن أخطـار ومهالك.[70]

ومن أهم أسـباب الغـارات التـي كانـت القبائل القوية تشـنها علـى القبائل الأضعف هـو التنافس علـى موارد المـاء، ومنابـت الـكلأ، والاسـتئثار بهما، وسـلب العـدو، ونهب ما يسـتطاع منـه بقوة السـلاح. ومـا إن تتغيـر الظروف والأحوال أو يشـتد سـاعد القبيلـة الأضعـف حتى تراها سـاعية لأخـذ الثأر، ورد الاعتبار لنفسـها عـن طريق المقابلـة بالمثـل، والإغارة على من سـبق أن اعتُـدى عليهـا. وهكذا فقد كانـت حياة البـدو تدور فـي دوامة أبدية هـي دوامة الانتقام والأخـذ بالثـار.[71] وإذا توخينـا الدقة في الحديـث فإنه لا يمكـن اعتبار هـذه المواجهـات المسـلحة رغم طـول أمدها بأنهـا حـروب حقيقية، بـل كانت أقرب إلـى المداهمات أو الهجمـات التي قد يتـراوح عدد المسـاهمين في أغلبها بين العشـرين والمئة.[72]

وإلى جانب هذه الصدامـات القبيلة، كانـت الغارات تكثر أيضـاً على قوافل التجـارة والحجـاج والمسـافرين، حيـث كان المتربصـون ينقضّـون عليهم في الصحاري القفـار خارج المدن. وشـاعت هـذه الهجمـات كثيراً حتـى أن لفظة عربيـة جديـدة هـي «الصعلـوك»، أخـذت تُطلق علـى الذي يشـترك فـي مثل هـذه «الغارات» التي أسـهم فيهـا العديد مـن الشـعراء الكبار أيضاً مـن أمثال «عروة بن الـورد»، و «الشـنفرى» صاحب لامية العـرب، و «عمرو بـن براقة»، و «ثابـت بـن جابر القيسـي» الـذي اشـتهر بمسـمى «تأبط شـراً». وقـد قتل الأخيـر في إحـدى الغزوات التي شـارك فيهـا. علـى أن الغزوات التـي انخرط فيها هذا الرهـط من الشـعراء، ولم تكـن كلها لأغـراض السـلب أو النهب، أو

الأخـذ بالثار، بـل كانت فـي جانب منهـا لإعانـة الفقـراء والمعوزيـن. وكثيراً مـا كان هؤلاء يتفاخـرون في أشـعارهم بمغامراتهم هذه التي شـهدت اسـتعمال «الكشـافة والجواسيس».[73]

وعلى الرغـم مـن أن الهجمات المسـلحة فـي الجزيـرة العربيـة القديمة لم تكـن حروباً شـاملة، بل غـارات مفاجئـة، وكمائن، وكـرّ وفرّ، فإن الاستكشـاف وجمع الاسـتخبارات كان جـزءاً لا يتجـزأ من هـذه الاشـتباكات والمواجهات. ومن هنا يكتسـب العمـل الاسـتخباري المحـدد الذي ينهـض بـه «الربيئة» أو سـواه أهمية بالغة فـي هـذه العمليـات القتالية. فقبـل انطلاق أي هجـوم، كانت القبيلـة أو الزمـرة المهاجمـة تسـتدعي ربيئـة أو أكثـر لاسـتطلاع المنطقـة والاسـتعلام عن أية أحداث غيـر معتادة أو تحـركات غير معهـودة وذلك للتثبت من أن العدو ليس لديه علـم بالنوايا المبيتة ضده. وأخشـى مـا كان المهاجمون يخشـونه هو أن تكتشـفهم القبائل المعادية، وحينذاك يخسـروا عنصر المباغتة الذي يعد عاملاً حاسـماً في عمليات الانقضـاض. وكان «الكشـافة» أو «الربيئة» إذا مـا وقع في الأسـر يتعرض لعقـاب أليم على يد مـن يقبضون عليـه. لا غرابة إذاً أن نجـد الشـاعر «أوس بن الحجـر» يصف الربيئـة بأنه « يعيـش في خوف دائـم وعطش لا ينتهـي. بل إنهم من شـدة خوفهم مـن انبلاج النـور، إذا ظهرت الشـمس، تجدهم يتجهون صوبـاً آخر.»[74]

ويزخـر التاريخ الأدبـي لجزيـرة العرب بذكـر الوقائـع والحـروب العديدة التي اندلعت بيـن مختلف القبائـل التي كانت تتفاخر بشـجاعة أبنائهـا، وتتغنى بإنجازاتهـا القتاليـة في قصائد طويلـة نُقلت من جيـل إلى جيـل. وكانت قصائد الفخر والحماسـة هـذه تلقى فـي مناسـبات واحتفالات عامـة تقام فـي العادة مع ولائم خاصة وفي أيـام أسـواقهم. وكان الشـعراء والتجار والصنـاع حريصين على حضـور هـذه المناسـبات الدوريـة لأنها توفـر للحاضريـن مـن كل قبيلة

فرصة سانحة للتفاخر، والتناشد، والتغني بأمجاد الحاضر والماضي، سواء أكانت هذه الأمجاد حقائق واقعة، أم ماثلة فقط في أذهان قائليها. ويعتبر سوق عكاظ [75] الأهم بين هذه الأسواق الموسمية من حيث عدد الحضور، وتنوع الفعاليات. ومما زاد في شهرة هذه السوق حدة السجالات الشعرية المستديمة بين الشاعرين المتنافسين جرير والفرزدق. ولا تزال قصائد هذين الشاعرين -وهما من فحول الشعراء العرب- تلقى رواجاً عظيماً بين قراء اليوم الذين تستطيب ذائقتهم الشعرية خيالهما الخصب، واستهانتهما بالصعاب، وروح التهكم والسخرية الجارحة التي طبعت معظم أشعارهما.[76] وعلى أية حال فقد وردت في القصائد -التي كانت تلقى في الأسواق سابقة الذكر- إشارات واضحة إلى وجود استخدام واسع النطاق «للعميل السري» و«الجاسوس» و«الربيئة».

ومن بين الحروب التي خلدتها هذه المباريات الأدبية الحماسية، «حرب داحس والغبراء» التي وقعت بين قبيلتي «عبس وذبيان» بسبب الاختلاف حول نتيجة سباق كان جرى بين مُهرين لهما. «فداحس والغبراء» انتهى بهما السباق دون أن تحرز أي من الفرسين قصب السبق فيه، إذا أنهما وصلا خط النهاية ولا يكاد يفصل بينهما شيء. وقد زعمت كل قبيلة من القبيلتين فوز فرسها. واحتدم الخلاف بين القبيلتين فلجأت كل منهما إلى السلاح لتسوية الأمر. وقد قتل في المواجهة الأولى «زعيم غطفان»، فأثار موته معارك ثأرية بين القبيلتين طالت كثيراً من النفوس. ودامت المواجهات المسلحة سنوات طوالاً حتى باتت تعرف عند العرب «بأيام مضر».[77]

ولضمان النصر على الخصم، كانت كل قبيلة تلجأ إلى استخدام «التجسس» وفنونه. فإلى جانب «العيون» المتخصصة، كان أفراد القبيلة يستعينون أحياناً بالمخبرين المؤقتين. ومن ذلك أن العرب في «أيام ربيعة»،

التي تعرف باسم «حرب البسوس» (494-534) التي وقعت بين قبيلتي «تغلب» و«بكر»، كانوا يجندون من يقوم بجمع الأخبار لهم. وعن ذلك يقول «الأصفهاني» في معجمه الضخم أن كل قبيلة كانت تجهد حتى تعثر وتكشف الجواسيس المندسين وسطها. ويذكر كذلك كيف أن عيوناً من «بكر بن وائل» تمكنوا من اختراق صفوف «كعب بن ربيعة» أثناء «حرب فلج».[78]

وكانت القبائل المتطاحنة في ذلك الحين تستخدم ما يمكن تسميته اليوم بنظام «إنذار مبكر». ومن البديهي أن يكون ذاك النظام بدائياً جداً بالمقاييس المعاصرة، لكنه كان فعالاً ومستوفياً لمتطلباتهم الأمنية آنذاك. فقد كانت القبائل تستعين بأساليب مختلفة للتواصل فيما بينها، ولإرسال إشارات التحذير أيام الحروب أو الأزمات والغارات. ومن الطرائق المألوفة للاتصال السريع في تلك الأيام أنهم لجأوا إلى إشعال سلاسل من النيران ليلاً كوسيلة للاتصال أثناء الأزمات والطوارئ، أما في النهار فكانوا يستخدمون الدخان وأصوات الطبول لبعث رسائل عاجلة، أو توجيه تحذيرات محددة، أو كإشارة لطلب النجدة، أو لإرشاد التائهين، وتحديد المواقع في الصحارى والبراري. ولأن الطبول كانت تطرق أسماع الجميع من الأصدقاء والأعداء، ولأن إشارات الدخان يراها كل ذي بصر، فإنه كان لابد من تشفير الإشارات المرسلة عبرهما، وعلى نحو لا يفهمه إلا المرسِل والمرسَل إليه حصراً. وحتى يتم ذلك، كان لابد من تحديد معنى خاص لكل إشارة مسبقاً يفك تشفيرها كل من المرسل والمتلقي للعمل بموجبها.

ومن الأمثلة المبكرة على استخدام هذا النوع من الاتصالات ما ذكره «ابن كثير» (1160-1241)، في وصفه لحرب خزار (سنة 450) حيث أرسل فيها زعيم «قبيلة معاد» «سلمة بن خالد» أحد العيون لاستطلاع تحركات واستعدادات خصومه من «قبيلة مدهج»، الذين كانوا يتقدمون نحو معاقله. وقد أمر ذلك «العين» بأن يشعل نيراناً في موقعين مختلفين عندما

يصل الأعداء إلى مكان يسمى «مدهج» لتحديد وقت وصولهم لذلك الموقع. وبهذه الطريقة تمكن «سلمة بن خالد» أن يحبط مخطط خصومه، ويفسد عنصر المباغتة التي كانت غارة الخصوم تعتمد عليها. فحين وصل رجال مدهج المكان المستهدف وجدوا رجال «سلمة بن خالد» فيه، وفوجئوا بأن عدوهم كان مستعدًا وجاهزًا لصد هجومهم الذي تكلل بالفشل الذريع.[79] ويشير «ابن كثير» أيضاً إلى أن الزعيمين «ضالع بن عبد غنام» و «سدوس شيبان» أرسلا في «حرب بردان» عيوناً لهما ليتجسسوا على جيش خصمهما «زياد بن الحبولة»، بهدف التعرف على مدى جاهزية رجاله لخوض الحرب.[80]

وتزخر أيام العرب بأمثلة وفيرة ومتنوعة من هذا الأسلوب في التجسس، ومن ذلك نذكر أن «عمير بن حباب السلمي» أغار في «يوم الغوير» على «كلب»، بعد أن أرسل عيناً له من «بني نمير» اسمه «كليب بن سلمة»، ليعرف مكان ابن بحدل، والتقى الجمعان، وقتل من «كلب» عدد ليس بقليل، وأفلت منهم «حميد بن بحدل». وفي «يوم دهمان» أغار «عمير بن عمير» على قوم «ابن بحدل»، فقتل الرجال، وساق الغنائم، وسبى النساء، وعندما علم «ابن بحدل» بذلك قرر أن يتعرض له، وأن يخرجه من الجزيرة العربية هو ومن معه، فخرج في إثره حتى اقترب منه، ثم بعث عيناً له تتبع أثره، فعاد إليه مبلغاً بأن «عميراً» قد أغار على «دهمان»، وقتل فيهم، وغنمهم، ثم مركز عسكره، وخرج إلى قوم آخرين قد سمع بهم، فقرر «حميد» مداهمتهم عند مبيتهم. وهجم عليهم في مبيتهم فقتل منهم الكثير، وعندما عاد «عمير» إلى عسكره رأى قومه صرعى، فحمل عليه «ابن بحدل»، والتحما حتى قتل من الفريقين أعداد كثيرة.[81]

وكما تقدم من إيضاح الدور الفعال الذي لعبته «العيون والطلائع» في تحقيق الانتصارات خلال الأيام المشهودة في حروب ما يسمى بأيام العرب،

ومنها تلك المعارك التي نشبت مع جيوش الإمبراطورية الفارسية آنذاك،[82] ولاسيما حرب «يوم ذي قار»، والذي سجل فيها العرب انتصارًا مؤزرًا على جيش كسرى وألحقوا بهم شر هزيمة، وذلك قبل ظهور الإسلام وفتح المسلمين «بلاد فارس».

وقد سطر فيها العين «لقيط بن يعمر الإيادي»[83] مدى تفانيه ومخاطرته بحياته في سبيل حماية قبائل العرب. فبالرغم من اختلاف المصادر التاريخية في أسباب وزمن نشوب نزاع معركة ذي قار،[84] فإن ما يهمنا هو كيف تمكن ذلك الشاعر من اختراق ديوان كسرى والعمل فيه، دون أن يثير الشك والريبة، ويبدو أنه لم يتهيأ له ذلك بمجرد صدفة أو حظ؛ بل كان نتيجة تخطيط دقيق وظّف فيه مهاراته بإجادته القراءة والكتابة للفارسية، كغطاء عميق للتجسس. لقد مارس أعمال الكتابة والترجمة في ديوان كسرى حتى أصبح في مقدمة تراجمته، ومن المطلعين على اسراره،[85] مما مكنه من التغلغل في أروقة الديوان ورصد ما يحاك ضد أبناء عشيرته، بعد أنْ كثرت المناوشات والغارات بينهم وبين فارس، ومن ذلك أن العرب "أغاروا على أموالٍ لـ«أنو شروان» فغنموها، فجهز إليهم الجيوش، فهزمهم العرب مرةً بعد مرة"[86]، رغم ما كانت تتمتع به «فارس» من عنفوان مجدها، وأوج قوتها، وسيطرتها على أرض العراق.

ويبدو أن الشاعر «لقيط الإيادي» استطاع أن يتعرف على دوائر صناعة القرار من خلال طبيعة عمله بالديوان الفارسي، فأصبح على علم بخطط جيش كسرى [87]، واستعداداته للهجوم على القبائل العربية المتاخمة لبلاده، وخاصة قبيلة بني إياد [88]، فكان يبعث لهم تقاريره في قصائد سرية مكتوبة توضح نوايا وتحركات الفرس ضدهم. فقصيدته الدالية التي لم تتجاوز أربعة أبيات، والتي كان قد بعثها لقومه، لينذرهم عن خطورة الموقف مع

جيش فارس ومبيناً بها تعداد جيش كسرى الغازي، ودوافعه وأهدافه، لعلها تنافس في الإيجاز وشمول المعلومات، ما تتصف به أدق «تقارير الموقف الاستخباري»، حين يقول فيها:

"سلام في الصحيفة من لقيط
إلى من بالجزيرة من إياد

بأن الليث كسرى قد أتاكم
فلا يشغُلْكُمو سوق النّقاد

أتاكم منهمو ستون ألفاً
يزجّون الكتائب كالجَراد

على حنق أتينكمو فهذا
أوان هلاككم كهلاك عاد"[89]

لم تكن تلك القصيدة الدالية هي الوحيدة التي أوردتها المصادر التراثية القديمة لهذا الشاعر، بل للشاعر قصيدة عينية خاطب فيها عشيرته «بني إياد» عامة وسادتهم خاصة، محذرهم فيها من وشك وقوع هجوم فارسي يستأصلهم عن بكرة أبيهم.ولم يكتف «لقيط» -عين بني إياد وشاعرهم- بإنذار قبيلته وبيان تعداد العدو وعدته، بل أخذ يسدي لهم والنصائح مبيناً كيف تتم هزيمة العدو، فوظف درايته بأمور القيادة والزعامة، -كونه من سادتهم- للدعوة بالتسلح الجيد بالجياد والسيوف والنبال والنشب، وأوصى بالتأهب مع إذكاء العيون؛ لرصد قدوم العدو وتحركاته، فلربما وقعوا على مكمن خلل يُمكّنهم من إلحاق الهزيمة بالفرس، ومن أبياته في ذلك:

بل أيُّها الراكبُ المزجِي على عَجَلٍ
نحو الجزيرةِ مُرتاداً وَمُنْتَجِعَا

أبْلغْ إياداً، وخلّلْ في سُراتِهِمُو
إني أرى الرأْيَ إن لَّمْ أُعصَ قد نصَعَا

ألا تـخـافـون قـومـاً لا أبـا لَـكُـمُـو
أمْـسَـوْا إلـيكُـمْ كَـأَمْـثـالِ الـدّبـا سُـرُعـا
أَبْـنـاءَ قـومٍ تـأووكـمْ عـلـى حَـنَـقٍ
لا يـشـعـرونَ أضـرَّ الـلـه أم نَـفَـعـا
فـهـمْ سـراعٌ إلـيـكُـمْ، بـيْـنَ ملـتـقـطٍ
شَـوْكـاً وآخـرَ يجـني الـصـابَ والـسّـلعـا
فـي كـل يـومٍ يـسـنّـون الـحـرابَ لَـكُـم
لا يـهْـجَـعُـونَ، إذا مـا غـافـلٌ هَـجَـعَـا
لا الـحـرثُ يشـغَـلُـهم بـل لا يـرون لـهم
مـن دون بـيضـتِـكـم رِيّـاً ولا شِـبَـعـا
مـالـي أراكـمْ نِـيـامـاً فـي بُـلَـهْـنـيـةٍ
وقـد تـرونَ شِـهـابَ الـحـربِ قَـدْ سَـطَـعَـا
صـونـوا جـيـادَكُـمُـو واجـلـوا سيوفكمُو
وجَـدِّدُوا لـلـقـسيّ الـنَّـبـلَ والـشّـرَعَـا
أذكـوا الـعُـيونَ وراءَ الـسَّـرحِ واحْـتَـرِسُـوا
حـتى تُـرى الـخـيـلُ مِـنْ تـعـدائـهـا رُجُـعـا
فَـإِنْ غُـلِـبْـتُـمْ عَـلَـى ضِـنٍّ بِـدَارِكُـمُ
فَـقَـدْ لَـقِـيـتُـمْ بِـأَمْـرٍ حَـازِمٍ فَـزَعَـا
لاَ تُـلْـهِـكُـمْ إِبِـلٌ لَـيْـسَـتْ لَـكُـمْ إِبِـلٌ
إِنَّ الْـعَـدُوَّ بِـعَـظْـمٍ مِـنْـكُـمُ قَـرَعَـا
هـيـهـات لا مـالَ مـن زَرْعٍ ولا إبـلٍ
يُـرجـى لـغـابـركـمْ إن أنْـفُـكُـمْ جُـدِعـا
يـا قـومُ إنَّ لـكـمْ مـن عـزٍّ أوّلـكـمْ
إرثـاً، قَـدَ اشْـفَـقْـتُ أن يُـودِي فـيـنـقـطـعـا

ومـــــايَـــــرُدُّ عـــلـيكـمْ عِــــزّ أوّلــكـمْ
أن ضــــاعَ آخِــــــرُهُ، أو ذلَّ فـاتـضـعـا

قـومـوا قـيـامـاً عـلـى أمـشـاطِ أرْجُـلِـكُـمْ
ثـم افـزعـوا قـد يـنـالُ الأمـــنَ مَـــنْ فَـزِعـا

فـــقـــلّـــدُوا أمْــــرَكُــــمْ لـلـــه درّكــمُـــو
رحـبَ الـــذراعِ بـأمْـرِ الـحـربِ مُضْـطَـلِـعَـا

مـسـتـنـجـداً يـتّـحـدَّى الـــنـــاسَ كـلّـهُـمُـو
لـو قـــارعَ الـــنـــاسَ عـــن أحـسـابِـهـمْ قَــرَعـا

هـــذا كـتـابـي إلـيـكـمْ والـــنـــذيـــرُ لَـكُــمْ
لـمـنْ رأى رأْيَـــــهُ مـنـكـمْ وَمَــــنْ سَــمَـعَــا[90]

وعلى الرغم من أن هذا الشاعر الجاهلي الفحل كان مُقِلاً -حسب وصف النقاد لـه- لقلة ما روي من أشعاره في المصادر القديمة، إلا أنه قد يكون الأمر خلاف ذلك، فلربما كانت قصائده التي لم يتناقلها الرواة ذات محتوى خطر، قد يفصح عن حقيقة هوية قائلها، فينكشف أمره للعدو الفارسي. لهذا بقيت أشعاره متداولة بين سادات عشيرته في طي من السرية والكتمان، مما حال دون وصول الرواة لها للاطلاع عليها ونقلها، ماعدا هاتين القصيدتين اللتين ما إن ذاع صيتهما حتى لقي لقيط منيته.[91]

وعلى الرغم من أن معظم العمليات الاستخبارية التي كانت تنفذ خلال العصور الأولى لم تسجل أو توثق على نحو كامل وتفصيلي، فقد وردت في ما خلفه لنا المؤرخون والشعراء والخطباء من مخطوطات ومحفوظات وآثار أدبية إشارات كثيرة إلى النشاطات السرية التي كانت معهودة في حروب ذلك الزمن ومعاركه. فأيام العرب كانت جزءاً لا يتجزأ من ثقافتهم العامة التي يستمدون منها عاداتهم وتقاليدهم الحربية ومعانيهم، أو يشيدون

ويتغنــون ببعــض ما جــرى فيهــا مــن أحــداث. علــى أن مــن يتمعن فــي قراءة النصــوص التاريخيــة التــي أوردوهــا سيكتشــف أن هــذه الإشــارات كثيــراً ما تكــون ضبابية، ومغلفــة بإطار مــن العموميــات التي تفتقــر إلى دقــة الإحالة والإســناد. ولربمــا كان ذلك فــي بعــض الأحايين أمــراً مقصوداً الغــرض منه إخفاء مصــدر المعلومــة. فالكشــف عن المصــدر قد يســبب بعــض الحرج أو يســتجلب عواقب ليســت في الحســبان.

وهكذا فــإن العديد مــن الروايــات التاريخية تســتهل بعبارات تبــدو مكررة ومألوفــة أو حتــى مجترة. فنقــرأ مثل: "وصــل إلى علم فــلان أو فــلان أن..."، أو "أن عينــا قــال لفــلان أو فــلان أن..."، أو "فأرســل زعيــم إحــدى القبائل أو قائدهــا العســكري مثــلاً ربيئــة أو طليعــة إلــى..." أو "اســتعملوا عينــاً حتى يعرفــوا عــن...". وتزخــر المدونــات التراثيــة التــي أنحــدرت الينا مــن بطون تاريخنا العربي، لاســيما تلك التي تتناول أيــام العرب، بمثل هــذه العبارات ذات المدلــولات العامة غيــر المحددة.

وإذا مــا عدنا إلــى التاريــخ البعيد لنشــأة العمــل الاســتخباري العربي، فإنــه لا بد من الإقــرار أن نــدرة الروايــات المفصلة عن الأنشــطة الســرية رغم كثرتها تجعل مــن الصعب أن يكــون الحديث وافيــاً، أو دقيقاً عــن الغطاء الذي كان العرب الأوائــل يســتخدمونه، أو عن أســاليب تجنيد العملاء الســريين، أو عن غير ذلك من المهــارات والفنون الاســتخبارية. على أن التجســس والتعقب والتجميــع الســري للمعلومــات وما إلــى ذلك لــم تكن الوســائل الوحيــدة التي لجــأ إليهــا العــرب الأوائل عندمــا كانــوا يحاولــون فك غمــوض المجهــول، أو استشــراف المســتقبل، أو الوقوف على نوايــا خصومهم ومخططاتهــم. فخلال الأزمنــة التي ســبقت فجر الإســلام كانــت المجتمعــات البدوية، علــى اختلاف أديانها وعقائدها، تمــارس التنجيم، والعرافــة، والكهانة، والســحر، وما إلى ذلك

من أوهـام. وهكذا فـإن كثيراً من حـروب العصـور الغابـرة لم تكـن لتقع دون مباركـة المتطيريـن والمنجميـن والكهنة لها.

وكان العـرب القدامـى علـى وفـق مـا تـورده الروايـات التاريخيـة يكِنّون احتراماً كبيراً لرؤسـائهم، وزعماء قبائلهم، وعشـائرهم، لا سـيما إن كان هؤلاء من الأقويـاء الأصحـاء ذوي الخبرة والدهـاء، وأصحـاب العلـم القادرين على تجنيـب أتباعهـم ومريديهـم كـوارث الحروب ومآسـيها. علـى أن تعزيـز الموقع القيادي والاعتبـاري لأي زعيم كان لا بد أن يسـتند إلى عـدة مقومات وعناصر لا غنى عنهـا، أبرزهـا الشـجاعة والحـزم والحكمة والرأي السـديد. يقـول أبو الطيب:

الـرأي قبل شجاعة الشجعان هـو أول وهـي المحل الثاني

ولكي يكون للقـادة والزعماء رأي متنـور، وبصيرة ثاقبة تمكنهـم من معرفة خبايا الآخريـن، ونواياهـم، كان لزامـاً عليهم -من بيـن أمور أخرى- الاسـتعانة بالمخبرين والعملاء السـريين كي يتحصنوا بالمعلومات التـي تردهم، ويتمكنوا من ضبـط جاهزيتهم لـكل طارئ غيـر منظـور، ويكونـوا مسـتعدين للتعاطي مـع أية مسـتجدات غيـر مرغوبة، لا سـيما علـى الصعيـد العسـكري. فالنصر لا يتحقـق بالاعتماد على القـوة وحدهـا، أو على النبـوءات، وتخاريـف الكهنة، والمنجميـن. فحـروب القبائل -سـواء أكانت من أجـل السـطو، أو الانتقام، أو السـيطرة- لا يمكن كسـبها دون أن يتوفـر عنصـر المفاجأة. ولا يمكـن تأمين عنصـر المفاجـأة دون متابعـة اسـتخبارية دقيقة للأهـداف المـراد مهاجمتها. وهكذا كان لكل قبيلـة، على امتداد الجزيرة، «شـبكتها الاسـتخبارية الخاصة». ومن أجل أحـكام الرقابة والمتابعـة والتثبت مما يجـري خارج القبيلـة، أو حتى داخلهـا، فقد يكـون للقبيلـة الكبيـرة أكثر مـن عين واحـد يـؤدون -على نحو متزامن- المهـام الاسـتخبارية نفسـها، دون أن يفطن أحدهم إلى وجود سـواه.

سبقت الإشارة إلى أن السجلات الأولى لحروب البدو في أواسط الجزيرة تحوي إشارات عديدة إلى العاملين في الحقل الاستخباري من أمثال ما أورده «أبو فرج الأصفهاني» في مسميات متعددة لهؤلاء «كالعين»[92] و«الربيئة»[93] و«الطليعة»[94] وغير ذلك. على أن أقدم ما وصل إلينا من مدونات ومخطوطات تاريخية يشير إلى أن معظم الذين كانوا ينهضون بالمهام الاستخبارية كانوا يؤدون مهمات تكتيكية وإن كانت بدائية في طبيعتها، وغير متطورة بالمقاييس المعاصرة. فأهم هدف كان القدماء يسعون إليه هو الاستطلاع والاستكشاف. وهنا تبرز أهمية الطلائع الذين كانوا يؤدون دوراً مهما مشابهاً لذلك الدور الذي يؤديه من كانوا يعرفون بالإنجليزية بمسمى «Secret Scouts» أو «Heralds» أي «الكشافة السرّيون» أو «المتقدمون». وأبرز ما يقوم به الطليعة هو اختراق صفوف العدو لجمع ما يستطيع من معلومات تكتيكية تتعلق بالأهداف، والمواضع، والتحصينات، وطرق الإمدادات، وحالة الاستعداد لديهم، وطبيعة الأرض، وحجم التموين، ومصادر الماء، وعدد ما يمتلكونه من الجمال والخيول والأنعام عموماً، أي السعي إلى استكشاف نقاط القوة والضعف لديهم.

وكانت «الطليعة» تتمتع بكثير من الاحترام لأنه ينتمي إلى مجموعة من صفوة المقاتلين، أو ما يطلق عليهم بالنخبة الذين يتمتعون بالكثير من الامتيازات المهنية، أهمها أنهم كانوا ينفذون مهماتهم على نحو شبه مستقل عن بقية المقاتلين، ويرتبطون مباشرة بقائد الجيش. وكانت أفضل خصالهم سرعة الحركة، وثقابة البصر، ولم يكن مطلوباً منهم أن يتقنوا مهارات الفروسية والمبارزة. أما واجبات «الربيئة» فيمكن تلخيصها بمراقبة تحركات العدو، والإخبار عن أية تطورات ميدانية إلى قادة الجيش. وكانت مراقبة العدو تتم عادة من مكان مرتفع، كالروابي والتلال، وفي أماكن يسهل التخفي فيها، ويمكن في الوقت نفسه مراقبة مواضع العدو عن بعد، دون أن

يتعرض إلى الانكشــاف. ويقــوم «الربيئة» بــإرسال تقاريره إلى القــادة من خلال واحدة من الوســائل المشــار إليها ســابقاً، كالطبول، أو النيران، أو الدخان، أو أية إشــارة متفــق عليها.[95]

ومــن أنــواع «الربيئة» مــا يطلق عليــه «النذيــر العُريــان»[96]، وهــو لقب قد يكون له وقع غريــب على الأســماع، لكنه فــي الواقع مشــتق مما كان يفعله هذا «الربيئــة» عندما يجد نفســه أمــام خطر داهــم، ولا وقــت لديه لإرســال تحذير عن طريــق إشــعال النيــران أو الدخان إلــى قادتــه. وفي هــذه الحالــة كان هذا النذير يضطــر إلى خلــع ثيابــه، وامتطاء فرســه، أو الإســراع وهو عريــان إلى موضع مرتفع للتلويــح بثيابــه المخلوعة للمكلفيــن بمتابعة إشــاراته. وكانت هذه إحدى الوســائل المبتكــرة للتحذير مــن الأخطار الوشــيكة[97] وفــي الحديث أن النبي ﷺ قــال: "إن مثَلــي ومثَل مــا بعثني الله به كمثــل رجل أتى قومــه، فقال: يا قوم إنــي رأيت الجيــش بعينــي، وإني أنــا النذيــر العُريان".[98]

أما المعلومــات المفصلة والتي لا يمكــن الحصول عليهــا إلا بالتخطيط الدقيــق، والاســتعداد المضنــي، واختــراق العــدو والتغلغل خلــف خطوطه، لمعرفــة نوعيــة أســلحته، وفعاليتهــا وكميــة عتــاده الحربــي، كعدد الســيوف والدروع ونوعياتهــا، وحالة المقاتلين النفســية، ومــدى ولائهم لقادتهــم، فكانت مثل هذه التفاصيــل العســكرية يجمعها «العيــن»[99]، أو «العميل الســري» الذي كانت مهمتــه بالتالي تختلف عــن مهمة «الربيئــة». فالأخير كانــت مهمته تقتصر على مراقبة مــا يجري علــى الســاحة ضمن إطــار زمني محــدد هو فــي الغالب الأعم زمــن الحــرب. أما مهمــة «العين» فتتعــدى نشــاطاته زمن الحــرب إلى ما هو أبعد مــن ذلك لتشــمل استكشــاف إمكانات العــدو وتجهيزاته واســتعداداته لخــوض القتــال، وبالتالــي فلمهمتــه الاســتخبارية صلــة عضويــة وثيقــة بدرء المخاطــر والحفــاظ على أمــن القبيلة.[100]

وبغية تجنيد العاملين في الحقل الاستخباري في المجتمعات القبلية للجزيرة العربية قديماً، والتي كانت تتميز بعراها الوثيقة، كان الغرباء يثيرون الشكوك. من هنا كان الحصول على معلومات مفصلة عن أولئك الذين يفدون إلى مضارب القبيلة لأي غرض كان من التدابير الاستخبارية المألوفة. وكثيراً ما كان شيوخ القبائل يلجأون إلى استغلال علاقات القربى التي تجمع بين شخص أو أكثر مع أحد أفراد القبيلة المستهدفة. وتعد العلاقة العائلية من أفضل وسائل التغطية العميقة لأي عين يكلف باختراق تلك القبيلة. ذلك أن الأقرباء كان يُسمح لهم ما لا يُسمح لغيرهم من الحريات. أما المسافرون والضيوف والحجاج والتجار وعابرو السبيل، فلم يكونوا أحراراً في تنقلاتهم، أو اتصالاتهم، لذلك لم يكن جمع المعلومات من الأمور المتاحة، أو اليسيرة بالنسبة لهم.

ولضمان معرفة أهل القبيلة بالغرباء الذين يقدمون إليهم للزيارة أو التجارة أو العمل أو لأي غرض آخر فقد كانوا يوكلون مهمة مراقبة الغرباء لا سيما تحت جنح الظلام إلى فئة من العسس أو حراس الليل ويسمون «السهار»[101] وهي صيغة المبالغة لاسم «ساهر» ومشتقة من الفعل «سهر»، والتسمية كما هو واضح تشير إلى من «يسهر» ويكون «يقظاً» و «متأهباً» خلال ساعات الليل. فكان هذا الساهر المتيقظ يتربص في الليل، وعادة ما يزاول مهمته السرية في الأماكن العامة والأسواق أو عند تقاطع الطرق أو أي من المواقع التي قد يرتادها الغرباء أو المشبوهون.

وهناك فئة خاصة من العيون كانت مهمتها لا تختلف كثيراً عن المهمات التي تنهض بها اليوم الأجهزة المسؤولة عن الأمن الاقتصادي أو الغذائي. وتنحصر مهمة هؤلاء «العيون» بالبحث الدؤوب عن الكلأ والماء سواء داخل أراضي القبيلة أم على تخومها. وكان هؤلاء يعرفون بـ «الرواد»[102]

الذين كانوا ينشـطون في فتـرات القحط والجفـاف.[103] ولا يخفـى أن المعلومات الاسـتخبارية المتصلـة بتوفـر المـاء ومنابـت العشـب المناسـب للأغنـام والمواشـي كانت تنطوي على أهمية قصوى بالنسـبة لسـكان الجزيـرة القاحلة. فشـح المياه في الصحـارى المتراميـة، والرغبة في السـيطرة على الآبـار كانا سـبباً لوقوع الكثير مـن النزاعـات والحروب عبـر التاريـخ. لذلـك كان البحث الدائم عن مصـادر المـاء واستكشـاف أراض جديدة للعشـب مـن الضرورات التي يحتمهـا حب البقـاء وديمومة الحياة التـي تقتضي أن يظل البـدو متنقلين على الـدوام بحثاً عن أهم اسـباب الحيـاة وهو الماء الـذي جعـل الله تعالى منه كل شـيء حي.

وإلى جانـب ما تقدم فقـد كان العيون الأوائـل مكلفين أيضـاً بمهمة خطيرة أخرى هـي حمايـة القوافـل وخطـوط التجـارة البرية، لا سـيما طـرق البخور واللبـان وغيرهـا. فالحـدود الجنوبية للجزيـرة [104] والطـرق الرئيسـة الموصلة بين مسـتقرات القبائـل، وكذلك الطـرق الجانبية الممتـدة بين مناطـق القبائل والمراكـز الحضريـة، كانت جميعـاً تحت مراقبـة ثاقبة مـن قبل هـؤلاء الرواد من الاسـتخباريين الأوائل.[105] وكان اسـتخدام العيـون لحماية الطـرق التجارية يعد في بعـض الأحيـان بمثابة التـزام تعاقـدي أو اسـتجابة لمتطلبـات العهود والمواثيـق التـي كانـت تبرم بيـن «قريـش» والعديـد مـن القبائل التـي كانت قوافلها الذاهبة إلى «مكة» أو المتجهة شـمالاً تمر بـيثرب التي سـميت فيما بعد بالمدينة.

ولضمان مرور القوافل والمسـافرين بسـلام وأمان لا فـي المناطق القريبة من يثرب فحسـب بل في جميع الأراضـي والمسـالك التي كانت قريـش تهيمن عليها، كان القريشـيون يتفننون في استخدام الأساليب الاسـتخبارية، ويكثرون من نشـر الكشـافة والمخبرين والعسـس في مناطق مختلفة من أرض الجزيرة،

لا سيما تلك التي تشهد أنشطة تجارية، أو تلك التي تتمتع بمواقع مهمة كمفترقات الطرق، أو لقربها من مصادر الماء. وكان الهدف من ذلك هو التثبت من امتثال القبائل الأخرى لبنود الاتفاقات المعقودة معها، ومراقبة الذين قد ينقضون ما ورد فيها، أو يتامرون على قريش، أو يحثون القبائل الأخرى على نقض العهود معها.

وكان الجواسيس الأوائل في الجزيرة يتلقون تدريبات قاسية جداً وفق المعايير المعاصرة. وتهدف هذه التدريبات إلى تعويد المرشحين للعمل الاستخباري على احتمال المصاعب البدنية والنفسية غير المتوقعة، وإلى اكتساب العديد من الفنون القتالية، والمهارات الحياتية في شتى المجالات. وتتلخص محصلة التدريبات في أنها كانت تهيئ رجال الاستخبارات للانغماس على نحو يسير وسريع في المجتمع الذي يستهدفون اختراقه. وكان التمويه والخداع والتنكر والتزيي بأزياء مختلفة يؤدي دوراً كبيراً في هذا الإطار. ومن فرط حماسة بعض العاملين في الحقل الاستخباري أنهم كانوا يتطوعون أحياناً للتنكر حتى لو كان ذلك يجر الكثير من الأذى والألم عليهم .

يورد الطبري في معرض حديثه عن بعض العملاء السريين، أنهم كانوا يتفانون في خدمة قبائلهم ويُخضِعون أنفسهم لعمليات جراحية بدائية مؤلمة لتغيير معالم وجوههم بهدف إخفاء هوياتهم، وخداع أعدائهم، ولكي يتمكنوا من أداء مهماتهم على نحو أسهل. ويشير الطبري إلى أن بعض تلك العمليات الجراحية كانت تجرى على الوجه، كأن يصار إلى تغيير شكل الأنف، أو حجم الإذن،[106] أو غير ذلك من العمليات التي كانت تنطوي على مخاطر بدنية ونفسية كبرى، ودون أن تكون المسكّنات أو التخدير العام أو الموضعي معروفا آنذاك. ويتضمن تدريب العملاء الجدد على تعليمهم سبل الاندماج

والتماهي مـع المجتمعـات التي يعملون وسـطها، مـع كل ما يتطلبه هـذا الأمر مـن الاحتياطات الواجـب اتخاذهـا لتجنب الانكشـاف، كاعتماد السـرية التامة في العمـل، وإتقـان مهـارات التراسـل، وسـبل التواصل مـع قواعدهـم، أو مع الآخرين من خلال تشـفير الإشـارات والرسـائل المتبادلـة، وفق ما تسـمح به ظروف العمـل كاسـتخدام النار ليـلاً، والدخان نهـاراً، أو قرع الطبـول أو غير ذلك من الوسـائل.

وكان «الأُجـراء» مـن المصـادر المهمـة والمسـتديمة للمعلومـات، إلـى جانب العبيـد والمحظيـات والجـواري [107] اللاتي كـن يُجنّدن لجمـع المعلومات العامـة، وتوفيـر التفاصيـل القيمـة الدقيقة عـن شـركاء أسـيادهن المقربين، وعن خططهـم وتحركاتهـم واتصالاتهـم.[108] ومن أجـل التثبت التام واسـتزادة فـي الحيطة والحـذر، كان العـرب الأوائل يرسـلون عـادة جاسوسـين أو أكثر في مهمة واحـدة.[109] وكانـوا يلجؤون أيضـاً إلى اسـتخدام الجواسـيس للإيقاع بالخصـم، أومن أجل بدء حملـة تضليل إعلامية لدحض شـائعة أو فكـرة معينة، أو لإحبـاط مجهـودات العـدو. وكانت السـموم فـي بعـض الأحيان تُسـتَعمل لتصفية الأعـداء، أو الذيـن يمثلون خطـراً على النظـام العـام أو المجتمع.[110] وتشـير السـجلات التاريخيـة القديمة إلـى أن العرب كانـوا يلجـأون إلى بعض أسـاليب المراوغة والمخادعة للتعامل مـع خصومهم، وتجميـع المعلومات عنهم، وقد أصبحت هـذه الأسـاليب أكثر تنويعـاً وتعقيـداً مع تقـادم الزمن.

الفصل الثاني

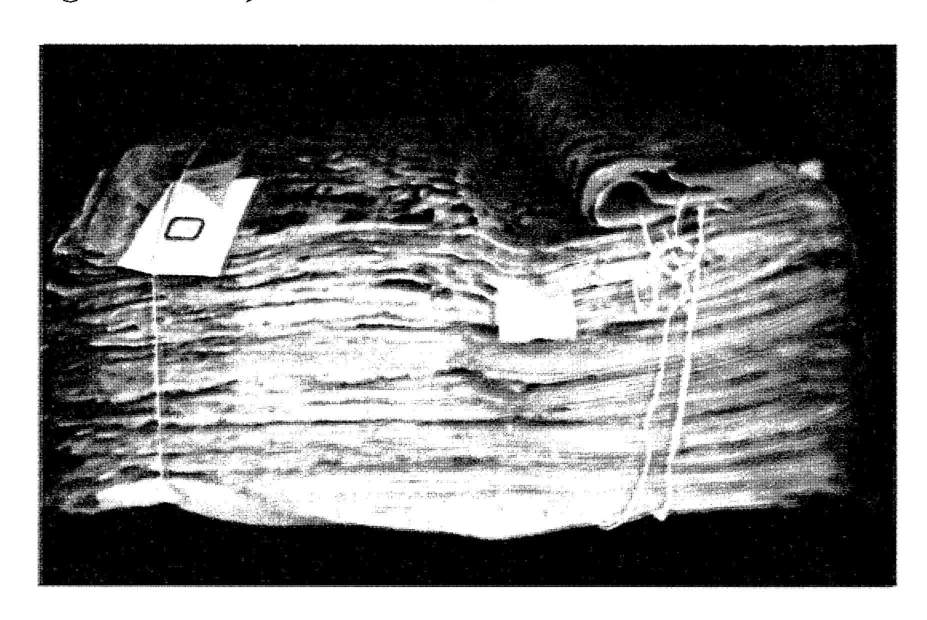
القرآن الكريم والاستخبارات

1.2: تقديم

ليس بمقدور أي إنسان أن يلم بخصائص القرآن الكريم ومزاياه، فهو كتاب الله الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾[1] وقد تضمنت آياته ﴿تَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ﴾[2] وهو نداء الله الأخير إلى البشرية الذي تكفل الخالق بحفظه فقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ⑨﴾[3] والقرآن الكريم هو النص الوحيد ذو المصداقية والقداسة من بين الكتب السماوية، فلا يختلف اثنان من المسلمين على سلامة نصوصه من أي زيادة أو تحريف. فقد حُفظ القرآن في الصدور ونُقل لفظاً ودوّن على الرّقاع والأكتاف والعُسّب في أول الأمر، ثم بعد وفاة الرسول ﷺ تم تجميعه وكتابته على الصفحات في عهد الخليفة الأول، أبي بكر الصديق -رضي الله عنه- في سنة 646م.[4] والذي أمر بجمعه في مصحف واحد، بعدما تردد في بادئ الأمر خشية أن يفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ.

لكن معركة اليمامة التي استشهد فيها كثير من حفظة كتاب الله وقرائه، دعت الخليفة الراشد «أبا بكر الصديق» رضي الله عنه لذلك، واستجابة لمشورة عرضها «عمر بن الخطاب» رضي الله عنه للمضي في انجاز الفكرة. وبخلاف التوراة والإنجيل لا توجد للقرآن الكريم أي نسخة ثانية أو ثالثة. فالنسخة التي بين أيدينا اليوم، هي مطابقة للنسخة التي دُونت في عهد الخليفة «عثمان بن عفان» رضي الله عنه سنة 646 م.[5] الذي أمر بجمع النسخ الأخرى من القرآن كافة وإتلافها جميعاً، ليقوم بعد ذلك بتوزيع النسخة الموحدة إلى الأمصار كي يضع حداً لاختلاف الناس في قراءاته.[6]

وإلى جانب التأكيد على وحدانية الله عز وعلا، فإن كتاب الله -وهو المصدر الأساس للدين الإسلامي- يحوي أيضًا جوهر التعاليم التي تنظم علاقة الإنسان بالخالق، ويحوي أيضًا أصول الهداية البشرية، وفروعها التي تعنى بتنظيم شؤون الحياة كافة، والتي يتوجب على المسلمين الالتزام بها أفراداً وجماعات. قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾[7].



صورة لإحدى نسخ المصاحف التي نسخت في عهد الخليفة الراشد عثمان بن عفان -رضي الله عنه- ثم أمر بإرسالها إلى الأمصار الإسلامية.[8]

وبغية إرشاد المؤمنين إلى سبل النجاة فقد أورد القرآن الكريم أمثلة كثيرة مستقاة من قصص الأنبياء والشعوب السابقة على الإسلام فقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾[9] كما أشار القرآن الكريم في بعض آياته أيضاً إلى عدد من القصص الرمزية المتعلقة بعالم الحيوان. ومن أمثال ذلك «ذئب يوسف»، و«بقرة بني إسرائيل»، و«هدهد سليمان» وغيرها. والغرض من استذكار تاريخ الأمم البائدة وقصص الإنس والجن والحيوان هو تنبيه الفرد، وحضه على الاتعاظ والاستفادة من دروس التاريخ لكي ينعم بحياة هانئة وديعة في

ظل مجتمع عادل، يتخذ من نور القرآن سبيلاً للهداية والنجاة، ومن سنة الرسول ﷺ نموذجاً أمثل للسلوك البشري قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾[10] وقد أورد القرآن كثيراً من العلوم التي تحتاجها البشرية وفقاً لقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ ﴾[11] ويقول الإمام «ابن القيم» -رحمه الله- عن الأمثال الواردة في القرآن الكريم بأن "أمثال القرآن لا يعقلها إلا العالمون، وأنها شيء بشيء في حكمه وتقريب المعقول من المحسوس أو أحد المحسوسين من الآخر واعتبار أحدهما بالآخر".[12]

2.2: القرآن الكريم وعناصر المفهوم الاستخباري الحديث

عرض القرآن الكريم ولو على نحو غير مستفيض موضوع استحصال المعلومات السرية واستعمالها. ففي حقل الاستخبارات -كما في جميع أوجه النشاط البشري الأخرى- يمثل القرآن مصدراً مهماً من مصادر التشريع الإسلامي الذي وضع الأطر العامة لهذا العمل الحساس، وحدد أيضاً ضوابط ممارسته كي لا يخرج القائمون عليه عن الهدف المبتغى، ولكي لا تغبن حقوق البشر فيه. وإذا دققنا النظر في آيات القرآن الكريم نستطيع أن نتبين وعلى نحو جلي أبرز وأهم العناصر الرئيسة للعمل السري ومقوماته وفق ما توصل إليه العلم الحديث، وخبراء الاستخبارات المعاصرون من أمثال «روي غودسون»، و«أنجلو كودفيلا»، و«جون لوكهارت» وغيرهم من الذين وضعوا الأسس النظرية لما أسموه علم الاستخبارات، والتي ينبغي أن تتوافر على جملة عناصر أساسية هي: جمع المعلومات السرية، والاستخبارات المضادة، والعمليات السرية، والتحليل والتوزيع للنتائج على من بأيديهم الحل والعقد. بل إن هناك في الكتاب الكريم من الآيات التي تحوي على

بعض القضايا الحيوية التي لم يلتفت إليها العلماء والباحثون، أو يولوها الاهتمام الذي تستحقه حتى الآن.

وإذا تناولنا عمليات الجمع السري للمعلومات، وأساليبها التي تعد أبرز عناصر العمل الاستخباري، بل أهمها، -كما أسلفنا- فإن القرآن يحوي عدداً من الآيات التي تشير على نحو مباشر وغير مباشر إلى هذا الأمر وذلك من خلال سرد أحداث الماضي، وشرحها، واستخلاص العبر منها. وقد تضمنت قصص الأنبياء والرسل التي أوردها القرآن الكريم العديد من الإشارات إلى العمل الاستخباري المتقن. وفي هذا الإطار لا بد من الإشارة في البدء إلى ما ورد في سورة القصص التي تسلط الضوء على أمور كثيرة ذات مساس مباشر بالدراسة الحالية. فقد تناول القرآن الكريم «قصة فرعون» الذي اضطهد «بني إسرائيل» وقرر قتل جميع ولدانهم الذكور. يقول تعالى:

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۖ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ

ﭐلۡمَرَاضِعَ مِن قَبۡلُ فَقَالَتۡ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰٓ أَهۡلِ بَيۡتٖ يَكۡفُلُونَهُۥ لَكُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدۡنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَ وَلِتَعۡلَمَ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٣﴾ ﴾[13]

إذا تأملنا في الآيات سابقة الذكر سيتبين لنا جلياً أن «أم موسى» -وتبعاً لما ورد في الآية الكريمة- طلبت من ابنتها «أخت موسى» أن تتابع ما يجري لأخيها الصغير، وترجع إليها بخبره، ذلك أن الأم المذعورة كانت قد وضعت «موسى» في صندوق، ثم ألقت به في النيل -بعد أن خشيت عليه من فرعون وجنده- استجابة لأمر الله سبحانه وتعالى-. ويعدّ اختيار الأم «لأخت موسى» لتنفيذ تلك المهمة -أي مهمة الرصد والمتابعة- اختياراً حكيمًا، بل مثاليًا، وينم عن تبصّر ونظر ثاقب. فالمرأة التي كُلّفت بجمع المعلومات تعد من المصادر عالية «الوثوق والمصداقية» لأنها ترتبط بوشائج القربى، ورابطة الدم، بالهدف نفسه -أي موسى عليه السلام-. وهكذا يأتي اختيارها لهذه المهمة انطلاقاً من حقيقتين مهمتين جداً في العمل الاستخباري: أولاهما التفاني والإخلاص والمواظبة على تنفيذ الواجب. وهذا ما توسمته «أم موسى» بابنتها وهي تتابع أخبار أخيها الرضيع المغلوب على أمره. أما الحقيقة الأخرى فهي الثقة المطلقة بمن كلّفتها بمهمة المتابعة، كون المكلّفة بهذه المهمة قريبة من الدرجة الأولى، وهذا يعني أن المعلومات التي ستجمعها ستكون أكثر مصداقية من أي مصدر آخر، ويمكن اعتمادها باطمئنان تام، دون الحاجة إلى التدقيق الصارم للتثبت من صحة ما ترفده من معلومات سرية.

وإلى جانب كل ما تقدم فإن هذه الفتاة المكلّفة «أخت موسى»، كان لها علاقة عمل بالمكان الذي أقام به «الهدف» «موسى»، أي أنها تستطيع من خلال عملها بالقصر الفرعوني أن تجمع المعلومات، بحيث تقتنص

أسـراراً ملكيـة، وتتحصـل علـى معلومـات لا يسـتطيع آخـرون الحصـول عليهـا، لأنهـا تتمتـع بالقـدرة علـى الوصـول إلـى منابـع المعلومـات المؤكـدة. وفـي هـذه القصـة القرآنيـة الجليلـة كانـت أوامـر «أم موسـى» واضحـة وجليـة، فقـد أبلغتهـا أن عليهـا تتبعـه خفيـة ، وأن تراقبـه بحـذر، لكـي لا يكتشـف «فرعـون» وزبانيتـه حقيقـة هويتهـا. وقـد نفـذت «أخـت موسـى» المهمـة الموكلـة لهـا بـكل إتقـان، فقـد أفلحـت علـى صعيديـن اثنيـن أولهمـا مراقبـة الهـدف «موسـى» عـن كثـب، وثانيهمـا -الـذي قـد يكـون أكثـر أهميـة- تمكنهـا مـن الوصـول إلـى صاحبـة القـرار فـي مجتمـع القصـر، وإقناعهـا الملكـة -بـذكاء لافـت- بفكـرة إرسـال «ولدهـا المتبنـى» إلـى مرضعـة بعينهـا هـي «أم موسـى». وهكـذا نتبيـن مـن هـذا المثـل القرآنـي بوضـوح كيـف تـم تكليـف «أخـت موسـى» «بجمـع المعلومـات» عـن أخيهـا سـراً، وكيـف تتبعتـه حتـى تمكنـت أخيـراً مـن النفـاذ إلـى عصـب القصـر الفرعونـي، ومركـز قـراره، وحصلـت علـى معلومـات موثوقـة مباشـرة عمـا آل إليـه مصيـر الرضيـع، وكيـف اسـتثمرت تلـك المعلومـات الحساسـة لصالـح المهمـة التـي بُعثـت مـن أجلهـا.

أمـا «سـورة يوسـف» فإنهـا هـي الأخـرى السـورة التـي تحتـوي علـى إشـارات لأحـد أهـم مقومـات العمـل الاسـتخباري، ألا وهـو (الجمـع السـري للمعلومـات) والـذي ينبغـي للمنخرطيـن فيـه التـزام أقصـى درجـات الحيطـة والحـذر، والأخـذ بأسـباب الكتمـان والسـرية، إذ يقـول: «أبـو يوسـف»، «النبـي يعقـوب» -عليـه السـلام- لأبنائـه عندمـا اسـتأذنوه للذهـاب إلـى مصـر: .. ﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾﴾. ثـم يتابـع الأب المفجـوع بفقـدان ولـده فيوصـي أبنـاءه: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾.[14]

يتضح من الآيات الكريمة أن «أبا يوسف» -عليه السلام- يتمتع بحس أمني رفيع، لذلك أمر أولاده الالتزام بالحذر الشديد، والسرية التامة، وهم يقومون بعملية «تحسس» موسعة، من خلال البحث عن هدف واحد، ولكن متفرقين، لا مجتمعين، وعلى أن يدخلوا مصر من أبواب متفرقة، لا من باب واحد، خوفاً عليهم ليس فقط من أن تصيبهم العين، كونهم أحد عشر شاباً من أب واحد، ولهم بسطة في الجسم والوسامة، بل وقد يكون أيضاً -ووفقاً لما ذكره بعض المفسرين- بسبب أنه كان حذراً عليهم من أن يُشك بأنهم «جواسيس».[15] وهكذا فبانتشار الكشافة «إخوة يوسف» عند وصولهم لأرض مصر، ودخولهم لها من طرق وأبواب مختلفة، تمكنوا من تغطية أكبر مساحة من أرض مصر، بحثاً في أنحائها لرصد أية معلومة قد تقودهم إلى مكان أخيهم ومصيره، وبتطبيق خطة الجمع على هذا النحو فإنهم أصبحوا في وضع أفضل مما لو فعلوا ذلك معاً ومن باب واحد[16]، حيث أنهم بهذا التفرق وسلك الطرق المختلفة المؤدية إلى الأبواب الأربعة المخصصة لدخول مصر سيغطون مساحة أكبر «للبحث والتحسس» عن «يوسف»، وفي ذات الوقت تزداد وتتنوع مصادر معلوماتهم. ولربما تمكنوا من خلال هذه الطريقة من العثور عليه عند أحد أبوابها بعد ما التقطه بعض السيارة. ويرى الإمام «ابن كثير» وغيره من المفسرين أن معنى الآية الكريمة يميل أكثر ما يميل إلى أن «يعقوب» -عليه السلام- كان يقصد الحذر على أولاده من أن تصيبهم العين. وهو ما يراه أيضًا الشيخ «عبدالرحمن السعدي» صراحة، في تفسيره للآية الكريمة آنفة الذكر.

ويشدد القرآن الكريم في مواضع أخرى على التزام الحيطة والحذر لا أثناء عمليات جمع المعلومات وتنفيذ الأوامر فحسب بل على الدوام. فقد أمر الله المؤمنين بأن يكونوا يقظين وفي حالة استعداد تام حيث يقول تعالى في سورة النساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾.[17] ولا يمكن

لحالة الاستعداد هذه أن تسود دون الإلمام المستمر بما لدى العدو أو أي طرف آخر كان، سواء في الداخل أو الخارج ممن قد يسيء إلى الأمة الإسلامية، أو يُقوّض أمن الدولة وسلامتها. ويفسر القرطبي هذه الآية الكريمة قائلاً: "أمر أهل الطاعة بإحياء دينه وإعلاء دعوته، وأمرهم ألا يقتحموا على عدوهم على جهالة حتى يتحسسوا إلى ما عندهم، ويعلموا كيف يردون عليهم، فذلك أثبت لهم".[18] ويوضح مفسر آخر أن أخذ الحذر لا يأتي إلا من خلال الاحتراز من العدو والتيقظ له.[19] ولا يتحقق ذلك إلا من خلال التعرف على أحوال العدو تفصيلياً للوقوف على قوته ونواياه ومخططاته وكشف أساليب عمله ودحر مكره.[20]

وردت في القرآن الكريم الكثير من الإشارات الرمزية التي تنطوي على أهمية بالغة للاتعاظ بها واستلهام العبر من تاريخ ممن سبقنا من الأمم. وقد أورد القرآن الكريم أمثالاً عدة فيها قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾. ومن هذه الإشارات ذات البعد الإرشادي التنويري ما استُقيَ من عالم الحيوان كما سنرى في «سورة النمل» مثلاً. ففي هذه السورة يقوم سيدنا الملك «سليمان» بمجادلة طائر «الهدهد»، الذي سبق أن افتقد وجوده بين طيره. ويبين القرآن الكريم في هذه السورة أن الله -عز وجل- مكّن الملك «سليمان» من فهم لغة الطير والتخاطب معها، كما مكّنه أيضًا من السيطرة على جميع أنواع الحيوانات. وتبدأ هذه القصة عندما يلاحظ سيدنا «سليمان» أثناء تفقده لمملكته المؤلفة من الإنس والجن والطير، أن أحد طيوره -الهدهد- غائب وليس في مكانه المعتاد: قال تعالى:

﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾﴾.[21]

علـى أن الأزمـة الطارئـة التـي خلّفهـا غيـاب «الهدهـد» والتـي دفعـت النبـي «سـليمان» -عليـه السـلام- إلـى التهديـد بإنـزال العقـاب الشـديد بـه تـم احتواؤهـا حيـن حضـر «الهدهـد»، وشـرح أسـباب غيابـه الـذي كان لضـرورة أمنيـة. قـال «الهدهـد» أنـه كان يجـوب أراضـي الملـك «سـليمان»، وأنـه تمكـن مـن رصـد معلومـات مهمـة. ومـن اللافـت أن «الهدهـد» بـدأ حديثـه مخاطبـاً النبـي «سـليمان» -عليـه السـلام- بنبـرة الواثـق مـن نفسـه، مؤكـداً أنـه سيكشـف عـن معلومـات كانـت خافيـة علـى الجميـع، حتـى علـى الملـك «سـليمان» -عليـه السـلام- نفسـه. ويتابـع «الهدهـد» سـرد تقريـره الشـفوي موضحـاً أن مصـدر المعلومـات التـي أتـى بهـا لـم يكـن مصـدراً ثانويـاً، بـل أوليـاً مباشـراً، حيـث أضـاف أن التفاصيـل التـي سـيدلي بهـا لـم تُنقـل إليـه عـن طـرف آخـر، بـل شـاهدها هـو نفسـه بـأم عينـه، ثـم يحـدد «الهدهـد» بعـد ذلـك موقـع حـدوث الفعـل، ويقـول إنـه مملكـة سـبأ فـي جنـوب شـبه الجزيـرة العربيـة. وفـي إشـارته إلـى المعلومـات التـي حصـل عليهـا، يسـتعمل هـذا الطيـر الداهيـة كلمـة «نبأ» بـدلاً مـن كلمـة «خبـر»، حيـث أن الـدلالات المعنويـة التـي تسـتثيرها كلمـة «نبأ» فـي الأذهـان ترتبـط عمومـاً بمعلومـات عـن أشـياء تخـص المسـتقبل لا أشـياء مـن الماضـي. وفـي تقييمـه لمصداقيـة المعلومـات ودرجـة الوثـوق بهـا يؤكـد «الهدهـد» أن مـا ورد فـي تقريـره هـو اليقيـن بعينـه، وذلـك أعلـى درجـات المصداقيـة التـي لا تسـتند إلـى الروايـات والتقاريـر بـل إلـى الاسـتطلاع الشـخصي المباشـر، والمعاينـة الذاتيـة. وبالفعـل كان لهـذا الخبـر وقـع المفاجـأة علـى سـيدنا «سـليمان».[22]

يتابـع «الهدهـد» تقريـره عـن هـذه المملكـة فيقـول: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةً تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾﴾[23]. وفـي إشـارته إلـى نظـام الحكـم فـي سـبأ، يوضـح «الهدهـد» بـأن «بلقيـس» علـى رأس هـذه المملكـة الغنيـة، وأن قبضتهـا علـى البـلاد قويـة. ولـم يُخـف «الهدهـد» اسـتهجانه الشـديد لأمـر لـم يعجبـه أبـداً. فقـد وجـد رعايـا المملكـة لا يؤمنـون بـالله، بعـد أن أظلهـم

الشيطان وزيّن لهم عبادة الشمس:

﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾﴾.[24]

إذا تمعنا جيدًا في قصة سيدنا «سليمان» -عليه السلام- نجد أنها أكثر من أية سورة أخرى في القرآن الكريم تسرد -من بين أمور أخرى- وبأسلوب تعليمي دروساً في كيفية إعداد التقرير الاستخباري. كما توضح لنا أهم العناصر الأساسية المكونة لهذا التقرير. فهناك أولاً تحديد لمصدر المعلومة، والمصدر هنا حسب ما يرد في السورة هو طائر «الهدهد» نفسه، وأن وجهة التقرير كانت مرفوعة للملك «سليمان» مباشرة، وأن التقرير كان يتناول قضية محددة على وجه الخصوص الا وهي التطورات في مملكة سبأ. أما درجة المصداقية والوثوق في التقرير فكانت من باب «اليقين» وهي الأعلى مرتبة، حيث أن التقرير بأكمله قائم على رصد أولي من معدّ التقرير ذاته، لا نقلاً عن مصادر ثانوية، أو تكرارًا لمعلومات شائعة، أو أقوالاً للناس، أو أي شكل من الأدلة المستقاة من روايات منقولة. ثم يشرح ما يحتويه التقرير بإيجاز غير مخل من خلال إخبار النبي «سليمان» -عليه السلام- بوجود مملكة تدير دفة الحكم فيه امرأة ذات نفوذ، هي الملكة «بلقيس» التي تشارك أتباعها عبادة الشمس. وكان هذا الاكتشاف مصدر إزعاج كبير للملك «سليمان» -عليه السلام- لأن لا طاعة في الكون إلا لله، وما طرق سمعه الآن يتعارض تماماً مع المهمة السامية التي كان ينهض بها كنبي. وإلى جانب هذا الأمر الخطير احتوى تقرير «الهدهد» معلومات أخرى عن جيش الملكة «بلقيس»، وحالة البلاد الاقتصادية والأمنية. واختتم تقريره بتحليل لأسباب عبادتهم للشمس، وهو ما يتنافى

مـع مـا يدعـو إليـه «سـليمان» -عليـه السـلام-.

ولـم يصدّق نبي الله «سـليمان» -عليـه السـلام- أو يكـذّب قصـة «الهدهـد»، بـل تريث فـي حكمـه علـى أقـوال الطيـر، حتـى يتسـنى لـه التثبّت مـن مصداقيـة المعلومـات التـي جـاء بهـا:

﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَـٰبِى هَـٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَـٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾.[25]

وتـدل الآيـات الكريمـة آنفـة الذكـر علـى أن المعلومـات المجمعـة ليسـت العنصـر الوحيـد الـذي يتـم علـى أساسـه اتخـاذ القـرار، فمعالجـة المعلومـات مـن خـلال إخضاعهـا للملائمـة والتأكـد مـن مصداقيتهـا ضـرورة لا غنـى عنهـا لأي محلـل معلومـات، أو متخـذ قـرار، وذلـك مـن خـلال تأكيدهـا، والتثبـت مـن دقتهـا عـن طريـق الاسـتئناس والاسترشـاد بمصـادر أو طرائـق أخـرى قـد تنفـي أو تؤكـد صحـة مـا حـدث. وهكـذا فعندمـا ينتهـي طائـر «الهدهـد» مـن سـرد تقريـره يقـول لـه «سـليمان» -عليـه السـلام-: ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ مشـيراً إلـى أنـه سـيتثبت مـن المعلومـات التـي جـاء بهـا مـن خـلال إجـراء آخـر سـيعمد إلـى اتخـاذه.

وتتضـح فـي السـورة أيضـاً المراحـل المختلفـة التـي تمـر مـن خلالهـا المعلومـات التـي جـاء بهـا طائـر «الهدهـد»، أي مراحـل مـا يسـمى بـ«دورة الاسـتخبارات، Intelligence Cycle». والتـي عـادة مـا تبـدأ «بتجميـع المعلومـات» الأوليـة بكافـة الطـرق والوسـائل قبـل تحويلهـا إلـى المرحلـة التاليـة «المعالجـة والتجهيـز» والتـي تنطـوي علـى تحويـل الكـم الهائـل مـن المعلومـات الأوليـة إلـى شـكل قابـل للاسـتعمال مـن قبـل المحلليـن. وفـي المرحلـة المرحلـة الثالثـة

«التحليل والإنتاج» يتم تحويل تلك المعلومات إلى «استخبارات» وذلك من خلال دمج المعلومات وتحليلها وتقييم موثوقيتها ثم إدراجها بشكل منطقي وفي سياقها الصحيح. تنتهي هذه الدورة بمرحلة «التوزيع» للمنتج النهائي على المستفيدين وصناع القرار.

وفي هذه القصة تبدأ «دورة المعلومة الاستخبارية» بأن أخذ «سليمان» -عليه السلام- تقريراً معلوماتياً من «الهدهد» حول أسباب غيابه المفاجئ. ثم أخضع معلوماته لعملية التثبت حينما بيّن «سليمان» -عليه السلام- عزمه على القيام بالتأكد من النبأ لمعرفة درجة مصداقيته.

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن مسألة تأكيد المعلومات من مصادر مختلفة، تنطوي على أهمية قصوى في «التراث الاستخباري الإسلامي» حتى كادت أن تكون مرحلة قائمة بذاتها، وليست جزءاً من مرحلة تجميع المعلومات او تحليلها، كما هو الحال في مراحل «دورة الاستخبارات الحديثة» وذلك لما ينطوي عليها من أهمية.

وكما هو واضح في عدد من الآيات ومنها ما ورد في سورة الحجرات، حيث يأمر الله المؤمنون بالتبين من حقيقة ما يسمعون، حتى لا يندموا على عواقب التسرع. فقد قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾.[26] وتشير معظم التفاسير إلى أن هذه الآية ترتبط بحادثة معينة جاء فيها أن الرسول ﷺ أرسل أحد أصحابه وهو «الوليد بن عقبة بن أبي معيط»،[27] في مهمة إلى «بني المصطلق» [28] لأخذ الزكاة منهم. وكان «الوليد بن عقبة» متوجساً من استقبالهم له، حيث كانوا يحملون السيوف عند لقائه، وكان بينه وبين تلك القبيلة عداوة قديمة في الجاهلية. وعندما اقترب من أراضيهم ورأى أن

أعداءه السابقين يخرجون إليه في عشراتهم يريدون استقباله، خاف ورجع إلى رسول الله ﷺ، زاعماً أن «بني المصطلق» قد ارتدوا عن الإسلام ورفضوا دفع الزكاة. وبينما المسلمون يستعدون لمعاقبتهم، جاء وفد من «بني المصطلق» إلى رسول الله ﷺ ليشرحوا له ما حدث. فأرسل رسول الله ﷺ «خالد بن الوليد» -رضي الله عنه- إليهم على رأس مجموعة من العسكر بصفة سرية، ليرصدوا ويعاينوا بأنفسهم الأمور على أرض الواقع بدقة. وهناك وجدوا «بني المصطلق» يؤدون الصلاة ويبدون الطاعة، فرجع «خالد» -رضي الله عنه-، ونقل إلى رسول الله ﷺ أنه لم ير من القوم إلا الطاعة والخير. وهكذا فلولا التثبت من حقائق الأمور على نحو لا يقبل الشك، ولا يحتمل اللبس، لكانت النتائج وخيمة كارثية على الأمة. وهذا ما فعله الرسول ﷺ عندما أرسل «خالداً» كي يقف على حقيقة ما أورده «الوليد بن عقبة»، الذي كادت ظنونه أن تؤدي إلى ما لا يُحمد عقباه. [29]

ثمة حادثة أخرى يتأكد فيها حرص الإسلام على التثبت من الحقيقة في كل المواقف، وهو ما يرويه المفسرون حول سبب نزول قول الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴿٩٤﴾﴾. [30]

قال «ابن كثير» في سبب نزول هذه الآية الكريمة: روى «الإمام أحمد» أنه مر رجل من «بني سليم» بنفر من أصحاب النبي ﷺ وهو يسوق غنماً له، فسلم عليهم فقالوا: ما سلم علينا إلا ليتعوذ منا. فعمدوا إليه فقتلوه، وأتوا بغنمه الى النبي ﷺ فنزلت هذه الآية. [31]

هناك أكثر من سبب نزول ذكره المفسرون لهذه الآية، ولكن من المناسب في هذا السياق أن نذكر أن كل الأقوال تدور حول معنى واحد هو التثبت من الخبر وعدم اعتماد أي عمل يقوم على ذلك الخبر، قبل التأكد منه.

ويعلق القرآن الكريم أهمية كبرى على تحليل المعلومات، وتوزيعها على من هم أهل لاستثمارها، وإنزالها منزلتها الصحيحة من الأهمية، واتخاذ القرار الصائب على ضوئها. ويتضح ذلك في إحدى الآيات التي يأمر الله -عز وجل- المسلمين فيها بأن يرفعوا الأخبار الخطيرة التي تتعلق بسلامة الأمة أو مصيرها إلى أهل العلم والدراية في المجتمع، وألا يتناولوها بالإذاعة والعلن لأن ذلك قد يضر بأمن المسلمين، ويقوض الصالح العام. وعليه فمن الواجب رفع المعلومات الأمنية إلى الذين هم مسئولون عن أمن الدولة، والذين هم -حسب ما يؤكد لنا القرآن الكريم- الأكثر كفاءة لفهم تبعات تلك المعلومات، والتعامل معها. قال تعالى:

﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾﴾.[32]

ففي هذا النص القرآني، استُعمل فعل (يستنبط) الذي تنصرف مدلولاته إلى معنى الاستخراج أو الاستنتاج، ويُستعمل هذا الفعل في العادة للتعبير عن المستتر من الأمر. أو الذي لا تسهل رؤيته. ويكثر استعماله على نحو خاص للإشارة إلى التنقيب عن الماء أو استخراجه من باطن الأرض. وهذا المدلول مناسب جداً لوصف العمل الذي يقوم به محللو المعلومات وإنتاج ما يسمى بـ (الاستخبارات). لا نقصد هنا أن هذه الآية تحث على استعمال «الأساليب الاستخبارية» عند التعامل مع الإخبار،

ولكن من الواضح أن الدقة في التعامل مع معلومات التقارير صفة تدعو إليها هذه الآية، والعمل الاستخباري يكون في أرقى مستوياته إذا كان دقيقاً في طرح المعلومات، ثم في تحليلها. وحسب ما ورد في الآية الكريمة فإن الله تعالى يحث المسلمين على نقل هذه التقارير (الأمنية) إلى الرسول ﷺ، سواء أكانت التقارير صادقة أم مشكوكاً فيها، أو إلى الذين هم قادرون على معالجتها من خلال التدقيق والتمحيص، كالملاءمة، والمقارنة، وما إلى ذلك في مرحلة التحليل. مما يمكن المختصين بعد ذلك من إخضاعها إلى طرق التحليل، ويستنبطوا منها ما بين السطور، ثم يوصون بما يحتاجه صاحب القرار اتخاذه أو أي مستفيد من المعلومات بشكل عام. هذا التفسير «الأمني» للآية الكريمة حام حوله أكثر من مفسر عند تناول أسباب نزولها. نذكر منها قول القرطبي:

> "أنهم إذا سمعوا شيئاً من الأمور فيه أمن، نحو ظفر المسلمين، وقتل عدوهم، أو الخوف. وهو ضد هذا إذا أذاعوا به أي أفشوه وأظهروه، وتحدثوا به قبل أن يقفوا على حقيقته. قيل: كان هذا من ضعفة المسلمين. وعن الحسن، لأنهم كانوا يفشون أمر النبي ﷺ ويظنون أنهم لا شيء عليهم في ذلك. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾ أي لم يحدثوا به، ولم يفشوه حتى يكون النبي ﷺ هو الذي يحدث به ويفشيه، أو يقول فيه أولوا الأمر وهم أهل العلم والفقه أو الولاة مثلاً. وقوله: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ ،أي لعلموا ما ينبغي أن يفشى منه وما ينبغي أن يكتم".[33]

ولمرحلة التحليل عودة مرة أخرى إلى قصة سيدنا «سليمان» -عليه السلام- و«الهدهد»، فقد وجد سيدنا «سليمان» نفسه أمام معلومات حقيقية

بعد تأكيدها وتحليلها. هنا كان لا بد له من اتخاذ قرار بشأنها، وكان عليه الاختيار بين أمرين: إما أن يشن حرباً على مملكة «بلقيس» حتى يُخضِعها له، أو أن يلجأ إلى الأساليب السلمية والدبلوماسية لتحقيق أهدافه. فقرر -عليه السلام- أن يتبنى الخيار الثاني، فبعث «الهدهد» إلى الملكة يطلب منها أن تؤمن بالله، وأن تعترف به نبياً من الله، فكان له ما أراد.

ويشير القرآن الكريم مرات عديدة إلى ما يمكن تسميته بمصطلحاتنا الحديثة بـ «الاستخبارات المضادة». ونعني بذلك تحديداً النشاط الذي يهدف إلى حفظ الأمن، ومكافحة الجاسوسية. أي تعقب «الجواسيس»، أو ما عرف بـ «المنافقين» الذين يروجون الأراجيف والذين يبدون الخير، ويضمرون الشر بالعباد وبالبلاد. فاصطلاح «المنافقين» الوارد في القرآن، قد يعني «المتظاهر» و«المتستر» و«المخادع» و«الغشاش» و«المتحايل» و«الدسيس». بل أن هناك سورة كريمة بعينها عن «المنافقين»، مخصصة لمناقشة خطر هؤلاء «المنتسبين» الذين اندسوا بين المسلمين لنشر الفوضى، وافتراء الأكاذيب. وقد أشار الرسول ﷺ في أحاديث كثيرة إلى هذا النفر من الناس الذين يسعون إلى تقويض الإسلام من الداخل. ومصطلح «المنافق» شائع الاستعمال في أيامنا هذه كشيوعه في تلك الأيام. حتى أن أول ما تنصرف إليه مدلولاته المباشرة في بعض الدول الإسلامية إلى «الجاسوس» تحديداً.

وقد يكون من المفيد أن نستذكر أن المنافقين كانوا -أيام المدينة- قد تآمروا مع المشركين، فسهلوا لهم اختراق مجتمع المدينة حتى يبذروا بينهم بذور العصيان والانقسام. لذلك كان المنافقون «عملاء» يوالون المعسكر المضاد للرسول ﷺ، وقد تظاهر هؤلاء «المنافقون» بالإسلام، فأصبحوا في وضع يمكنهم من الحصول على معلومات لا تتوفر لغير

المسلمين. من هنا أكد الإسلام على أنهم خونة لا يمكن التسامح معهم. قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.[34]

وهكذا فإن عمليات مكافحة التجسس التي توليها أجهزة الاستخبارات الحديثة أهمية كبرى، والتي تعتبر جزءاً رئيساً من واجبات هذه الأجهزة، لها في جيوب التاريخ سوابق إسلامية أكيدة مما أشار إليها القرآن الكريم ورسوله الأمين ﷺ. وتدخل المسألة حيز الخطورة الحقيقية، إذا كان الأمر يتعلق بموالاة أعداء الأمة. حيث يأمر الله -سبحانه وتعالى- المؤمنين بعدم موالاة أعدائه وأعدائهم سواء كان ذلك جهارًا أو سرًا. فالموالاة لهم من خلال التعاون في تمرير معلومات أو نحوه والوقوع في شباك التجنيد و«التجسس» التي يعّدها هؤلاء «المنافقون»، يمثل خطراً كامناً مستطيراً يتربص بأمن البلاد وسلامتها. وقد توعد القرآن العقاب الشديد لمن ضل عن السبيل، يقول تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَـٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾﴾.[35]

ويكاد يجمع المفسرون على أن الآيات المذكورة آنفاً تعود إلى حادثة معينة حصلت فيها خيانة لرسول الله ﷺ على يد أحد أصحابه المقربين أثناء الاستعدادات النهائية لفتح مكة. فواحد من القلة الذين كانوا على الأرجح على علم بخطة فتح مكة هو الصحابي «حاطب بن أبي بلتعة»، الذي ما إن علم بها حتى طلب من امرأة تدعى «ساره»[36] أن تحمل له «رسالة

سرية»[37] إلى أهل مكة يحذرهم فيها من هجوم المسلمين الوشيك، مستبعداً أقاويل تُروَّج عن اعتزام رسول الله ﷺ الهجوم على خيبر. وعندما اكتشف الرسول ﷺ خيانة حاطب، أمر مجموعة من فرسانه على رأسهم ابن عمه «علي بن أبي طالب» -رضي الله عنه- أن تلحق بالمرأة. وتمكن الفرسان من القبض على حاملة الرسالة واسترجاعها.

وحسب المؤرخ «الواقدي»، فإن الرسول ﷺ تولى هذا الخرق الأمني الخطير بنفسه، وواجه حاطباً بقوله:

"ما هذا يا حَاطب؟ فقال: لا تَعجَل علي يا رسول الله، والله إني لمؤمن بالله ورسوله، وما ارتددت، ولا بدّلت، ولكني كنت امرءاً ملصقاً في «قريش» لست من أنفسهم، ولي فيهم أهل وعشيرة وولد، وليس لي فيهم قرابة يحمونهم، وكان مَن معك لهم قرابات يحمونهم، فأحببت إذ فاتني ذلك أن أتخذ عندهم يداً يحمون بها قرابتي".[38]

وإزاء ذلك ثارت ثائرة «عمر بن الخطاب» -رضي الله عنه-، وهو أبرز الصحابة الذين شاركوا في العمل الأمني مع رسول الله ﷺ. فقد كان عمر مصرّاً على قطع عنق حاطب لأنه خان ونافق من خلال موالاته للكفار[39]، لكن الرسول الكريم ﷺ عامله بسعة صدر وسماحة أثيرة وقبل عذره. وتجدر الإشارة إلى أن «حاطب بن أبي بلتعة» كان ممن شارك في غزوة بدر، وكان من الفرسان الذين أبلوا بلاء حسناً في تلك الموقعة التاريخية. ومكافأةً لهم على شجاعتهم وتضحيتهم، جاء القرآن الكريم مؤكداً أن الله مَنَّ على جميع من شهد بدراً بالتوبة. وقد رد رسول الله ﷺ على عمر قائلاً «وما يُدريك يا عمر؟ لعل الله اطَّلع على أصحاب بدر فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفرتُ لكم»[40] ثم عفى عنه رسول الله ﷺ.

أما سورة الأنفال فتذكر حادثة مهمة وقعت في الأيام الأولى للإسلام في المدينة المنورة، بينما كان الرسول ﷺ وأصحابه يحاولون بناء الدولة الإسلامية هناك. حينها قام اليهود بتأليب قريش والقبائل المجاورة على رسول الله ﷺ وجمعوا له الأحزاب للهجوم على المسلمين بالمدينة، رغم أن يهود بني قريظة في المدينة كانوا قد هادنوا رسول الله ﷺ وأبرموا معه عهداً بأن لا يعينوا أحداً عليه.[41] وعندما حاصر الأحزاب المسلمين في المدينة علم رسول الله ﷺ بأن بني قريظة نقضوا العهد الذي بينه وبينهم وظاهروا الأحزاب عليه. وعندما انتهى الحصار، وانهزمت الأحزاب لعدم قدرتهم على تخطي الخندق، وولوا على أعقابهم خائبين، أتى أمر الله لرسوله ﷺ بأن يعمد إلى بني قريظة ويحاسبهم على نقضهم للعهد، فحاصرهم في حصونهم وطلب منهم أن ينزلوا على حكم رسول الله ﷺ، وبعث الرسول الأكرم لهم أبو لبابة بن عبد المنذر [42] الذي كانت له قبل إسلامه علاقات طيبة معهم. فقد كان موالياً لهم لأن «عياله وماله وولده كانت في بني قريظة».[43] وأثناء مداولات الطرفين على الاتفاق، حارت بنو قريظة فيما يريدون فعله. وهنا قالوا «لأبي لبابة» أنهم قد يقبلون بما سيحكم عليهم به «سعد بن معاذ»، سيد الأوس وأحد أكثر الصحابة قرباً من رسول الله ﷺ، والذي كان له حلف مع «بني قريظة» قبل الإسلام. وهنا مرر لهم «أبو لبابة» معلومة في غاية الخطورة مفشياً حكم «سعد بن معاذ»، من خلال الإشارة بيده إلى حلقه بأن أعناقهم مصيرها للذبح، وكأنه يريد منهم ألا يفعلوا. ويذكر «الألوسي» في تفسيره هنا أن «أبا لبابة» أحس على الفور بشيء من الذنب، حيث قال: «والله ما زالت قدماي حتى علمت أني قد خنت الله ورسوله». وحسب تفسير الألوسي فإن الآية القرآنية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٢٧﴾ إنما تعنيه هو.[44] وذكر مفسرون آخرون مثل ذلك، ومنهم «ابن كثير» في إحدى رواياته، حيث يقول:

"قال «عبد الله بن أبي قتادة» و «الزهري»: أنزلت في «أبي لبابة بن عبد المنذر»، حين بعثه رسول الله ﷺ إلى بني قريظة لينزلوا على حكم رسول الله ﷺ فاستشاروه في ذلك، فأشار عليهم بذلك -وأشار بيده إلى حلقه -أي: أنه الذبح، ثم فطن «أبو لبابة»، ورأى أنه قد خان الله ورسوله ﷺ، فحلف لا يذوق ذواقاً حتى يموت أو يتوب الله عليه، وانطلق إلى مسجد المدينة، فربط نفسه في سارية منه، فمكث كذلك تسعة أيام، حتى كاد يخر مغشياً عليه من الجهد، حتى أنزل الله توبته على رسوله ﷺ. فجاء الناس يبشرونه بتوبة الله عليه، وأرادوا أن يحلوه من السارية، فحلف لا يحله منها إلا رسول الله ﷺ بيده، فحله، فقال: يا رسول الله، أني كنت نذرت أن أنخلع من مالي صدقة، فقال: يجزيك الثلث أن تصدق به."[45]

ويأمر القرآن الكريم المؤمنين في مواضع عدة، أن يحذروا اختراق الأعداء أو ما يمكن أن يوصفوا بـ «العملاء» بمصطلحاتنا الحديثة لصفوفهم. فسورة التوبة تسترعي الانتباه إلى الضرر الذي قد يلحقه عملاء العدو بالمؤمنين. ففي غزوة تبوك -على سبيل المثال- تخلف بعض من كانوا في صفوف المسلمين نفاقًا وخداعًا، لأن هدفهم لم يكن سوى محاولة تقويض الإسلام من الداخل، وبذر الفرقة والانقسام بينهم. ورغم أن المسلم الفطن لا ينخدع بمثل هؤلاء، إلا أن بعض النفوس الضعيفة قد تصغي إليهم وتتأثر بذلك. قال تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ ويؤكد «ابن كثير» في تفسيره لهذه الآية وخاصة ما يقصد بقوله تعالى: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ﴾ بأنها تعني العيون التي تسمع الأخبار وتقوم بتمريرها لهم[46].

وفـي سـياق مـا يمكـن أن نطلـق عليـه «الاسـتخبارات المضـادة» أيضـاً، يُفصح القـرآن الكريـم عـن موقـف مشـابه شـديد صريـح ضـد مثيـري الشـغب، وناشـري الشـائعات، والأكاذيـب، والتحذيـرات المفتعلـة كما حـدث تحديـداً فـي غـزوة الخنـدق. ففـي هـذه الغـزوة يخـص الله بالذكـر العمـلاء الذيـن يزرعهـم العـدو كـي يشـن حرباً نفسـية تسـتهدف اسـتنزاف معنويـات المسـلمين، وإنـزال الرعـب فـي قلوبهـم. فقـد كان هـؤلاء يسـتهدفون مـن وراء ذلـك أن يصيبـوا المسـلمين بخيبـة أمـل فـي وقـت حـرج جـداً مـن تاريـخ الإسـلام، حيـن كانـت دولتهـم لا تـزال فتيـة فـي طـور البنيـان، وبحاجـة إلـى مزيـد مـن الرعايـة، بينمـا كان هـؤلاء العمـلاء يقومـون بتأليـب الأحـزاب للإيقـاع بالدولـة الناشـئة، وتدميـر مـا كان الرسـول ﷺ والمؤمنـون بصـدد بنيانـه. ففـي سـورة الأحـزاب يقـول الله -عـز وجـل- عـن هـؤلاء:

﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾[47]

وينـص القـرآن علـى أن هـؤلاء العمـلاء عمومـاً -ويصفهـم فـي مواقـع مختلفـة «بالمنافقيـن» و«الذيـن فـي قلوبهـم مـرض»- سـيلاقون جزاءهـم يـوم القيامـة، قـال تعالـى: ﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾﴾[48] كذلـك يذكـر القـرآن أنهـم سـيعذبون حتـى فـي حياتهـم إذا لـم يكفـوا عـن نشـر الشـائعات والأباطيـل التـي تسـتهدف تثبيـط عزائـم المسـلمين مـن خـلال نشـرهم الأخبـار الكاذبـة عـن مقتـل فرسـان السـرايا أو هزيمتهـم. ويلاحـظ أن مـا يجمـع بيـن هـؤلاء المنافقيـن أو العمـلاء جميعًـا، هـو الحـرص علـى الإرجـاف والتلفيـق مـن خـلال نشـر الأخبـار المكذوبـة، والمغلوطـة، أو مـا يمكـن أن يصنـف فـي المصطلحـات الحـديثة بـ «التضليـل الاسـتخباري، Disinformation»، حيـث يحـذر القـرآن هـذا النفـر بالقـول:

﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾﴾.[49]

ويؤكد الطبري في تفسيره للآية الكريمة أن المقصود بالمرجفين هو من يردد الكذب والباطل في المدينة كقولهم «أتاكم عدد وعدة».[50]

إن نشر الشائعات والخوض في كلام غير مسؤول عن الأسرار العسكرية، لا سيما أيام الحرب، من الأمور الخطيرة التي تتناقض وما أوصانا به الله تعالى وما نهى القرآن الكريم عنه مراراً. فكما كان البريطانيون، أيام الحرب العالمية الثانية، يُنصَحون بأن «يلتزموا الصمت» ويُحذّرون من خلال وسائل الإعلام والملصقات التي كانت ترفع في الأماكن العامة من أن «الثرثرة العبثية تزهق الارواح»[51] فإن المسلمين كانوا يُذَكَّرون بأن ينصب جهدهم على العمل الصالح البناء والتعاون التام مع الذين هم مكلفون بحماية أمن العباد والبلاد كما أشير إلى ذلك في أكثر من موضع في الكتاب المجيد.[52]

ويذكّر القرآن الكريم المؤمنين بأن عليهم التزام جانب الحذر، لا سيما في أوقات الحرب، ذلك أن بعض المنافقين كما يشير بذلك معظم المفسرين الكبار من أمثال محمد بن جرير الطبري والفخر الرازي، أعلنوا إسلامهم زوراً وبهتاناً لأغراض مبيتة ولأسباب غير حميدة. فقد كانت هذه الفئة الضالة تُكِنّ كراهية وحقداً دفيناً للرسول ﷺ وكان ديدنها في ذلك التعاون مع أعداء الرسالة لتقويض الدولة الإسلامية، وإضعاف الدين الجديد من خلال استهداف رأسها. فكان هؤلاء كثيراً ما ينشرون الشائعات المغرضة، والأراجيف الباطلة للتأثير على بعض من لم يترسخ إيمانهم بعد، بل كانوا أيضاً يتخابرون مع القوى المناوئة للمسلمين، ويعملون -كما يشير

المؤرخون- عيوناً لقوات الأعداء كما حدث في غزوات «أحد» و «الخندق» و«تبوك» وفي غيرها من المعارك والمواجهات.[53]

وإذا كان منظّرو الاستخبارات المحدثون وخبراؤهم يؤكدون أن الاستخبارات -أولاً وقبل وكل شيء- هي المعرفة،[54] وأن المعرفة هي القوة والمَنَعة بعينها، فإن استجماع المعرفة والتمعّن بها هو في واقع الحال تعزيز للمواقع وتحصين لها. أي أن المعرفة والقوة وجهان لعملة واحدة، وأن المعرفة باتت أمضى سلاح لا في دنيا الاستخبارات وحسب بل في مناحي الحياة كافة. فقد سبق القرآنُ الكريم ما جاء به الخبراء والمنظرون بقرون عديدة، حين أمر جميع المؤمنين بأن يكونوا مسلحين بالمعرفة، واليقظة، وأن يكونوا حذرين ومستعدين لأي طارئ من أجل الحفاظ على بيضة الإسلام وإحباط مؤامرات العدو ويوضح ذلك قوله تعالى:

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ٦٠﴾[55]

يتفق عدد من المفسرين على أنه وبالرغم من أن الآية لا تذكر نوعاً محدداً من القوة التي يتحتم على المؤمنين أن يُتقِنوها، فالمقصود هنا أن يسهموا بكل ما من شأنه أن يزيد قوة المسلمين في أي مجال من مجالات المجهود البشري. وفي هذا السياق يُعتبر العمل الاستخباري أحد روافد القوة التي يأمر القرآن المسلمين أن يتقَنوها. وحسب «الفخر الرازي» و «محمد الفهري»، فإن كلمة «عدو» في قوله تعالى: ﴿عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ﴾ عائدة على «مؤامرات المنافقين وأهل الشر والذين لا يسهل التعرف عليهم»، ويمكننا أن نُسقِط هذا الأمر على أفراد مثل «الجواسيس» و «العملاء المتخفين» في أيامنا هذه.[56]

الفصل الثالث

السنة النبوية الشريفة والنشاط الاستخباري

3.1: السنة النبوية الشريفة وعناصر الاستخبارات

أوضحنا في الفصول السابقة أن الأنشطة الاستخباراتية المختلفة مورست في شبه الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام بزمن طويل، ولو أن ذلك كان على نحو بدائي أو غير منهجي. فقد كان من عادة العرب القدامى أن يستعينوا بمن كانوا يطلقون عليهم «العيون» ليجمعوا لهم ما يمكنهم من معلومات استخبارية من أجل الدفاع عن الأرض والعرض، أو الاستعداد لشن غارة انتقامية أو حملة تأديبية لاستعادة حق، أو إغاثة ملهوف، أو غير ذلك من أسباب الاحتراب. وقد ناقشنا في الصفحات السابقة أيضًا النشاطات السرية أثناء المعارك، أو قبل العمليات الحربية، وسلطنا الضوء على أهمية العمل الاستخباري للقبائل وقادتها. ومما لا شك فيه، أن تلك الأساليب البدائية لم تكن متطورة إذا ما قورنت بالنشاط الاستخباري الحديث، لكنها -رغم ذلك- كانت تفي بمتطلباتهم، وتلائم ظروفهم، وتسد حاجاتهم في تلك الأيام. وتشير المصادر التاريخية من أعمال أدبية أو نقوش أثرية أو ما تناقلته الألسن عبر الأجيال الى أن بعض هذه النشاطات قد نضج وتطور مع مرور الوقت بينما اختفى البعض الآخر تدريجيًا.

ورغم كل ذلك يمكن القول أن الإرث الاستخباري الذي ورثه المسلمون الأوائل كان وافرًا، إلى الحد الذي يَسّرَ لهم اشتقاق العديد من القواعد والتشريعات التي كانت تنظم هذه النشاطات، والتي ظلت على مر الأجيال مكتومة من جهة، ومحفوفة بالكثير من المخاطر من جهة أخرى. فقد رأينا أن التجسس مورس قبل الإسلام لأسباب عدة، منها الحصول على مكاسب

مادية، أو تحقيق مصالح خاصة لشخص ذي نفوذ، أو لقبيلة من القبائل. ومن أهداف التجسس العمل على توطيد الزعامة، وتحقيق الشهرة، وإحكام القبضة، أو تصفية بعض المنافسين والخصوم المحتملين. وكثيراً ما كانت القبائل المتنافسة -لا سيما عند استشعار الخطر أو في أوقات الأزمات كنقص الماء أو ندرة الكلأ- تشن غارات كبيرة تستهدف منها تحقيق مكاسب استراتيجية مهمة على الأرض كالحصول على مراع جديدة، أو السيطرة على موارد المياه التي تمثل عصب الحياة في الأراضي الرملية كما في سواها.

ومع توالي الأجيال أصبحت القواعد والتشريعات القرآنية التي تحكم التجسس والاستخبارات تؤلف إطاراً عقائدياً، يستطيع الأفراد والجماعات والدول الإسلامية في كل زمان ومكان الركون إليه، والاشتقاق منه، واستلهامه، والاسترشاد به بكل يسر. فالقرآن الكريم هو دون أدنى شك أهم مصدر للتشريع. وينصرف هذا الحكم إلى «العمل الاستخباري» وأنشطته السرية، كما هي الحال أيضاً في باقي نواحي الحياة. أما المصدر الآخر الذي يمكن الاستلهام منه وتقليده فهو السنة النبوية. فنحن المسلمين نرى في عمليات الرسول ﷺ الاستخبارية تجسيداً واقعياً للتشريع الإسلامي في هذا المجال الحيوي. ليس ذلك فقط بل نرى فيها أيضاً نموذجاً مثالياً يقتدى به، ودروساً عملية تمثل تطبيقاً أمثل لقواعد القرآن التي تحكم العمل الاستخباري. وليس أدل على ذلك من أن القرآن تعامل مع أصل الدورة الاستخبارية للمعلومات على نحو يؤكد فيه على دفع الشك بالتثبت واليقين. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾[1].

وزيادة في التفصيل نقول إن الكتاب العزيز يوفر للقارئ العديد من الأمثلة المباشرة على الأنشطة الاستخبارية المرتبطة بتاريخ الرسل

وحياتهـم، والتـي يمكـن مـن خلالها وبـكل يسـر تشـخيص حركـة الـدورة الاسـتخبارية واكتمالها. ويوضـح القـرآن بجـلاء أن العمليـات الاسـتخبارية التي يتـم تنفيذها ضد أعـداء الإسـلام ولمصلحة المسـلمين هي فـي معظمها واجبة وجائزة شـرعاً. وقد يفسـر هـذا الموقـف الركائـز الفكرية التـي تنطلق منها الأجهزة السـرية الرسـمية لبعض الدول الإسـلامية، بل وبعض المنظمات أو المجموعـات المسـلحة لتحقيـق طموحاتهـا الهادفـة الـى خدمـة مصالـح المسـلمين كتحريـر الأراضـي المحتلـة، أو طـرد المغتصـب، أو تحقيـق العدالـة ومحاربة الأنظمـة القائمة علـى ظلم العبـاد وقهرهم. وترى فـي محاولة النيل مـن العـدو ليس عمـلاً مشـروعاً فحسـب، بـل واجبـاً دينيـاً وأخلاقياً. ويحذر الإسـلام أيضاً من الآثـار الوخيمـة التي يخلفهـا التجسـس على الأمة الإسـلامية، واصفاً أولئك المندسـين بين أوسـاط المسـلمين الذين يعملون مع أعداء الإسـلام بأنهم «منافقـون» يجدر مقتهم وعقابهم بشـدة. ومـن جهة أخرى فإن التجسـس علـى حيـاة النـاس الشـخصية أمـر منهي عنـه وغير مشـروع وفقًا لمـا ورد في القـرآن الكريم، قـال تعالـى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ﴾.[2]

إن مصطلح «السّـنة» يعنـي حسـب مـا درج النـاس علـى اسـتعماله في الحيـاة العامـة، الطريقـة أو الكيفيـة أو الطريـق الواضـح أو السـبيل المتبع. أما فـي الفقه الإسـلامي فإنـه مقيد بمعنـى سـيرة وأدب الرسـول ﷺ، وأعماله، وأوامره، وأسـلوب حياته العامـة قال تعالـى: ﴿سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحۡوِيلًا ٧٧﴾.[3] فالإسـلام يعتبر النبي محمـداً ﷺ الدليل والقدوة والمشـرع عملياً ونظرياً. والمؤمنون يعتقـدون اعتقاداً يقينيـاً، أن النبي الأكرم ﷺ عاش حيـاة صادقة، ووضـع معايير متوازنـة، وعادلة لحياة تضمن السـعادة، والطمأنينـة، والنصر بتوفيـق الله وبركته.[4] ومـن المعروف أن أقـوال النبي ﷺ وأفعالـه وسـيرته وأحكامه التشـريعية جُمعـت بكل عنايـة ودقة، وتم دراسـتها،

وتبويبها، ومناقشتها على أيدي العديد من علماء الحديث والفقه والسيرة. وقد تم تصنيفها بأساليب متعددة منها على سبيل المثال ما رتب حسب التواتر، أو حسب الموضوع، أو وفق التسلسل الزمني، أو وفق حروف المعجم أو غير ذلك. وفي الوقت الذي لا يُجمِع علماء الإسلام على صحة كل الأحاديث المسندة إلى الرسول ﷺ، فإن معظمها تم التحقق منها بدقة. ولا يخفى أن دلالة ومشروعية هذه الأقوال النبوية تأتي في المرتبة الثانية بعد القرآن الكريم. وتمس هذه الأحاديث السيرة الشخصية للرسول ﷺ ونشاطاته العامة، ومعاركه، ومباحثاته، واتفاقياته، وكل ما عمله لينشر الدين الإسلامي للأمة بل للعالم أجمع. ومن هذه الأحاديث الشريفة ما يتصل بالعمل الاستخباري، وتجميع المعلومات الاستخبارية، والأنشطة السرية، وتدابير أخرى تبناها الرسول ﷺ بنفسه، أو أمر بها. وقد أصبحت جزءاً لا يتجزأ من التراث الإسلامي الحي.

على أن ما يهمنا من كل ذلك في المرحلة الحاضرة أن حياة الرسول ﷺ وأقواله بالنسبة لمليار ونصف المليار مسلم حول العالم[5]، ظلت على مدار الزمن نموذجاً مثالياً لهم يحاول المؤمنون منهم أن يحذوا حذوه كلما أمكنهم ذلك. وقد شهد كثير من غير المسلمين كالأدباء العظام والمستشرقين المنصفين من أمثال الياباني البروفيسور «يوشيودى كوزان Yoshihidi Kozan» والألمانية البروفسورة «آنا ماريا شيمل Annamarie Schimmel» والأسكتلندي «مونتغمري وات Montgomery Watt» وغيرهم كثير بسموّ شمائل الرسول ﷺ ورفعة مكانته السامية بين البشر. ورغم غناه عن شهادات البشر، إلا أن شهادة الأعداء خصوصاً فيما يتعلق بموضوعنا الراهن لهو ما كان علينا إبرازه. فقد أشار المؤرخ العسكري «ريتشارد غابريال[6] Richard Gabriel» جانب مهم من شخصية النبي محمد ﷺ وإلى حنكته، وسعة أفقه، ورجاحة عقله، وحسن تدبيره، وقدرته الفائقة على تجاوز المحن والأزمات.

ويصـف غابريال شـخصية الرسـول ﷺ فيقول:

"زعيـم عسـكري فـذ، حـاذق فـي التكتيـك، قائـد محنـك، مفكـر إسـتراتيجي، قائـد معـارك علـى مسـتوى العمليـات، ... وأول زعيـم ناجـح فـي التاريـخ... كان بحـق جنـرالاً عظيمـاً وخبيـر تكتيـك، اشـترك فـي ثمانـي معـارك كبـرى، وقـاد ثمانـي عشـرة غـارة، وخطـط ثمانـي وثلاثيـن عمليـة عسـكرية أخـرى حيـث كان آخـرون يقودونهـا ولكـن تحـت إمرتـه وتوجيهـه الإسـتراتيجي المباشـر.. ثبـت أنـه متمـرس بـارع فـي اسـتخبارات الحـروب، وأضحـى جهـازه الاسـتخباري يفـوق مـا لـدى الرومـان والفـرس، خصوصـاً فيمـا يتعلـق بالاسـتخباراتالسياسـية".[7]

وسـنحاول في الصفحـات التالية تسـليط بعـض الضوء على النشـاطات الاسـتخبارية في عهد النبي الكريم ﷺ قبل تأسـيس الدولة الاسـلامية، وبعدها، منطلقيـن فـي دراسـتها مـن نظريـة علـم الاسـتخبارات الحديثـة وفـي ظل المعاييـر المتبعـة فـي تحديـد معالـم الأداء الاسـتخباري وتقييمـه التي حدد أركانهـا البروفسـور «روي غودسـون»[8] وهـي: الجمع السـري، الاسـتخبارات المضـادة، التحليـل والتوزيع، العمل السـري.

3.1.1: الجمع السري

يكاد العمل الاستخباري أن يعتمد، على نحو كلي، وأكثر من أي نشاط بشري آخر، على جمع المعلومات الموثوقة بصورة دقيقة وأمينة. فالمعلومات المستهدفة في ذلك هي التي تتصل بكل الأمور أو القضايا التي تهم محركي القوى البشرية من قادة وصناع قرار إلى غيرهم، مهما عظم شأن هذه الأمور أو صغر. وأهم ما يميز أساليب الجمع المختلفة هو الكتمان الشديد والسرية التامة. ومما لا شك فيه فإن المعلومة المقدمة ترتبط ارتباطًا وثيقاً بمصداقية المصدر أي جامع المعلومة وبالطريقة الحرفية التي اتبعها للحصول على تلك المعلومة.

وغني عن القول أن السرية والكتمان في الإسلام كانا ملازمين لانبثاق الدعوة الإسلامية وولادة الدين الجديد في «مكة» وذلك درءاً للمخاطر وحفاظًا على أرواح تلك الفئة المؤمنة التي نبذت الديانات التي توارثوها جيلاً بعد جيل واتبعت نبيّ الرحمة وتعاليمه. فقد بدأ الرسول ﷺ الدعوة إلى الإسلام بصبر وصمت وفي سرية تامة.

على أن السرية لم تكن في أول الأمر مطلبًا «استخباريًا» بل ضرورة تقتضيها الظروف القاسية التي نشأ في ظلها الدين الجديد، فكان لابد إذن من التزام جانب الحذر الشديد. والأخذ بأسباب الحذر (والسرية من الحذر) تكاد تكون إحدى القواعد المتينة في الإسلام، لا سيما أن الرسول ﷺ يحثنا على الاستعانة بالكتمان على قضاء حوائجنا.[9] ولهذا حرص أوائل

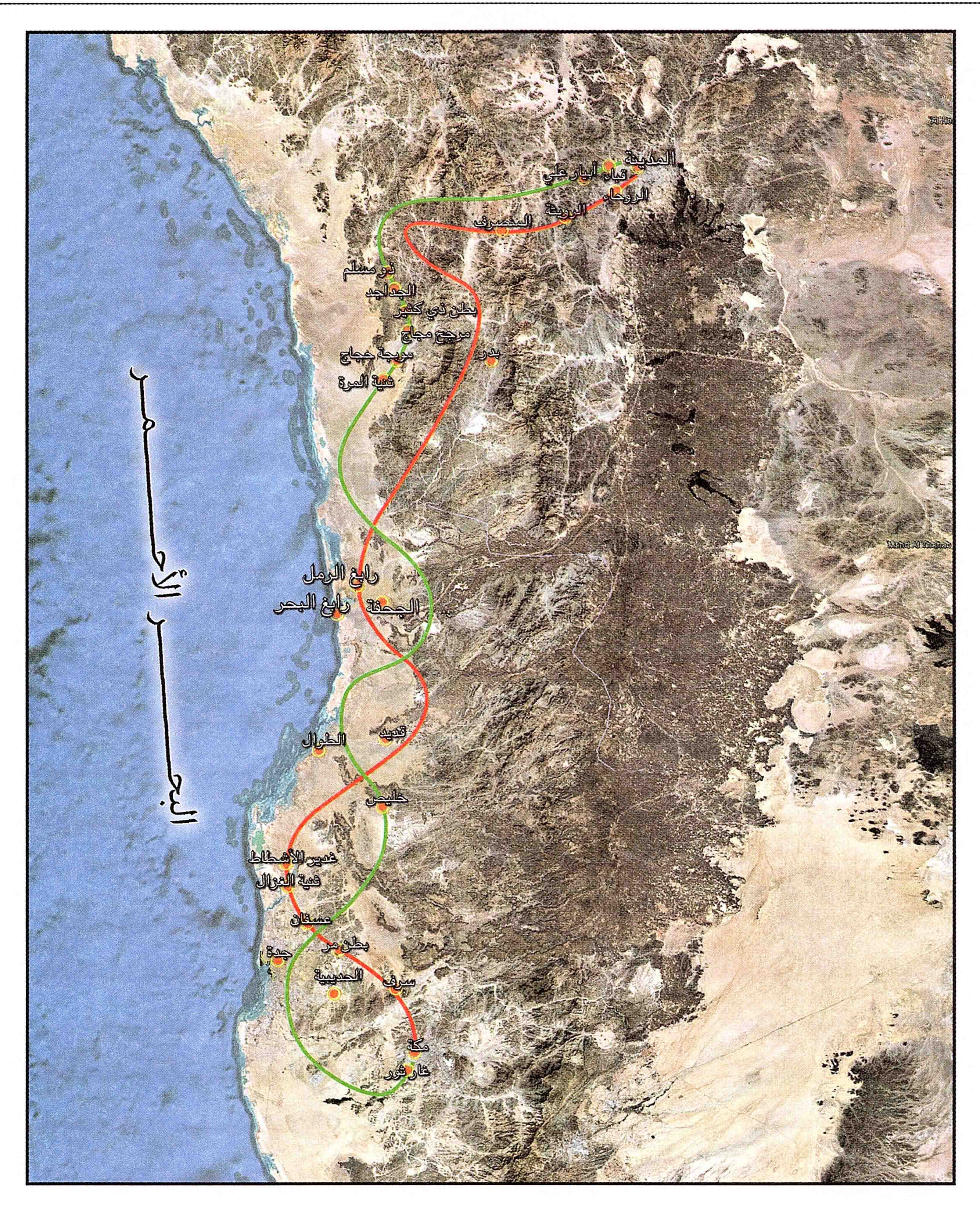
الذيـن لبوا دعـوة الرسـول ﷺ إلى الإسـلام مـن أمثـال أم المؤمنيـن خديجة، وصديقه الصـدوق ومؤتمن سـره أبوبكر، وابن عـم المصطفى ﷺ علـي بن أبي طالب، على كتمان إسـلامهم بـادئ الأمـر وتمكنوا من خـلال هـذا الكتمان أن يمدوا الرسـول الكريـم ﷺ بالدعـم المعنوي والمـادي الذي كان بحاجـة إليه.

وإذا أردنا أن نطبـق المعيار الأول وهـو «الجمع السـري» للمعلومات وفق الضوابط التـي حددها «روي غودسـن» لتعريـف العمل الاسـتخباري وتمييزه عن أوجه النشـاطات الإنسـانية الأخرى فسـنجد أن في التاريخ الإسـلامي ولا سـيما في مرحلة نشـوء الدعـوة مـن الأمثلة مـا يجعل هـذا المعيـار منصرفاً تماماً إلـى مـا كان يقوم بـه «عبد الله بـن أبي بكـر» رضـي الله عنه الـذي يعد بحـق أول من قام بجمـع المعلومات السـرية وإيصالها إلى صانع القـرار الذي لم يكن في هذه الحالة سـوى رسـول الله ﷺ. فقد كانـت تقاريره السـرية في الأيام الأولى للهجرة إلى «المدينـة»، ذات أهمية قصوى لحماية رسـول الله ﷺ و «أبي بكـر الصديق» رضـي الله عنه فـي تلـك الرحلـة المصيريـة. وكان المصطفى ﷺ الذي غادر «مكـة» سـرًا، واتخذ من «غـار ثور» مخبـأ له أثنـاء توجهه نحو «المدينـة»، يوجّـه هـذا الشـابَّ الكريـم للاختـلاط بأهـل «قريش» فـي «مكة» خـلال النهار، علـى أن يعـود إليه خفيـة في الليـل ليخبـره بما رآه وسـمعه في أرض العـدو. وكان هـذا «العين» وعلى مدى ثلاث ليال متتالية ينسـل سـراً من «مكة» إلـى الموقع الـذي كان يقيم فيه الرسـول ﷺ مـع أبيه «أبي بكـر» -رضي الله عنـه- وهناك كان «عبـدالله» -رضي الله عنـه- يقدّم إلى الرسـول ﷺ تقارير مفصلة عمـا يحدث في «مكـة» ونوايـا قادتها.

كان «عبدالله» يذهب ليلتقي بالرسـول ﷺ وصاحبه «أبـي بكر» -رضي الله عنه- بعـد الغسـق، فيقضي الليلـة هنـاك، يخبرهما بما اسـتجد فـي «مكة»، ثم يذهب فـي الصبـاح ليختلط بأهـل «مكة» كالعـادة حتـى لا يلفت الأنظـار بأي

شــكل من الأشــكال إلى نشــاطاته الســرية.[10] وكان يعاون عبد الله في مهمته هذه شــخصان: أولهما أخته «أســماء بنت أبي بكــر» -رضي الله عنهــا-، وثانيهما هو «عامر بن فهيــرة» أحد رعــاة الغنــم ومن الأوائــل الذيــن ائتمنهم الرســول ﷺ بعد دخولــه الإســلام. وكان هذا الراعــي الأمين الذي ســبق ان أعتقــه الصّدّيق وجعله يرعــى ببعض غنمه يســهم فــي تقديم الخدمات اللوجســتية للرســول ﷺ وصاحبه. فقــد كان يقدم الحليب لهمــا ويقوم أيضاً بمســح آثار أقــدام «عبد الله ابن أبي بكر» وأخته «أســماء» رضــي الله عنهما عنــد «غار ثور» كــي لا يلتفت إلى ذلــك المشــركون. وإلى جانــب كل هــذا وذاك كان «ابن فهيــرة» عيناً أمينة يأتــي بالأخبار للرســول ﷺ فــي تلك الفتــرة الحرجــة مــن تاريــخ الدعوة. فقد كان ينســل ســراً كل ليلــة ومعــه بعــض مــن الماعز إلــى الكهــف، حتــى يمد قاطني الكهــف بكمية وافرة مــن الحليب.[11] وخــلال النهار كان يخالــط الرعاة في المنطقة ويســتمع إليهم بانتباه شــديد ويتذكر تفاصيل كلامهم والشــائعات التي كانــوا يتناقلونها. وكانت هــذه التفاصيل تصل الرســول ﷺ و«أبــا بكر» -رضي الله عنه- مع هبــوط الليل.

أمــا «أســماء بنــت أبــي بكــر» -رضــي الله عنها-، فإنهــا قامــت بواجبات الإمداد للرســول ﷺ وأبيهــا طوال الأيــام الثلاثة التــي مكثاها في «غــار ثور»، فكانت توفــر لهم مــا يحتاجانه من الطعــام. هذا مــا يتصل «بواجبــات الإمداد»، أما فيمــا يتصــل «بالعمــل الاســتخباري» الــذي كان أخوهــا ينهض بــه، فرغم أن الســيرة لم تأتنا بشــيء يفيــد بأنها شــاركت أخاها فــي دوره الاســتطلاعي والتقاط الأخبــار، إلا أنها كانت مــن أقرب النــاس الذين كانوا فــي قلب الحدث العظيــم (الهجــرة)، التي صححت مســيرة البشــرية جمعاء وحدت بالمســلمين في مشــارق الأرض ومغاربهــا أن يؤرخوا أحداثهــم وأيامهم بها. فثبات «أســماء» -رضــي الله عنهــا-، وقــوة عزيمتهــا، وحفاظهــا على الســر الكبير، -ســر هجرة الرســول ﷺ وصاحبه الأمين إلــى «المدينــة»- كان دون أدنى شــك عملاً جباراً



الطريـق التجاري السـائد الذي كانت تسـلكه قريش فـي تجارتها إلى الشـام

الطريق الـذي سـلكه المصطفـى ﷺ في طريـق هجرته الشـريفة إلـى يثرب

في حد ذاته، يتطلب رباطة جأش وعزيمة لا تلين. فقد روى «ابن إسحاق» وغيره، عن «أسماء» -رضي الله عنها- أنها قالت:

> لما خرج رسول ﷺ وأبو بكر -رضي الله عنه- أتانا نفر من «قريش»، فيهم أبو جهل بن هشام، فوقفوا على باب أبي بكر فخرجت إليهم فقالوا: أين أبوك يا بنت أبي بكر؟ قالت قلت: لا أدري والله أين أبي؟ قالت فرفع أبو جهل يده وكان فاحشاً خبيثاً، فلطم خدي لطمة طرح منها قرطي. قالت ثم انصرفوا. فمكثنا ثلاث ليال. وما ندري أين وجه رسول الله ﷺ.[12]

وبعد ان استقر الحال بالرسول ﷺ في «المدينة»، وبدأت مرحلة بناء الدولة الإسلامية مع كل ما يتطلبه ذلك من استتباب الأمن والاستقرار تواصلت عمليات الجمع السري للمعلومات. وقد اتخذت هذه الممارسات أنماط عدة منها إرسال بعثات إلى ما حول «المدينة» إما لاستطلاع ميداني، أو تأكيد لمعلومات، أو اعتراض للخصم أو القتال إذا استدعى الأمر. وكانت هذه البعوث ترجع بالأخبار، وإن شئت قلت «التقارير»، عما استخلصوه وشاهدوه أثناء مهامهم تلك. ففي السنة الأولى من الهجرة ازداد تهديد أهل «مكة» للمهاجرين، وتكرر الوعيد من صناديد «قريش» بالقضاء عليهم، فما كان للمسلمين من بد، إلا محاولة الرد على الخطر بمثله، وذلك من خلال اعتماد استراتيجية ردع إسلامية يظهر فيها القوة للخصم، لمنعه من الاعتداء، وإدخال الرهبة في صفوفه، لمنعة من الحركة، تحسباً للمخاطر والخسائر التي قد يتعرض لها. كما تقوم هذه الاستراتيجية على عنصرين رئيسيين وفقًا لقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ﴾[13] فالرباط هنا المرابطة والتي تعني الجاهزية، أما الخيل ويقصد بها السرعة والمباغتة للخصم.[14]

قضت الاستراتيجية الإسلامية بالعمل على الحد من خطر قريش وتهديداتهم وذلك بقطع عصب الاقتصاد المكي وشل حركته. فأعد المسلمون خطة عسكرية فرضوا بها حصاراً اقتصادياً على مكة، وذلك من خلال اعتراض القوافل التجارية المتجهة من وإلى «مكة»، بهدف إجبارهم إلى الجنوح للسلم والكف عن التهديد والبطش بالمستضعفين من المسلمين الذين انقطعت بهم السبل في «مكة» وغيرها.[15] ولم تأت هذه الفكرة من فراغ فقد كانت ردًا على الحصار الذي حاول مشركوا مكة فرضه على المسلمين من خلال منع القبائل من الاتجار معهم في «المدينة». ولتنفيذ هذه الخطة عمد المسلمون إلى تكثيف أنشطة «الجمع السري للمعلومات»، كونه مطلباً أساسياً لنجاحها. فتركزت أعمال الرصد والتحري على معرفة أوقات تحرك القوافل، وأعدادها، ومن يقوم عليها، والطرق التي ستسلكها في رحلاتها، أما شمالاً لبلاد الشام أو جنوباً لليمن. وبذلك أصبح نشاط الجمع محط اهتمام بالغ من مسلمي «مكة»، والمهاجرين والأنصار وحلفائهم من القبائل القاطنة على طرق القوافل التجارية.

وفي هذا الإطار، بدأت المعلومات تتواتر من المصادر المتعددة وتصل تباعاً لرسول الله ﷺ. ففي شهر رمضان من السنة الأولى للهجرة أبلغ رسول الله ﷺ بمعلومات سرية تتمحور حول قدوم قافلة لـ «قريش» من «بلاد الشام» وتقصد «مكة»، وكان فيها «أبو جهل بن هاشم» وثلاثمائة رجل معه، فأمر رسول الله ﷺ بتحرك سرية لاعتراضها، قادها عمه «حمزة بن عبد المطلب» -رضي الله عنه- حيث التقاهم في موقع يدعى «سيف البحر» من ناحية «العيص».[16] ويتضح لنا من ذلك مدى صحة ودقة المعلومات التي تحركت على ضوئها تلك السرية العسكرية، مما يؤكد أن تلك المصادر كانت تتمتع بدرجة عالية من المصداقية وقدرة للوصول إلى أدق المعلومات عن تحركات القوافل القرشية.

كما رصد المسلمون في شهر شوال من نفس العام معلومات أخرى عن قدوم عير لـ «قريش» متجهة إلى «مكة» عبر مكان يسمى «بطن رابغ» وكان يقودها «أبو سفيان» العدو اللدود لرسول الله ﷺ، وكان بمعيته مائتا رجل آخرين، فوجه رسول الله ﷺ لها سرية بقيادة «عبيدة بن الحارث بن المطلب» لاعتراضها، وتقابلا على ماء يقال له «أحياء» بـ «بطن رابغ».[17] وهذا أيضًا ما يؤكد على براعة مصادر المسلمين في نشاط جمع المعلومات، ودقتهم في تحديد أماكن تواجد المستهدفين في عصر كان يفتقد إلى وسائل تحديد المواقع والتواصل الأكتروني السريع. كما أن جاهزية السرايا في التحرك السريع، وتحقيق عنصر المفاجأة للخصم، لاشك ولد الرهبة، وزرع الرعب في قلوب الأعداء.

وتتواصل في السنة الأولى من الهجرة أعمال الرصد والتحري من قبل المصادر الإسلامية والعاملين معها، فنرى أنه في شهر ذو القعدة تمكنت مصادر رسول الله ﷺ، من رصد عبور عير لـ «قريش» لمكان يسمى «الخرار» وهو مكان يقع بالقرب من «الجحفة»، فيأمر الرسول الكريم ﷺ بتحرك سرية من المشاة قادها «سعد بن أبي وقاص» للحاق بها واعتراضها، فكانوا يكمنون في النهار ويسيرون بالليل مشياً على الأقدام حتى بلغوا «الخرار»، حيث كانت القافلة قد عبرت وأفلتت منهم قبل وصولهم.[18] وبالرغم من ذلك إلا أن جاهزية التحرك للسرايا وسرعة الوصول لموقع العدو، بل والاقتراب منه أحياناً لدرجة الالتحام معه في نزال عسكري، قد حقق أهم أهداف استراتيجية الردع الإسلامية، ألا وهو إظهار القوة وبث الرعب في قلوب الأعداء ومنعهم من الإقدام على أي عمل قد يضر بالمسلمين في «المدينة».

ولاستمرار إحكام تنفيذ خطة «الحصار الاقتصادي» على المكيين، كان ولابد من ارتفاع وتيرة جمع المعلومات، وبالتالي ازدياد عدد الحملات

الاعتراضية لقوافل «قريش». فبعد انقضاء العام الأول للهجرة واستشعار «قريش» تعاظم خطر المسلمون عليهم وعلى قوافلهم الاقتصادية التي كانت هي الرافد الرئيسي للاقتصاد المكي، واستمر المسلمون في رصد تحركات القوافل المكية، وكان لشهر صفر من السنة الثانية للهجرة موعد مع ذلك، حين ورد لرسول الله ﷺ معلومات عن عبور عير لـ «قريش» في مكان يسمى «ودان»، قاد على إثرها حملة من المهاجرين قوامها سبعين رجلاً لاعتراضها.[19]

ولم تكن تلك الغزوة هي الوحيدة التي قادها رسول الله ﷺ في السنة الثانية للهجرة لاعتراض عير «قريش»، ففي شهر ربيع الأول وبعد أن نمى إلى علمه معلومات بقدوم قافلة مكية مكونة من ألفين وخمسمائة بعير كان عليها «أمية بن خلف الجمحي» وبصحبته مائة رجل من «قريش»، قاد رسول الله ﷺ أيضاً حملة قوامها مئاتا رجل من أصحابه لاعتراضها في جبل يدعى «بواط» من جبال جهينة على الطريق المؤدي إلى الشام.[20] كما قاد ﷺ غزوة أخرى في جمادى الآخر من نفس العام وهي غزوة «ذا العشيرة» بمائتين من أصحابه، على إثر معلومات توفرت له من مصادره مكية عن خروج قافلة ضخمه من «مكة» متجهة إلى «بلاد الشام»، وعند بلوغه موقع «ذا العشيرة» وجد أن العير قد عبرت قبله بأيام.[21] ويبدوا أنه بالرغم من صحة تلك المعلومات ودقتها، إلا أنه تأخر وصولها لرسول الله ﷺ، حال دون التمكن من اعتراض القافلة في المكان والوقت المناسبين، وهو ما يؤكد لنا أهمية عامل الوقت عند تمرير المعلومات الاستخبارية.

ويمكن القول هنا بأن العيون التي كانت ترصد المعلومات لرسول الله ﷺ كانت على قدر كبير من المصداقية وذات قدرة للوصول لأدق المعلومات، فالحرب الاقتصادية التي اضطر المسلمون إلى شنها ضد أهل «مكة»، الذين

عادوا المسلمين وألّبوا عليهم -كما أوضحنا سابقاً خلال السنتين الأولى من الهجرة النبوية الكريمة- لذا عمل الرسول ﷺ كل ما بوسعه لاعتراض طرق سير قوافلهم التي تربط «مكة» بالعالم الخارجي، لا سيما الطرق البرية منها. وكان أهمها التي رصدت له مصادره عن قدوم قافلة لـ «قريش» كانت قد أفلتت منه في « غزوة ذا العشيرة» وكانت عائدة بقيادة «أبي سفيان»، أحد أغنى اغنياء زعماء «قريش» وأكثرهم نفوذاً، فأمر الرسول ﷺ رجلين من أصحابه على الفور للبحث والتحري ورصد أخبارها، فمكث المكلفان بمنطقة تدعى «الحوراء» على الطريق البري الذي كانت تسلكه القوافل التجارية حتى مرت بهم القافلة، وعرفا حجم حمولتها، وطبيعتها على نحو دقيق.[22] وعلى الفور نقلا تلك المعلومات المهمة إلى الرسول ﷺ، التي أخذها في الحسبان وهو يخطط للدفاع عن مصالح المسلمين، وعن دولتهم الفتية. وقد تمخض الأمر في النهاية عن أول تعرض عسكري إسلامي حقق نجاحاً فاق كل التصورات والحسابات آنذاك ونقصد بهذا «غزوة بدر الكبرى».

على أن أعداء الدعوة الإسلامية في «مكة» لم يكونوا أقل خبرة بالعمل السري، وجمع المعلومات، وتوظيف المعلومة الاستخبارية عن المسلمين وأوضاعهم وتحركاتهم. ونذكر على سبيل المثال أن «أبا سفيان»، الذي كان الهاجس الأمني يواكبه على الدوام، سأل أثناء عودته بقافلته من « الشام» بعض أصحابه إن كان أحدهم قد رأى غرباء، أو سمع عن عيون يعملون لحساب الرسول ﷺ. عندها علم بخبر الرجلين اللذين أُرسلا للتحري عن تلك القافلة. فطلب معرفة مكان راحلتهما وعندما أوصلوه للمكان الذي ربطا فيه جمليهما، أمر «أبو سفيان» رجاله للإتيان ببعض من روث هذين الجملين. ولدى تفحص هذا الروث اكتشف أن فيها بعضاً من نوى تمر «المدينة المنورة». مما أكد له ظنونه، بيد أنه ما أن رأى نوى التمر حتى صرخ قائلاً: "إن هذه النوى لتمر يثرب، ولابد أن الرجلين من جواسيس محمد". ثم أمر القافلة على الفور بأن

تغير طريقهـا وأن تحث في سـيرها.[23]

وفـي السـياق نفسـه نشـير إلـى أن الرسـول ﷺ أراد قبـل «فتح مكـة» أن يعتمـر إليهـا، وبدأ السـير ومعـه سـبعمائة مـن أصحابـه. عندمـا وصلـوا مكاناً يسـمى «ذو الحليفـة»،[24] أرسـل عينـاً إلـى «مكـة» يخالـط «قريشًـا» فيجمـع منهـم معلومـات عـن نواياهـم وخططهـم ويركـز بالتحديـد علـى رد فعـل أهـل «مكـة» على العمـرة تلـك. وقد أتـم هـذا العيـن مهمته ووافـى الرسـول ﷺ عند مـكان يدعـى غديـر ذات الأشـطاط،[25] فقال:

": يا رسـول الله تركـت قومك، كعـب بن لـؤى، وعامر بن لـؤى، قد سـمعوا بمسـيرك ففزعـوا، وهابـوا أن تدخـل عليهم عنوة وقد اسـتنفروا لك الأحابيـش، ومن أطاعهـم معهم العوذ المطافيل قد لبسـوا لـك جلد النمـور ليصدوك عن المسـجد الحـرام، وقـد خرجوا إلـى بلـدح وضربوا بهـا الأبنيـة وتركت عمادهـم يطعمـون الجـزر أحابيشـهم ومـن ضـوى إليهـم فى دورهـم وقدمـوا الخيـل عليها خالـد بـن الوليد، مائتـى فرس، وهـذه خيلهـم بالغميـم وقـد وضعـوا العيـون علـى الجبـال ووضعـوا الأرصـاد." [26]

إن مـا رواه «الواقدي» من اسـتعدادات الرسـول ﷺ لفتح «مكـة» يثبت على نحو واضح ان ما يعـرف في مصطلحاتنـا الحديثة بـ «الاسـتخبارات العسـكرية» كانت تحتل أولويـة خاصة عند رسـول الله ﷺ فـي كل المعارك والغـزوات التي قادهـا الرسـول ﷺ او خطـط لها. ومـن ذلـك انه أمـر ليلة «غـزو حنيـن» أحد عيونـه بأن يتحسـس على العـدو، ليعـرف ما تقولـه الناس ويستكشـف مـا يقوله قائدهـم «مالك بن عـوف النصـري» [27] حـول المواجهة الوشـيكة بين المسـلمين وبين الجيـش الكبير الذي حشـده «مالـك» من قبائل «هـوازن» واعوانهـا. توجه

المبعـوث وانسـل إلى خيمـة كان أتبـاع «مالك بـن عـوف» مجتمعين فيها فسـمع هذ العيـن «مالك بـن عوف» وهـو يقـول للمجتمعين:

«إن محمدًا لم يقاتـل يومًا قط قبـل هذه المـرة، وإنما كان يلقى قومًا أغمـارًا لا علم لهم بالحـرب فيظهر عليهـم. فإذا كان السَّحَرُ فصفـوا مواشـيكم ونسـاءكم وأبناءكـم وراءكـم، ثـم تكون الحملة منكم واكسـروا أغماد سـيوفكم فتلقونه بعشـرين ألـف سـيف واحملـوا حملـة رجـل واحـد، واعلمـوا أن الغلبة لمن حمـل أولا.»[28]

وغنـي عـن البيـان ان التصـدي الـى كل من كانـوا يشـكلون خطـورة على الاسـلام والمسـلمين كان مـن المهمـات التـي تسـتدعي بالضـرورة التعامـل معهم بـكل حـزم وقـوة، كلمـا دعـت الحاجـة. وهكـذا تـم التخلص مـن رؤوس الفتنـة ومروجـي الاكاذيـب مـن مثـل «أسـير بـن زارم» [29] حيـث تـم القضـاء عليه والتخلـص منه لأنـه كان يقف في طريـق الدعوة إلـى وحدانيـة الله ويحاول النيل مـن سـمعة الاسـلام ومـن سـمعة رسـول الله. وفـي هذا السـياق يشـار الـى ان الرسـول الكريـم ﷺ أمر أحـد أصحابه بأن يتسـلل إلـى قبيلـة «غطفان» اليهوديـة ليرقب نشـاط قائدهم «أسـير بـن زارم»، الـذي تواترت المعلومـات بأنه يقود حملة تشـويه ضد الرسـول الكريم ﷺ، حيـث روج بأن الرسـول ﷺ لا هدف له سـوى أن يتخلـص مـن اليهود.

"ولكـن -هكـذا قـال «أسـير»- أعلـم كيـف أتعامـل معـه، وأصنع مـا لا يصنـع أصحابـي". "وما عسـاك أن تصنـع ما لم يصنـع أصحابك؟" -هكـذا قالت النـاس- فرد يقول إنه سيسـير في «غطفـان» فيجمعهـا، ثم يأمرها بأن تسـير إلى الرسـول ﷺ فتقاتله فـي عقر داره. «فإنه لـم يُغز أحد فـي داره إلا أدرك منه عـدوه بعض مـا يريد».[30]

ومن حكمة الرسول ﷺ أنه كان يتثبت من صحة ما يرده من أنباء من مصادر متفرقة. ومن أمثلة ذلك أنه حين لم يشعر بالاطمئنان التام للخبر الذي أتى به المبعوث الأول بعث برجل آخر يتحسس على هذا الزعيم اليهودي. وقد أكد المصدر الثاني الأنباء التي تلقاها الرسول ﷺ من العنصر الأول، فقال: "تركت «أسير بن زارم» يسير إليك في كتائب اليهود". وندب الرسول ﷺ الناس، للسفر جهة «أسير»، فانتدب له ثلاثون رجلا وأمّر عليهم «عبد الله بن رواحة». وذهب «عبد الله» وصحبه إلى «خيبر» لمقابلة «أسير»، وعرضوا عليه السلم. ولقد رضي «أسير بن زارم» أول الأمر وخرج مع المسلمين ونفر من أصحابه حتى يتمموا هذا الأمر عند رسول الله ﷺ، إلا أن «أسيرًا» وهم في الطريق مال إلى رأي آخر. وهنا حدث قتال بين الطرفين قتل فيه «أسير» وجماعته.[31]

ويمكن استجلاء الأهمية التي كان يوليها بناة الدولة الاسلامية للمعلومات الاستخبارية البشرية، أو ما يطلق عليها بالإنجليزية الآن «HUMINT»، من خلال التوجيهات التي كان الرسول ﷺ يصدرها في العادة إلى قادة السرايا والألوية قبل انطلاقهم في مهماتهم. ومن ذلك ما أوصى به «أسامة بن زيد بن حارثة» رضي الله عنه، عندما أرسله في كتيبة إلى الروم فقال له الرسول الكريم ﷺ:

> "يا أسامة سر على اسم الله وبركته حتى تنتهي إلى مقتل أبيك، فأوطئهم الخيل فقد وليتك على هذا الجيش فأغر صباحًا على أهل أبنى وحرق عليهم وأسرع السير تسبق الخبر، فإن أظفرك الله فأقلل اللبث فيهم وخذ معك الأدلَّاء وقدم العيون أمامك والطلائع".[32]

وغني عن القول أن استخدام «الأدِلَّاء» و»العيون» و»الطلائع». في

المهمات التي أوكلها الرسول الكريم ﷺ لقادته يشير إلى المنحى الاستخباري الذي انطوت عليه أهمية المعلومات. وتدل النجاحات التي حققتها العمليات العسكرية والاستخبارية في صدر الإسلام، على أن المصادر الاستخبارية التي أقام الرسول ﷺ استراتيجياته عليها كانت دقيقة وموثوقة للغاية. وتجدر الإشارة هنا إلى أن المصادر التي كانت تمد بناة الدولة الاسلامية الناشئة كانت من أصول وخلفيات وعرقيات مختلفة. فقد شملت أناساً من مختلف طبقات المجتمعات، حيث كانت تضم النساء والرجال، الشباب والشيوخ، الأغنياء والفقراء، الأحرار والعبيد، العرب وغير العرب ومن قرابة الرسول ﷺ وغير قرابته. على أن ما كان يربط كل هؤلاء هو التفاني والتضحية في سبيل القضية العادلة التي آمنوا بها إلى جانب الانضباط والالتزام الشديد بالمراتبية والسرية واحترام وحدة القيادة. [33]

ويشير بعض الباحثين إلى أن الرسول ﷺ كان يستقي بعض معلوماته الاستخبارية من مصادر أخرى كانت تضم على سبيل المثال لا الحصر الأقباط، وبعض المسافرين السوريين، إلى جانب نفر من التجار المحليين. فهؤلاء كانوا يقدمون معلوماتهم، إما طواعية أو مقابل مكافآت مادية على هيئة مبالغ نقدية، أو هدايا عينية كقطع السلاح على سبيل المثال، أو خلافه. وقد لجأ المسلمون الأوائل أيضًا إلى ابتعاث أفراد لمهمات محددة أو تكليف بعض حاملي الرسائل للحصول على معلومات تخص بلدانًا وأناسًا بعينهم يتم إرسالهم إليهم. وكانت الحصانة والغطاء التجاري التي يتمتع بها هؤلاء التجار والمتنقلون، تمكنهم من الانتقال من مكان إلى آخر بيسر وسهولة ومن الاختلاط بحرية أكبر مع المستهدفين. [34]

3. 1: السنة النبوية الشريفة وعناصر الاستخبارات

عند تناول الدور الذي نهضت به أجهزة الأمن في العصر النبوي وتحديداً ما قام به رجال الاستخبارات المضادة -إن جازت تسميتهم بذلك- حماية لمصالح المسلمين الأوائل، فإنه لابد أن نأخذ في عين الاعتبار بأن دعوة النبي ﷺ إلى الدين الجديد كانت في بادئ الأمر محاطة بالسرية التامة. فخلال السنوات الثلاث الأولى المعروفة بمرحلة السرية، كانت كل تحركات الرسول ﷺ، واتصالاته، ولقاءاته تجري بعيداً عن أعين «قريش» ورقابتهم. ثم تبعت هذه السنوات الصعبة التي اتسمت بالصبر والكفاح المرير مرحلة جهادية جديدة هي مرحلة العلن، حين بدأ المسلمون حملة دؤوبة، مفتوحة، نشطة للتعريف بالدين الجديد، ونشر كلمة الحق لا بين أهل «مكة» وما جاورها بل في بقية المجتمعات المنتشرة في أنحاء الجزيرة العربية كافة وإلى خارجها فيما بعد. ولم يأل الرسول ﷺ وأصحابه جهدًا أو يدخروا وسيلة أو مالا في سبيل نشر مبادئ الإسلام ونوره، وهم يركزون جل مجهودهم على الحج وأيام الأسواق والاحتفالات العامة والمناسبات المهمة.

لكن الجهر بالدعوة إلى الدين الجديد -على كل حال- لا يعني أبدًا وضع حد للسرية، كوسيلة متبعة لتحقيق الهدف السامي المنشود. فبالنظر إلى المقاومة الشرسة التي أبداها المشركون، لرسالة محمد ﷺ، ناهيك عن البيئة العدوانية التي كانت تحيط بهم، حيث كانت عيون «قريش» تلاحقهم في كل مكان، كان لابد للرسول ﷺ أن يجد طرقاً مناسبة فعالة للاستجابة

لهذه الأخطـار المحيقـة. وتشـير الوقائـع والسـجلات التاريخية التـي وردتنا عن صـدر الإسـلام، أن أصحـاب الرسـول ﷺ قد تمكنـوا من كشـف عدد من جواسـيس الكفار والمشـركين، وأفلحوا أيضاً في إحباط العديد مـن العمليات السـرية المعادية.

ونشـير هنا علـى سـبيل المثـال إلـى حادثـة وقعـت أثنـاء «غـزوة بني المصطلق». فقبل وقوع الاشـتباك، تمكنت طلائع جيش الرسـول ﷺ من أسـر أحد جواسـيس العدو. ولدى اسـتجوابه رفـض الرجل أن يزود المسـلمين بأي تفاصيـل عن مهمتـه، أو عـن مكان سـيده، أو عـن اسـتعدادات قومـه للحرب. وعندمـا أحضروه إلى «عمـر بن الخطـاب» الذي كثيـراً ما كان يتولى «شـئون الأمـن والاسـتخبارات» -إن جـازت التسـمية- وذلـك فـي عهد الرسـول ﷺ، أصدر أميـر المؤمنيـن تحذيـراً بلهجة شـديدة قائلاً:

"لتصدقـن أو لأضربـن عنقك». عنـد ذاك قـال الرجل: «أنـا رجل مـن بنـي المصطلـق، تركـت «الحـارث بـن أبي ضرار» وقـد جمـع لكـم الجمـوع، وتجلـب إليه نـاس كثير، وبعثنـي إليكم لآتيـه بخبركم، وهـل تحركتم مـن «المدينة»". فأتـى «عمـر» بذلـك الرجـل رسـول الله ﷺ فأخبـره الخبر. فدعـاه رسـول الله ﷺ إلـى الإسـلام فأبـى، وقـال: «لسـت بمتبـع دينكم حتـى أنظر مـا يصنع قومـي. إن دخلـوا دينكم كنـت كأحدهـم وإن ثبتـوا علـى دينهـم فأنـا رجـل منهـم». فمضـى «عمـر»... فضـرب عنقـه، فذهـب الخبـر إلـى «بني المصطلـق».[35] ووصل خبر موت جاسوسـهم، وهـو ما قصده المسـلمون من وراء قتله. وعـن ذلك تقول بنت زعيـم القبيلة، أم المؤمنيـن «جويريـة بنت الحـارث»، التي تزوجها الرسـول ﷺ بعـد أن أسـلمت: "جاءنـا خبر مقتله ومسـير رسـول الله

ﷺ. قبل أن يقدم إلينا النبي ﷺ فسيء أبي ومن معه، وخافوا خوفاً شديداً، وتفرق عنهم من كان قد اجتمع إليهم من أفناء العرب، فما بقي منهم أحد سواهم". [36]

وفي مساعيه الحثيثة لدفع الاخطار، وتعزيز مكاسب الدولة الإسلامية في «المدينة»، كان الرسول ﷺ يؤكد على ضرورة الحفاظ على روح اليقظة والحذر على الدوام، وكان يؤمن أيضاً أن الأمن الداخلي للدولة الإسلامية الفتية يستدعي الحزم مع خائني العهد، أو أعداء الداخل إن صح التعبير، بسبب ما قد يتم تدبيره في الخارج من شرور ضد الدولة. بمعنى أدق، فإن ذلك كان يعني أن الذي يتصل بعناصر غير مسلمة، ويدخل الدولة بشكل غير مشروع، أو يحاول مساعدة أطراف معادية للرسول ﷺ، يتم اعتقاله واستجوابه ومعاقبته. فمن يثبت تعاونه مع جهات معادية لقوات الدولة الإسلامية يتم التعامل معه بكل حزم، ويتم حينئذ تطبيق إجراءات أمن الدولة والاستخبارات المضادة ضده. وفي الوقت الذي كان الرسول ﷺ نفسه هو القائد العام لأمن الدولة في «المدينة» (بوصفه قائد الكيان الإسلامي ونبياً مرسلاً) فإن «عمر بن الخطاب» كان يدير آلة الأمن والاستخبارات المضادة، ويشرف على تطبيق الأوامر اليومية ويتابع تنفيذ السياسات الأمنية.[37]

ومن الأمثلة النيرة التي تساق في مجال الاستخبارات المضادة، والأساليب التي استعملها المسلمون الأوائل في مكافحة التجسس، والتصدي لعيون الأعداء، نذكر قضية الصحابي الجليل «عباد بن بشر الأشهل»، أحد أمناء الرسول ﷺ وحراسه الأوفياء. ومن مآثر هذا المجاهد الكبير، أنه تنفيذاً لأوامر الرسول ﷺ، تمكن من اختراق مناطق العدو، عشية الهجوم على مدينة «خيبر» المحصنة، بهدف استكشاف المنطقة، والتعرف

على استحكامات العدو، وتقييم جاهزيته القتالية. وكان «عباد» الذي شهدت له ساحات القتال بالصولات والجولات، على رأس سرية مكلفة باستطلاع المنطقة، والتثبت فيما إذا كان العدو قد نصب بعض الكمائن، أو الأفخاخ، لاعتراض المسلمين القادمين. وكانت الأوامر التي أصدرها الرسول ﷺ إليه تقضي أيضاً بأن يفعل ما بوسعه، دون أن يكشف عن هويته، ليتخلل في عمق خيبر حتى يُقيّم الوضع العام عن كثب، وينقل تفاصيل استعدادات العدو الدفاعية.

وأثناء بحث هذه السرية عن قرائن لوجود جيش للعدو، أو نشاط استخباري، صادف رجال «عباد» أعرابياً خارج خيبر. أخبرهم الأعرابي أنه راعي إبل يبحث عن بعض الجمال كانت تاهت منه. وعندما سألوه عما إذا كان يعرف شيئا عن يهود خيبر، قال إن أخباره قليلة، حيث أنه لم يلتق بهم إلا مؤخراً،[38] على أنه أخبرهم بأن اثنين من قادة اليهود سافرا بعيداً، يجمعان المقاتلين ضد الرسول ﷺ، واتصلوا أيضاً بحلفائهم في غطفان، وضمنوا مساعدتهم مقابل مؤونة سنة واحدة من تمر خيبر، وأضاف أن غطفان أمدّت يهود خيبر بعشرة آلاف مقاتل مدجج السلاح، ومعهم المؤن والماشية والطعام، وأنهم وصلوا خيبر بالفعل وعلى استعداد لصد أي هجوم، مشيراً إلى أنهم قادرون على احتمال أي حصار، حتى لو طال سنوات.[39] لكن «عباد» أدرك بفطنته الاستخبارية أن الرجل بات يوغل في تمرير أكذوبة متعمدة، أي ما يسمى في علم الاستخبارات «المعلومات المغلوطه، Disinformation» ،كانت تستهدف الإيهام والتعتيم وأن وراء الأكمة ما وراءها:

"وعلى أثر ما سمعه العباد، ودون أن يتفوه بكلمة رفع السوط فضربه ضربات، وقال: ما أنت إلا عين لهم، اصدقني وإلا ضربت عنقك، فقال الأعرابي: أفتؤمني على أن أصدقك؟ قال عباد: نعم، فقال الأعرابي: القوم مرعوبون

منكم خائفون وجلون لما قد صنعتم بمن كان بيثرب من اليهود...وقال لي كنانة (أحد زعماء اليهود): اذهب معترضاً للطريق فإنهم لا يستنكرون مكانك، واحرزهم لنا، وادن منهم كالسائل لهم ما تقوى به، ثم ألق إليهم كثرة عددنا ومادتنا حتى تثنيهم عن مهاجمة خيبر."[40]

وكان من المهم للرجال الذين كان الرسول ﷺ يصدر أوامره إليهم، ويبعثهم في مهمات الاستخبارات المضادة، سواء من كان يكلفهم بجمع المعلومات، أو بتنفيذ عمليات سرية، أن ينهضوا بمهامهم بكل سرية، ودون الكشف عن هوياتهم، وأن يخفوا تحركاتهم، وأن ينصرفوا إلى مهامهم تحت جنح الليل. ونعود هنا مرة أخرى إلى بعض أحداث خيبر، لنشير إلى أن الرسول ﷺ أصدر أوامره بنشر سرية تحت قيادة «علي بن أبي طالب» رضي الله عنه لشن ضربة استباقية ضد «غطفان»، التي كانت متحالفة مع «يهود خيبر» وتمدهم بالرجال والسلاح والمؤن. تقدمت السرية إلى هدفها المحدد، راكبين مطاياهم ليلاً وكامنين نهاراً حتى وصلوا مكاناً يدعى «الهمج»، فأبصروا أحد رجال «غطفان» فأخذوه أسيراً. واقتادوه إلى «عمر بن الخطاب»، الذي بدأ يستجوبه سائلاً: من أين أتى، وماذا كان يريد. فبدا الرجل متردداً، ومقتضباً في ردوده، لكنه ما لبث أن كشف بعد برهة من الوقت عن حقيقة أمره، حين أرغم[41] على الاعتراف بأنه جاسوس، وأنه يحمل رسالة من «غطفان» إلى «يهود خيبر» يقايضونهم فيها بالتمر مقابل مساعدتهم في الحرب. وعندما سئل عما إذا كان هناك مقاتلون في طريقهم إلى قصور «خيبر»، أجابهم بأن هناك مائتين من الرجال تحت قيادة «وبر بن عليم» في طريقهم إلى «خيبر». وحتى يتحاشى الموت أبدى الرجل تعاونه مخبراً عن موقع معسكر «غطفان»، إلا أنه عند وصول السرية إلى هناك، وللتأكد من صحة قوله كان الغطفانيون قد فروا جميعًا.[42]

وكانت الاستخبارات المضادة تتطلب في كثير من الأحيان القيام بهجمات تمويهية، أو استباقية، كما أشير إلى ذلك آنفاً. وهنا لا بد من استذكار «غزوة ذي أمر» التي أصدر الرسول الكريم ﷺ فيها أوامره بالسير إلى جيش «دعثور بن الحارث بن محارب». وكان المسلمون قد علموا بأن رجال دعثور من قبيلتي «ثعلبة» و«محارب» يخططون لمهاجمة مواقع المسلمين، فرد الرسول ﷺ بأن أرسل جيشاً فيه أربعمائة وخمسين مقاتلاً، بين راكب وراجل. وكان الغرض من هذا التحرك إيقاع الرعب في القلوب، وكسب الحرب عن طريق كسر إرادة العدو وشوكته. وفي الطريق رصد المسلمون رجلاً كان في طريقه إلى «المدينة» لحاجة كان يريد قضاءها. وعندما سألوه عما سمع أو رأى، قال إنه سمع برجل يدعى «دعثور بن الحارث» يسير في جماعة من الرجال غير المسلحين. فأخذوه إلى رسول الله ﷺ فدعاه إلى الإسلام، وكان مما قاله الرجل:

> "يا محمد إنهم (رجال غطفان) لن يلاقوك، إن سمعوا بمسيرك هربوا في رءوس الجبال، وأنا سائر معك ودالّك على عورتهم"... وعندما وصل المسلمون حيث معسكر الغطفانيين، لم يجدوا أحدًا. كان جميع الرجال الذين جمعهم «دعثور» قد هربوا، ولاذوا بقمم الجبال.[43]

ومن الأساليب الاستثنائية التي اعتمدها رسول الله ﷺ قبل انطلاقه من «المدينة» لفتح «مكة»، أنه سعى إلى التعتيم التام على خططه وإلى خداع استخبارات العدو والتمويه على «قريش» حتى لا تهتدي إلى ما كان يرمي إليه. وهكذا اتخذ الرسول ﷺ خطوات احترازية مشددة، يمكن وصفها بما يسمى في عصرنا هذا بإعلان تطبيق القوانين العسكرية، أو قوانين الطوارئ. ومن ذلك أنه أمر بإغلاق الطرق المؤدية إلى «مكة»، وضاعف عدد دوريات الحراسة وأعطى الحراس سلطات غير اعتيادية للحؤول دون

الخروج مــن «المدينــة» أو الدخــول إليها حيــث لم يُســمح لأحد بــأن يدخل أو يغــادر حتى يفصــح عن كلمة الســر المتفــق عليها. والذيــن كانوا فــي طريقهم إلــى «مكــة» دون تفويــض، كانــوا يُحتجــزون حتى يتــم التثبــت مــن هوياتهم والتحقق من شــأنهم.[44]

وكانت هذه التدابيــر الوقائية تســتدعي أيضاً إخفاء نوايــا وخطط الحرب، عــن جميــع أصحــاب رســول الله ﷺ وقادتــه، ســوى «أبــي بكــر»، و«عمر بن الخطــاب» رضــي الله عنهمــا. إلا أن أحــد الصحابة تمكــن على هــذا النحو أو ذاك أن يكتشــف الوجهة لهذه المناورات العســكرية. وكما أشــرنا الــى الحادثة ســابقاً، فقد نمــى إلى علــم «حاطب بــن أبي بلتعــة»[45] بــأن المســلمين كانوا في واقــع الحــال يخططــون لفتــح «مكــة»، ومداهمــة جيــش «قريش» علــى حين غرة. وبعــد أن أدرك «ابــن بلتعــة» الهــدف الحقيقــي لخطة الرســول ﷺ تقدم إلى إحدى النســاء وســلمها رســالة ســرية طلب تســليمها إلى ثلاثة من أشراف «قريش»، يقــول فيها:

> "إن رســول الله ﷺ قــد أذن فى النــاس بالغــزو ولا أراه يريــد غيركــم وقــد أحببــت أن تكون لــى عندكــم يــد بكتابى إليكــم"[46] وبعــد ان ســلم الخطاب الــى المرأة طلــب منهــا «حاطــب» أن تجتنــب الطريــق الرئيــس إلــى «مكــة»، حيث كان مراقباً مــن الحــراس، فســلكت طريقاً آخر. لكن رســول الله ﷺ علــم بمحاولــة تســريب هــذه المعلومــات المهمــة إلى «قريــش»، فتــم اعتــراض المــرأة قبــل أن تصــل «مكــة».[47] فأرســل على أثرها طليعة بقيــادة «علي بن أبــي طالب» رضي الله عنــه فأدركــوا المــرأة بالحليفة.

وتحمل القصة فــي ثناياهــا عبراً عميقــة. منها أنه لــولا لطــف الله ورعايته

للرسول ﷺ وصحبه لربما حدث ما لا يحمد عقباه. فإن انكشاف أمر سير الرسول ﷺ إلى «مكة» كان سيعطل على المسلمين عنصر المفاجأة، ولربما وقعت حرب وأزهقت نفوس كثيرة. والآية الكريمة من سورة الفتح تدل على ذلك ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾.[48]

ومن العِبَر أيضًا، أن رسول الله ﷺ وهو النبي الموحى إليه، كان لا يستغني عن الأسباب في إتمام شئون دنيا. فقد كتم أمر «فتح مكة» إلا عن أقرب الناس إليه، وضرب بسياج من الرقابة حول «المدينة»، ليحول بها -قدر المستطاع- دون وصول خبر خروجه من «المدينة»، اتجاه «مكة». ولكن ورغم كل هذه الاحتياطات، تسللت تلك المرأة حاملة معها رسالة «حاطب» إلى «قريش». لكن عناية الله أدركت الرسول ﷺ والمؤمنين.

ولم تنفرد «قريش»، في الأيام التي سبقت «فتح مكة»، بشعورها العام بالقلق وعدم الأمان والخوف من أن الرسول ﷺ قد يستهدفهم، بل كانت هناك قبائل أخرى في مثل حالها. وعلى أية حال فالى جانب مشاعر الترقب والغموض والقلق داخل «مكة» وحولها، نجح هذا الأسلوب في «الاستخبار المضاد» في كشف وأسر عدد من جواسيس «قريش» الذين كانوا يجمعون الأخبار عن جيش رسول الله ﷺ وخططه الحربية. فقد تمكنت «استخبارات المدينة» على سبيل المثال من القبض على «فرات بن حيان القرشي»، الذي كان يعمل عند خصم رسول الله ﷺ «أبي سفيان». وكاد فرات أن يُعدم، إلا أنه نجا من الموت عندما اعتنق الإسلام. يذكر أيضًا أنه ومن خلال شبكة العيون الذين كانوا يعملون لصالح المسلمين استطاع الرسول -وكما بيّنا ذلك بالتفصيل في أماكن أخرى[49]- في كشف خطط «قريش» لاستهدافه وقتله، وذلك قبل فترة بسيطة جداً من ساعة تنفيذ مخططهم الغادر. فلولا

عناية الله سبحانه وتعالى ثم يقظة عيون رسول الله ﷺ المنتشرين، لما استطاع الخروج من «مكة» بأمان.

ويشار هنا الى أن «استخبارات المدينة» حققت نجاحات كثيرة في مجال الذود عن حياة الرسول ﷺ، وإحباط العديد من المكائد، والمؤامرات التي لم تنفك تحاك ضده، ومن ذلك محاولة «عمير بن وهب الجُمحي» قتل النبي ﷺ، وقد أثبت المسئولون عن أمن الرسول ﷺ قدرة فائقة في التعامل مع تلك المؤامرة، واحترافية عالية في كشفها، ودقة في تنفيذ العمل الاستخباري.

ويتناول الواقدي واقعة مهمة أخرى تمكّن فيها رجال رسول الله ﷺ من أسر جاسوس من «قبيلة هوازن» المعادية أثناء طريقهم إلى «فتح مكة». فبعد أن رأوا منه خلطًا في الكلام، اقتادوه إلى الرسول ﷺ. حيث روى «الواقدي» ما دار من حديث بين «الجاسوس القريشي» ورجال الرسول ﷺ:

> "لتصدقنا أو لنضربن عنقك قال: فإن صدقتكم ينفعنى ذلك عندكم؟ قلنا: نعم. قال: فإنى رجل من «هوازن» من «بنى نصر» بعثتنى «هوازن» عينا. وقالوا: ائت «المدينة» حتى تلقى محمداً، فتستخبر لنا ما يريد فى أمر حلفائه، أيبعث إلى «قريش» بعثاً، أو يغزوهم بنفسه، ولا نراه إلا يستغورهم، فإن خرج سائرًا، أو بعث بعثاً، فسر معه حتى تنتهى إلى بطن سرف، فإن كان يريدنا أولاً فيسلك فى بطن سرف حتى يخرج إلينا، وإن كان يريد «قريشًا» فسيلزم الطريق. فقال رسول الله ﷺ: "وأين هوازن"؟ قال: تركتهم ببقعاء، وقد جمعوا الجموع وأجلبوا فى العرب، وبعثوا إلى ثقيف فأجابتهم، فتركت ثقيفًا على ساق قد جمعوا الجموع، وبعثوا إلى الجرش فى عمل الدبابات والمنجنيق،[50] وهم

سائرون إلى جمع هوازن فيكونون جمعًا. قال رسول الله ﷺ: "وإلى من جعلوا أمرهم"؟ قال: إلى فتاهم «مالك بن عوف». قال رسول الله ﷺ: "وكل «هوازن» قد أجاب إلى ما دعا إليه «مالك»"؟ قال: قد أبطأ من بني عامر أهل الجد والجلد. قال: "من"؟ قال: «كعب» و«كلاب». قال: "ما فعلت «هلال»"؟ قال: "ما أقل من ضوى إليه منهم، وقد مررت بقومك أمس بـ «بكة»، وقد قدم عليهم «أبو سفيان بن حرب» فرأيتهم ساخطين لما جاء به وهم خائفون وجلون".[51]

لم يكن النشاط الاستخباري لرجال الرسول ﷺ قاصرًا على كشف العمليات، أو إحباط ما كان أعداؤهم في المنطقة، أو في الجزيرة عمومًا، يخططون لتقويض دولتهم الفتية والانقضاض عليها، بل نجحوا أيضاً نجاحاً كبيراً في كشف المؤامرات الأجنبية لزرع العيون، أو تأسيس «محطة للتجسس» عليهم. ومن ذلك كشفهم لخطة بيزنطية دقيقة لتأسيس وكر للتجسس عليهم. فبعد تسع سنوات فقط من تأسيس الرسول ﷺ دولة الإسلام في «المدينة»، أمر البيزنطيون أحد عملائهم في «المدينة» وهو القسيس «أبو عامر الخزرجي»، أن يؤسس ما يمكن أن نسميه «محطة» لهم، يستطيعون من خلالها رصد أصحاب الرسول ﷺ، والتخطيط لهدم ما شيّدوه من بنيان. وهكذا أمر الفاسق خليته في «المدينة» بأن ببناء مسجد جديد ليكون ملاذاً آمناً له ولعملائه. وكان الغرض الظاهري وراء بناء المسجد الجديد أنه سيلبي احتياجات المسلمين الدينية. وهكذا كان اختيارهم للمسجد كغطاء أمراً ينم عن مكر شديد، لاسيما أن الموقع الذي تم اختياره ليكون وكراً للتآمر كان بالقرب من «مسجد قباء»، الذي سبق لرجال رسول الله ﷺ أن بنوه في وقت سابق. وأمر هذا القسيس بعض أتباعه بأن يطلبوا من رسول الله ﷺ أن يفتتحه ويبارك لهم مسجدهم بالصلاة فيه.

لكن الرسول ﷺ طلب منهم التريث وأن يؤخروا ذلك إلى وقت آخر حيث كان المسلمون في سفر إلى تبوك يتأهبون لمقاتلة الروم. وعندما تبين حقيقة أمر مسجد «ضرار»، أمر الرسول ﷺ بهدمه.[52] قال تعالى في هذا الشأن:

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾[53]

رغم أن الله -عز وجل- هو الذي أسبغ عنايته السماوية على الرسول ﷺ وعلى أصحابه، وأرشدهم إلى الكشف عن هذه المؤامرة التي تحاك ضدهم، إلا أن العبرة المستخلصة مما حدث، هي أن مباغتة الأعداء قبل أن يمسكوا بزمام المبادرة خيار إسلامي متين، ويتأكد في ظروف الحذر وظروف الحرب. ومن العبر المستخلصة الأخرى أيضاً عدم الانبهار أو الانسياق وراء ظواهر الأمور والانشغال عن بواطنها، لا سيما إن كان هناك ما يدعو إلى الارتياب في أن الظاهر يخفي وراءه باطناً غيره. وغني عن القول أنه ينبغي على الساهرين على أمن البلاد والعباد ألا يلجأوا إلى خطة عمل، إلا إذا كان لديهم في ذلك دليل يستدلون به على الطريق، أو دليل إدانة، يستدلون به على الذنب.

على أن القريشيين لم يدَعوا رجال الاستخبارات المسلمين يهزمونهم بهذه السهولة. فكما كان المسلمون يسعون دوماً إلى جمع المعلومات، وإحباط العمليات السرية، كان القرشيون من جانبهم يواصلون أنشطتهم الاستخبارية الخاصة. ففي واحدة من العمليات الناجحة، التي تناولناها آنفا استطاع رجال «أبي سفيان» اكتشاف عينين من عيون الرسول ﷺ

كان أرسلهما للرصد والتجسس على تحركات القوافل عبر الجزيرة، وذلك بفحص روث بغيريهما. ومن الجدير هنا الإشارة إلى أن هذه المحاولة للحصول على المعلومات بواسطة أساليب نوعية وكمّية، تمثل شكلاً مبكراً لما يُعرف في المصطلحات الحديثة باستخبارات «التوقيع والقياس»[54] (MASINT).

3.1.3: التحليل والتوزيع

لا يستطيع صُنّاع القرار إعداد القرارات الصحيحة أو المناسبة للعرض على متخذ القرار إلا إذا توفرت لديهم المعلومات الدقيقة، والتحليلات الاستخبارية الصحيحة، مدعمة بالاستنتاج والآراء والتوصيات الرصينة من الخبراء وذوي الاختصاص في هذا الشأن. ففي زمن الحرب والأزمات -على سبيل المثال- تصبح عملية الحصول على معلومات ذات العلاقة في منتهى الأهمية. ذلك أن عدم القدرة على جمع الكمّ الكافي من المعلومات، أو الفشل في تحليل المتوفر منها، وغياب التقييم الموضوعي المتوازن للمعطيات، قد يُعرّض أمن الدولة بأسرها للخطر الجسيم. كان رسول الله ﷺ مدركاً لهذه الحقيقة الأساسية، ويأخذ بها على الدوام. فكان شديد الحذر عند الإعداد لأي أمر كان، من خلال تحليله للمعلومات التي ترده من عيونه المنتشرة في المواقع المختلفة، أو ما قد نطلق عليها «الشبكات الاستخبارية»، وذلك بعد التثبت منها وتأكيدها. ففي زمن الحرب قد يشمل ذلك القيام بنشاطات متعددة مختلفة في وقت واحد، كمراقبة تحركات القوات المعادية وتعدادها، ورصد مخازن مؤنهم، وتعداد وصناعة أسلحتهم، كما قد يتطلب الأمر أيضًا اتخاذ التدابير الاحترازية اللازمة التي تتعلق بنشر المقاتلين على الجبهات، أو إعادة توجيه القوافل عبر طرق بديلة، ونشاطات أخرى ذات علاقة بالاستعداد للحرب.

ومـن الأمثلـة المعروفـة التـي تـدل علـى يقظـة الرسـول ﷺ الدائمـة، واسـتعداده للمنازلـة المدروسـة ما حـدث فـي ليلة معركـة بدر، حيث أرسـل ثلاثـة مـن أقـرب المقربيـن إليـه ومـن كبـار صحابتـه وهـم «علـي بـن أبي طالب»[55]، و«الزبيـر بـن العوام»[56]، و«سـعد بـن أبـي وقـاص»[57]، لاسـتطلاع المنطقـة التـي كانـت ستشـهد أول مواجهـة كبـرى مـع عدوهـم «قريـش».
وقـد انطلـق الثلاثـة إلـى مـكان معـروف بوفـرة المـاء حيـث كانـت القوافل تقصده ويتـزود منه أيضًـا قاطنـو المناطـق القريبة منـه. وما أن وصـل فريق الاسـتطلاع المذكور حتى رمـق غلامين يقتربان مـن بئر من الآبار فأسـروهما واقتادوهمـا إلـى مقر رسـول الله ﷺ، علـى أمل أن يسـتقي منهم الرسـول ﷺ معلومات مفيـدة. فلما وجدوا رسـول الله ﷺ منشـغلاً في مصلاه، بـدأ الرجال يسـتجوبون الأسـيرين بأنفسـهم. وعندمـا سـألوهما لمـن يحملون هـذا الماء، أفصـح الغلامان عـن جـواب بـدا وكأنه تهـرب مـن الإجابـة، حيث قـالا إنهما يعملان لجيـش «قريش» الذي يسـير إلـى «المدينـة». ولم يعجب هـذا الجواب صحابـة رسـول الله ﷺ حيث أنهـم كانـوا يعتقـدون أن الغلامين هما فـي واقع الحـال يتبعان قافلـة «أبي سـفيان» التي سـبق رصدهـا والتي غيرت مسـارها واختفت في الصحـراء. ولإرغامهمـا على الكلام، أخـذوا يضربونهما بشـدة.[58]
واضطرهم هـذا الضرب إلى الاعتـراف بأنهما بالفعـل مع قافلة «أبي سـفيان»[59]، التـي كانت محملة بـكل أنواع البضاعـة وهي تشـق طريقها من بلاد الشـام إلى «مكة». بعـد اعترافهـم هذا تركوهمـا. وعندما انتهى الرسـول ﷺ مـن الصلاة أخبـروه بما حدث وكيـف أن الغلامين بـدلا قصتهما. وبعد أن تفحص الرسـول ﷺ التفاصيـل بتأنٍ، لـم يوافق على مـا فعله كشـافته الثلاثة، وأحس بأن شـيئاً ما قد غاب عنهـم. وأنّب الرسـول ﷺ أصحابه قائـلاً: "إن صدقوكـم ضربتموهم وإن كذبوكـم تركتموهم!". ثم قرر الرسـول ﷺ أن يسـتمع من السـقاة بنفسـه دون اسـتعمال العنف أو التهديد. فاسـتطاع الرسـول ﷺ أن يعـرف منهما مكان معسـكر جيش «قريـش»، وتعـداده وأسـماء قادته.[60]

بدأ الرسول ﷺ سؤاله الغلامين بأن طلب منهم معرفة مكان معسكر «قريش». قالوا إنهم بعد الكثبان بالعدوة القصوى، أي بحافة الوادي من الجهة الأخرى. وعندما سأل ﷺ عن عدد الرجال المقاتلين، قالا إنهما لا يعرفان. وحتى يشتق منهما الرسول ﷺ هذه المعلومة المهمة، طلب منهما أن يفصحا عن عدد الإبل التي ينحرونها في اليوم لعسكر «قريش»، فقال أحدهما تسعة جمال وقال الآخر عشرة. وحيث أن الجمال هي المصدر الرئيس للطعام عند القبائل في غاراتهم ومعاركهم، وكان معروفاً لدى جميع أهل الصحراء بأن الجمل يطعم ما بين تسعين ومئة رجل، استنتج الرسول ﷺ وبطريقة غير مباشرة بأن عدد رجال الجيش القادم هو ما بين تسعمائة إلى ألف مقاتل. ثم سألهما ﷺ عن قادة الجيش، فأخبراه بأنهم «عتبة بن ربيعة»، و«أخوه شيبة»، و«أمية بن خلف، و«العباس بن عبدالمطلب، و «سهيل بن عمرو». وبمعرفته هذه الأسماء تكونت عند رسول الله ﷺ صورة واضحة عما يمكن أن يتوقعه، حيث كان يعرف هؤلاء الرجال وخلفيات أيامهم، ونقاط قوتهم وعلاقاتهم القبلية. كذلك أدرك الرسول ﷺ أن الجيش المقابل أكثر عددًا. وعندما انتهى من استجواب الغلامين، تحول الرسول ﷺ إلى أصحابه وقال لهم: "هذه «مكة» قد ألقت إليكم أفلاذ أكبادها"، ثم بدأ يخطط للمعركة في ظل ما كان يتوافر لديه من معلومات وما حصل عليه من تفاصيل أخرى من السقاة.[61]

إن أساليب رسول الله ﷺ في هذا الموقف تستدعي التأمل، لاستلهام العبر والدروس. فقد شك الصحابة في بادئ الأمر في صدق أقوال السقاة، ولربما نلتمس للغلامين عذراً، فإن حياة الصحراء تورث الحذر، وتضطر إلى الكتمان أو المواراة. ولكن تخويف الأسير نادراً ما يؤتي ثماره من المعلومات الموثوقة. فإما أن يخاف على حياته فيخطئ خطأً بريئاً، أو يكذب كي يتقي الخطر المحيق به. وفي كلتا الحالتين لا يستفيد المستجوب

كثيراً. وقد ثبت لدى خبراء أجهزة الاستخبارات بأن الأسلوب اللين مع الأسير يؤتي ثماراً بدلاً من القسوة. فسبحان الله الذي ألهم رسوله ﷺ أن يستعمل اللين مع هذين الأسيرين، وأن يأخذ منهما من الأخبار المصيرية ما تطمئن إليه النفس، ودون عناء يذكر، كما أن الطريقة التي توصل بها الرسول ﷺ إلى معرفة عدد القوم وقوتهم، يستند إلى المنطق العقلاني الاستنتاجي، وهو أسلوب يستحق أن يكون درسًا بليغًا لمن اعتبر.

كان المسلمون الأوائل يجيدون وسيلة يستعملها الناس منذ القدم لجمع المعلومات، ألا وهي التنصت. ففي ليلة «غزوة بدر»، احتاج الرسول ﷺ إلى أن يجمع كل ما يستطيع أصحابه تجميعه من المعلومات عن تحركات العدو، وقوافله التجارية التي كان بالإمكان الاعتراض لها والتربص بها. ومن حوار دار بين اثنتين من النساء اللائي كن يستقين الماء قرب «بئر بدر»، حيث وقعت المعركة لاحقًا بين الرسول ﷺ و«قريش»، ومنهما تعرّف العنصران المسلمان على المكان المحدد، والزمان المتوقع لوصول القافلة التجارية الكبيرة التي كانت في طريق عودتها من «بلاد الشام» إلى «مكة».[62] والتفصيل عند ابن إسحاق إذ يقول:

> "كان «بسبس بن عمرو» و«عدي بن أبي الزغباء» قد مضيا حتى نزلا بدراً، فأناخا إلى تل قريب من الماء. ثم أخذا شناً لهما يستقيان فيه، و«مجدي بن عمرو الجهني» على الماء، فسمع «عدي» و«بسبس» جاريتين من جواري الحاضر، وهما تلازمان على الماء، والملزومة تقول لصاحبتها: «إنما تأتي العير غداً، أو بعد غد، فأعمل لهم ثم أقضيك الذي لك». فقال مجدي صدقتِ، ثم خلص بينهما. وسمع ذلك «عدي» و«بسبس» فجلسا على بعيريهما ثم انطلقا حتى أتيا رسول الله ﷺ فأخبراه بما سمعا".[63]

ويمكن الاستدلال على الأهمية التي كان يوليها الرسول ﷺ للاستخبارات، على ما يبدو لنا، بالأحداث التي تلت معركة أحد فقد أوعز لبعض أصحابه وعناصره بمواصلة نشاطهم الاستخباري حتى بعد توقف القتال، وذلك حينما أمر بأن يستمر المسلمون بمراقبة انسحاب «قريش»، ورصد وسائل النقل التي كانوا سيمتطونها، وعلى وجه أخص عدد ونوعية الحيوانات التي يمتطونها، والتي من خلالها يمكن معرفة نواياهم، أي هل كانوا يريدون التوجه الى «المدينة» لاستكمال المعركة والقضاء على المسلمين، أو كانوا قد قرروا العودة إلى «مكة». وكانت أوامره لأحد صحابته وهو «سعد بن أبي وقاص»، صريحة للغاية قائلاً اتبعهم فانظر أين يريدون، فإن كانوا ركبوا الخيل وساقوا الإبل فإنهم يريدون «المدينة»، وإن كانوا ركبوا الإبل وساقوا الخيل، فهم متوجهون إلى «مكة».[64]

وهكذا فمن خلال التحليل الثاقب للتقارير الثانوية والجانبية التي كانت تنقل أخبار نشاطات «قريش» عموماً، استطاع الرسول ﷺ أن يصل إلى استنتاجات مهمة، فيما يتصل بقدرات ونوايا عدوه الحقيقية. ومن ذلك أنه وفي ليلة المعركة نفسها أي «غزوة أحد»، بعث عنصرين لاستطلاع المنطقة التي حول «المدينة» و«جبل أحد»، وجمع ما يستطيعونه عن «قريش»، خصوصًا عدد مقاتليهم، وأسلحتهم، والمناطق التي يتمركزون فيها. وعاد الرجلان إليه ليعلماه بوصول «قريش» إلى مكان اسمه العارض، الواقع شمال شرق «المدينة»، وهو مكان معروف بمساحاته الواسعة الخضراء الخصبة. لكن العنصرين لاحظا أن نبات الحقول المزروعة قد رعي، وتحولت المساحات الخضراء إلى أرض جرداء. وهكذا استنبط الرسول ﷺ أن اختفاء الزرع الكثيف فجأة لم يكن ليحدث لولا التهام ماشية «قريش» وحيواناتها المركوبة لهذا الغطاء النباتي. أي أن الرسول ﷺ قد استدل على حجم كتائب «قريش» من خلال ما استهلكته الحيوانات التي كان

العدو قد أحضرها معه لمقاتلة المسلمين. وكما هو معروف بأن عدد المطايا التي كانوا يركبونها، وغيرها من الحيوانات التي يطعمون بها الجيش، يتناسب طردياً مع تعداد الجيش القادم، وهنا استنتج الرسول ﷺ وأصحابه بأنهم أمام جيش كبير قدر من خلال ذلك تعداده.

3.1.4: العمليات السرية

سنحاول في الصفحات التالية التطرق إلى العنصر الرابع، أو الركيزة الرابعة التي يستند إليها العمل الاستخباري، ونقصد بذلك العمل السري، أو العمليات السرية «Covert Action». فقد لجأ المسلمون الأوائل إلى العمليات السرية لحماية دولتهم الفتية، والذود عن كيانها وتوطيد أركانها. وتضمنت تلك العمليات في بعض الأحيان إجراءات صارمة، تصل إلى حد التخلص ممن كانوا يمثلون خطراً على الأمن العام، وسلامة الأمة والوطن.

ولم يكن الهدف قاصراً على استئصال شأفة الحاقدين على الدين الجديد والذين يتآمرون على إخماد صوت الحق فحسب، بل تضمنت تلك العمليات في ثناياها أكثر من رسالة ومضمون. فإلى جانب كونها تحذيرات وإنذارات قوية تهدف إلى ردع كل من كان يسعى ويخطط لتقويض الدولة الفتية، كانت بعض تلك العمليات تهدف الى رفع معنويات المسلمين، والتأثير على قرارات أعدائهم العسكرية، وخداع استخباراتهم.

بيد أن العمليات السرية لم تكن جميعها من مبادرات المسلمين والقائمين على شئون أمنهم، بل كان بعضها ينطلق في سياق الرد على عمليات نفذها مشركون من «قريش» أو مسيحيون من البيزنطيين في الشام. ومن الملاحظ أنه حتى خلال الفترة المبكرة من دعوة الإسلام، كان مسرح

العمليات السرية يمتد إلى ما وراء «مكة» و«المدينة» ليشمل مناطق تصل إلى «اليمن» جنوبًا وإلى «الحبشة» غربًا. ويشير «ريشارد غابريال» إلى أن قيادات المسلمين تحت راية الرسول ﷺ كانت تعتمد المناورات الذكية وعقد التحالفات المختلفة مع هذا الطرف أو ذاك بهدف أضعاف العدو وتقويض الدعم الشعبي له. وكانت هذه القيادات أيضاً، والحديث مازال «لغابريال»، تلجأ إلى نشر الإشاعات ضد الأعداء وتستخدم الحرب النفسية لزيادة الضغط عليهم وقتل الروح المعنوية في صفوف مقاتليهم.[65]

ومن الطبيعي أن العمليات السرية المبكرة التي نفذها الساهرون على أمن المسلمين، لم تكن في بادئ الأمر مثالية أو خالية من الأخطاء، أو النواقص في مجال المهارات التكتيكية الاستخبارية، ذلك أن الرسول الأكرم ﷺ وأصحابه كانوا -في معظمهم- «أهل مدن» لا خبرة عميقة لهم بحياة الصحراء،[66] وعلى ذلك فإن بعضاً من العمليات الأولى للمسلمين اعتمدت على قاطني الصحراء، وعلى الأدلّاء من البدو. ثم وبعد أن قويت شوكتهم في «المدينة»، أصبح «جهاز الاستخبارات» أكثر تنظيماً، وتعقيداً، وأشد مراساً، لا سيما أن القيادات الإسلامية آنذاك، باتت بحكم الواقع أكثر خبرة ومراساً مع مرور الزمن. وهكذا فقد أصبح للدولة الإسلامية الناشئة في «المدينة»، عيونها المنتشرون في المفاصل المهمة من الحياة. وبات بالإمكان جمع المعلومات الاستخبارية، من المسافرين، والمتجولين، والتجار المجندين، ومن الدوريات القتالية، والاستطلاع المدعوم، ومن الأسرى الذين يتم استجوابهم.[67] وبمراجعة دقيقة لبعض هذه العمليات، يتضح أنه لا الرسول ﷺ ولا منافسوه في الجزيرة، كانوا يُقْدمون على أية عملية سرية حتى يجمعوا الاستخبارات المطلوبة، بكل عناية وحذر، ويحددوا هدفهم، ويستكشفوا مسرح عملياتهم، ويختاروا القادة المناسبين للعمليات المزمع تنفيذها.

إن الإلمام بطبيعة العمل السري في العهد النبوي الشريف، يتطلب الوقوف على بعض التفاصيل المتصلة بكيفية التعامل مع الجهات التي كانت تمثل تهديداً حقيقياً للإسلام والمسلمين. وكان أول تلك الجهات هي تلك الأبواق الدعائية المضللة، التي كانت ترفع أصواتها وتبث سمومها ضد الإسلام، ونبي الرحمة ﷺ، وعامة المسلمين في كل مكان، فكانت تلك الأبواق المعادية من الأهداف الأولى التي سعى المسلمون إلى إسكاتها كي لا تؤثر في عموم الناس. ونقصد بتلك الأبواق الشعراء من المعسكر المعادي للمسلمين، الذين كان دورهم في ذلك الحين مشابهًا للدور الذي يقوم به الإعلاميون في هذا العصر. لقد كان الشعراء حينئذ محط تقدير وإعجاب من مجتمعاتهم، في المدن والقبائل على حد سواء، لكونهم يعدون رجالاً عظماء في الفصاحة والبلاغة والحكمة. ففي فترة ما قبل الإسلام، كان لكل قبيلة في شبه الجزيرة العربية شاعر واحد على الأقل، ينهض بمهمة الناطق الرسمي باسم القبيلة. وكان الشاعر يؤدي مهام كثيرة، متعددة الجوانب، فبالإضافة إلى كونه حاميًا لسمعة القبيلة، ومروجاً لها، كان الشاعر متحدثاً عسكريا أيضًا. وكانت النصوص والأحكام التي يصدرها أحيانًا "تكتسب من القوة والسلطة ما يضاهي القضاة"[68] بل إن نفوذه كان يفوق أحياناً نفوذ زعيم القبيلة نفسه. وبفضل القصائد، والتغني بها وبلاغة اللغة والتفنن في أساليبها، أصبح ما ينطق به الشعراء المجيدون جزءاً من تراث المجتمعات التي يعيشون فيها وباتت النصوص التي يصوغونها ترسخ في أذهان الذاكرة الجمعية للقبيلة وتُتناقل عبر الرواة من جيل إلى جيل.

وبسبب سطوة الشعراء، وتأثيرهم في المجتمع، سعى قادة «قريش» الذين كانوا عازمين على التخلص من الدين الحنيف، ومحاربة الرسول الأمين ﷺ، الذي كثر أتباعه ونما نفوذه، إلى الاستعانة بشعراء قبائلهم

والمفوهيـن فيهـم. وبالفعل فقد اسـتجاب عـدد من هـؤلاء الشـعراء، ونظموا قصائـد كثيـرة، ضمنوهـا انتقـادات مسـمومة للمصطفـى ﷺ، وجاهـدوا في إشـعال الكراهيـة ضده وضـد المسـلمين عمومـاً. وإلـى جانب «قريـش» فقد فعلـت قبائل العـرب الأخـرى الشـيء نفسـه، وجاهـرت بعدائها للرسـول ﷺ، بقصائد كان ينظمها شـعراؤهم، ويُلقونها فـي تجمعاتهم. وقد حاول المسـلمون في بداية الأمر تجنـب الأذى الناجم عـن أقوالهم المسـعورة، والتجمل بالصبر، وعدم الانشـغال بالأراجيـف، وبمـا كان بعض الشـعراء والشـاعرات يروجونه من أقاويل وسـموم، بل إنهـم حاولوا اسـتمالة هـؤلاء الشـعراء الموتورين إلى جانبهـم. لكـن هـذه المحـاولات النبيلة لـم تـؤت ثمارها، وفشـلت فـي تحقيق الهدف المنشـود. وعندما وصل الضرر الذي ألحقه الشـعراء بالمسـلمين حداً لم يكـن من الممكـن تحمله، رد المسـلمون بعنف. قـرر الرسـول ﷺ، أن يصار إلى اتخـاذ موقف حاسـم مـن هـؤلاء الذين يسـيئون إلـى الإسـلام ويهاجمون العقيـدة، ويتواطـؤون ويتآمـرون مع العـدو على تهديـد حياتـه ﷺ والتحريض على الانشـقاق واثارة الفتن ونشـر الفوضى وانعـدام الأمن، كونـه راعي الأمة وولي أمرهـا، يأمر بما يوحـى إليه، ليدفـع الضـرر والأذى عن المسـلمين، من أعدائهـم الذين يحاربون الله ورسـوله ويسـعون فـي الأرض فسـاداً، بأيدهم او ألسـنتهم أو التحريض المسـتمر على المسـلمين.

وعلى الرغم من كون دولة الإسلام آنذاك لا تملك جهاز تنفيذي يقوم بأعمال القبض والسجن والمحاكمة وتنفيذ العقوبة، كما هو في عصرنا الحاضر، إلا أنها كانت تتمتع بالقوة والمنعة التي تمكنها من احتواء واحتمال أي ردة فعل تجاه ما تقوم به من عمليات ضد من كان يشكل خطراً عليها من القيادات المتطرفة ضد الإسلام، والشعراء المتسلطين والمحرضين وغيرهم، فقد تنوعت الأهداف واتسعت رقعة تنفيذها الجغرافية، فلم تقتصر تلك العمليات على المدينة فحسب بل شملت خيبر ومكة وضواحيها وصولاً إلى أرض اليمن. وكان المستهدفون ينتمون إلى أعراق

متنوعة كالعرب واليهود والعرب المتهودة، الذي لم يكن لهم مع دولة الإسلام «عهد ولا ذمة».

وكانت «عصماء بنت مروان» وهي شاعرة من «قبيلة الأوس» في «المدينة» على رأس قائمة الشعراء الحاقدين الذين تم استهدافهم من قبل المسلمين. وكانت هذه المرأة غليظة في هجائها للرسول ﷺ وللمسلمين. وكان لهجائها المسموم ضد الدين الجديد بعض الصدى بين القبائل. وفي واحدة من هذه القصائد، شنت عصماء هجومًا قاذعًا على المسلمين وعلى القبائل التي أعلنت إسلامها، وسخرت من صفات هذا الغريب، وتعني بذلك الرسول الأكرم ﷺ ودعت رجال القبائل إلى تقويض الإسلام كله من أساسه وقتل النبي محمد ﷺ فقالت:

"فباست بني مالك والنبيت ... وعوف وباست بني الخزرج
أطعتم أتاوى من غيركم ... فلا من مراد ولا مذحج
ترجونه بعد قتل الرؤوس ... كما يرتجى مرق المنضج"[69]

وقد أنيطت مهمة التخلص من هذا البوق السليط، والبوم الناعق، إلى «عُمير بن وهب الأوسي» الذي خطط للتخلص منها، وإسكاتها إلى الأبد، وذلك عندما تمكن من دخول بيتها وهي نائمة فطعنها.[70] وعندما قابل «عُمير» رسول الله ﷺ سأله ما إذا كان عليه شيء في ذلك على ما فعله، فأجابه النبي الكريم محمد ﷺ: "لا ينتطح فيها عنزان"[71] والمعنى: لا تقلق ولا يشغلنّك ذلك.

أما الشاعر اليهودي «أبو عفك»، الذي كان مشهوراً بإثارة الضغائن ضد رسول الله ﷺ، وبهجائه السامّ اللاذع للإسلام والمسلمين، فلم يكن مصيره بأحسن من مصير السليطة عصماء بنت مروان. وحقيقة الأمر أن هذا الشاعر الذي تمادى في هجائه للمسلمين، ولنبيهم الكريم ﷺ لقي حتفه

قبل مقتل «بنت مروان»، حيث دبر المسلمون خطة محكمة لإسكاته في فناء بيته.[72] وكان الرجل الذي وُكِّل بالأمر من قبيلة الشاعر نفسه، وذلك حتى إذا اكتشفوا هوية قاتله لم يؤد الأمر إلى تفاقم التبعات، أو إلى دائرة لا متناهية من القتل والثأر. عن ذلك يقول «ابن سعد» في طبقاته، عندما ذكر مغازي الرسول ﷺ [73]:

> "كان «أبو عفك» من بني «عمرو بن عوف» شيخاً كبيراً قد بلغ عشرين ومائة سنة، وكان يهودياً، وكان يحرض على رسول الله ﷺ ، ويقول الشعر، فقال «سالم بن عمير» -وهو أحد البكائين- وقد شهد بدراً: علي نذر أن أقتل «أبا عفك» أو أموت دونه، فأمهل يطلب له غرة حتى كانت ليلة صائفة، فنام «أبو عفك» بالفناء وعلم به «سالم بن عمير»، فأقبل فوضع السيف على كبده ثم اعتمد عليه حتى خش في الفراش، وصاح عدو الله، فثاب إليه ناس ممن هم على قوله فأدخلوه منزله وقبروه".

ومن الشعراء الآخرين الذين تطاولوا على المسلمين، ونعتوهم بأبشع الصفات «كعب بن الأشرف» التاجر اليهودي الغني، الذي كان له نفوذ واسع في أوساط اليهود، وبين القبائل العربية أيضاً. وقد أدى هذا الشاعر المترف دوراً خبيثاً في التحريض ضد الدين الحنيف، وفي إثارة «قريش» ضدهم، وفي دعوتها إلى غزو معقلهم في «المدينة». وقد كتب ابن الأشرف العديد من قصائد الهجاء والذم ضد الإسلام والرسول ﷺ. وكما كان هجاؤه الشرس محل اشمئزاز ونفور في أوساط المسلمين، فإن مديحه للمشركين ورثاءه لقتلاهم في بدر كان محل اعتزاز وافتخار «قريش». ولكن الرجل بلغ من الفجور مبلغاً أن نظم قصائد تشبّب فيها ببعض النساء المسلمات، وزاد أن أتى على ذكر أسمائهن، ومنهن أم «الفضل بن الحارث» وغيرها من نساء

المسلمين، الأمر الذي لم يعد من الممكن تحمله أو التعايش معه. ومما نظمه هذا اليهودي :

طحنت رحى بدر لمهلك أهله ولمثل بدر تستهل وتدمع
قتلت سراة الناس حول حياضهم لا تبعدوا إن الملوك تصرع
كم قد أصيب به من أبيض ذي بهجة يأوي إليه الضيع[74]

وتفيد المصادر أن «ابن الأشرف» سافر إلى «مكة»، واجتمع بزعمائها ومنهم «أبو سفيان بن حرب»، والذي سأله: أناشدك أديننا أحب إلى الله أم دين محمد وأصحابه؟ وأينا أهدى في رأيك وأقرب إلى الحق؟ إننا نطعم الجزور الكوماء، ونسقي اللبن على الماء، ونطعم ما هبت الشمال. فقال له «كعب بن الأشرف»: أنتم أهدى منهم سبيلا.[75] فأنزل الله على رسوله ﷺ:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾[76]

ولم يخرج «ابن الأشرف» من «مكة» حتى استطاع أن يقنع «قريشًا» للهجوم على المسلمين في «المدينة»: "قال رسول الله ﷺ: من «لابن الأشرف» فقال له «محمد بن مسلمة» أخو «بني عبد الأشهل»: أنا لك به يارسول الله، أنا أقتله. قال ﷺ: فافعل إن قدرت على ذلك". واشترك في قتله مع «محمد بن مسلمة» «سلكان بن سلامة» أخو «كعب بن الأشرف» بالرضاعة، ونفر آخرون. وطلبا من رسول الله ﷺ أن يأذن لهما بأن يقولا ما يحلو لهما عند «كعب»، حتى يعينهم ذلك على قتله، فوافقهما الرسول ﷺ على ذلك. فذهب مسلمة وسلكان وجماعتهما ناحية «كعب» واختبأوا بالقرب من حصن كعب ونادى «سلكان»: يا كعب... هل تفتح لنا الباب؟. وأحست زوجة كعب بالخطر ومنعت زوجها من فتح الباب، ولكن «كعباً» أبى إلا أن

يفعل، مُصِرّاً علـى أنه لن يكون مـن أمر أخيه إلا خير. وشـرح له «سـلكان» بأن ما أتى بـه في هذه السـاعة هو أن قومـه أنهكهم أمـر الرسـول ﷺ، ومطالبته لهم بالـزكاة. ثم طلـب منه أن يقرضـه «حمل بعيـر أو بعيريـن» من الطعـام، يعطيه إلـى «مثير المشـاكل محمـد ﷺ». وأكد لـه «سـلكان» بأن أصحـاب محمد ﷺ سـيضجرون منه عمـا قريـب ويثـورون ضـده. ووافق «كعـب» علـى إقراضه، ولكن مقابـل رهن. وطلـب «كعب» مـن «سـلكان» أن يرهنـوا عنـده زوجاتهم، ولكنـه رد يقـول: «ماذا؟ نرهـن زوجاتنـا عنـد أجمـل الرجـال». ثـم طالـب «كعـب» أن يرهنـوا أولادهـم عنده، ولكنهـم قالـوا: إذا رهـن ا أولادنـا عندك فسـنكون أضحوكة الناس، بأننـا الذين رهنـوا أولادهم مقابل طعـام. وهنا وافق «كعـب» أن يرهنوا السـلاح مقابل الطعام، وسـار معهـم «كعب» حيـث يريدون ولتنفيذ العمليـة اتفق سـلكان وأصحابه علـى أن يهاجموا كعباً بمجـرد أن يروا يديه، يدي سـلكان، خلـف رأس كعب. وبـدأت الخطة بـأن أغدق سـلكان المديح على كعـب فقال له: يـا لطيـب رائحة هـذا العطر الذي معـك، لم يسـبق لي أن شـممت مثله. وبدأ كعب يتفاخـر، وقد تـم اسـتدراجه الآن، بأن عطـره أفضل حتى مـن العطـر الذي تصنعه النسـاء. ثـم طلب سـلكان منه أن يشـم شـعره، وأمسـك برأسـه، وبذلك فقد أعطى سـلكان العلامة المتفـق عليها لفريقه الذين تقدموا بغتـة وانهالوا عليـه بالطعن حتـى قتلوه.[77]

وإلى جانـب الأفاكين الذيـن كانوا يبثون السـموم بين المشـركين وغيرهم فقد اسـتهدفت بعض العمليات السـرية شـخصيات كبيرة معادية للإسـلام كان مـن بينهم بعض زعمـاء القبائـل، وآخـرون مـن ذوي القـوة العسـكرية أو من أصحاب المـال أو من أولئك الذيـن كان لهم نفـوذ أو مكانة اجتماعية يمارسـون من خلالهـا تأثيراً بيـن أتباعهـم ويشـكلون مواقفهم، ليـس فقط تجاه الإسـلام والمسـلمين ولكن تجاه الحيـاة عموماً. وكان مـن أبرز هؤلاء، رجال اسـتَعْدوا «قريشًـا» ضد الرسـول ﷺ وآخرون مولوا محـاولات لإعاقة المسـلمين وإثارة

لهب الكراهية ضد الدين الجديد. ولم يكن هؤلاء جميعاً من المشركين، بل كان من بينهم أيضاً عدد من اليهود والمسيحيين، بمن فيهم «أبو رافع»، أحد أكثر اليهود نفوذاً وسطوة في خيبر. وقد أدى هذا اليهودي دوراً كبيراً في تمويل كل من كانوا مستعدين للتآمر ضد رسول الله ﷺ، لا سيما قبيلة غطفان التي هيّجها لمهاجمة الدولة الجديدة في «المدينة». ولعب «أبو رافع» هذا دورًا كبيرًا أيضًا في غزوة الخندق التاريخية، حيث أنفق الكثير من الوقت والموارد في إثارة القبائل والتأليب ضد رسول الله ﷺ وفي حشد التأييد للمعسكر المعادي للإسلام.[78]

وقد قاد المجموعة التي نفذت تلك العملية ضد «أبي رافع» رجل من الخزرج كان قد أسلم لتوه [79] هو «عبدالله بن عتيق الخزرجي» الذي كانت أمه يهودية الديانة، وكان «ابن عتيق» يتقن اللغة العبرية، فكانت له ميزة لاختياره لتنفيذ العملية السرية.[80] وقد شاركه كل من «الحارث بن ربيع أبو قتادة»، و«خزي بن الأسود»، و«مسعود بن سنان»، و«عبدالله بن أنس».[81] وكانت الخطة تعتمد أساسًا على المعلومات التي ستوفرها «أم عبدالله الخزرجي» عن مكان الشخص المستهدف. واقترحت أمه عليهم بأن أفضل وقت لشن الهجوم هو عند حلول الليل، على أن يتظاهر الفريق بكونهم ضيوفاً قدموا لزيارة «أبي رافع» يحملون هدية له. وهكذا جاءت المجموعة تحت جنح الظلام متخفية، وتوجهت نحو حصن اليهودي الذي استطاعوا دخوله بيسر. فعندما طرقوا باب المنزل المقصود أفاد «عبدالله» باللغة العبرية إنه جاء لتقديم هدية «لأبي رافع». وما أن فتح الباب حتى اقتحمت المجموعة الحصن، وسارعوا الى غمد سيوفهم في الهدف ثم انصرفوا على عجل. لقد ساعد المهاجمين على الانسحاب من المشهد أن أبواب الحصن ومداخله كانت كلها مترسة بالأقفال، مما أعطى الجماعة وقتًا كافياً للانسحاب ريثما أخذت عائلة المقتول تنذر الناس، وتحاول العثور

على حراس الأبواب وإيقاظهم لفتحها. وقد تريث منفذو العملية بعض الوقت بين الأشجار التي كانت تحيط بالحصن، ثم انسلوا فيما بعد ليبدأو رحلة العودة إلى «المدينة» التي تبعد 190 كيلو متراً.[82]

ومن العمليات السرية التي تم تنفيذها بسرعة واتقان تلك التي تمت للتخلص من زعيم قبيلة هذيل، «سفيان بن خالد الهذلي». فعندما وصلت تقارير ذات مصداقية عالية إلى «المدينة» تفيد بأنه متورط في الإعداد للهجوم على المسلمين وإثارة القبائل وحشد تأييدهم لمعركة وشيكة ضدهم. ارتُئِيَ ان يتم التخلص من هذا العدو المحموم وصدرت التوجيهات إلى أحد أكثر أصحاب الرسول ﷺ وثوقاً وهو «عبدالله بن أنيس» الذي أُمِر بأن يتخلص من الهذلي. وعندما سأل بن أنيس الرسول ﷺ بأن يصف له المستهدف حتى يسهل التعرف عليه، أعطاه الرسول ﷺ بعض الصفات الظاهرة وما يميز شكله. ثم أكد له بأنه «حينما تقع عينك على هذا الرجل البغيض سترتجف منه قرفاً».[83] وكغطاء له، أمره الرسول ﷺ بأن يزعم بأنه من خزاعة. وتسلح «ابن أنيس» بسيفه فقط، وبدأ يبحث عن الهذلي مخبراً كل من قابلهم بأنه يكره المسلمين وأنه يريد الإنضمام إلى حملة الهذلي. وعندما وصل هدفه أخيراً، فعل «ابن أنيس» كل ما بوسعه لكسب ثقة الرجل المستهدف. وبلغ «عبدالله بن أنيس» من التفوق في المسالة والتمويه أن الهذلي دعاه إلى بيته، وهناك أتم العملية التي خطط لها بإحكام وتم استئصال الهدف. وفي الحال خرج «ابن أنيس» من الدار ليتخفى بعض الوقت حتى يهدأ طلب الباحثين عنه، ثم يعود بعد انتهاء المهمة إلى «المدينة».[84]

أما اغتيال «رفاعة بن قيس الجشمي» فيمثل نموذجاً آخر للعمليات السرية التي تم تخطيطها وتنفيذها بعناية. فقد تناهى إلى أسماع الصحابة

في «المدينــة» أن هذا الرجــل كان هو الآخر يخطــط لمهاجمة المســلمين. وقد أكــدت العيون صحــة هــذه التقاريــر. وبعد أن تــم رصــد تحركاتــه واجتماعاته ببعض أتباعــه شــمال «المدينة» صــدرت الأوامر إلــى ثلاثة من صحابة رســول الله ﷺ بــأن يذهبوا فــي أثــره ولا يرجعــوا حتــى يقبضوا عليــه أو يأتــوا بخبر موته.[85] وهكــذا ذهب الثلاثــة وكمنوا للمســتهدف وتخلصوا منه.[86] وكفّوا شــره عن المســلمين.

وتعــد محاولــة قتــل «أبي ســفيان بــن حــرب»، أحــد كبــار زعمــاء قبيلة «قريش» مــن أكثر العمليــات جرأة خــلال فتــرة «المدينــة»، وغني عــن البيان أن «أبــا ســفيان» كان قبل إســلامه من المشــهود لهم بالدهــاء والحنكــة، وكان أيضــاً وراء العديــد مــن المؤامــرات والدســائس لتقويض الإســلام واضطهاد المســلمين. وكزعيــم لمعســكر الرفــض والمعارضــة، كان هــذا الرجــل يمثل أكبر خطر يهدد الإســلام منــذ فجر الديــن الحنيف وحتــى «فتح مكــة». وكان «أبو ســفيان» قد قــال لنفر مــن «قريــش»: ألا أحــدٌ يغتال لنــا «محمــداً» فإنه يمشــي في الأســواق وحــده. فأتاه رجــل من الأعــراب وقــال: قد وجــدتَ أجمع الرجال قلباً وأشــدهم بطشــاً، فإذا أنــت فديتني خرجــت إليه حتــى أغتاله، فإن معي خنجراً كجناح النســر، وإني عــارف بالطريــق. فأعطاه «أبو ســفيان» بعيراً ونفقة وخــرج ليلاً إلى أن قــدم «المدينة». ثــم أقبل على رســول الله ﷺ وكان في مســجد بني عبد الأشــهل، فلما رآه الرســول ﷺ قــال إن هذا يريد غــدراً، والله حائل بينه وبيــن ما يريد. فلمــا جاء ليجني على رســول الله ﷺ جذبه «أســيد بن حضيــر» بداخلة إزاره فــإذا بالخنجــر، فقال له رســول الله ﷺ أصدقنــي. قال: وأنا آمــن؟ قال: نعــم. فأخبره بأمــره، فخلى عنه رســول الله ﷺ فأســلم. وبعد أن أقــر الصحابــة أن المصلحة العامــة تقتضــي أن يتــم التخلص من هــذا الرجل الذي لــم يكن حقــده علــى الإســلام يعــرف حدوداً، صــدرت الأوامــر إلى كل من «عمــرو بــن أميــة الضمــري»[87] و«ســلمة بــن أســلم» فــي ســرية للتخلص

منه.[88] وقـد تم اختيـار الرجلين لأنهما كانا من الموسـومين بالشـجاعة والإقدام فضـلاً عـن أن «الضمـري» كان عدّاءاً سـريع الجـري وأنـه كان يعـرف جميع الطـرق المختصـرة والثانوية عبـر الصحراء. وتقـرر أن يسـافر الرجلان على الجمـال ويتجها إلـى مـكان يدعـى وادي بجاج الـذي يبعد عـن «مكة» مسـافة 16 كيلـو متراً.[89] وقضـت الخطة بأن يقـوم الرجلان بربـط جمليهمـا هناك، ثم يتجهـا إلى «مكـة» حيـث الرجل المسـتهدف. وفـي حال حـدث ما لـم يكن في الحسـبان أو اكتُشـفت الخطة، كان على «سـلمة» أن يرجع سـريعاً إلـى جمله، بينما يفر «عمرو الضمـري» إما لامتطاء جملـه والهروب من المـكان أو ركضًا علـى قدميه السـريعتين. وقضـى الرجلان أسـبوعين فـي «مكة» يتحـركان من مكان إلى آخـر يبحثان عـن هدفهما، لكنهمـا لم يتمكنـا من ذلك لانكشـاف امر خطتهما قبـل أن يبلغا مرادهمـا. وعندما نفـذا خطة التراجع لاحـق «أهل مكة» عمرًا، لكنـه تمكن مـن الوصول إلـى «المدينة» سـالمًا.[90]

ومـن العمليـات السـرية التي ينبغـي الإشـارة إليها تلـك التي اسـتهدفت شـخصاً ادعى النبـوة [91] واسـمه «عبهلة بن كعـب بن غـوث العنسـي» الملقب الأسـود العنسـي الـذي كان يدعي يشـيع بين النـاس أنه مرسـل مـن الله عز وجل. لكـن أصحاب الرسـول ﷺ لـم يعتبروه سـوى سـاحر أو كاهـن مغرور، علـى الرغم مـن أنه:

> "... كان قويـاً مؤثراً ويملك سلاسـة فـي الخطابة ملكت قلوب مسـتمعيه، وأسـرت عقـول الجمـوع بمزاعمـه الكاذبة. واسـتطاع بمالـه وقوتـه أن يجتـذب إليـه ليـس فقـط جموع النـاس، ولكـن أناسـاً مـن ذوي المكانة أيضـاً. وكانـت قبيلة الأسـود أول مـن اسـتجابت لادعائـه النبـوة. وبفضـل قـوة قبيلته شـن غارة علـى «صنعاء» وقتـل حاكمها، شـهر وأخذ زوجته لنفسـه. ومن صنعـاء أغار علـى مناطق أخـرى. وعن

طريــق هجماته الســريعة الخاطفة، اســتطاع أن يُخضع لنفوذه منطقــة واســعة تمتــد مــن حضرمــوت إلــى الطائــف، ومن «الأحســاء» إلى «عــدن».“[92]

وبغية لجـم الأسـود ووأد حركتـه قبـل أن تلحق الضـرر بالمسـلمين تم الإيعــاز [93] الــى «وبر بــن يحنــس الديلمي» بــأن يتجه إلــى «اليمن» ســراً حتى يســتعد لتنفيذ خطــة اغتيال هــذا الدعي الــكاذب. وقد أســهم «وبــر الديلمي» في الخطــة الدقيقة التي شــارك فيهــا أيضًا عــدد آخر مــن المســلمين، ومنهم من كان من أصل فارســي. وهنا لا بد من الأشــارة إلى أن زوجة العنســي نفســه وتدعــى «مرزبانة» نهضــت بأهــم دور على الإطــلاق في هــذه العمليــة. فإن من المعــروف عــن «مرزبانة» أنهــا كانــت تضمــر لزوجها العنســي كراهيــة كبيرة وأن قلبهــا يفيض بالحقــد عليه لأنه قتــل زوجها الســابق، وأرغمها علــى الزواج منه. وقد وفــرت «مرزبانة» معلومــات «اســتخبارية» هامة عن تحركات العنســي، ومكان تواجــده، كما ســهلت لمنفذي الخطــة الدخــول إلى قصرهــا حيث تمت العمليــة بنجاح.[94]

وما دمنا نتحــدث عن العمل الســري زمن الرســول الكريــم ﷺ وما ينطوي عليه مــن تخطيط وتنفيــذ دقيقيــن فلا بد من الاشــارة هنــا إلى أن المســلمين الأوائل القائميــن على أمــن البلاد والعبــاد حينــذاك كانوا يلجــؤون إلى بعض أســاليب الإخفــاء والتمويه التكتيكــي والمخادعــة لتحقيق أهدافهــم في تضليل الأعــداء، وتقويــض مخططاتهــم، وتشــتيت جهودهــم. وللحفــاظ على ســرية الخطط التي كانــوا يجهدون فــي تنفيذها لنشــر الدعوة إلى الإســلام. ففي ليلة الســير لـ «فتح مكة» شــهدت التخوم والمناطــق المحيطة بـ «المدينــة» تحركات عســكرية دائبة لجند المســلمين وفي اتجاهات متعددة، وكان الغــرض وراء كل ذلك هــو إرباك العــدو والتمويــه عليه. ففــي تلك الليلــة أصدر الرســول الكريم

ﷺ أوامره إلى ثلاثة كتائب بالتحرك في ثلاثة اتجاهات مختلفة حتى يكون أهل «مكة» في حيرة من أمرهم حول الهدف الحقيقي لجيش الرسول ﷺ. وهكذا صدرت الأوامر إلى كتيبة التمويه الأولى المؤلفة من ثلاثمائة رجل بالسير اتجاه نجد، أما الثانية فنحو غطفان، والثالثة وهي أصغر من أختيها، فإلى اتجاه آخر. وحيث أن تقارير متناقضة عن نية الرسول ﷺ أخذت تتواتر، لم يكن زعماء «مكة» يعرفون أيا منها يصدقون. وبهذه الحنكة المتميزة والخبرة العسكرية المتجذرة تمكن جيش المسلمين من مفاجأة «قريش» في عقر دارهم وتحقيق النصر الكبير عليهم.

على أن بعض أنشطة الأعمال السرية كان لها أهداف أُخَر لا تقل شأناً عما أشير إليه آنفاً، وهي رفع معنويات المسلمين، وشد عزيمتهم، وتعزيز الثقة بقيادتهم. ومن أبرز الأمثلة على ذلك العملية التي جرت لاسترجاع جثمان «خبيب بن عدي» ودفنه. «فخبيب» كان من أوائل المسلمين من أنصار «المدينة» الذين ساندوا الرسول ﷺ بقوة، ثم قاتل تحت لوائه في «غزوة بدر»، حيث تشير الروايات الى أنه قتل عدداً من مشركي «مكة» في تلك المعركة الفاصلة. وبعد بدر أمره الرسول ﷺ بتنفيذ مهمة استطلاع سرية لملاحظة تحركات «قريش»، للتثبت مما إذا كان المشركون يعّدون ويجهزون لشن عدوان على المسلمين. بيد أن «خبيباً» والكشافة التسعة الذين كانوا معه اكتُشف أمرهم، وتم تعقبهم ومحاصرتهم. وقُتِل سبعة منهم في المناوشات التي تلت الحصار، بينما تم استدراج «خبيب» ورجلين آخرين إلى الاستسلام، على أمل منهما بأن يتم إطلاق سراحهم. ولكن بدلاً من ذلك تم بيعهم إلى أهل «مكة»، الذين بدورهم انتقموا من «خبيب» عن قتله الكثير من رجالهم في بدر، فصلبوه وتركوا جثته منصوبة بهدف التشفي، وإرسال رسالة إلى من أسلموا وبقوا في «مكة» ولمن هاجر إلى «المدينة» أيضًا.

أحــزن مــا ءال إليــه مصيــر الصحابــي «خبيــب» الرســول ﷺ كثيــرًا فأرســل على الفــور أحد عيونــه وهو «عمــرو بــن أمية الضمــري» إلــى «مكة» لاســترجاع جثمانه. فبقاء الجثمان علــى الصليب، بات يؤثر ســلباً فــي معنويات المســلمين، ويخدش أحاسيســهم، فــي الوقــت الــذي كان منظر ذلك الجســد المصلوب ينعــش معنويــات «قريش» ويمدهم بمشــاعر التشــفي ونشــوة الثأر. وهكذا دخــل «عمــرو» «مكــة» متخفيًا حتــى وصل مــكان الصليب، ثم تســلقه خفيــة وأنــزل منــه الجثمــان. وأســرع عائــدًا إلــى «المدينــة» ولــم يتوقف إلا فتــرة وجيــزة لدفن صاحبــه القتيــل. وحين اكتشــفت «قريــش» أمــر الجثمان المختفي، حــارت ألبابهــم وتاهــت عقولهم واســتاءوا كثيــرًا لجهلهــم بالمصير الذي آل إليــه.[95] أي أن عمليــة تحرير «خبيــب»، وإنزاله من صليبــه، ودفنه قلبت الأمور على «قريــش» وأفســدت عليهم ما كانــوا يهدفــون إليه أصلاً مــن تعليق جســده علــى الصليب.

وتعد عملية محاولــة تحرير الأســيرين «عياش بــن أبي ربيع»، و«ســلمة بن هاشــم» في «مكة»، مثالاً آخــر للعمليات الســرية التــي نفذت لإنعــاش معنويات المســلمين، وشــحذ هممهــم، والحفــاظ علــى روح النصــر لديهــم. فقــد كلف الرســول الكريــم ﷺ «الوليد بن الوليــد»[96] أن يُعِــدّ خطة لإنقاذ هذيــن الرجلين اللذين كانــا مــن أوائل من أســلموا فــي «مكة». ويشــار هنــا إلى أن «قريشًــا» عاقبتهما بقســوة على التخلي عــن دين آبائهمــا، وأقدمت على ســجنهما ومنعهما من الهجــرة. ولإعانــة «الوليد» في إعــداد خطته، قــدم له الرســول ﷺ تفاصيل مهمة عــن مكان حبــس الصحابييــن، وطلب منــه أن يتصل بأحد المســلمين في «مكــة»، واســمه القين الــذي كان بيتــه بمثابة بيــت آمــن أو قاعدة ينطلــق منها «الوليــد» لتنفيــذ مــا تــم التخطيــط له. وبمســاعدة هــذا «العميل الســري»، اســتطاع «الوليد» أن ينقذ الرجلين ووصل إلــى «المدينة» ســالماً رغم مطاردة القرشــيين له.[97]

ومن الأهداف الأخرى للعمليات السرية التأثير على القرارات السياسية التي يتخذها المعسكر المعادي للإسلام. ويمكن ملاحظة ذلك في العملية المعروفة بمسمى «حمراء الأسد». وللإيضاح نشير إلى أن إحدى النتائج التي تمخضت عنها «غزوة بدر»، أن القرشيين وعوا بأن طرق قوافلهم أصبحت مهددة طالما ظلت «المدينة» في أيدي المسلمين. ولهذا سارعوا إلى جمع قوة ضاربة قوامها ثلاثة آلاف مقاتل لشن الحرب على المسلمين، وكسر شوكتهم وبالتالي تأمين طرق قوافلهم وحمايتها. لكن المعركة التي خاضوها في جبل أحد لم تحقق الهدف المنشود ذلك أن كلا الطرفين المتحاربين تحمل الكثير من الخسائر وتراجع من ساحة المعركة: المسلمون إلى قاعدتهم في «المدينة»، والقرشيون إلى «مكة». وظل كل طرف يراقب الطرف الآخر بتوجس شديد، فكما كان للمسلمين عيون كثر في «مكة»، كان لـ «قريش» أيضًا عيون بين صفوف المسلمين.ونخص هنا المنافقين الذين أظهروا إسلامهم كـ «عبد الله بن أبي» وغيره من المنافقين.

وعندما أمر زعيم «قريش»، أبو سفيان، رجاله بأن يعسكروا في مكان يدعى الروحاء الذي يبعد عن «المدينة» 14 كيلومتراً، اجتمع قادته لمناقشة أحداث المعركة وتحليل ما جرى فيها واستخلاص الدروس منها.[98] وكان المجتمعون منقسمين على نحو كبير حول تقييم أدائهم في أحد:

> فجماعة منهم قالت للأخرى: «لم تصنعوا شيئًا، أصبتم شوكتهم وحدهم، ثم تركتموهم، وقد بقيت منهم رؤوس يجمعون لكم، فارجعوا حتى نستأصل شأفتهم». ولكن كان ذلك قراراً متعجلاً لأناس خفاف العقول أساؤوا تقدير قوة الجانبين ونفوسهم، لذا حاول أحد زعماء «قريش» هو «صفوان بن أمية» أن يقنع الناس بالعدول عن هذه المغامرة قائلاً: "يا قومي لا تفعلوا -لا ترجعوا

إلــى «المدينــة»-، فإني أخــاف أن يجمــع عليكم مــن تخلف من الخــروج -أي مــن المســلمين في غــزوة أحــد- فارجعــوا إلى «مكة» والدولة لكم، فإنــي لا آمن إن رجعتم إلــى «المدينة» أن تكــون الدولــة عليكم". [99]

ومــن خــلال شــبكة العيــون التــي كانــت تــزود المســلمين بالمعلومــات الاســتخبارية، وصلت ذلــك رســول الله ﷺ. وخوفاً مــن أن يكون لهجــوم ثان لـ «قريش» آثــار لا يحمــد عقباهــا، قرر الرســول ﷺ أن يشــن حملة نفســية على قــادة جيــش «قريــش» لكــي يردعهــم عــن التفكير فــي معــاودة الهجــوم على المدينــة. لذلــك قــاد جيشــه، وانطلــق بهم فــي أثــر جيــش «قريــش» متجهًا إلى مــكان يســمى «حمراء الأســد» حيــث قابل هنــاك أحــد عيونه وهــو «معبد الخزاعي» الــذي لم يكن آنــذاك مســلمًا، وأمــره أن يلحق بجيش «أبي ســفيان» حتــى يبلغه معلومــات مضللــة عن تحــرك الرســول ﷺ للحــرب، وعــدد قواته، وحالتهــم النفســية، ورغبتهم في الإنتقــام وما إلــى ذلك من معلومات تســتهدف زرع الرعــب فــي نفــوس العــدو. وعندما لحق بهــم أبلــغ «أبا ســفيان» أن:

"محمــداً قد خــرج فــي أصحابه، يطلبكــم في جمــع لم أر مثله قط، يتحرقــون عليكــم حرقاً، قــد اجتمع معه مــن تخلف عنه فــي يومكم، وندمــوا على ما ضيعــوا، وفيهم مــن الحنق ما لم أر مثله قط. «فقــال أبو ســفيان ويحك، ماذا تقــول»؟ فقال هو: «والله مــا أرى أن ترتحل حتــى ترى نواصــي الخيل، أو يطلــع أول الجيش مــن وراء هــذه الأكمة» فرد «أبو ســفيان» يقــول: «والله لقــد أجمعنا الكــرة عليهم لنســتأصلهم». ولكن الرجــل، وبنبرة تحذيــر، نصحه مــن جديد بعكــس ذلك. وفي ظل هذه الأخبار، انهار تماســك وإصرار جيــش «مكة». ورأو أنه آمَنُ لهم أن ينســحبوا إلى «مكــة»". [100]

ولا يخفى أن اختيار الرسول ﷺ لهذا العنصر الاستخباري كان مناسباً جداً. فقد كان «معبد الخزاعي» من قبيلة كبيرة تحكم معظم الأرض بين «مكة» و«المدينة» وبالتالي فإن تواجده في تلك المنطقة كان طبيعياً ولا يثير الشكوك. أما ترتيب الرسول ﷺ لهذا الاجتماع مع العدو في «حمراء الأسد» وليس «المدينة»، فهو من باب الحيطة والتدبر. فإنه لو قابله في مقره في «المدينة» وعلى مرأى من قواتهم، لربما أخلّ ذلك بغطاء «معبد». أضف إلى ذلك أنه كان فارسًا عاديًا غير مسلم ولا علاقة له بالرسول ﷺ أو قبيلته، ومن شأن ذلك أن يجعل قصته أقرب إلى القبول والتصديق. وهكذا تمكن الرسول ﷺ بشنه هذه العملية النفسية من خلال استعماله الذكي لهذا «العين» الخزاعي من التأثير على صانعي القرار الى اتخاذ موقف كان الرسول ﷺ يخطط لها بحنكة بالغة. وهكذا وبفعل هذه العملية السرية المحكمة أفلح الرسول ﷺ في تجنب المأساة، وأحباط مخططات أعدائه، وتثبيط عزائمهم، وثنيهم عن القيام بهجوم ثان. ومن المؤكد أن المعلومات المضللة التي نقلها «معبد الخزاعي» إلى «أبي سفيان» كانت مدروسة بعناية ومحسوبة على نحو دقيق، حتى يكون لها أقصى التأثير على «قريش».

وثمة عامل آخر أسهم في إنجاح هذه العملية السيكولوجية. فقد نقل «معبد الخزاعي» رسالته الاستخبارية في سياق من الاستعجال المقصود كي لا يترك لقادة «قريش» أي فسحة من الوقت للتثبت من صحة هذه المعلومات المهمة من أي مصدر آخر. وقول «العين» لهم على وجه الاستغراب "والله ما أرى أن ترتحل حتى ترى نواصي الخيل" أي تأكيده على أنه سيكون الوقت فات على المناورة وإعادة نشر القوات من جديد إذا ظهرت نواصي الخيل، أو يطلع أول الجيش من وراء هذه الأكمة، هو أسلوب ضاغط مريك، حيث لم يتح لـ «صفوان بن أمية» وقتاً لإعداد خطة بديلة للتراجع من خلال تقييمه للفرص وحساب المخاطر.

وإذا مـا تناولنا العمليات السـرية التي شـنتها «قريش» ضد حياة الرسـول ﷺ فمـن الملاحظ أنها كانت تتخذ أشـكالاً وأسـاليب متنوعة. ففـي أول مراحل الدعوة حـاول زعمـاء «قريش» اسـتمالة الرسـول الكريم ﷺ عن طريـق إغرائه بالمال والسـلطة، ولكن الرسـول ﷺ رد كل هـذه المحاولات. فأعلـن صراحة، وفـي مقولـة مشـهورة لعمـه الـذي مـن خلالـه عرضـت عليـه «قريـش» هذه العروض: "يـا عـم، والله، لو وضعوا الشـمس فـي يمينـي والقمر في شـمالي على أن أتـرك هذا الأمـر ما تركتـه حتى يظهـره الله أو أهلـك دونه".

ثم صعّدت «قريـش» من مقاومتهـا بحملة نفسـية مكثفة تسـتهدف تقويض الإسـلام وإحباط مسـاعي الرسـول الكريـم ﷺ لنشـر الدين الجديـد. وضمت الحملة، من بين أمور أخرى، نشـر شـائعات تسـيء إلـى الذات النبويـة، وتأليف قصائد الهجـاء والسـخرية التي تحط مـن قدر الرسـول ﷺ، وتُقبّـح كل ما هو مقـدس عنده. وشـملت حملـة الكراهيـة هذه اتهـام الداعـي إلى الديـن الجديد بأنه تـارة كاذب، وتارة شـاعر، وتـارة مجنون، وتارة سـاحر. ورافق هـذه الحملة النفسية الإسـاءة الجسدية،[101] وعندما فشـلت هذه الوسـائل «الارهابية» وغيرها في وقـف الدعـوة إلى الإسـلام، بـدأت «قريـش» تفكـر جدياً في العمـل على التخلص من الرسـول ﷺ وذلـك بتصفيته جسـدياً، لكونهم يرون فيـه رمزًا من رمـوز الثورة والعصيـان على نظـام المجتمع المكـي. إلا أن هذا المسـلك كان محفوفاً بالمخاطـر والتداعيات.

ولكـي يتـم التوصل إلـى توافـق أو قرار حـول مصيـر الرسـول ﷺ عُقد اجتماع فـي دار الندوة، وهو بمثابـة مجلس أو برلمـان في «مكة» آنـذاك. وبعد فيـض مـن المـداولات بيـن زعمـاء «قريش» قـام «أبـو جهـل»[102]، أحد أشـد أعداء الإسـلام ضراوة والذي سـبق أن حاول قتـل النبي محمـد ﷺ قبل ذلك، بطرح خطتـه الخاصة بشـأن التخلـص كلياً من الرسـول ﷺ. واقترح تشـتيت

دمه الطاهر بين القبائل، بأن تُعْهد الى مجموعة من شباب «قريش»، كل واحد منهم يمثل بطنًا من بطون «قريش» ومن بينهم رجل من بني هاشم، مهمتهم ضرب الرسول ﷺ بالسيف ضربة رجل واحد، حتى يضيع دمه بين سائر القبائل، ويجعل أهله يبحثون عن حل معقول للأمر.[103] لكن هذه الخطة فشلت فشلاً ذريعًا. فقد أوحي إلى الرسول ﷺ بهذه المؤامرة فترك «مكة» مهاجرًا إلى «المدينة»، متحاشياً محاولات العثور عليه بأن سلك طريقًا غير معتادة. وفي محاولة يائسة من «قريش» لإدراك الرسول ﷺ، أقفلوا كل الطرق الخارجة من «مكة» ووضعوا مراقبة مسلحة على كل المخارج المحتملة.[104] ولكنه على الرغم من كل هذه التدابير، تمكن الرسول ﷺ من كسر الحصار والتوجه إلى «المدينة»، حيث استقبله المسلمون الجدد بحماس كبير وتعهدوا له بالنصرة وتوفير الملاذ الآمن والترحيب بأصحابه.

وإلى جانب العمليات السرية التي كان قادة «قريش» يسعون من ورائها للتخلص على أي نحو كان من الرسول الكريم ﷺ فان محاولاتهم لحل الأمر عسكرياً باءت كلها بالفشل. فرغم تفوقهم الكبير في العدد والعدة تمكن أصحاب الرسول ﷺ من إلحاق الهزيمة بهم على أرض المعركة في «بدر». وخلال فترة المراجعة النفسية التي تلت هزيمة «قريش» في تلك الواقعة المشهودة، عبّر أحد رجال «مكة» وهو «عمير بن وهب بن عمير» الذي كان ولده قد وقع في الأسر في «بدر» عن رغبته في الانتقام لنفسه من رسول الله ﷺ. فأسَرّ إلى أفضل أصدقائه وحافظ سره «صفوان بن أمية» بأنه: لولا الديون التي في ذمته، وكذلك كبر عائلته التي يعولها، لأسرع إلى «المدينة» يريد دم الرسول ﷺ. وشاركه «صفوان» -وكان غنياً- هذا الامتعاض والكراهية لرسول الله ﷺ، فوافق عمير على الفور، على أن يرعى أهله إذا حدث له مكروه، بل وأن يسدد عنه ديونه أيضاً. وأقسم الرجلان ألا يفصحا عن الأمر لأحد.

وبعد أن وضع عمير سـمًا قاتـلاً على سـيفه، غادر إلـى «المدينـة» لتنفيذ ما اتُفِق عليه مـع صفوان. لكـن وبفضل من الله، ثـم بقدرات العيـون والطلائع المتفانيـن اكتُشِـفت نوايـاه المبيتـة واقتيـد عند وصولـه إلى رسـول الله ﷺ على الفور، حيـث كان قد لمحه عمـر بن الخطاب عنـد دخوله المدينـة، وارتاب في أمـره، فأمر بعـض الصحابة مـن الأنصـار أن يراقبـوه عن كثب وهـو يقابل رسـول الله ﷺ. وعندما سـأله الرسـول ﷺ عما جاء به إلى «المدينـة»، ردّ عليه بأنه خاف علـى حيـاة ابنـه وأراد أن يطمئن علـى حسـن معاملتهم لـه. وعندما سـأله الرسـول ﷺ عن السـيف، قال قبحها الله من سـيوف، وهل أغنت شـيئاً؟. ولكـن عندما ألحّ عليـه الرسـول ﷺ أن يخبره عن السـبب الحقيقـي وراء حمله للسـيف، لم يذكر شـيئًا. وإزاء إنكاره المسـتمر واجهه الرسـول ﷺ بالحقائق، موضحاً لـه عـن فحـوى اجتماعه بصاحبـه «صفـوان بن أميـة»، وعن السـبب الحقيقـي وراء مجيئـه إلى «المدينـة». وهنـا أصاب عميـرًا الذهول والدهشـة لدقة معلومـات الرسـول ﷺ، وإلمامـه بكافـة تفاصيل مـا كان خطـط للقيام به سـراً. وأيقن بأنه لا يعلم هذا الحديث الـذي دار بينه وبين «صفـوان» وحدهما، إلا نبي يوحـى إليه، فاعـرب على الفـور عن رغبته فـي اعتناق الإسـلام، فأطلق الرسول ﷺ سـراح ابنه.[105]

ولا بـد هنا مـن الإشـارة إلـى أن شـبكة العيـون التـي كانـت تـزود بناة الإسـلام الأوليـن بالمعلومـات الاسـتخبارية كانـت تضم فـي صفوفهـا أحيانًا بعض النسـاء، كما هـو الحال فـي قضية مقتـل رجليـن بالخطأ علـى يد احد المسـلمين، مما جعل الرسـول الكريم ﷺ يتدخل شـخصيًا لوقـف تداعيات هذه القضيـة. حيث طالبـت قبيلة الرجليـن بالديّـة لقاء الـدم المهدور. ولـم يتمكن الرسـول ﷺ من جمـع الديّـة المطلوبـة، فطلـب المسـاعدة في هـذا الأمر من قبيلـة «بنـي النضيـر» اليهوديـة، وفقًا لمـا جاء فـي معاهدتـه المبرمـة معهم. فطلـب اليهـود مـن الرسـول ﷺ زيارتهـم لمناقشـة الموضـوع. بيـد أن «بني

النضير» كانوا قد بيّتوا سوءًا وخبثًا لرسول ﷺ. لكنه علم من أحد عيونه السريين بمخططهم لاغتياله عند وصوله إليهم، حيث قامت امرأة من «بني النضير» بتسريب تفاصيل المؤامرة إلى أختها حتى وصلت إلى علم رسول الله ﷺ. وهكذا انكشفت المؤامرة الدنيئة من يهود «بني النضير».[106]

في هذا السياق أيضاً نشير إلى أن «أبا سفيان» جنّد ذات مرة أحد الأشخاص المتعصبين ضد الإسلام لقتل الرسول ﷺ في «المدينة»، وقدّم له مالاً وجواداً، ووجهه بأخذ أقصى درجات الحيطة والحذر وأن تكون جميع تحركاته واتصالاته في غاية السرية. لكنه ما أن دخل «المدينة» حتى ثارت شكوك المسلمين حوله. فقُبض عليه وعند استجوابه اعترف بما كان ينوي القيام به. عندها عرض عليه اعتناق الإسلام لتجنب المصير المظلم الذي ينتظره فقبل بذلك على الفور وتم العفو عنه.[107]

الفصل الرابع

استخبارات المعارك «الغزوات»

4.1: تقـديم

كانـت الأنشـطة الاسـتخبارية العسـكرية للدولـة الإسـلامية التـي أقامهـا الرسـول ﷺ في «المدينة» في السـنة الأولى للهجـرة (AD 623) تهدف أساسـاً للحصول علـى المعلومـات الضرورية لحمايـة المسـلمين، ودرء الأخطار عنهم، وذلك بتقييم حجـم التهديـدات، وتحليلهـا، واسـتنباط النوايا الخفيـة للأعداء، ومراقبـة تحركاتهـم العدائية عـن كثب. وقـد نُفِّـذت تلك المهـام في بـادئ الأمر بنسـب متفاوتـة مـن الحرفيـة والأداء السـليم. وتفيـد تفاصيـل المعـارك التي أوردتهـا كتـب التاريـخ والسـير، ومنها مـا ذكـره «ابن إسـحاق والواقـدي» في السـيرة والمغازي،[1] أن الرسـول الكريم ﷺ والقادة العسـكريين للدولـة الحديثة كانوا قبـل كل معركة يسـعون للحصول علـى معلومـات تفصيلية، سـواء أكانت تلك المعلومـات تكتيكيـة أو آنيـة أو اسـتراتيجية. فقـد كان الحصـول على تلك المعلومات أمرًا ضروريًـا ليتم إعداد الخطط المناسـبة والتعامل مع مسـتجدات الموقـف وفق مـا تقتضيـه المصلحة العليـا للدولة الإسـلامية.

كانت هـذه المهـام الاسـتخبارية مناطـة بأصحـاب رسـول الله ﷺ، كما كان قـد أقدم الرسـول ﷺ بنفسـه بصحبـة «أبي بكـر الصديـق» رضـي الله عنه على تنفيـذ مهمـة اسـتطلاع فـي مـكان قريب مـن «بـدر». فبينمـا كانـا فـي الطريق يستكشـفان المواقع إذ صادفا شـيخاً كبيرًا مـن العرب، ومن خـلال الحديث معه تمكنا مـن معرفـة موقع تمركـز جيش قريش.[2] وسـنحاول فـي الصفحـات التالية أن نسـلط بعض الضوء علـى معظم العمليـات الاسـتخبارية التي نفـذت في أهم الغـزوات التـي قادهـا الرسـول ﷺ بنفسـه وهي: «غـزوة بـدر» و« غـزوة أحد» و«غزوة الخنـدق» و«غـزوة حنين».

فما أن أُسّسَت الدولة الإسلامية في «المدينة» حتى شرع المصطفى ﷺ ومجلسه العسكري- ان جازت التسمية- بوضع اللبنة الأولى لرسم خطة استراتيجية طويلة المدى تهدف إلى الحد من خطر مشركي قريش وكسر شوكتهم من خلال محاولة فرض حصار على «مكة» وخنقها اقتصاديًا. وفي سبيل ذلك كان لا بد من الحصول على معلومات دقيقة موثوقة عن القوافل وحمولتها وحراسها والطرق التجارية التي ستسلكها، وهو ما يطلق عليه في عصرنا هذا «الاستخبارات الاقتصادية»[3]. من هذه الضرورة الحتمية، انطلقت أولى العمليات السرية لتجميع المعلومات عن أوضاع «مكة» وأهلها لا سيما ما يتصل منها بالنشاط التجاري. فأوكلت اول مهمة في هذا الشان إلى ابن عمة الرسول ﷺ، عبد الله بن جحش.[4] وكان من أوائل المسلمين الذين أسلموا، كذلك كان أول من تسمى بالأمير، حيث أمره الرسول ﷺ أن يقود مجموعة من الرجال تعدادهم ثمانية ليستكشفوا منطقة بعينها بين «مكة» و«المدينة». وقد كُلف هذا الرهط بجمع معلومات عن اهل مكة ورصد ما لديهم من اخبار وقد تمركزت هذه السرية على خط القوافل القادم من الطائف والمؤدي إلى «مكة». وقد أصابت المهمة نجاحًا طيبًا الا انها تجاوزت ما وجهت به، حيث قامت بالتربص والاستيلاء على قافلة كانت في طريقها إلى «مكة» فقتلوا قائدها وأسروا بعض الرجال من حراسها.[5]

بالرغم من تداعيات الازمة التي ترتبت عن مقتل قائد القافله على المسلمين، إلا أنه في وقت لاحق من السنة نفسها، نُفذت عملية سرية أخرى نتج عنها نصر مؤزر حيث جاء الذين كلفهم الرسول ﷺ باستطلاع الطرق البرية حول «مكة» و«المدينة» بأخبار عن قافلة تجارية كبيرة قادمة من الشام إلى «مكة»، يقودها «أبو سفيان»، أغنى تجار «قريش» وأكثرهم نفوذًا. ولأن خسارة القافلة سابقة الذكر، كانت لا تزال تشكّل له هاجسًا، فقد سعى ومرافقوه من التجار للحصول على أية معلومات عن نوايا المسلمين



خارطة الطرق التجارية في الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام

واستعداداتهم لاعتراض قافلة «ابو سفيان» أو وضع كمين لها. وفي ضنل هذا الجو المشحون سلباً والمشاعر المتبادلة من الترقب والريبة والحذر، فقد تطلب الأمر أن يبذل كل طرف قصارى جهده للاستطلاع وتجميع المعلومات سرًا واستدراج واستدرار التفاصيل واستنباطها عن الطرف الآخر بكل الوسائل المتاحة.[6] وعلى الرغم من أن تلك الوسائل كانت بدائية وقاصرة بمقاييسنا المعاصرة إلا أنها كانت تفي بالغرض آنذاك حيث أنها اعتمدت على العنصر البشري في جمعها وهو ما تفتقده الاستخبارات المعاصرة إلى حد ما. وليس بخاف أن التكنولوجيا الحديثة بكافة فروعها وامتداداتها باتت تهيمن على الكثير مما كان يقوم به العنصر البشري قديمًا. ونتيجة لتدفق الكم الهائل من المعلومات فقد ساهم ذلك في تقليص العنصر البشري، إلا أنه لا يوازيه من حيث التقييم والتحليل والاستنتاج المباشر.

على أن النصر كان للمسلمين في أول منازلة عريضة بينهم وبين جيش قريش. فـ «غزوة بدر» كان لها من الآثار والتداعيات الخطيرة ما يميزها عن الغزوات الأخرى لاسيما أن تلك المجابهة العسكرية المبكرة وضعت حدًّا لخرافة تفوق قوات «مكة»، وأثبتت بالواقع الملموس أن الإسلام بات قوة لا يستهان بها. فالنجاحات التي حققها المسلمون في هذه المعركة التي استمرت يوماً واحدًا فقط، قامت بتعزيز معنويات المسلمين ورفعها، فيما أشاعت مشاعر الخيبة والانكسار في أوساط قريش. وكانت المعركة أيضًا -والتي سرعان ما أصبحت تعرف في تاريخ العرب بـ«معركة بدر الكبرى»- بمثابة اختبار عملي للقوة العسكرية لرجال المسلمين المقاتلين ورسخت مكانة المؤمنين المخلصين لله. وسنحاول في الصفحات التالية أن نمعن النظر في الأعمال الاستخبارية التي نفذت في أربع غزوات خاضها رسول الله ﷺ ومنها غزوة «بدر، وأحد والخندق وحنين»، وذلك لاستجلاء بعض جوانب هذه المنازلات التاريخية المهمة من المنظور الاستخباري.

2.4: غزوة بدر 17 رمضان 2 هـ

تناول المؤرخون المسـلمون والمستشـرقون والمفسـرون وأصحاب السير وغيرهـم تفاصيـل المواجهـة الأولى بيـن الرسـول ﷺ والمشـركين مـن قريش بإسـهاب كبير. وأشـاروا علـى نحو واضح إلـى أن مخـاوف أهل «مكة» مـن تفاقم قـوة المسـلمين وتوجسـهم مـن أن الكيـان الجديد فـي «المدينـة» سـيزداد قوة ومنعة كان من بين الأسـباب الرئيسـة لنشـوء الحرب. وكان أشـد مـا يخيفهم هو أن يقوم المسـلمون في يـوم ما بعرقلـة خطوط القوافـل البرية التـي تربط «مكة» ببقية أنحـاء الجزيرة، أو خنـق «مكة» اقتصادياً حيـث كان ريع القوافـل التجارية هو المصـدر المالـي الرئيس لاقتصـاد «مكـة»، وفي حـال نجاح المسـلمين في ذلـك فسـوف تميـل كفـة الميـزان لصالحهـم وبالتالـي ضعف القـوة العسـكرية القرشـية. كمـا أن من الأسـباب الأخـرى لتلـك المواجهة العسـكرية سـعي أهل «مكـة» للانتقـام لمقتل أحـد زعمائهم «عمـرو بن الحضرمـي»،[7] الـذي كان على رأس القافلـة التجاريـة عندمـا قتله أحـد أفراد سـرايا المسـلمين. وفـي الجانب الآخر كان المسـلمون يتحينـون الفرصة لإنزال العقـاب بالقرشـيين الذين كانوا قـد أسـاءوا معاملتهـم، وحاصروهـم، وسـاموهم سـوء العـذاب، وأجبروهم على الهجـرة من موطنهم، لا لسـبب آخر سـوى أنهـم اعتنقـوا دين الإسـلام.[8] وهكذا اضطر المسـلمون إلـى ترك كل مـا يملكـون وراءهم، بـل إن «قريشًـا» هي التي حالت عنـوة دون أن ينقلـوا معهـم أموالهم إلـى حيث كانـوا يقصدون.

وقد شـعر الرسـول ﷺ والصحابة بعد سـبعة أشـهر من الهجرة إلى المدينة أن أفضل سـبيل لتأديب «قريـش» يكمن في اعتمـاد الحـرب الاقتصادية. وهكذا فرضـوا حصارًا فعـالاً تم بموجبـه حظر حركـة القوافل التـي تمر بـ «المدينة»،

من وإلى «مكة»، فضلاً عن القيام باعتراض سير القوافل الأخرى.[9] وما المهمة التي نهضت بها سرية «نخلة» إلا أحد أوجه ذلك الحصار. ولكي ينجح «الحظر الاقتصادي» ويؤتي ثماره، كان لابد من توفر استخبارات اقتصادية دقيقة من خلال تجميع معلومات مفصلة عن القوافل المارة أو العابرة إلى «مكة» للوقوف على أحجامها وحمولاتها وخط سيرها والمجموعات المرافقة المكلفة بحمايتها. من هنا كان الرسول ﷺ يبعث بالمستكشفين والعيون والجامعين (للأخبار) الذين كانوا يجوبون أنحاء الصحراء باحثين عن أخبار القوافل المكية. ففي إحدى الليالي التي سبقت «غزوة بدر» أمر الرسول ﷺ بعض أصحابه بالتحري والرصد لأي معلومات أو أخبار عن أهل مكة، وقد عُرف الرجال الذين أوكلت لهم تلك المهمة بمسمى «سرية نخلة» التي كانت كما سبقت الإشارة بقيادة «عبدالله بن جحش».[10]

ينقل لنا الشيخ «صفي الرحمن المباركفوري» في كتابه «الرحيق المختوم» الذي يستقي ما ورد فيه من معلومات غزيرة من النصوص الأصلية والمصادر الأولية مثل كتاب «السيرة النبوية لابن إسحاق»، أول مؤرخ عربي كتب بحثاً موثقاً في سيرة الرسول ﷺ عن تلك الواقعة أن الرسول ﷺ أمر «ابن جحش» بأن يذهب في مهمة سرية، وسلمه كتاباً مختوماً لا يقرأه حتى يسير مسافة ليلتين -وهذه أحد وسائل أمن العملية «Operation Security» والتي تحد من انكشاف المهمة وتفاصيلها- وأمره عند فتحه أن يتبع ما فيه من توجيهات. وهكذا كان، فبعد مسيرة يومين فتح «ابن جحش» الخطاب الذي يحمل أوامر المهمة التي ورد فيها أن عليه أن يمضي إلى موقع يدعى «نخلة» بين «مكة» و«الطائف» وأن يجمع قدر ما يستطيع من معلومات عن قريش، وأن يرصد أية تحركات لقوافل قريش في تلك المنطقة. وقد امتثل رجال السرية لأوامر الرسول ﷺ وبعد وقت قصير أبصر رجالها قافلة لـ«قريش». عند ذاك تحرك أحد أفرادها وكان قد موه هيئته بحلقه شعر رأسه قبل أن

يخرج في المهمة، واتجه نحو القافلة. ولأنه كان حليق الرأس اطمأنت إليه القافلة ظناً منها أنه وأصحابه من المعتمرين إلى «مكة». ولكن سرعان ما فاجأ «ابن حجش» ومجموعته القافلة بهجوم صاعق قضوا فيه على قائدها «عمرو بن الحضرمي» حيث رماه «واقد بن عبدالله التميمي» بسهم، ثم استولوا على القافلة ورجعوا إلى «المدينة» بغنائم وبأسيرين من رجال «قريش»،[11] متخطيًا بذلك سلطته وحدود مسؤولياته التي كانت تتطلب الرصد والتحري فقط. وعلى الرغم من النهاية الدامية لتلك المهمة التي أغضبت الرسول ﷺ، لمخالفتهم أوامره بأن لا يقاتلوا في الشهر الحرام،[12] فمما لا شك فيه أن حصيلة المعلومات التي تم الحصول عليها جراء تلك العملية قد وفرت تفاصيل استخبارية دقيقة كانت ذات فائدة قيمة للمسلمين.

وفي الجانب الآخر كان «أبو سفيان» شديد الحيطة والحذر، وعلى أهبة الاستعداد ليعلم شيئاً عن خطط الرسول ﷺ وصحبه وعن قواته، وتحركاته، واتصالاته. فكان يبعث بعيونه وكشافته ليتسقطوا أخبار المسلمين وأنشطتهم، وكانوا يزودونه بتقارير منتظمة ومفصلة عن نشاطات الرسول ﷺ. وفي «بدر» سأل «أبو سفيان» أحد الأشخاص الذي يعرفهم عما إذا كان قد شاهد غرباء في تلك المنطقة، فدله على مبرك راحلتيهما، والذي استدل من خلاله على أنهما كانا من عيون الرسول ﷺ. وهنا استشعر «أبو سفيان» بوجود كمين نصبه المسلمون له خارج «المدينة»، فسارع إلى تغيير خط سيره وبعث مرسولاً له إلى أهل «مكة» طلبًا للنجدة. ولكي يبين مدى خطورة الموقف في محاولة لشحن «قريش» بأقصى درجات الإثارة والحماس، عمد مرسول «أبي سفيان» «ضمضم بن عمرو الغفاري» إلى شق قميصه، ثم قام بجدع أنف بعيره، في مشهد يستجدي فيه الغوث ويطلب الاستنفار، وفق ما ذكره المباركفوري في رحيقه المختوم:

"يا معشر قريش، اللطيمة، اللطيمة، أموالكم مع

«أبي سفيان» قد عرض لها محمد في أصحابه، لا أرى أن تدركوها، الغوث... الغوث....فتحفز الناس سراعًا وقالوا: أيظن محمد وأصحابه أن نكون كعمرو بن الحضرمي؟ كلا والله ليعلمن غير ذلك، فكانوا بين رجلين: إما خارج، وإما باعث مكانه رجلاً، وأوعبوا في الخروج فلم يتخلف من أشرافهم أحد سوى «أبي لهب»، فإنه عوض عنه رجلاً كان له عليه دين، وحشدوا من حولهم من قبائل العرب، ولم يتخلف عنهم أحد من بطون قريش إلا «بني عدى» فلم يخرج منهم أحد. وكان قوام هذا الجيش نحو ألف وثلاثمائة مقاتل في بداية سيره، وكان معه مائة فرس وستمائة دِرْع (لقتال المسلمين)."[13]

ويكمل المباركفوري الرواية فيقول:

"وحينئذ خرجوا من ديارهم، وأقبلوا بحدهم وحديدهم.... يحادون الله ويحادون رسوله .... وعلى حمية وغضب وحنق على رسول الله ﷺ وأصحابه؛ لجرأة هؤلاء على قوافلهم. تحركوا بسرعة فائقة نحو الشمال في اتجاه بدر، وسلكوا في طريقهم وادى «عُسْفَان»، ثم «قُدَيْدًا»، ثم «الجُحْفَة»، وهناك تلقوا رسالة جديدة من «أبي سفيان» يقول لهم فيها: إنكم إنما خرجتم لتحرزوا عيركم ورجالكم وأموالكم، وقد نجاها الله فارجعوا. وكان من قصة «أبي سفيان» أنه كان يسير على الطريق الرئيسي، ولكنه لم يزل حذرًا متيقظاً، وضاعف حركاته الاستكشافية، ولما اقترب من «بدر» تقدم عيره حتى لقى «مَجْدِيَّ بن عمرو»، وسأله عن جيش «المدينة»، فقال: ما رأيت أحدًا أنكره إلا إني قد

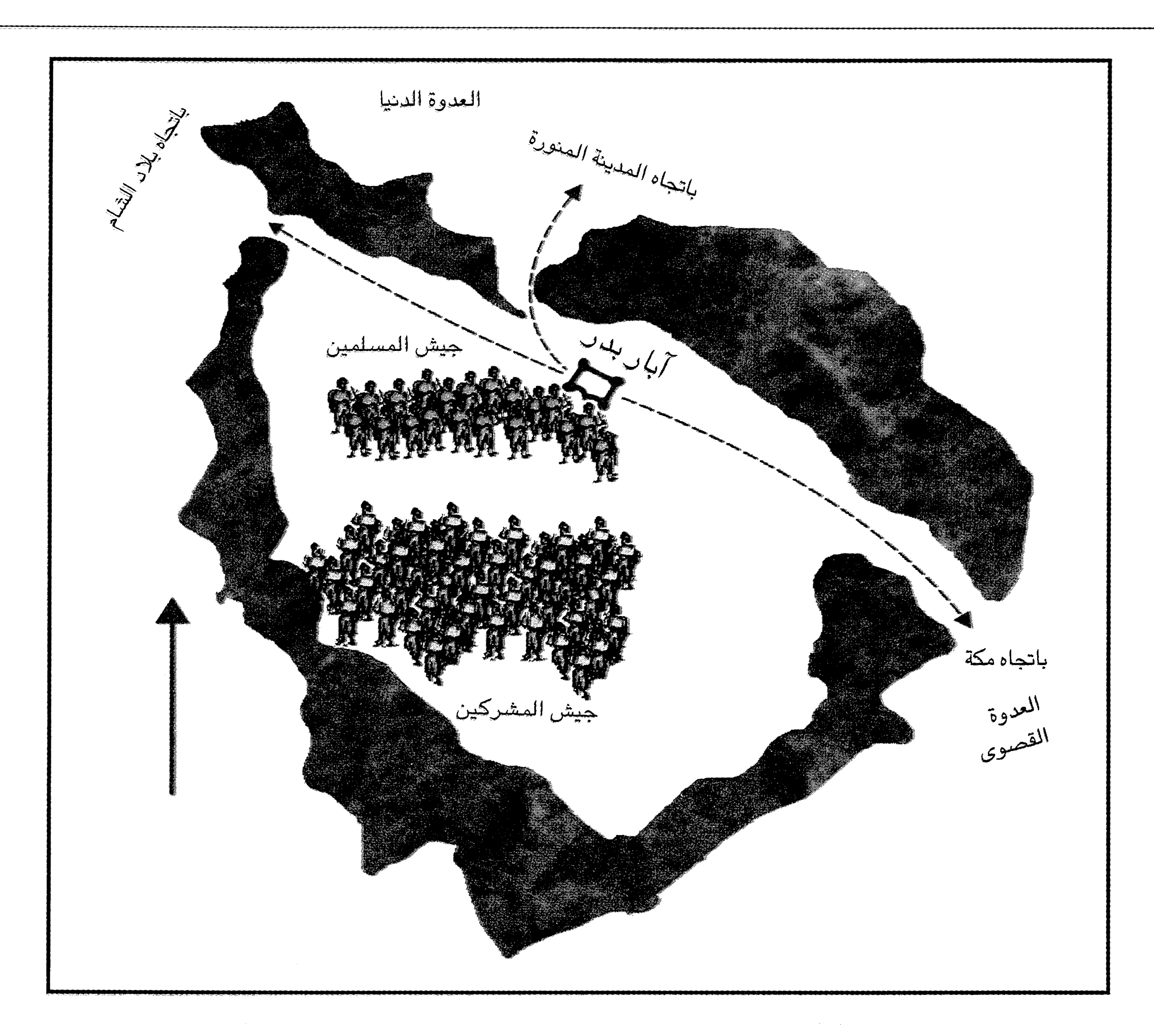
رأيت راكبين قد أناخا إلى هذا التل، ثم استقيا في شن لهما، ثم انطلقا، فبادر «أبو سفيان» إلى مناخهما، فأخذ من أبعار بعيرهما، ففته فإذا فيه النوى، فقال: هذه والله علائف يثرب، فرجع إلى عيره سريعًا، وضرب وجهها محولاً اتجاهها نحو الساحل غربًا، تاركاً الطريق الرئيسي الذي يمر بـ «بدر» على اليسار، وبهذا نجا بالقافلة من الوقوع في قبضة جيش «المدينة»، وأرسل رسالته إلى جيش «مكة» التي تلقاها في الجحفة [14]. ولما تلقى هذه الرسالة جيش «مكة» هم بالرجوع، ولكن قام طاغية قريش «أبو جهل» في كبرياء وغطرسة قائلاً: والله لا نرجع حتى نرد بدرًا، فنقيم بها ثلاثًا، فننحر الجَزُور، ونطعم الطعام، ونسقى الخمر، وتعزف لنا القِيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبدًا. (أرادوا معاقبة المسلمين ومنعهم من اعتراض قوافلهم، وإقناع العرب بأن قريشا ما زالت لها اليد العليا والهيمنة)."[15]

وجاءت السرايا التي أرسلها الرسول ﷺ لاستطلاع أمر قريش مخبرة إنه لا مفر من المواجهة مع أهل «مكة»، وأنه لابد من اتخاذ خطوة جريئة لكي لا يخسروا المعركة القادمة. فقد كان المسلمون يخشون من أن أهل «مكة» سيستمرون في تقدمهم نحوهم، وسيشعلون حرباً في عمق «المدينة» قلب الإسلام، وحينذاك سيكونون قد ألحقوا بالمسلمين ضررًا لا قومة منه. وفي ضوء هذه التطورات المتسارعة، عقد الرسول ﷺ اجتماعًا طارئًا لمراجعة الوضع وتبادل الآراء مع قادة جيشه. وقام أيضًا بإطلاع أصحابه على خطورة الموقف ثم طلب منهم المشورة. فقام «سعد بن معاذ» فقال:

"قد آمنا بك، فصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو

الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدًا، إنا لصُبُر في الحرب، صُدَّق في اللقاء، ولعل الله يريك منا ما تَقَرّ به عينك، فسِرْ بنا على بركة الله." فَسُرَّ رسول الله ﷺ بقول سعد، ونشطه ذلك، ثم قال: "سيروا وأبشروا، فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكاني الآن أنظر إلى مصارع القوم".[16]

وكان من الضروري لرجال رسول الله ﷺ أن يجهدوا في حماية قائدهم والذود عنه فلو وقع له مكروه، فقد تكون لذلك عواقب غير حميدة على الإسلام كدين وعلى الدولة الإسلامية الناشئة في «المدينة» أيضًا. ولذلك تم اختيار فرقة من رجال الأنصار بقيادة «سعد بن معاذ» لحراسة رسول الله ﷺ والمرابطة حول مقر قيادته [17]، وكانت تلك أول مرة في تاريخ حروب العرب يقام مركز للقيادة يباشر منه القائد مهامه.[18] وكخطة بديلة، ضمن تدابير أخرى أمنية، وضعت خطة لتمكين الرسول ﷺ في حال دارت الدائرة على المسلمين، من الرجوع إلى «المدينة» للبحث عن المساعدة من الذين خلفّهم وراءه. ولكن المهمات الاستطلاعية الأولى التي قام بها المسلمون أعطتهم الأفضلية على خصومهم من قريش حيث أنها مكنتهم من الحصول على معلومات دقيقة عن طبيعة ساحة المعركة ومكنتهم أيضًا من اختيار الموقع الاستراتيجي للتمركز والسيطرة على أماكن الماء. فلم يكونوا ليسمحوا لأحد أن يصل إلى الماء دون إذن. وهكذا، تمكن المسلمون من حرمان أعدائهم من أهم سلعة في الصحراء، تلك التي لا يستطيع الإنسان بدونها البقاء طويلاً وسط رمالها الحارقة. ونتيجة لذلك تقدم بعض القرشيين



مخطط يوضح مواقع المسلمين والمشركين في غزوة بدر

نحو المسلمين استفزازًا يريدون أن يشربوا من «آبار بدر»، ولكنهم قتلوا إلا واحدًا هو «حكيم بن حزام». [19] الذي كانت له مواقف حسنة إزاء الرسول ﷺ والمسلمين في «مكة». فتذكُر الكتب عن ذلك، أنه لما حوصر الرسول ﷺ والمسلمون في «شعب أبي طالب»، وبلغ بهم من الجهد والجوع ما بلغ، كان «حكيم بن حزام» من الذين خالفوا هذه «المقاطعة» فكان يبعث ببعض عيره إلى مدخل الشعب وهي محملة بشيء من الطعام ثم يدفعها إلى داخل الشعب حتى يستفيد المسلمون من حمولتها. وعن ذلك يقول الواقدي:

"حدثني «أبو إسحاق»، عن «عبد الرحمن بن محمد بن عبد»، عن «سعيد بن المسيب»، قال: نجا «حكيم» من الدهر مرتين لما أراد الله به من الخير. خرج رسول الله ﷺ على نفر من المشركين وهم جلوس يريدونه فقرأ: «يس» وذر على رءوسهم التراب فما انفلت منهم رجل إلا قتل، إلا «حكيم». وورد الحوض يوم بدر، فما ورد الحوض يومئذ أحد إلا قتل إلا «حكيم»". [20]

ومن المعروف أن الفترة التي تسبق المناوشات والمعارك بين قريش والمسلمين كانت تشهد أنشطة استطلاعية واستكشافية مكثفة يقوم بها كلا الطرفين. فقائد قريش وزعيم الحملة ضد الرسول ﷺ في «بدر» «أبو جهل» أرسل مجموعة من الكشافة يقودهم «عمير بن وهب الجمحي»، ليقّيموا قوة المسلمين. وعند رجوعه قدم لقائده تقريرًا شفويًا يلخص به الموقف قائلاً:

"إن عددهم ثلاثمائة رجل يزيدون أو ينقصون... ولكن أمهلوني حتى أنظر أَلِلقوم كمين أو مدد؟ فضرب في الوادي حتى أبعد، فلم ير شيئًا، فرجع إليهم فقال: ما وجدت شيئًا، ولكني قد رأيت يا معشر قريش البلايا تحمل المنايا، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع، قوم ليس معهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم، والله ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل رجلاً منكم، فإذا أصابوا منكم أعدادكم، فما خير العيش بعد ذلك، فروا رأيكم." [21].

وحيث أن قريشًا كانت تفوقهم عددًا وعدة، لم يوفر الرسول ﷺ جهدًا في سبيل رفع معنويات جيشه، فاستلهم الثقة فيهم وأكد لهم أن ثواب الله ينتظرهم، إما النصر المؤزر أو الشهادة إذا سقطوا في أرض المعركة. وكان تأثير هذا الكلام على نفوس أصحابه عظيمًا. فبدأ المسلمون القتال بحماسة

عظيمة واندفـاع شـديد حتى قتلـوا أكبـر عدد مـن المشـركين.[22] وقد أشـعلت الهزيمـة النكراء فـي زعماء «قريـش» الرغبة فـي الانتقـام لمقتل عـدد كبير من رجالهـم، فكانت السـبب الرئيس لنشـوب «غـزوة أحد».

3.4: غزوة أحد 15 شعبان 3 هـ

افـرزت النتائـج التـي تمخضـت عنهـا «غـزوة بـدر» فقـدان زعمـاء «مكة» وقياداتهـا العسـكرية الهيبـة والمكانـة، لا بيـن أبنـاء جلدتهم فحسـب، بـل عند العرب مـن غيـر قريش أيضًـا. فرغـم التفـوق الكبيـر لعـدد مقاتلي قريـش على جيـش الرسـول ﷺ، تمكـن المسـلمون مـن تحقيـق نصـر مـؤزر عليهـم، حيث خسـرت قريـش مـا بيـن 50 و70 رجـلاً وأُسِـر منهـا عـدد مماثـل. أما خسـائر المسـلمين فكانـت طفيفـة لا تتعـدى 14 رجـلاً، ولا تمثـل سـوى نسـبة ضئيلة من قوتهـم. وقد أثبت الرسـول ﷺ من خـلال اسـتهدافه عصب تجـارة قريش مع العالم الخارجي، لا سـيما مـع «سـوريا البيزنطية»، أنـه كان مفكرًا اسـتراتيجيًا محنـكاً بعيـد النظـر ومشـهودًا لـه بالكفـاءة والدرايـة فضلاً عـن كونـه مجيدًا لقراءة الأحـداث ومستشـرفًا لآفـاق المسـتقبل. فقد كان علـى يقين منـذ البدء أن «قريشـاً» لـن تخضـع إلا إذا تـم تقويـض مكانتهـا الاقتصادية، وشـل حركة قوافلهـا التجارية. وهـذا بالفعـل ما تحقق لـه ﷺ في غضـون بضع سـنين فقط. بيد أن «قريشًـا» ما كانـت لتتقبل تلـك الهزيمة بهذه السـهولة، فكانـوا مصممين على الثـأر لقتلاهم، وغسـل العار والمـرارة التي خلفتهـا عقدة «بـدر». وكانوا أيضًـا يتطلعـون إلـى اسـتعادة نشـاطهم الاقتصـادي، واسـتئناف علاقاتهـم الخارجيـة، وتأميـن طـرق القوافـل البريـة مـن جديـد بيـن «مكـة» مـن جهـة، و«اليمـن» و«سـوريا» و«العـراق» مـن جهة أخـرى.[23]

شـرع القرشـيون فـي الفتـرة التـي أعقبت «غـزوة بـدر» مباشـرة بدراسـة أوضاعهـم والغـوص في أعمـاق أنفسـهم ومسـاءلتها ومراجعـة أفعالهـم للوقوف على مواطـن الضعف لديهـم لإصلاحهـا كي يتجنبـوا تكرارهـا. وبإيجاز شـديد

كان عليهم أن يكتشفوا العوامل التي أدت إلى هزيمتهم وانتصار المسلمين المبهر على جيشهم الذي كان يفوقهم عددًا وعدة. لذلك بذل القرشيون جهودًا عظيمة لجمع المعلومات عن جيش المسلمين وللتعرف على نقاط الضعف فيه لكي يتمكنوا من استغلالها، والنفوذ من خلالها في مواجهاتهم القادمة.

ولم يكن المسلمون أقل تحمساً منهم لمعرفة تفاصيل الاستعدادات العسكرية وطبيعة العمل الانتقامي المرتقب الذي كان قادة «قريش» يجاهرون بالتخطيط له. وكان من الطبيعي إذن خلال تلك الفترة التي بلغ فيها الترقب والتوتر والقلق مبلغه، أن تزداد النشاطات الاستخبارية وخاصة أعمال الجمع السري للمعلومات. فتقارير العيون والعملاء المستترين الآخرين من أمثال المسافرين العابرين والتجار، لم تكن تكفي لتوفير صورة واضحة عن إمكانيات كل طرف ونواياه وخططه، ذلك أن «الاستخبارات التكتيكية» بحاجة على الدوام إلى الوقوف على التطورات المتواصلة للأحداث ومعرفة أكثر تفاصيلها دقة.

ولكي يضمن المسلمون استمرار نجاح غاراتهم على القوافل المتجهة إلى «مكة» والقادمة منها، فقد طوروا نظامًا خاصًا للمراقبة المستمرة من خلال العيون المتنكرين والمنتشرين في كل مكان، فنجحوا في الحصول على المعلومات التفصيلية عن الطرق البديلة التي كانت قوافل القرشيين تسلكها لتتجاوز صعوبات الحصار الاقتصادي وتتحاشى هجمات المسلمين. واستفاد الرسول ﷺ من الاستخبارات المتحصل عليها، في شن سلسلة من الغارات الناجحة رغم التدابير الوقائية التي عمدت إليها قريش، كتكثيف الحماية، واستعمال أدِلاء ذوي خبرة واسعة بمسالك الصحراء، وإجراء تعديلات مستمرة على خطط سيرهم وطرق التجارة التي يسلكونها. فكانت قوافلهم رغم كل تلك الاجراءات التحوطية تفاجأ بغارات المسلمين عليها.

ومن أبرز الأمثلة التي تضرب على ذلك ما حدث لعير «صفوان بن أمية».[24] فعندما شعر «صفوان» أن الحصار بات يستهلك رأس ماله، أشار عليه أصحابه بأن يسلك بقافلته «طريق الساحل»، وهو الطريق المؤدي للعراق. وعندما تحَجّج «صفوان» لأصحابه بعدم معرفته بذلك الطريق، أرشدوه إلى دليل خريت ملم بتلك النواحي يدعى «فرات بن حيان العجلي»:

> خرج مع «صفوان عبد الله بن أبى ربيعة» و«حويطب بن عبد العزى» فى رجال من «قريش»، وخرج «صفوان» بمال كثير نقر فضة وآنية فضة وزن ثلاثين ألف درهم وخرجوا على «ذات عرق». وقدم «المدينة» «نعيم بن مسعود الأشجعى»، وهو على دين قومه فنزل على «كنانة ابن أبى الحقيق» فى «بنى النضير». هذا، وحضر ذلك الكلام «سليط بن النعمان بن أسلم» الذي كان يأتي «بني النضير» أحياناً ويجالسهم، فخرج من ساعته إلى النبي ﷺ فأخبره، فأرسل رسول الله ﷺ «زيد بن حارثة» فى مائة راكب فاعترضوا لها فأصابوا العير.[25]

ولأن حتمية المواجهة الدامية بين الرسول ﷺ وأهل «مكة» كان لا مفر منها، فقد خطط «أبو سفيان» وصحبه من زعماء القبائل لحرب مفاجئة ضروس على المسلمين. وقبل تنفيذ خطط الحرب السرية، مرر أحد عيون الرسول ﷺ في «مكة» تفاصيل عن اعتداء وشيك عليهم. ولم يكن هذا «العين»، سوى «أبي الفضل، العباس بن عبد المطلب» عم رسول الله ﷺ [26] الذي بعث برسالة إلى «المدينة» مفادها أن "«قريشًا» قررت أن تسير نحوكم جميعًا. إنهم أوشكوا على الوصول، وإن عليكم أن تفعلوا ما عليكم. لقد جاءت «قريش» بجيش قوامه ثلاثة آلاف. ومعهم ثلاثمائة جمل، ومئتا فرس، وسبعمائة درع، وعندهم من السلاح والعتاد ما يفيض".[27] وقد وصلت هذه

التفاصيل الاستخبارية الخطيرة والحساسة في وقتها المناسب حيث وفرت على الرسول ﷺ وقتًا قيمًا استطاع أن يرفع مستوى الاستعداد عند رؤساء أركان جيشه ليعدوا خططاً مثلى لمقاومة الهجوم الوشيك.

ولم يكن «العباس» «الوكيل» السري الوحيد في «مكة» الذي كان يمد الرسول ﷺ بمعلومات قيمة عن التعبئة المكية، فهناك رجل آخر هو «عمرو بن سالم الخزاعي» الذي كان من قبيلة خزاعة التي دخلت حلفاً مع رسول الله ﷺ بعد «الحديبية». فمن باب التواري، لحق «عمرو» هذا بعدد من أصحابه من رجال القبائل كانوا مسافرين أصلاً من «مكة» إلى «المدينة»، ولكنه استغل الفرصة حتى يطلع الرسول ﷺ على الهجوم الوشيك.[28] وما أن نقل رسالته حتى أقفل عائدًا إلى «مكة». لكن أنباء سفره المستعجل إلى «المدينة» وصلت «جهاز الاستخبارات السري» لقريش، حيث كان عملاؤها قد أبصروه في مكان يدعى «الأبواء». وعلى الفور تم إعلام القائد الأعلى لقوات «قريش» «أبي سفيان» بمهمة «عمرو» السرية. وهنا أدرك «أبو سفيان» أن قريشًا لم تعد تملك ميزة المباغتة، ذلك أن المسلمين باتوا الآن على علم بعددهم وتحركاتهم ونواياهم.[29]

وحال وصول المسلمين تقارير مؤكدة عن تعبئة قريش ضدهم، بدأوا بعمليات مراقبة عن بعد لقريش، وشرعوا بتنفيذ مهمات وظيفية ضرورية في الاستخبارات العسكرية كالجمع التكتيكي للمعلومات، ورفع أهبة الاستعداد تحسبًا لأي تحول مفاجئ للأحداث. وزاد «عمر بن الخطاب» من عدد حراس الليل، وأمر بغلق كافة نقاط الدخول الى «المدينة» والخروج منها. وفي هذه الأثناء أمر الرسول ﷺ أثنين من عناصره الاستخبارية، وهما «أنس بن فضالة» وأخوه «مؤنس»، ليتجها إلى المكان الذين نصب فيه جيش «قريش» خيامهم وذلك لاستطلاع المنطقة وجمع المعلومات.[30]

وبعد أن نجح «ابنا فضالة» في اختراق صفوف الأعداء رجعا إلى «المدينة» دون أن يثيرا شكوك الهدف. ومن استقراء التفاصيل التي قدماها للرسول ﷺ عن مقدار استهلاك مواشيهم للنبات في المنطقة، استنتج المسلمون عدد الخيول والجمال والماشية الأخرى لدى العدو.[31] وزيادة في الحيطة والحذر ولكي يتثبت على نحو قاطع من المعلومات التي أوردها الأخوان «أنس» و«مؤنس»، قرر الرسول ﷺ إرسال كشاف آخر:

> بعث رسول الله ﷺ «الحباب بن المنذر بن الجموح » إلى القوم سرًا، وقال لـ «لحباب» : "لا تخبرني بين أحد من المسلمين إلا أن ترى قلةً" ، فرجع إليه فأخبره خاليًا، فقال له رسول الله ﷺ: "ما رأيت" ؟ قال: رأيت يا رسول الله عددًا، حزرتهم ثلاثة آلاف يزيدون قليلاً أو ينقصون قليلاً، والخيل مائتى فرس ورأيت دروعًا ظاهرة حزرتها سبعمائة درع. قال: "هل رأيت ظعنًا"؟ قال: رأيت النساء معهن الدفاف والأكبار (الأكبار يعنى الطبول). فقال رسول الله ﷺ:"أردن أن يحرضن القوم ويذكرنهم قتلى «بدر»، هكذا جاءني خبرهم لا تذكر من شأنهم حرفًا، حسبنا الله ونعم الوكيل، اللهم بك أجول وبك أصول.[32]

حوى تقرير «الحباب» من المعلومات، ما زاد عما جاء به الأخوان، خصوصًا فيما يتصل بتفاصيل استعدادات الجيش القرشي وتموينه وتجهيزاته. وحوى التقرير أيضًا معلومات عن الحالة النفسية للمحاربين القادمين ومحاولات قادتهم استنهاض الهمم وحثهم على القتال من خلال تذكيرهم بالذين قتلوا في المواجهة الأولى. ولا يخفى أن من بين الأسباب التي دعت القرشيين إلى اصطحاب الأرامل والنساء هو إثارة الحمية لدى المقاتلين وتذكيرهم بوجوب الانتقام للثكالى والأرامل، وضرورة تطهير كرامة

«قريش» وسمعتها مما لحق بهما من هزيمة «بدر».[33] ثمة سبب آخر لوجود النساء في أرض المعركة فقد كان منظرهن وهن ينقرن بالدفوف والطبول وتعلو أصواتهن بالهتافات والنداءات والأناشيد يحفز رجال القبائل على القتال بشجاعة أمامهن فقيم المجتمع الذكوري تحتم على الرجال في مثل هذه الظروف أن لا يهربوا أمام الصعاب والمحن مهما بلغت.

واصل المسلمون عملياتهم الاستكشافية وكثفوها بعد «بدر». وعلى سبيل المثال ان الرسول ﷺ بعث عشية المواجهة مع جيش «قريش» في «أحد» أحد عناصره وهو «سلمة بن سلام بن وقش» في عملية سرية وأمره بأن يخترق صفوف «قريش» ويرجع إليه بترتيباتهم النهائية:

> خرج «سلمة» يوم الجمعة حتى إذا كان بأدنى العرض إذا طليعة خيل المشركين عشرة أفراس فركضوا فى أثره فوقف لهم على نشز من الحرة، فراشقهم بالنبل مرةً وبالحجارة مرةً حتى انكشفوا عنه. فلما ولوا جاء إلى مزرعته بأدنى العرض، فاستخرج سيفًا كان له ودرع حديد كانا دفنا فى ناحية المزرعة فخرج بهما يعدو حتى أتى «بنى عبد الأشهل» فخبر قومه بما لقى منهم.[34]

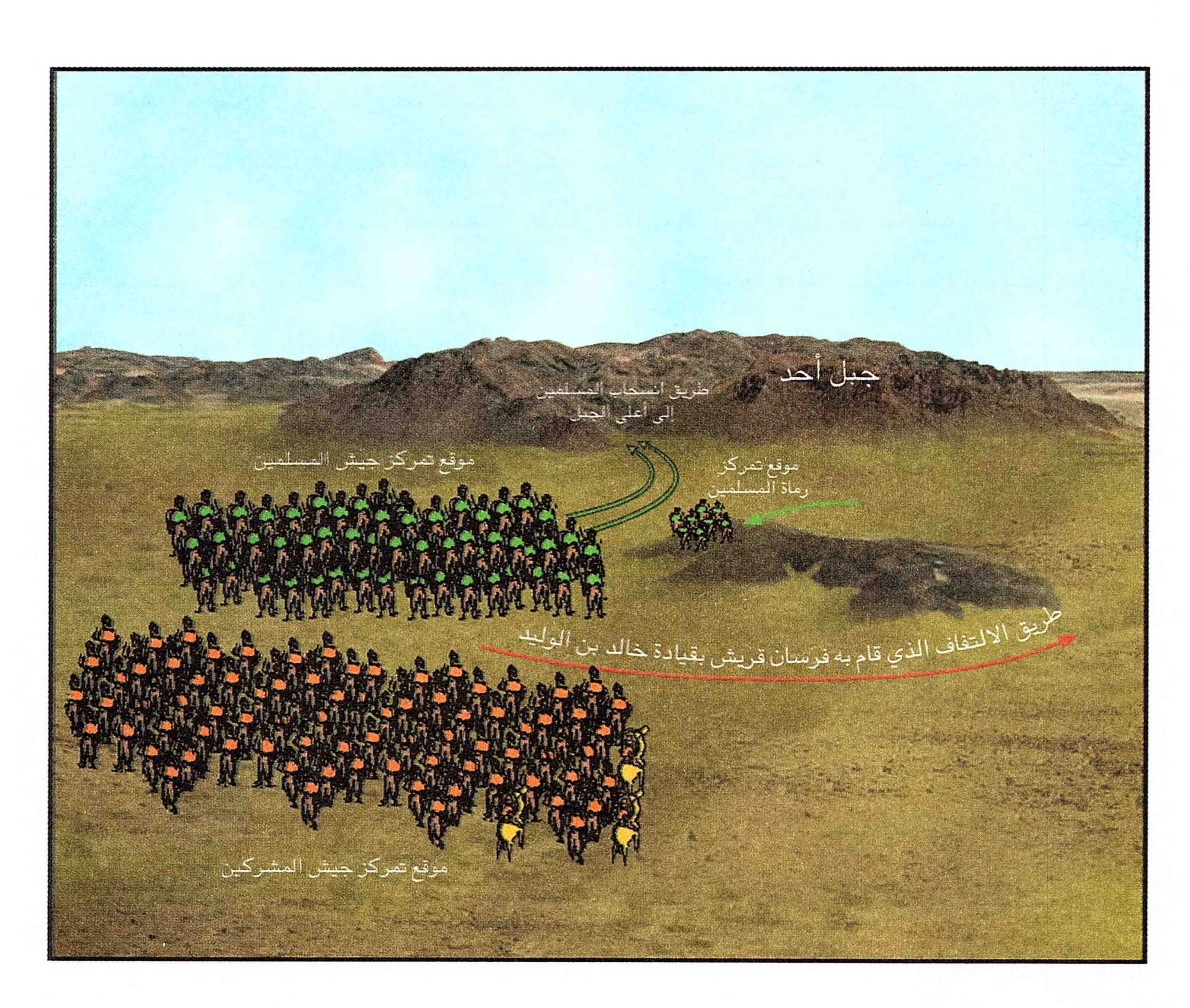
ولم يعتمد الرسول ﷺ في هذه المواجهات المطولة مع قريش على «الوكلاء السريين» فحسب بل كان لديه من الفرسان المتفانين وذوي الخبرة في شؤون الحرب النفسية من الذين كانوا يسربون المعلومات قصدا بهدف إضعاف معنويات الأعداء، وكان تصله أيضًا معلومات حيوية من بعض مَن جندّهم المسلمون من رجال الصحراء وأدلتها المتمرسين الذين كانوا يملكون معلومات دقيقة عن طرق سير القوافل والبدائل القصيرة الآمنة وغيرها مما يتصل بتفاصيل الحياة وسط الرمال الحارقة، وكان هؤلاء

على جانب كبير من الأهمية لنجاح أية عملية عسكرية. وما قول رسول الله ﷺ "هكذا جاءني" عندما سأل «حبابًا» فيما إذا كان قد رأى ظعناً مع جيش قريش، إلا دلالة واضحة على ورود تقارير أخرى لم ترد تفاصيلها في المصادر التاريخية والسير .

بعد أن جمع الرسول ﷺ المعلومات المتوفرة وحللها وبعد أن انتهى من تجهيز جيشه الذي كان قوامه ألف رجل للمعركة الوشيكة، استشار المهاجرين والأنصار، ثم أصدر أوامره وبمساعدة من أحد هؤلاء الرجال وهو «أبو هثامة الحارثي»، بالتقدم في اتجاه جيش قريش. وتحرك المسلمون تحت جنح الظلام واختاروا مسلكا لا يعرفه كثيرون ولا تراقبه «قريش»، فتمكنوا من الوصول إلى «جبل أحد» دون أن يُفطَن إليهم. إلا أنه قبل أن يصلوا ساحة المعركة وعند مكان يدعى الشوط، إذ بأحد القادة وهو زعيم قبيلة الخزرج «عبد الله بن أبي سلول» الذي عرف فيما بعد بمسمى «رأس المنافقين»، ينسحب من قوة الجيش، آخذاً معه ثلاثمائة مقاتل، محتجاً على خطة الرسول ﷺ في الخروج لملاقاة «قريش» عند «جبل أحد»، قائلاً "أطاعهم وعصاني" مشيرًا إلى أن الرسول ﷺ أخذ برأي من طلبوا الخروج لملاقاة المشركين خارج «المدينة» بينما كان رأيه أن ترك «المدينة» سيعرضهم لكارثة يقتلون فيها، وقد قال حينئذ عندما استشارهم رسول الله ﷺ في الخروج لملاقاة قريش:

> "يا رسول الله، كنا نقاتل فى الجاهلية فيها، ونجعل النساء والذرارى فى هذه الصياصى، ونجعل معهم الحجارة، والله لربما مكث الولدان شهرًا ينقلون الحجارة إعدادًا لعدونا، ونشبك «المدينة» بالبنيان فتكون كالحصن من كل ناحية وترمى المرأة والصبى من فوق الصياصى والآطام ونقاتل بأسيافنا فى السكك، يا رسول الله إن مدينتنا عذراء

ما فضـت علينا قط، ومـا خرجنا إلى عـدو قط إلا أصـاب منا، وما دخـل علينـا قـط إلا أصبنـاه فدعهم يـا رسـول الله فإنهم إن أقامـوا أقامـوا بشـر محبس، وإن رجعـوا رجعـوا خائبين مغلوبين لـم ينالوا خيـرًا، يا رسـول الله أطعنى فى هـذا الأمر واعلـم أنـى ورثت هـذا الـرأى مـن أكابـر قومـى وأهـل الرأى منهـم فهم كانـوا أهل الحـرب والتجربـة." [35]



موقع غزوة أحد ويظهر في وسط الصورة جبل الرماة

ومما لا شك فيه أن «ابن سلول» كان بمثابة «عميل» لقريش، بل كان حتمًا يعمل لحسابهم، ولحساب أعداء النبي ﷺ واليهود في «المدينة». فتشكيكه في جدوى الخروج إلى قريش وعدم التحصن لهم في «المدينة» قوّض من معنويات المسلمين فضلاً عن أن انسحابه المفاجئ من المعركة الوشيكة خلّفَ أثرًا سلبيًا آخر ذلك أنه أضعف من قدرات المسلمين العسكرية بعد أن خفّض عدد مقاتليهم من ألف إلى سبعمائة. لا غرابة إذًا، أن «ابن سلول» هذا قد سُمّي برأس النفاق.[36]

بعد وصول جيش المسلمين إلى أرض المعركة، بدأ الرسول ﷺ على الفور عمليات استطلاع متواصلة حتى يتعرف قادته على مواقع العدو وطبيعة الأرض وخصائص تضاريسها، والتي كانت سرعان ما تتحول إلى مسرح للمواجهة. وقرر الرسول ﷺ أن يجعل جبل أحد خلفه، ويستفيد من «جبل عينين» لتمركز رماة السهام لتأمين مؤخرة الجيش. فخصص لذلك خمسين رامياً، وأمرهم ألا يتركوا مواقعهم.[37]

وفي الجولة الأولى من المعركة، حيث أرغم المسلمون الجيش القرشي على التراجع والفرار من ساحة القتال، وما أن شعر المسلمون أن النصر قد لاح حتى سارعوا إلى جمع الغنائم. وهنا خالف الرماة تعليمات الرسول ﷺ فغادروا مواقعهم من على «جبل عينين» المسمى بجبل الرماة، لمشاركة بقية الجيش للحصول على نصيب من تلك الغنائم. وإزاء قلة هذا الانضباط العسكري لمجموعة الرماة، وتجاهلهم الصريح للتوجيهات النبوية الشريفة، والاندفاع نحو تحقيق مكاسب آنية، كانت التبعات فيها وخيمة عليهم. فقد لاحظ القائد «خالد بن الوليد» -ضابط الميمنة لجيش العدو- أن جبل عينين قد خلا من الرماة، فتقدم سريعًا بمئتين من رجاله واحتلوا الجبل، ملتفين بذلك على جيش المسلمين من الخلف، ففاجأوه وألحقوا به خسائر ثقيلة.

وهكـذا تمكـن الذعـر والهلع مـن الجيش المسـلم، وتعـرض الرسـول ﷺ لجرح في وجهـه، وسـقط الكثير مـن أصحابـه ومقاتليه. وانتشـرت الشـائعات سـريعًا فـي ميـدان المعركـة، وكان مـن بين أخطـر تلـك الشـائعات أن الرسـول ﷺ قد قُتِل. فعلـى الرغم مـن شراسـة الهجوم القرشـي وانفضـاض كثيرين عن سـاحة القتـال ثبت مـع الرسـول ﷺ نفـر قليل مـن المسـلمين اسـتطاعوا بأجسـادهم وبقـوة إيمانهـم بـالله أن يحولوا بيـن «قريـش» وبين الوصـول إلى النبـي ﷺ. ثم تراجعت «قريش» مـن جديد. وكانت خسـائر المسـلمين في المعركـة 70 مقاتلاً أمـا «قريش» فلم تخسـر سـوى 20 مـن رجالها.[38]

4.4: غزوة الخندق شوال 5 هـ

تعود جذور «غزوة الخندق» إلى مواجهة قديمة بين المسلمين و«يهود بني النضير»، الذين أجلاهم الرسول ﷺ من «المدينة» إلى «خيبر». ف «بنو النضير» وفق ما ترويه كتب التاريخ لم ينسوا للرسول ﷺ إخراجهم من «المدينة» حيث أخذوا يتحينون الفرص للإنتقام. وكانوا يسعون على الدوام إلى شن هجوم كاسح على «المدينة»، معقل الرسول ﷺ، كي يضعوا نهاية للخطر الإسلامي مرة وإلى الأبد. وحيث أنهم لا يستطيعون وحدهم تنفيذ خطة طموحة كهذه، فقد كان عليهم أن يشركوا معهم أكبر عدد من أعداء الرسول ﷺ لتشكيل قوة كافية لإعادة رسم الخريطة الجديدة على الأرض.[39] والى جانب شن حملة تشويه منظمة واسعة ضد الرسول ﷺ تضمنت استراتيجية «بني النضير» أيضاً اندفاعاً قويًا نحو عقد تحالفات واتفاقات جديدة. وحتى يستميلوا قبائل العرب، وعدوهم المال والمؤونة إذا انضموا إليهم في جهدهم العسكري ضد الرسول ﷺ. ولتحقيق هذا الغرض اي لتجييش القبائل ضد المسلمين خرج عدد من كبار اليهود، يساعدهم نفر غير قليل من زعماء قبائل أخرى، في بعثات متواصلة وجولات كبيرة للاتصال المحموم بالقبائل في عموم أنحاء الجزيرة.[40] ونقلاً عما يرويه «ابن إسحاق»، يقول «المباركفوري»:

> إن عشرين زعيماً وكبيرًا من كبار اليهود من «بني النضير»، ذهبوا إلى «مكة» يتفاوضون على عقد تحالف مع قريش ويحرضونهم على غزو الرسول ﷺ، ويوالونهم عليه، ووعدوهم من أنفسهم بالنصر لهم، فأجابتهم قريش، وكانت قريش قد أخلفت موعدها في الخروج إلى «بدر»، فرأت في ذلك إنقاذًا لسمعتها والبر بكلمتها. ثم خرج هذا الوفد إلى

«غَطَفَـان»، فدعاهم إلى مـا دعا إليه قريشـاً فاسـتجابوا لذلك، ثم طـاف الوفـد في قبائـل العـرب يدعوهـم إلى ذلك فاسـتجاب لـه مـن اسـتجاب، وهكـذا نجـح ساسـة اليهـود وقادتهـم فـي تأليـب أحـزاب الكفر علـى النبـي ﷺ والمسـلمين. وعلـى إثر ذلك خرجـت مـن الجنـوب «قريـش» و«كنانـة» وحلفاؤهم من أهـل تهامـة وقائدهـم «أبـو سـفيان» فـي أربعـة آلاف، ووافاهم «بنو سـليم» بـ «مَـرّ الظَّهْـرَان»، وخرجت مـن الشـرق «قبائل غطفـان»: «بنـو فَـزَارة»، يقودهـم «عُيينَة بـن حِصْـن»، و«بنو مُـرَّة»، يقودهم «الحـارث بن عـوف»، و«بنـو أشـجع»، يقودهم «مِسْـعَر بـن رُحَيلَـةِ»، كمـا خرجـت «بنـو أسـد» وغيرهـا. واتجهـت هذه الأحـزاب وتحركـت نحـو «المدينة» علـى ميعاد كانت قـد تعاقـدت عليه.[41]

كان علـى المسـلمين، وقد فاقهـم جيش قريـش الـذي بلـغ 10 آلاف مقاتل، أن يرسـموا اسـتراتيجية دفـاع متينـة فعالة تُبطِـل هـذه الأفضلية العدديـة. فقد كانـت الأرض شـمالي «المدينـة» منبسـطة ليـس فيهـا أي مصـدات أو عوائـق طبيعيـة الأمـر الـذي كان يعـرض المتموضعيـن فيها لخطـر كبير، لهـذا توقع قـادة المسـلمين أن يركـز العـدو علـى تلـك الجهـة. وهنـا طـرح أحـد أصحاب الرسـول ﷺ فكرة مبتكـرة للغايـة فقال: «يا رسـول الله، إنا كنا بـأرض فارس إذا حوصرنـا خَنْدَقْنَـا علينا».[42] هكذا أشـار سـلمان الفارسـي على رسـول الله ﷺ. ثم بدأ المسـلمون، يقودهم رسـول الله ﷺ يشـجعهم ويسـاعدهم ويذكرهم بثواب الآخـرة، يحفرون خندقًا حـول «المدينة»، «ولـم يمنعهم الجوع، وقد بلـغ بهم مبلغ الهـلاك أو كاد، أو يثنهـم عن تحقيق مـا يطمحون إليـه».[43] وأتموا حفـر الخندق بسـرعة فائقة، حتـى أن قريشًـا فوجئت بـه تمامًا:

إذْ كانـت هذه الخطـة كما قالـوا مكيدة ما عرفتهـا العرب،

فلم يكونوا أدخلوها في حسابهم. وأخذ المشركون يدورون حول الخندق غضابًا، يتحسسون نقطة ضعيفة لينحدروا منها، وأخذ المسلمون يتطلعون إلى جولات المشركين، يرشقونهم بالنبل، حتى لا يتجرؤوا على الاقتراب منه، ولا يستطيعوا أن يقتحموه، أو يهيلوا عليه التراب، ليبنوا به طريقاً يمكنهم من العبور. وكره فوارس من قريش أن يقفوا حول الخندق من غير جدوى في ترقب نتائج الحصار، فإن ذلك لم يكن من شيمهم، فخرجت منهم جماعة فيها «عمرو بن عبد» و«عكرمة بن أبي جهل» و«ضرار بن الخطاب» وغيرهم، فتيمموا مكاناً ضيقاً من الخندق فاقتحموه، وجالت بهم خيلهم في السَّبْخة بين الخندق وسَلْع، وخرج «على بن أبي طالب» في نفر من المسلمين حتى أخذوا عليهم الثغرة التي أقحموا منها خيلهم، ودعا «عمرو» إلى المبارزة، فانتدب له «على بن أبي طالب»، وقال كلمة حمي لأجلها وكان من شجعان المشركين وأبطالهم فاقتحم عن فرسه فعقره وضرب وجهه، ثم أقبل على «علي»، فتجاولا وتصاولا حتى قتله «علي» -رضي الله عنه-، وانهزم الباقون. [44]

وعند استقراء الأحداث التي توالت عشية «غزوة الخندق» فسندرك أن استعمال الرسول ﷺ للاستخبارات كان عاملاً أساسياً وراء إحباط الاعتداء على «المدينة». فما أن أخذت قريش تتقدم نحو «المدينة»، حتى أخذت الأنباء تتدفق سريعًا إلى الرسول ﷺ وصحبه، ذلك أن مصادر المسلمين، -ومعظمها من قبيلة خزاعة- جهدت في إبقاء المقر الرئيس في «المدينة» ملمّاً بما استطاعت أن تستجمعه من أنباء تناهت إلى سمعها أو تمكنت من استحصالها عبر عيونها المنتشرين في أوساط قريش. ويستدل من هذا أن

«قريشــاً» كانـت -وعلى مـدى عـدة أيام سـبقت الصـدام المنتظـر- مراقَبَـة على طول الطريـق الممتد إلـى «المدينـة».[45] فقد أورد وكلاء المسـلمين فـي تقارير سـابقة معلومـات دقيقـة عن حجـم الجيـش الـذي حشـدته «قريش»، الـذي كان يفوق جيش المسـلمين -كما سـبقت الإشـارة- فـي السـلاح والعتـاد والرجال. ومـن هـذه التقاريـر علـم الرسـول ﷺ أن «قريشـاً» جنـدت عشـرة آلاف مقاتل، وثلاثـة آلاف فـارس ضد جيشـه الـذي لم يكـن يتعـدى ثلاثـة آلاف رجـل فقط. لذلك وللتخفيف مـن تأثير التبايـن في ميزان القـوة قرر الرسـول ﷺ -الذي كان قـد درس طبيعـة الأرض حول «المدينة» دراسـة دقيقـة- اسـتغلال طوبوغرافية وطبيعـة التضاريـس الأرضيـة اسـتغلالاً أمثـل، وتطويـع الجغرافيـة لخدمـة الأهـداف الاسـتراتيجية للمسـلمين ومنها الدفـاع وكسـب المعركة.

فبعـد مشـاورته ﷺ لقادتـه اتضـح أن أفضـل خيـار للمسـلمين هـو أن يتحاشـوا مواجهـات مباشـرة مـع «قريـش»، والعمل علـى تطبيـق اسـتراتيجية بعيدة المدى ترمي إلى اسـتنزاف طاقـات القبائل والأحـزاب المتحالفة من خلال اعتمـاد أسـلوب المناوشـات والصدامـات المحـدودة. والغايـة من ذلـك كله هو إرهاق «قريـش» وإجبارها علـى اسـتهلاك مواردها لاسـيما أن تلـك المواجهات تزامنـت مع حلول فصل الشـتاء البـارد الذي يصعـب على الإنسـان تحمله، كما يصعـب أثنـاءه الحصول علـى أعـلاف للأنعام بسـبب الجفـاف الذي يسـود مثل هذه الأيـام، وتتناقص خلاله مسـاحات الأرض المتاحـة لرعي الخيـول والجمال والأنعام.

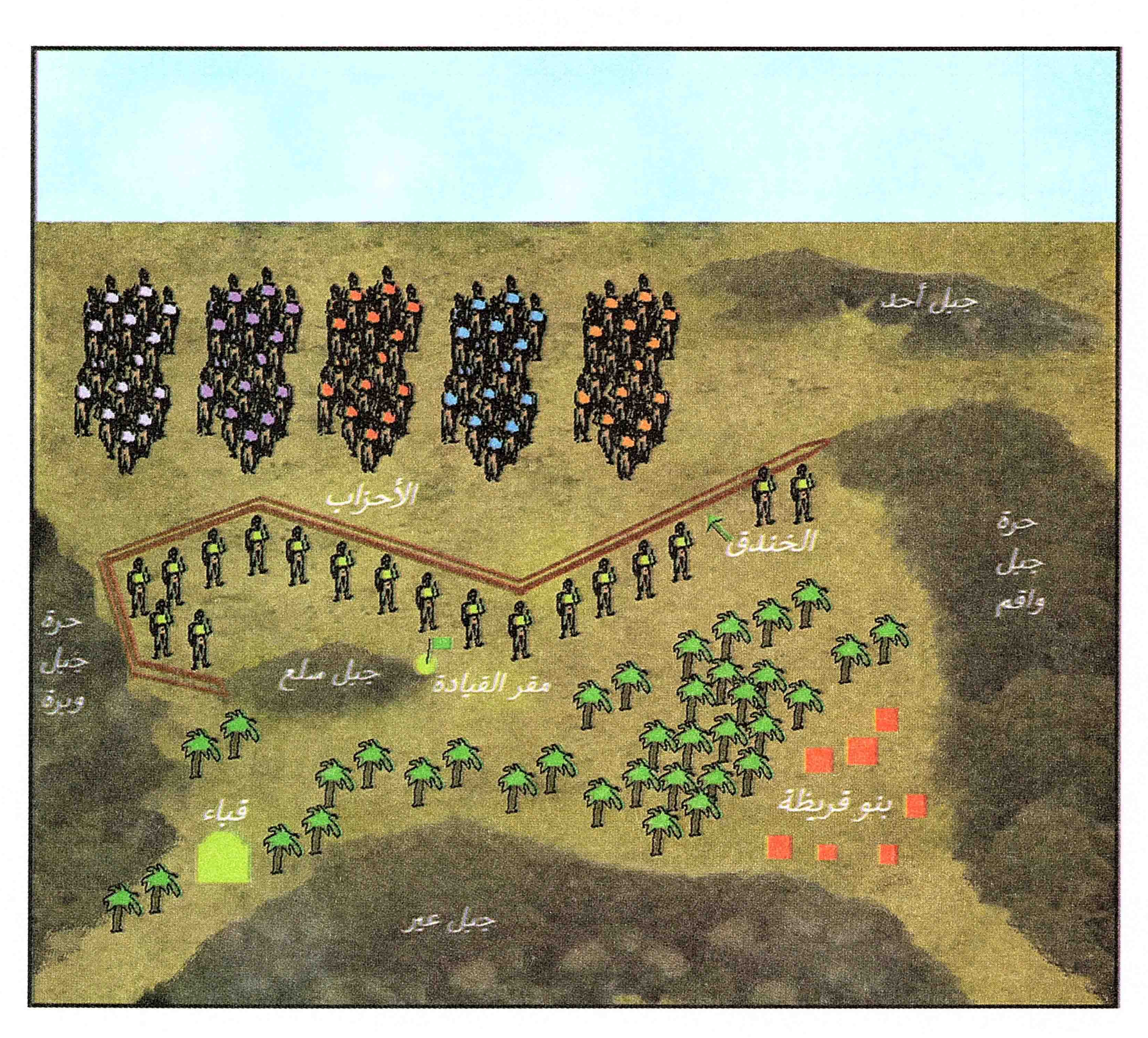
إن قرار الرسـول ﷺ إرجاء المواجهة الشـاملة والاسـتعاضة بدلاً عن ذلك بخـوض حرب اسـتنزاف طويلـة الأمـد، كان بلا شـك قـرارًا اسـتراتيجيًا صائبًا أملتـه الظـروف الجغرافيـة والمناخية. ومما لا شـك فيـه أيضًا أن ميـزان القوى بيـن المشـركين والمسـلمين دفـع بهـذا الاتجاه فضـلاً عـن أن القـرار أخذ في

عين الاعتبار أيضـًا أن الثـأرات والحروب الانتقاميـة قد تدوم أجيـالاً، وأن عرب الصحراء لـم يتعـودوا على قتـال يمتـد طويـلاً.[46] كل ذلـك كان يشـير إلى أن الانتظار واسـتنزاف صبر العـدو وإرهاق كاهله كفيـل بإنهاكه وبالتالـي بهزيمته دون الحاجة إلـى ملاقاته.

وكمـا ذكرنـا إن الرسـول ﷺ باسـتطلاعه الأرض حـول «المدينـة» اسـتطلاعًا مباشـرًا، اسـتطاع الحصول على معلومات مفصلة عـن خصائصها، وعـن الحواجـز الطبيعيـة التـي يمكـن اسـتغلالها لأغـراض الدفاع. لذلـك قرر المسـلمون الاسـتفادة من جبل سـلع والمرتفعـات حولـه والتي كانـت تحصنهم بشـكل مميز ضد أي جيش يتقـدم إليهم من الجنـوب. وكانت هنـاك جبال أخرى لا يمكن اختراقهـا، تمثل هـي أيضاً عوائـق طبيعية تحمـي ظهر الجيـش. ولكن -وكما سـبقت الإشـارة- فـإن السـهول المتراميـة من الشـمال تحدت -وبشـكل خطيـر- خطة الرسـول ﷺ للدفاع عـن «المدينـة»، من هنـا اتخذ قـرار الموافقة على حفـر الخنـدق لكي يكـون حائـلاً دون أي تقـدم للعـدو من تلـك الجهة.

وهكـذا وكمـا قالـت العرب فـي أمثالهـا "لا خـاب من اسـتخار ولا نـدم من استشـار". وعندمـا سـعى رسـول الله ﷺ إلـى طلـب المشـورة فإنـه استشـار صاحـب رأي في تخصصه، فـ«سـلمان» رضـي الله عنه سـبق وأن خَبِـر مثل هذا الحفر للخنادق وفـي ظروف مشـابهة عند الحصار مـن العـدو. إذاً، فأخذ القائد للرأي، لا يكـون أخذا عشـوائيًا.[47]

وتم نشـر الحراس والدوريات سـريعًا لمراقبة أي تحرك مريب. ولاسـتغلال قواتـه أفضـل اسـتغلال، نشـر الرسـول ﷺ الكتائـب الكبـرى للدفاع عـن نقطة الضعـف هـذه، أمـا الوحـدات الأصغـر فوُضعت فـي جبل سـلع أو حولـه، حيث لا يُتوقـع مواجهـة مباشـرة وحيث السـلاح الوحيـد الذي يكـون فعالاً هـو النبال



مخطط يوضح تحالف قوات المشركين ومواقع المسلمين في غزوة الخندق

والحجارة التي تقذفها آلات المنجنيق.[48]

وعندما اكتشف قائد الجيش القرشي أن الرسول ﷺ حفر خندقاً بالجهة الشمالية، أصيب بدهشة عظيمة، وصرخ قائلاً "أنها مكيدة ما عرفتها العرب من قبل"[49]. ولم يكن أمام جيوش الأحزاب خيار آخر سوى التعسكر والتموضع خارج «المدينة» وأن يبدأوا حصارًا لها، بعد أن «حُوصِروا» هم بهذه الخطة. فلم يكن لديهم من المؤن ما يزيد عما عند المدافعين عن «المدينة»، فضلاً عن كونهم عير قادرين على اختراق الخندق.

وأدركت قريش أن أفضل خيار لهم هو إيجاد ثغرة يستطيعون عن طريقها التسلل إلى معقل الرسول ﷺ بـ «المدينة». من هنا اتصلوا بيهود «بني قريظة» للتحالف معهم ضد المسلمين. وينقل لنا المؤرخون أنهم أقنعوا اليهود بنقض عهد أبرموه مع المسلمين في وقت سابق. وعندما وصلت أنباء غدر «بني قريظة» لرسول ﷺ، وجه «عمر بن الخطاب» رضي الله عنه ليتأكد من هذه التطورات الخطيرة. فأرسل عمر «عنصرًا استخبارياً» هو «الزبير بن العوام» الذي استطاع بالفعل أن يؤكد هذه التقارير، بأن «بني قريظة» كانوا في الواقع يستعدون للحرب لأنه رآهم "يصلحون حصونهم ويدربون طرقهم، وقد جمعوا ماشيتهم".[50] وعلم الرسول ﷺ أيضًا أن «بني قريظة» اقترحوا أن يشن ألف من الفرسان هجومًا على «المدينة» من أرضهم. وفي ظل تواتر المعلومات وتراكم الشكوك والغموض، قرر الرسول ﷺ أن يزيد من عدد الحراس ودوريات الخيول التي تحرس «المدينة»، فكلف 500 رجل بذلك. ولزرع الثقة بين سكان «المدينة»، وإشعارهم بالأمان كانت الدوريات تجوب شوارع «المدينة» وهي تكبر «الله أكبر» ليل نهار.[51]

إن نقض «بني قريظة» لعهدهم كان، ضمن أمور أخرى، تطورًا خطيرًا لم يكن في الحسبان، لاسيما أنهم سبق أن ألزموا أنفسهم بالحفاظ على العهد

مع المسلمين. وكان هذا التطور أيضًا ضربة نفسية كبيرة للمسلمين. ويقول «أبو بكر الصديق» -رضي الله عنه- عن ذلك:

"لقد خفنا على الذراري بـ«المدينة» من «بنى قريظة» أشد من خوفنا من «قريش» و«غطفان»، ولقد كنت أوفى على سلع فأنظر إلى بيوت «المدينة»، فإذا رأيتهم هادين حمدت الله عز وجل فكان مما رد الله به «بنى قريظة» عما أرادوا أن «المدينة» كانت تحرس".[52]

لذلك كله أدرك الرسول ﷺ أن ميزان القوى لم يكن في صالح المسلمين، وأدرك أيضًا أن عليه أن يبتكر خطة يستطيع بها أن يكسر التحالف العريض المتجمع ضده والمؤلف من «اليهود» و«قريش» وقبائل عربية أخرى.

وهنا طلب الرسول ﷺ من أحد امهر العناصر الاستخبارية انذاك «نعيم بن مسعود» من «قبيلة غطفان» حين قدم إليه معلنًا إسلامه، بأن يكتم إسلامه وأن ينفذ مهمة دقيقة وسرية للغاية، هدفها تقويض التحالف الكبير ضد المسلمين وتفتيته. ولكونه موضع ثقة في قبيلته ويحظى بثقة القبائل الأخرى في المعسكر المعادي للمسلمين، وكذلك تميزه بعلاقات شخصية قوية مع يهود «بني قريظة»، من شأنها أن تسهل له تلك المهمة ويجعل ما يقوم به مقبولاً لدى كل الأطراف دون شك.

ولتفريق هذا التحالف فقد عمد «ابن مسعود» إلى الجلوس مع قادة «بني قريظه» وإسداء المشورة لهم وإخبارهم بأن قريشًا إن أصابوا من محمد فإنهم سيغنمون «المدينة» وما بها من أهلكم وأرضكم وإن انكشفوا عادوا إلى أهلهم وأرضهم وتركوكم في مواجهة محمد، وهو مالا قبل لكم فيه. وارتأى عليهم لضمان صمود قريش معهم في الحرب أن يقدوموا لهم رهنًا بعدد من

أشـــرافهم وأكابرهـــم ليبرهنوا علـــى صدق تحالفهم وعدم انســـحابهم. ثـــم ذهب إلى قريـــش وأبلغهـــم بان بنـــي قريظة قـــد ندموا علـــى نقضهـــم العهد واتصلـــوا بمحمد وطلبـــوا رضائـــه مقابـــل أن يقدمـــوا له من قبائـــل «قريـــش» و «غطفـــان» مائة رجل مـــن أكابرهم وأشـــرافهم فيضـــرب أعناقهم ثـــم يكونوا معه علـــى من تبقـــى منهم. ثم فعـــل ذلك أيضًـــا مع قبيلتـــه «غطفـــان».[53] وقـــد نجحت مكيـــدة «ابن مســـعود» في اختـــراق التحالـــف المعادي، وكســـر إجماعه وتشـــتيته.

اســـتقبل المســـلمون نجـــاح تلـــك الخطـــة بفرحـــة عارمـــة، والتـــي بها أوشـــك التهديد والخطـــر على الزوال، ولكن الرســـول ﷺ مـــن جهتـــه كان ملازمًا الحذر على الدوام. فأمر أحـــد أصحابه وهـــو الصحابي الجليـــل «حذيفة بـــن اليمان» بأن يتســـلل في مهمة ســـرية لاختراق صفـــوف «قريـــش»، ليحاول اكتشـــاف خططهم ويقيّم الحالة النفســـية عندهم، لا ســـيما أن جيشـــهم خسر الآن نســـبة معتبرة من أنصـــاره، والمتحالفين معه. وعندما تســـلل بينهـــم، أتاهم أبو ســـفيان وخطب فيهم قائلاً: «احـــذروا الجواســـيس والعيـــون، ولينظـــر كل امـــرئ مـــن جليســـه»، فقـــام «حذيفة» وأخذ بيـــد رجلين كانا بجانبـــه، وقال لهما: مـــن أنتما؟ مبادرًا بالســـؤال دون أن يمكنهمـــا من مســـاءلته، وبذلـــك أمّن حذيفـــة تواجده بينهم دون انكشـــاف. وبعـــد اســـتماعه لخطـــاب «أبي ســـفيان»، رجـــع «ابـــن اليمـــان» بأخبـــار مفادها أن «قريشـــاً» في حالة يرثى لها وأن رياحًا شـــديدة البـــرودة كانت تهـــب عليهم، وتثقل كواهلهـــم. وأخبر الرســـول ﷺ بخطاب «أبـــي ســـفيان» حين قال:

> "إنكم والله لستم بدار مقام لقد هلك الخف والكراع وأجدب الجناب، وأخلفتنا «بنو قريظة»، وبلغنا عنهم الذى نكره، وقد لقينا من الريح ما ترون والله ما يثبت لنا بناء ولا تطمئن لنا قدر فارتحلوا فإنى مرتحل." [54]

وبعـــد انهيـــار التحالـــف والحصـــار الـــذي دام شـــهرًا، بـــدأ رجـــال «قريش» يغادرون المـــكان أفواجًا وجماعـــات، وأخذ أصحـــاب رســـول الله ﷺ الذين قضوا

الليـل والنهار يحفـرون الخنادق يهللـون ويكبـرون محتفين بـزوال الخطر ورفع الحصـار عـن مدينتهـم. حينها قـال رسـول الله ﷺ فـي ذلـك "الآن نغزوهم ولا يغزوننـا، فنحن نسـير إليهم".

5.4: غزوة حنين شوال 8 هـ

بعث رسول الله ﷺ بعد «فتح مكة» مباشرة، مناديب إلى القبائل القريبة من «مكة» لدعوتهم للدين الإسلامي، فاستجابت له القبائل التي تقع بالقرب من «مكة» أما الأخرى فكان لها وضع آخر. وكانت معظم القبائل المجاورة لـ«مكة» من أحلاف «قريش» وقد دخلت الدين الإسلامي دون قتال يذكر. أما القبائل التي كانت في عداء مستمر مع أهل «مكة» فقد ناصبت العداء لرسول الله ﷺ ودعوته. ومن بين تلك القبائل بطون قبيلة «هوازان» و«ثقيف» التي لم تكن فقط تتمتع بالقوة والنفوذ والغطرسة، بل كانت تشغل موقعًا استراتيجياً يقع شمال شرق «مكة» على طريق التجارة الدولية إلى «حيرة العراق». وكانت ترقب انتصارات محمد ﷺ المتوالية بشيء من التوجس والإحباط لاسيما أنها رفضت قبول الدعوة إلى الإسلام ، وأخذت ترى في انتشار الدين الإسلامي خطراً يهدد كيانها ويدمر معتقدها، وانتهى الأمر بـ «هوازن» أنها باتت ترى أن الحرب مع المسلمين أضحت حتمية ولا مناص منها. [55]

قام زعيم قبيلة «هوزان» «مالك بن عوف النصري»، بالإعداد للحرب، فحشد قواته، ودعا حلفاءه من قبائل عدة من المشركين للمشاركة في الهجوم على المسلمين والقضاء عليهم. استجابت لندائه قبائل عدة، وكانت قبيلة «ثقيف» من بين تلك القبائل التي وجدت في طلب المشاركة ليس نصرة لحلفائهم «هوزان» فحسب، بل فرصة للاقتصاص من «قريش» أعدائهم التاريخيين، ذلك أن حروبًا كثيرة سبق أن نشبت بينهم قبل ظهور الإسلام. كما سارت إلى زعيم «هوازن» قبائل «نصر» و«جُشَم» و«سعد بن بكر» وناس من «بني هلال» استعدادًا لمواجهة المسلمين.[56] كان ولابد لزعيم «هوازن» أن يتعرف على قوة خصمه الجيش الإسلامي، كتعداده وتسليحه ونوايا قياداته. فبعث بثلاثة عيون من استخباراته، وأمرهم أن يندسوا في الجيش الإسلامي،

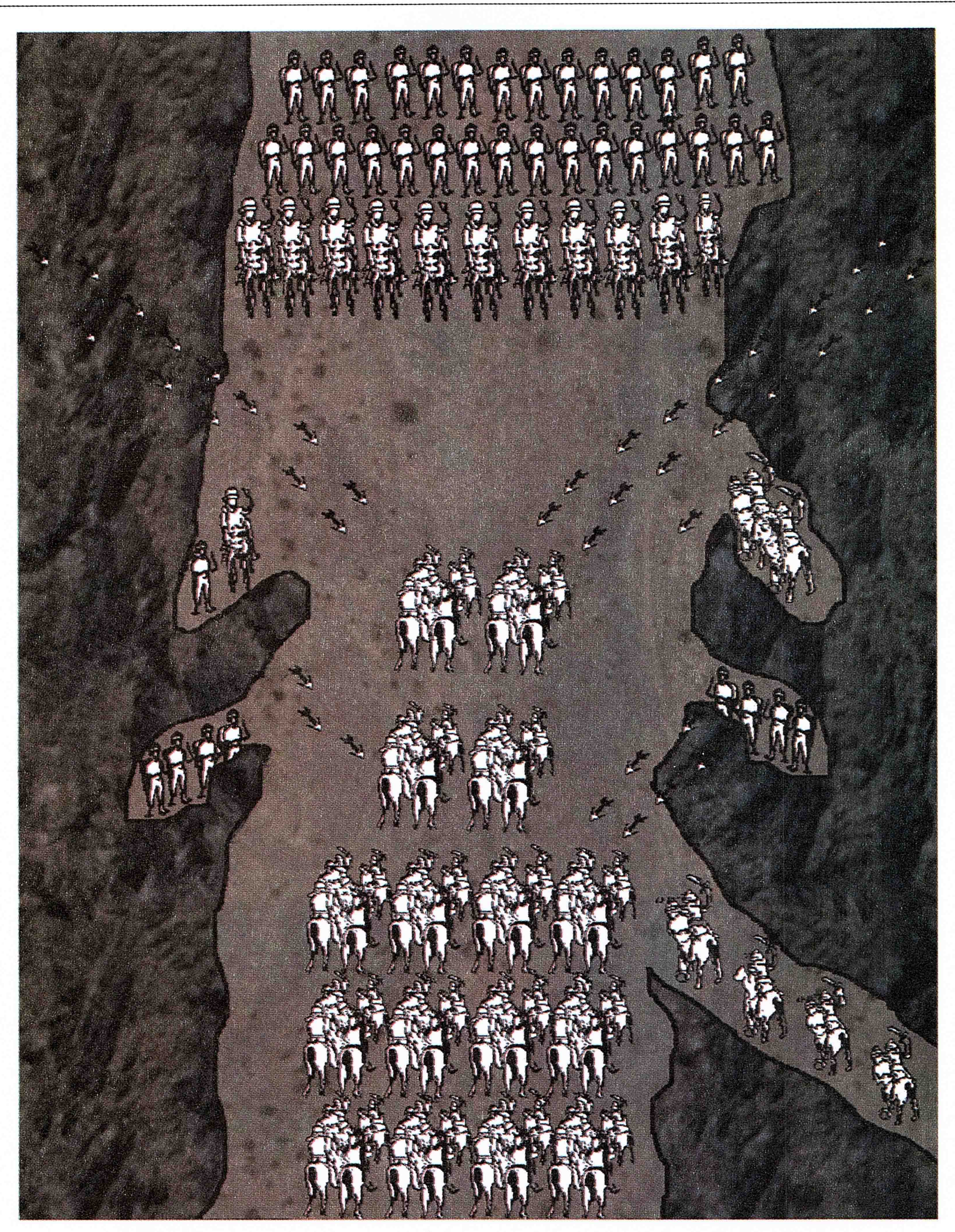
ويأتـوا لـه بالأخبـار. إلا أن مـا رفعـوه لـه مـن تقاريـر أثـارت خيبـة أملـه، ولـم يصدقها، واتهـم عيونه بالخـوف والجبن، وأمر بحجزهـم ليمنع تسـرب معلوماتهم التي قـد تفت فـي عضـد ومعنويات جيشـه حـال انتشـارها. ثـم بعث عيناً آخر له، لكن مـا تحصل عليـه هذا العيـن من معلومـات لم تكـن تختلف عـن معلومات سابقيه.[57]

أعد «زعيم هـوازن» خطـة حربية علـى ضوء مـا توفر لديـه مـن مغلومات، حـدد فيهـا المـكان والزمـان للمعركـة، وعمـد علـى اسـتخدام فنـون الحـرب كالتمويـه والخداع لتحقيـق النصـر. كان «وادي حنيـن» هو موقع النـزال الذي اختـاره، لتميـزه بالعمـق والطـول فـي المسـافة، وصلابـة أرضـه، وخلوها من الأشـجار الكثيفـة، والعوائـق الصخرية، أو سـبخة الغبـار، ليعطـي الخيل مدى في الحركة، والفرسـان قـدرة علـى المناورة. كمـا أن جانبـي الوادي الشـديدي الانحدار يشـكلان عائقًا طبيعيًا للـنـزول من خلالـه أو الفرار عبره. ونشـر قواته في الناحيـة القصوى لمدخـل الـوادي، ليتمكن بذلـك من رصد دخـول الجيش الإسـلامي لأرض المعركـة ولكـي يعطـي الانطبـاع بضخامـة جيشـه وتعـداد عسـاكره. وكان هو السـباق وبمدة كافية من الوقت للـنزول إلـى «وادي حنين»، مما مكنـه من اسـتطلاع الـوادي واحتـلال المواقع الاسـتراتيجية، ونشـر قواته وإعـداد الكمائـن، وإعطاء العسـاكر قسـطاً مـن الراحة قبـل نشـوب المعركة. وقـد وفـر هـذا الوصـول المبكـر إلـى ميـدان المعركـة تنفيـذ خطـة التمويـه والخـداع وإعـداد الكمائن، فـوزع مجاميـع الرمـاة والخيالـة في أخاديد وشـعاب جانبي «وادي حنيـن» اسـتعدادًا للانقضاض علـى الجيش الإسـلامي ومفاجأته عند نزولهـم للدخول إلـى الوادي. لقـد أدى عامـل الوقـت دورًا مهمًا فـي تنفيذ الخطـة، ويبـدو أن أعمـال الخـداع والتمويـه التـي نفذهـا حالـت دون تمكـن اسـتخبارات الجيش الإسـلامي من اكتشـاف تلك الكمائـن. يقول فـي ذلك أحد عناصر اسـتخبارات رسـول الله ﷺ: « يا رسـول الله إني انطلقت من بين أيديكم

على جبل كذا وكذا، فإذا بهوازن على بكرة أبيها بظعنها ونسائها ونعمها فى وادى حنين»[58].

كان الجزء العلني من الخطة هو الإصرار على جعل النساء في الخلف على ظهور الإبل كأخر صف في قوة المشاة والأبناء والمواشي خلف قوة المشاة الهوازنية التي كان قد عسكر بها في مكان يقال له «أوطاس» وذلك لتحقيق دافع الاستبسال في المعركة والذود عن العرض والمال على حد زعمه، رغم معارضة أحد المحاربين القدامى له، والذي قال: "راعى ضأن ما له وللحرب؟ وهل يرد المنهزم شيء؟ إنها إن كانت لكم لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه وإن كانت عليك فضحت فى أهلك ومالك»[59]. يبدو أن « مالك»كان يهدف بذلك الوادي وجعله عند نزول الوادي يكمل مسيره متجهاً في هجومه إلى القوة الرئيسة في أقصى الوادي. وثانيهما إعطاء الانطباع بضخامة تعداد قوة الجيش الهوازني ليوقع الرهبة في قلوب الجيش الاسلامي.[60] عندها يتحقق عنصر المفاجأة بإمطار جيش المسلمين بالسهام، وهجوم الفرسان من كل جانب للقضاء على كل من تمكن من دخول الوادي من قوة اسلامية، مما سيجعل البقية تتقهقر وتفر من أرض المعركة إلى حيث أتت. وإن تحقق ذلك يكون قد أحكم خطته لتحقيق النصر.

كان الرسول ﷺ يرصد تحركات «مالك بن عوف» وحشود عساكره عن كثب. ولمعرفة الموقف على نحو أفضل، بعث رسول الله ﷺ أحد عناصره لاستطلاع الموقف الذي بدوره تمكن من اختراق صفوف العدو، والحصول على معلومات خطيرة. ومما أورده هذا العنصر الاستخباري من معلومات حساسة أن تعداد الجيش الهوزاني كان عشرين ألف حامل للسيف وأن وقت المعركة تم تحديده في الصباح الباكر حيث سيبدأ الهجوم الكاسح على جيش المسلمين. وهنا أعد المسلمون خطتهم الحربية وفقًا لما ورد لهم من



مخطط تصوري لغزوة حنين يوضح بعض كمائن وأماكن تمركز المشركين في أعلى الوادي

معلومات عـن جيـش الكفار.[61]

كان تعـداد الجيش الإسـلامي آنذاك أثني عشـر ألـف مجاهد، منهم عشـرة آلاف جنـدي كانـوا قـد قدمـوا مـن «المدينـة» وألفـان انضمـوا إليهم مـن أهل «مكـة». فإلـى جانـب قـوة المشـاة الإسـلامية، كان سـلاح الفرسـان يتكـون من رجـال قبيلة «بني سـليم» بقيـادة «خالـد بـن الوليـد»، وكان الجيش ذا تسـليح جيد، فمنهـم من كانـوا مجهزيـن بسـلاحهم عند «فتـح مكـة» أما الآخـرون فقد اقتنـوا أسـلحتهم وعتادهـم مـن تجـار السـلاح بـ «مكـة»، قبـل تحـرك الحملة العسـكرية إلـى «وادي حنيـن».[62]

عند وصـول الجيـش الإسـلامي إلـى «وادي حنيـن»، وفي غلـس الصبح، عقـد ﷺ الرايات، وصـف أرتال المشـاة وحضنهـم على القتـال وبشـرهم بالفتح، ثم انحـدر الجنـد لـ «وادي حنيـن» فـي مقدمتهـم «خيالة بنـي سـليم»، وعندما تمكـن الجزء الأكبـر من الجيش الإسـلامي مـن النـزول الـى «وادي حنين» اذ بـ «كتائـب هـوازن» تخرج مـن كمائنهـا وتهاجمهم فـي وقـت واحد. ولـم يرد في كتـب التاريخ والسـير حسـب علمنـا ما يشـير الـى بعث فـرق اسـتطلاع بوقت كاف قبـل المعركـة، أو رجـال الكشـافة والعيون، لكشـف الأخطار قبـل انحدار الجيش الإسـلامي لـ «وادي حنيـن»، مما نتج عنـه تلـك المفاجأة لمقدمـة أرتال المشـاة وجانبيهـا، وقـد أخـل ذلك بتـوازن الجيـش الإسـلامي، وأربكـه وعمت الفوضـى، حيث انكشـفت خيـول المقدمة التـي تراجعت ثـم تبعها بعـض مقاتلي أهـل «مكـة» مـن الطلقـاء. وأخـذت الجمـوع تبحث عـن مسـالك آمنـه للخروج مـن الـوادي، فاتجهت الـى الممر الـذي قدمت منـه، إلا أنـه كان مكتظـاً بمؤخرة الجيـش الإسـلامي الـذي كان لايـزال ينحـدر إلى الـوادي. ويبـدو أنهـا تكتلت القوى العسـكرية والركائب عند مدخل الـوادي في اتجاهيـن متضادين ولم تجد القـوات المتقهقـرة طريقاً سـالكًا للخـروج منـه. وفي ظل هـذا الموقـف المباغت

انحاز رسول الله ﷺ مع بعض من أصحابه على رأس تل الى يمين الوادي، وأمر بمناداة قادة جيشه المتقهقر ليعودوا حوله، وهنا بدأ الالتفاف يعود حول رسول الله ﷺ شيئاً فشيئاً بعد أن اطمأن الجميع أن القائد لا يزال حياً. وأخذ يبث روح الجهاد فيهم، فهاجموا العدو ببسالة، وأخذ القتال يشتد، وازداد عداد المهاجمين العائدين للقتال، واستعاد المسلمون زمام الأمور وهنا قال رسول الله ﷺ كلمته الشهيرة « الان حمي الوطيس».[63] في إشارة إلى حمى القتال وميلان الكفة لصالح المسلمين.

لم يمض بعض الوقت حتى تقهقر العدو، وفر من أرض المعركة وكتب النصر للمسلمين. يصف الله ذلك في محكم تنزيله قائلاً ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾[64]. فثبت رسول الله ﷺ عندما انكشف عنه جيشه، وفي ذلك الارتباك المخيف، أنزل الله السكينة على نبيه ﷺ وجيشه وأمدهم بجند لم يروها، فاشتدت عزائمهم وأخذوا في الالتفاف حوله وبدأ جيش الكفر في التقهقر والهروب من حيث أتوا. فتابع الرسول الكريم ﷺ فلول «هوزان» و«ثقيف» الى «الطائف»، جاعلاً «خالد بن الوليد» في مقدمته، وأخذ الأدلّاء يسلكون به الطريق إلى «الطائف». فوجدوا أن رجال «ثقيف» و«مالك بن عوف» قد تحصنوا خلف أسوار «المدينة»، فحاصرهم خمسة عشر يوماً، ثم فضّل العودة إلى «مكة»، وهناك لحق به «مالك بن عوف» مسلمًا، فرد عليه أهله وماله وأكرمه بمائة من الإبل.[65]

لقد كان الإعجاب بالنفس، والاعتداد بالكثرة، والإحساس بالتفوق العددي من قبل أفراد جيش المسلمين وهم في الطريق إلى المعركة، من أهم الأسباب التي أدت إلى وقوع الهزيمة الأولى. وقد وصف الله ذلك في كتابه حيث قال : ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا

﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾[66]. إن عدم مبالاة المسلمين بخصمهم، وإحساسهم بالنصر مسبقاً، جعلهم يغفلون تقديم العيون وفرق الاستطلاع لموقع المعركة قبل الشروع بالهجوم. إن عدم رصد العيون لموقع كمائن «ابن عوف»، وعدم تحليل دوافع خطته جيداً، لاسيما في أسباب زجه بالنساء والذراري خلف جيشه، كادت أن تسفر عن عواقب وخيمة.

من الملاحظ أن خطة «ابن عوف» في بادئ الأمر قد نجحت، ولكنها ما لبثت أن تحولت ضده. إذ كان للتوقيت، واحتلال المواقع الاستراتيجية مسبقاً، والقيام بنصب الكمائن، واستخدام فنون التمويه والخداع دور بارز في انكشاف جيش المسلمين وإجبارهم على التقهقر. إلا أن عدم الأخذ في الاعتبار وجود طريق مفتوح يسلكه الفارون من جند الجيش الإسلامي عند مباغتة كتائب الكفار له، وعدم احتساب الوقت الكافي لولوج كامل أفراد الجيش للوادي ليصبح طريق القدوم سالكاً للعودة، جعل الجيش الإسلامي يصطدم ببعضه ويتكدس أمام مدخل الوادي. في ظل هذا الواقع واستجابة لنداء رسول الله ﷺ عاود المسلمون تنظيم صفوفهم ومهاجمة العدو والقتال بضراوة. لقد نجحت خطة التمويه والخداع للكفار في إيهام المسلمين بكثرة تعداد جيشهم وتمكنوا من إخفاء كمائنهم. يقول «الواقدي» عن ذلك في «كتاب المغازي»:

> "لما انتهينا إلى «وادى حنين» - وهو واد من أودية تهامة له مضايق وشعاب - فاستقبلنا من هوازن شيء لا والله ما رأيت مثله فى ذلك الزمان قط من السواد والكثرة قد ساقوا نساءهم وأموالهم وأبناءهم وذراريهم ثم صفوا صفوفًا. فجعلوا النساء فوق الإبل وراء صفوف الرجال، ثم جاءوا بالإبل والبقر والغنم فجعلوها وراء ذلك لئلا يفروا بزعمهم، فلما رأينا ذلك السواد حسبناه رجالاً كلهم فلما

تحدرنا في الوادي، فبينا نحن فيه غلس الصبح إن شعرنا
إلا بالكتائب قد خرجت علينا من مضيق الوادي وشعبه
فحملوا حملةً واحدةً"[67]

ويبدو مما تقدم أن «مالك بن عوف» قد زج بكامل قواته في المعركة ولم يستبق قوة احتياطية يمكن من خلالها تعزيز استمرار القوات المهاجمة، أو مهاجمة القوات المتكتلة أمام مدخل الوادي مستغلاً بذلك حالة الارتباك التي أحدثتها الكتائب الكامنة في اعتقاد منه أن الهجوم الكثيف والمباغت سيهزم المسلمين ويجبرهم على الفرار، وأن أمد المعركة لن يطول، ولكن الله أنجز وعده لنبيه ﷺ، فرغم إحكام العدو لمعظم عناصر خطته العسكرية، إلا أن الله مكن المسلمين منهم وأظهرهم عليهم.

الفصل الخامس

المهارات والفنون الاستخبارية

5.1: المهارات الاستخبارية في عهد النبوة

لقد تميز الرسول ﷺ عن سائر البشر بصفات حميدة لا حصر لها، منها الصبر والثبات وتحمل المشاق مهما عظمت، رغم ما كان يلاقيه من «قريش» من عدوانية وأذى، فهنالك الحرب النفسية التي شنها كفار «قريش» ضده في جميع مراحل الدعوة، ألا أن الآيات القرآنية في هذه الفترة كانت تشد من أزره وتأمره بالتحمل والتجمل بالصبر فقد قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾[1] وقال : ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾[2]. لقد كان الرسول ﷺ في المرحلة السرية شديد الحذر عند الدعوة للدين الجديد بين سكان «قريش» وغيرهم من المشركين من عبدة الأصنام في «مكة». فكان حريصاً كل الحرص على التثبت من موثوقية من يعرض عليهم الإسلام ومن ولائهم وصدق إسلامهم بعد ذلك. أي إن منهج السرية القصوى كان السمة الرئيسية التي تميزت بها أساليب المحاولات الأولى للدعوة إلى الله وعرض الدين الجديد على المنتخبين لذلك. ولكن مع مرور الوقت ومع تزايد أعداد الصحابة والأنصار وتماشياً مع المرحلة التالية في الدعوة، شرع الرسول ﷺ وعلى نحو تدريجي بتغيير صبغة أعماله وخططه، فأخذ يرفع غطاء السرية الكثيف الذي كان يتحرك خلفه خاصة بعد نزول أمر الله جل وعلا بالجهر بالدعوة حين أمره تعالى بقوله في الآية الكريمة: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾﴾[3]، وهنا خرج الرسول ﷺ بدعوته من مرحلة السر إلى العلن. وما إن فعل ذلك ﷺ حتى سكن الرعب قلوب القرشيين، وهالهم جرأة المسلمين ونجاحاتهم الأولية في نشر الدعوة في ربوع «مكة»، وقدرتهم في الفوز وكسب العديد من شباب «قريش» وشيبهم، وبعض من نسائهم.

لقد أغضب ذلك القرشيين الذي فشلوا رغم قسوتهم في إسكات صوت الحق، فلجأ سادة المؤسسة القرشية القوية إلى نوع جديد من أساليب الحرب النفسية بهدف استئصال ما اعتبروه خطراً جسيماً يهدد كيانهم ويدمر معتقداتهم. فعمدوا إلى ما يمكن تسميته في عصرنا الحديث بـ«الحرب الإعلامية» كوسيلة لمواجهة الرسول الكريم ﷺ وإجهاض دعوته، في ظن منهم أن شن حملة تشويه متواصلة ضد رسول الله ﷺ وصحبه قد تُسكت الصوت الجديد وتُبعِد أفراد المجتمع القرشي عن صاحب الدعوة. لذلك أخذت ألسنتهم تلوك الأكاذيب والأراجيف ضد المسلمين فيما قام بعض الشعراء من المشركين بتدبيج القصائد التي تهجو الرسول ﷺ وتقدح فيه، وتحرض أهل «مكة» على الوقوف بوجه الدعوة الاسلامية ووأدها في مهدها.

كان القرشيون ينشطون بممارسة هذه الحرب الإعلامية والنفسية أثناء موسم الحج حين كانت جموع الناس تهبط على «مكة» من أنحاء الجزيرة كافة لأداء مناسك الحج ومزاولة أعمال التجارة في الوقت ذاته. ولم يكن الحجاج والزوار والتجار هم الوحيدين الذين استهدفتهم «قريش»، بل كان الجميع مستهدفين، فأهل «مكة» وسكان التخوم المجاورة لها وأفراد القبائل البدوية المتنقلة كانوا على حد سواء هدفاً لهذه الحملة الشعواء التي كانت تحذر الجميع من الوقوع في دائرة السحر والافتتان بأقوال الرسول ﷺ. ولهذا فقد كال القرشيون الافتراءات والتهم ضد الرسول ﷺ [4]، ولم تكن تلك الحملات عشوائية بل كانت مدروسة ومخططاً لها بإتقان، فوحدوا ماكانوا يتهمونه به من الصفات التي ألصقوها به مثل قول الشعر أو الجنون أو الشعوذة والسحر ليستقروا على وصفه بأنه ساحر يفرق بين المرء وأبيه، والمرء وأخيه، والمرء وزوجه، وبين المرء وعشيرته.[5] وقد أسهم في حملة الكراهية ضد الرسول ﷺ هذه، بعض أفراد عائلته الأقربون، بمن فيهم عمه «أبو لهب» وزوجته، والذي لا زال يدعون عليه المسلمون بالخسران إلى يومنا هذا عندما يتلون آيات سورة

المسـد: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ۝٥﴾.[6]

وبالرغم مـن فظاعـة هـذا كلـه إلا أن هـذه الحـرب الإعلاميـة والنفسـية ضد الرسـول ﷺ لم تؤت ثماراً ظاهرة بل فشـلت فشـلاً ذريعاً، فتعداد المسـلمين أخذ في الازديـاد رغـم ضـراوة الحمـلات المحمومـة التـي كانـت تثيـر الضغائن ضد المسـلمين وتنشـر الأكاذيـب والافتـراءات المهينـة ضدهـم.[7] وإزاء هـذا الفشـل الذريع الـذي منيت بـه كل محاولاتهم تلـك، تصاعـدت ضـراوة المؤسسـة المكية شراسـة ودموية. فلـم يكـن شـيء يرضيهـم ويوقـف الخطـر الـذي يهـدد كيانهـم ويدمـر معتقداتهـم، سـوى التخلص جسـدياً مـن الرسـول ﷺ.[8]

ولمواجهة هـذا التحـول الكبير في الأحـداث، وبالرعايـة الربانية التـي قادت الرسـول ﷺ أن يبتكـر اسـتراتيجية جديـدة تضمن بقـاءه واسـتمرار الدعـوة إلى دين الإسـلام. فكان أفضـل الخيـارات المتاحـة أمامـه هـو أن يهجر «مكـة» ويتجه صـوب يثـرب التـي كانـت آنـذاك مركـزًا تجاريًـا مهمًـا يقطنـه خليـط مـن اليهود وعبـدة الأوثـان. وكان أمـام الرسـول الكريـم ﷺ خيـارات أخـرى بديلـة للهجـرة كالذهـاب إلـى إحـدى قبائـل العـرب المنتشـره فـي الجزيـرة العربيـة أو المضـي إلى «الطائـف» أو «الحبشـة» أو «بـلاد الشـام» أو «فـارس» أو «بلاد الـروم» إلا أنـه اختـار «يثـرب» وفضلهـا علـى غيرها. لقـد كانت «يثـرب» خيـارًا اسـتراتيجيًا بـكل امتياز، ليـس فقـط لكونهـا سـتصبح مـلاذاً آمنًـا للمسـلمين، لا سـيما وأنه قـد ظفـر فـي مواسـم الحـج السـابقة بعـدد مـن أهالـي «المدينـة» الذيـن آمنـوا برسـالته وقبلـوا الإسـلام دينًـا لهـم، وبايعـوه ودعـوه ووعـدوه النصـرة والحماية عنـد قدومـه إليهـم، بل أيضًـا لكونهـا قريبـة نسـبيًا في المسـافة مـن «مكـة» مركز الوثنية لـ «قريـش» آنذاك ومهبط أفئدة النـاس عامـة والتي كان لابد مـن مراقبتها والسـيطرة عليهـا واسـتبدال الوثنيـة فيها بالإسـلام ونشـر عقيـدة التوحيد.وإلى

جانب كل ذلـك فإن تميـز موقعها بكونه علـى طريق القوافـل التجارية سـيمكنه من فرض حصـار اقتصادي علـى أعداء الإسـلام، ذلـك كـون «قريش» وأهـل «مكة» يعتمـدون اقتصاديًا وفـي المقـام الأول علـى ريـع التجـارة ومـا يقدمونـه لحجـاج «مكة» مـن خدمات. وقـد أتاح موقـع «المدينـة» للرسـول الكريم ﷺ أيضـاً الالتقاء بشـريحة أكبـر مـن النـاس للتعريف بالإسـلام، لاسـيما أفـراد تلـك القوافـل التي تعبـر «المدينـة» متجهـة إلـى «مكـة» ممـا زاد مـن أعـداد معتنقـي ديـن الإسـلام وسـرعة انتشـاره. كمـا سـاعد تعـرُّف هـذه القوافـل علـى الرسـول ﷺ عـن قـرب والاسـتماع لقـول الحـق فـي التفنيد المسـبق لمضاميـن الحـرب الإعلاميـة التي شـنتها «قريش» ضده واسـتهدفت بهـا كل من يفد إليهـا، فأبطلت حـرب «قريش» الإعلاميـة حتى قبـل أن تـدرك مسـامع تلـك القوافل.

وفي تخطيطه للخـروج من «مكة»، كشـف الرسـول ﷺ عن حـس أمني عال. فبعـد أن علم مـن جبريـل ومـن عيونـه المنتشـرين في «مكـة» بـأن «قريشـاً» تريد التخلـص منـه، أعـدّ خطـة دقيقـة للخـروج سـراً، فاسـتعد للهجـرة واتخـذ بعض الإجـراءات التمويهيـة لذلـك، حيـث واصـل الرسـول ﷺ عملـه اليومي علـى نحو اعتيـادي، كأن شـيئاً لـم يتغيـر في جـدول نشـاطه اليومـي. ولكنـه زار بيـت «أبي بكر» فـي وقت علـى غير المعتـاد، وأبلغـه بأمر هجرتـه، ووافق الصديـق الصدوق علـى صحبتـه لـه. وكان الرسـول ﷺ فـي الوقـت نفسـه يبحـث سـراً عـن أدِلّاء ليسـتعين بهـم كـي يرشـدوه إلـى أفضـل الطـرق عبـر الصحـراء إلـى «يثـرب».[9] واختـار جمليـن قوييـن كان قـد جهزهمـا «أبـو بكـر» لهـذا الشـأن، واسـتعداداً للسـفر عبر الصحـراء كان عليـه أيضًا أن يتـزود بالمـؤن كالماء والغـذاء، وحتى لا يثيـر شـكوك جواسـيس «قريـش» التـي لا شـك فـي أنهـا باتـت تراقبـه عـن كثـب فقـد أوكلا تجهيـز ذلـك إلى ابنتـي «أبـي بكـر» -رضـي الله عنه- «عائشـة» و«أسـماء» رضـي الله عنهمـا. وعندما جـن الليل، خرج الرسـول ﷺ مـن بيته قبل أن تتمكـن الزمـرة التـي كُلّفت بقتله، مـن أن تمتـد يدهـا الآثمـة إليه[10].

خرج رسـول الله ﷺ فـي أوّل الليـل، وقد أحـاط الرُّصّـد من «قريـش» بداره ينتظـرون انتصـاف الليـل وهـم نُـوّم الأعيـن، فخـرج ﷺ وهـو يقـرأ قولـه تعالـى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩﴾. وأخذ النبي ﷺ بيده الشـريفة قبضـة مـن تراب، فرمى بها على رؤوسـهم، فما شـعر القوم به حتى تجاوزهـم، ومضى إلى غـار ثور. [11]

2.5: البيوت الآمنة : دار الأرقم

سـبقت الإشـارة إلى ان السـنوات الثلاث الأولى من تاريخ الدعوة الإسـلامية تميزت بالتكتم والسـرية والحذر الشـديد. فقـد أملت تلك الظـروف الجائرة آنذاك علـى الرسـول ﷺ وأصحابه، بـل علـى سـائر المسـلمين أن لا يجاهروا بإسـلامهم وأن يخفـوا اعتناقهـم الديـن الجديـد حتـى عـن أفـراد عائلاتهـم التزامًـا بتعاليـم الرسـول ﷺ.[12] ومما لا شـك فيه فإن القرار الخـاص بالتكتم كان قـد اتُّخِذ مراعاة للمصالـح الإسـتراتيجية العليـا للإسـلام علـى المـدى البعيـد لا سـيما أن الموت والتعذيـب كان في انتظار كل قرشـي يُكشَـف سـر اعتناقه الإسـلام.

ولكـن مـا إن تمكـن المسـلمون مـن إيجـاد موطـئ قـدم لهم فـي «مكـة» حتى تـم التخلـي عن هـذا الغطـاء الكثيـف مـن السـرية. ولا بـد من أن نشـير فـي هذا السـياق إلى أن اضطهـاد «قريـش» للمسـلمين ومطاردتهـم وانتقامهم منهـم، بلغ مـن الغلاظة والشـدة حـداً دفع بعـض المسـلمين إلـى مواصلـة التسـتر والتكتم حتى بعـد فتـرة السـنوات الثلاث مـن العمـل السـري. وكان هـؤلاء ينعزلـون إلى أماكـن بعيـدة أو إلـى الجبـال والوديـان حـول «مكـة» كـي يصلـوا لله دون خوف في أجـواء آمنـة.[13] ولا يغيب عـن بالنا أيضـاً أن القوة الجسـدية والقـدرة على كتم السـر كانت من أبرز الصفـات في الرجـال الذين كلفهـم الرسـول ﷺ بالدعوة إلى الديـن الجديـد واجتـذاب المؤازريـن والأصدقـاء والأنصـار الجدد.

وهكذا فإن التزام الرسول ﷺ بالسرية المشددة والمواراة والإخفاء، كان من اللبنات الأولى التي كانت ضرورة حتمية لنشر العقيدة الجديدة آنذاك ومن ثم النهوض بالأمة وبناء الدولة الإسلامية. وبعد بدء الدعوة بوقت قصير، وحين كان المسلمون لا يزالون يكافحون ويصارعون من هم أقوى منهم وأغنى وأكثر عدداً، شعر الرسول ﷺ بحاجة ملحّة إلى إقامة «بيت آمن» لأصحابه. ولكي يتحاشى الانكشاف والاضطهاد لأصحابه، اضطر الرسول ﷺ إلى الاجتماع بهم في أوقات وأماكن متفرقة، وفي وحدات صغيرة العدد أو ما قد يطلق عليها بمفهومنا الحديث خلايا صغيرة.[14] وهكذا وقع اختيار الرسول ﷺ على بيت يملكه أحد المسلمين الجدد، ليكون مقراً يلتقي فيه بأولئك الذين استجابوا لله ورسوله. وتعود ملكية هذا البيت الذي يقع على سفح جبل الصفا لـ «الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي»، وهو عبد مناف بن أسد بن عبد الله بن عرو بن مخزوم ويكنى بأبي عبد الله الذي دخل الإسلام فتى يافعًا. تميز هذا البيت عن سواه -الذي كان المسلمون يتوجهون إليه متنكرين أحيانًا- بجميع خصائص البيت الآمن المثالي الذي شهد إسلام عدد كبير من السابقين الأولين. يقول ابن عبد البر «وفي دار الأرقم ابن أبي الأرقم هذا كان النبي ﷺ مستخفيًا من «قريش» بـ «مكة» يدعو الناس فيها إلى الإسلام، في أول الإسلام حتى خرج عنها وكانت داره بـ «مكة» على الصفا، فأسلم فيها جماعة كثيرة وهو صاحب حلف الفضول». [15] كما كان يسمى « المختبأ» لان رسول الله ﷺ وأصحابه كانوا يختبئون فيه إلى بداءت «المرحلة العلنية» حينها خرج منه رسول الله ﷺ بصفين من أصحابه كان في مقدمة إحدهما «عمر بن الخطاب» والآخر «حمزة بن عبدالمطلب» رضي الله عنهما متجهين إلى الكعبة الشريفة التي كان المسلمون لا يجرؤون بالخروج اليها. [16]

ورغم عدم توفر أية تفاصيل دقيقة في مصادر التاريخ الإسلامي أو غيرها عن مالك البيت الذي كان من أوائل من استجابوا لدعوة الرسول ﷺ.[17] إلا أن

معظم المؤرخين يقدرون بأنه كان شابًا يافعًا -بين السادسة عشرة والخامسة والعشرين- عندما أسلم وانضم إلى أول «مجموعة سرية» مسلمة. ويعتقد أن هذا الشاب الذي ينحدر من «قبيلة بني مخزوم» الواسعة النفوذ، والسطوة والتي كانت إحدى أبواب المسجد الحرام تسمى بها بباب بني مخزوم كان سابع رجل يعتنق الإسلام. وكان هذا البيت الذي ذاع صيته الآن يحتل موقعًا مميزًا في «مكة»، على سفوح جبل الصفا المطل على الكعبة.

كانت «دار الأرقم» في حي أو منطقة راقية لا يسكنها إلا من كانت لهم مكانة مرموقة، أو وجاهة سامقة في المجتمع.[18] وقد أدى هذا البيت الآمن دورًا حيويًا بالغ الخطورة لأنه احتضن الرسول ﷺ وأصحابه ووفر له بيئة آمنة يمكنهم فيها تلقي تعاليم الرسول ﷺ وقراءة القرآن وإقامة الصلاة أي أن «بيت الأرقم» كان مركزًا لتعلم الإسلام ونشر الدعوة الاسلامية في مرحلة عصيبة من التاريخ. وقد قضى الرسول ﷺ وأصحابه الأوائل الكثير من أوقاته هناك وإن لم يتخذه مسكنًا له. فكان أصحابه يأتون إليه، ليتعلموا أحكام القرآن ومبادئ الدين الأخرى. وهناك كان المسلمون يؤدون صلاة الجماعة، لا يخافون أن يداهمهم أي مشرك أو يعكّر عليهم صفو خلوتهم أو حلقتهم أي غريب أو خصم أو متطفل. وكان بإمكان الذين يرغبون في الاستزادة من العلم أن يأتوا إلى هذا البيت ليطرحوا تساؤلاتهم او ليتحدثوا مع الرسول ﷺ عن الصعوبات أو المشاكل التي تعترض سبيلهم في «مكة».[19]

إن اختيار «دار الأرقم» كمركز سري لاجتماع المسلمين يشير إلى عظم قدرات المصطفى ﷺ كمخطِط بارع، واستراتيجي محنك، وإلى جانب كل ذلك فإنه كان أيضًا يتمتع بحس أمني مرهف، ولو أن الرسول ﷺ أسمى من أن يكون بحاجة إلى أدلة مادية لإثبات ذلك. ويمكن إجمال الأسباب التي تقف وراء اختيار الرسول ﷺ لهذا الدار ليكون مقرًا سريًا للمسلمين بما يأتي:

أولاً: كان البيت ملكًا لشخص لم يكن أحد يعرف أنه مسلم حيث أسلم وأخفى إسلامه. ولذلك كان من المستبعد أن تشك «قريش» في أن صاحب الدعوة الجديدة سيقضي وقتاً هنالك لأي سبب كان، ناهيك عن استعماله منبرًا سريًا لنشر الإسلام من خلال أحاديثه ومناقشاته ومداولاته مع أصحابه.

ثانيًا: كان «الأرقم بن أبي الأرقم» شابًا يافعًا يعيش في ترف وبحبوبة وبالتالي فإنه لم يكن يثير الشكوك بأنه يستضيف دعوة ربانية كتلك التي كان محمد ﷺ يقودها والتي ما لبثت أن زلزلت الأرض تحت أقدام المشركين وعبدة الأصنام في وقت قياسي.

ثالثًا: كان أهل «قريش» يعرفون أن هناك تنافسًا موروثًا يصل حد العداوة، بين «قبيلة الأرقم» «بني مخزوم»، وقبيلة الرسول ﷺ «بني هاشم» وقد دامت هذه المنافسة لعقود طويلة، فقد كان كل منهما يسعى لأن تكون له اليد العليا على إدارة شئون المجتمع القرشي. وبسبب هذا التنافس القبلي الموروث، استبعد القرشيون كل البعد أن يكون الأرقم أو غيره من بني مخزوم قد أقبلوا على الدين الجديد. فشكوك «قريش» لم تكن متجهة لأولئك الذين كانوا ينافسون «بني هاشم» بل نحو أهل بيت النبوة وعائلة النبي ﷺ نفسه، و«أبي بكر» تحديداً، فهؤلاء كانوا موضع شك وريبة، لا غيرهم. ولا بد من الإشارة في هذا السياق إلى أن المنطقة التي يقع الدار فيها كان يسكنها بنو مخزوم، فإذا افترضنا أن «قريشًا» اكتشفت البيت وهاجمته فإن «مخزومًا» بأكملها كانت ستنهض بالسلاح ضد المعتدي. فوفق تقاليد القبائل التي كان معظم العرب لا يزالون يعملون بها، فإن أي اعتداء على أحد أفراد القبيلة أو أحد ضيوفها، يمثّل اعتداءًا على القبيلة بأكملها.

رابعًا: كان البيت قريبًا نسبيًا من الكعبة، وكان موقعه هذا مهم جدًا من الناحية اللوجستية، فهذا الموقع المركزي يَسّرَ كثيراً من التواصل مع الرسول ﷺ ومن التشاور معه، وتسلّم التعاليم منه وبالتالي من تثبيت إيمان أولئك الذين كانوا ينهلون على نحو مباشر من المَعين النبوي الطاهر.

خامسًا: كان على أي شخص يريد الكعبة أو يريد الحج إلى «مكة»، أن يمر بذلك البيت. وقد مكّن هذا الأمر الرسول ﷺ وأصحابه من الاختلاط بالناس بسلاسة ويسر، ومكن من الدخول والخروج منه دون إثارة شكوك أهل «مكة». ويشار إلى أنه طوال الفترة التي اتُّخِذ فيها دار الأرقم بيتا آمناً، لم تكن «قريش» تفطن أبداً إلى ما كان يحدث فيه.

3.5: الوقت والاتصالات

كان للحقائق الجغرافية والتضاريس الأرضية والظروف المناخية في شبه جزيرة العرب أثر كبير على العمل الاستخباري العربي في عهد الرسول ﷺ. فقد كانت تلك العوامل تؤثر على نحو مباشر في مستوى الأداء المهني للعيون والرواد والكشافة وغيرهم من العاملين في الحقل الاستخباري بصفة عامة. كما أثّرت تلك العوامل أيضًا على وسائل الاتصال وأساليبها وفرضت أنماطًا خاصة من وسائل النقل التي كان عليها أن تتماشى وطبيعة المحيط الذي كان المسلمون الأوائل يعيشون فيه. وإذا ما تأملنا الظروف الطبيعية لجزيرة العرب فباستثناء جبال السروات التي تمتد من عمق الجزيرة في الشمال إلى الجنوب في اليمن، يمكن القول إن طبوغرافية الجزيرة العربية السائدة ليست سوى أراض صحراوية حارقة قاحلة تمتد عبر الآفاق. وقد تصل درجات الحرارة أحيانًا في الربع الخالي بل في معظم الجزيرة العربية 55 درجة مئوية في أيام الصيف الطوال. ورغم هذه الحقيقة المعروفة المسلم بها وإزاء هذه

الندرة القاتلة للمطر وهذا القحط المائي فلا بد من الإقرار أيضًا أن المطر يكاد ينهمر طوال السنة على بعض المرتفعات الوعرة في السلاسل الشاهقة والأجراف الهاوية والوديان السحيقة، خاصة على سلسلة جبال الحجاز وأجزاء من منحدرات تهامة. وإلى جانب التحدي الأعظم الذي تمثلة الحرارة التي لا تطاق في الصحارى والهضاب فهناك أيضًا تحديات جغرافية كبرى لا تقل تأثيرًا في مستوى الأداء الاستخباري. فقد كان على العيون ورجال العمل السري عموماً، بل وعلى الجيوش والقوافل التجارية والمسافرين تحمل هذه المشاق وتجاوز المعوقات المتمثلة في وعورة العبور من خلال المرتفعات وضيق مسالك المشاة المتعرجة في الجبال، ونقص العلامات الظاهرة في الصحارى المترامية الأرجاء. وهكذا يمكن القول ان ندرة الماء وتفاقم الحرارة وتنوع الطبيعة الجغرافية واختلاف التضاريس كان من أبرز العوائق التي واجهت رجال الاستخبارات القدامى بل كل أولئك الساعين إلى عبور الرقاع الشاسعة من الرمال أو اجتياز الممرات الجبلية الشاهقة لإيصال معلومة سرية أو موافاة عاصمة الإسلام «المدينة المنورة» بما يستجد من أمور وتطورات ذات صلة بأمن الدولة الناشئة وأحوال المسلمين.

ولا بد أن نستذكر هنا أن المميزات المهمة التي كانت الحاضرة الإسلامية الأولى «المدينة المنورة» تتسم بها أنها تقع على مفترق الطريق الذي يربط الشمال بالجنوب والغرب. وكانت «المدينة» أيضاً قريبة من خطوط القوافل البرية المتجهة نحو «مكة» و«سوريا». وهذا يعني أن من يريد الوصول إلى «مكة» كان عليه إما أن يسلك الطريق الساحلي الطويل، في الغرب على ساحل البحر الأحمر، أو أن يختار الطريق الأسهل وهو طريق القوافل الصحراوي الذي كان يلامس تخوم «المدينة». وعلى أية حال فإن رجال الاستخبارات في تلك الفترة كانوا يستخدمون الخيول والجمال كوسيلة مفضلة للاتصال ونقل الأوامر والتعليمات أو التقارير السرية التي قد يبعث

بها العيـون والـوكلاء المنتشـرون فـي بقـاع كثيـرة مـن أرض الجزيـرة.

يعود تاريخ اسـتخدام الحيوانـات البرية كالجمـال والخيول لأغـراض التنقل والحمل والاتصـالات إلى أزمنة غابرة سـبقت الإسـلام بقرون. إذ إن مـن المعتقد أن الآشـوريين والمصرييـن القدامـى كانـوا أول مـن اسـتخدم تلـك الحيوانـات كوسـائل لنقل الرسـائل في جهاز البريـد البدائي لتلك الأيـام. وفي القرن السـابع الميـلادي في الجزيـرة العربيـة دخلت الخدمـة حيوانات أخـرى كالحميـر والبغال والثيـران، فيمـا اعتمـدت أسـاليب أخـرى جديـدة لنقـل المراسـلات كالحمام الزاجـل، الـذي كان يكثر اسـتخدامه أيـام الحـروب.[20] وكانـت الرسـائل في بعض الأحيـان تُنقل بأيـدي المراسـلين أي دون اللجوء إلى إي وسـيلة للنقـل، وقد يقوم بالمهمة السـرية رجل واحـد أو أكثر. وحينها يصـار إلى ما يعرف بأسـلوب التتابع من رجل إلى آخر حتى يتم تبليغ الرسـائل إلى الشـخص أو الجهـة المعنية. وكان هذا الأسـلوب النادر اسـتخدامه نسـبيًا يُعتمَـد في القضايـا بالغة الحساسـية.

كان عبـور الأراضـي الصحراويـة القاحلـة يجبـر المراسـلين والعيـون وغيرهـم علـى التنقل اثنـاء الليـل، والخلـود إلـى الراحـة في النهـار لا سـيما في أشـهر القيظ تحاشـياً للعطـش والإرهـاق الـذي يسـببه لهيـب الشـمس الحارقة. وإلـى جانـب السـهولة النسـبية للتنقل فـي الصحـارى ليـلاً مقارنـة بالسـير أثناء سـاعات النهـار فثمـة أمـر آخـر أكثـر أهميـة. فمـن أبـرز الفوائـد المتوخـاة مـن التنقـل ليـلاً فـي الصحـارى أن الأدِلّاء وغيرهـم مـن قاطعـي الصحـراء كانـوا يهتـدون بالنجـوم والأبـراج والكواكـب التـي يمكـن رؤيتهـا جلية فـي سـماء الليل وذلـك لتحديـد الأماكـن والجهـات الأربعـة، وبالتالـي لتحديـد اتجاه سـفرهم عبر الصحـراء. والواقـع أن افتقـار العـرب الأوليـن إلـى الخرائـط وإلـى المعلومـات الجغرافيـة الدقيقـة حـول الصحـارى الشاسـعة جعلهم يفضلون السـفر ليـلاً عبر الصحـراء. ولهذا فـإن المراسـلات والاتصالات التي تتـم ليلاً كانت تشـكل عاملاً

مهمـا لضمـان سـرية المهمـات والعمليـات الاسـتخباراتية. وعلينـا أن نتذكـر فـي هذا السـياق أن إحـدى خصائص الحيـاة البدويـة في الصحـراء أن البـدو -وعلى الرغم من كل ما هـو معروف عن كرمهـم وطيبة قلوبهـم- فإنهم في الواقـع منغلقون علـى أنفسـهم اجتماعيـاً. وقـد لا يسـتلطفون الغريـب بينهـم إذا مـا كان فضوليًا وأكثرَ من السـؤال عـن الأمكنـة والوجهات. فإن من شـأن ذلـك بطبيعـة الحال أن يثيـر الريبة، لا سـيما عندمـا يتكلم السـائل بلهجة تختلف عـن اللهجة السـائدة في المنطقة. وإذا ما اكتشـف البـدو الهوية الحقيقية لأحد الجواسـيس فـإن ذلك في الغالـب قد يـؤدي إلى مصـادرة مـا يملكـه وأحيانًـا إلـى قتله.[21]

كانـت المـدة التـي يسـتغرقها نقـل رسـالة مـن «المدينـة» إلـى «مكـة» علـى الأقدام تبلغ عشـرة أيـام تقريبًا. أمـا القوافل التجاريـة فكانت تسـتغرق ضعف هذا الوقت لأنهـا تتطلـب طرقًـا أوسـع لنقـل حمولتهـا مـن البضائـع والمـاء والعلف، بينما كانـت الجيـوش تسـتغرق فتـرات أطول مـن ذلـك بكثيـر. فالمقاتلـون كانوا بحاجة إلى الإكثـار من التوقـف للنوم والراحـة لا حبـاً بالراحة لذاتها بـل ليكونوا أكثر جاهزيـة من الناحيـة البدنيـة لخوض المعـارك. ولهذا السـبب تحديـدًا، كان القـادة أنفسـهم حريصيـن كل الحـرص علـى عـدم إرهـاق تشـكيلاتهم العسـكرية بالتنقـل والحركـة التـي قـد تؤثـر سـلباً علـى قدراتهـم القتاليـة. وفضلاً عـن هذا وذاك فكان من المألـوف أن الجيوش لا تغامـر بالتقدم ولا تتحرك مـن مواقعها إلا بعـد ورود تقاريـر الكشـافة والوحـدات المتقدمـة كالطلائع.[22]

وكان الجمـل أفضل وأشـهر وسـيلة للترحـال ونقـل الحمولات فـي صحارى الجزيـرة. فالجمـل كمـا هو معلـوم سـهل الرعايـة، شـديد التحمـل، ويتمتـع بلياقة بدنيـة عاليـة تمكنـه مـن الصبـر علـى مشـاق السـفر فـي الرمـال القاحلـة بفضـل سـنامه الذي يختزن الدهون ورموشـه الطويلة التي تحمى عينيه وسـيقانه الطويلة التـي تبعده عـن حـرارة الرمـال، التـي يتمكـن الجمل مـن السـير عليها بسـهولة،

بسبب سعة خُفه وليونته، التي تيّسر له حمل الأثقال. ومما يجعل الجمل الحيوان المفضل للركوب والحمولة عبر الصحراء هو القدرة الفريدة الفائقة على خزن الماء في جسده. فبفضل هذه الميزة الاستثنائية بات في مقدور الجيوش والقوافل والأفراد على حد سواء أن يقطعوا مسافات طويلة ولأيام عديدة دون الانشغال بأمر توفير الماء لهذه الحيوانات الصبورة.[23]

لكن الحاجة كانت تشتد لاستخدام الخيول العربية زمن الحروب نظرًا لما تتمتع به من خصائص بدنية تجعلها الوسيلة المفضلة للركوب والحمل والكر والفر. فالخيول العربية مشهود لها بالتوافر على كافة الخصال التي يتمناها الفرسان عمومًا من رشاقة، وسرعة، وخفة وزن، وصغر حجم. وكان رجال الاتصالات يفضلون الخيول العربية، ويكثرون من استخدامها كلما سمحت الظروف الطبيعية بذلك. فالسفر بالحصان كان يستغرق ثلث الوقت المعتاد الذي يتطلبه نقل الرسائل بواسطة الجمل لا سيما إن كان من يمتطي الحصان فارسًا حمكًا له دراية واسعة بمسالك الصحراء، والطرق القصيرة عبرها. ولا غرابة أن يستفيد من ذلك -وعلى نحو خاص- الأَدِلَّاء والطلائع والكشافة.

ومن الأمثلة على السرعة الفائقة التي يتمكن فيها الفرسان آنذاك من نقل بعض الخطابات والرسائل المهمة ما ذكره «الواقدي» في كتاب «المغازي» الذي أشار فيه إلى أن أحد العيون أو ما يمكن أن نطلق عليه بمصطلحات الاستخبارات الحديثة «وكيل تأثير» تمكن في أحلك الظروف آنذاك من إرسال رسالة هامة من «مكة» إلى «المدينة» بأقل من ثلث المدة التي تقتضيها مدة السفر المعهودة بين هاتين المدينتين. وكانت الرسالة على جانب كبير من الخطورة لأنها كانت تحمل تحذيراً إلى المسلمين من أن جيشاً من «قريش» قوامه بضعة آلاف مقاتل تم تعبئته لشن هجوم كاسح على «المدينة». وبدلاً من الأيام العشرة التي كانت تستغرقها

هـذه الرسـائل فـي العـادة، يؤكـد «الواقـدي» أن ناقـل الرسـالة أوصـل رسـالته الخطيـرة تلـك بمـدة زمنيـة قصيـرة جـداً لـم تتجـاوز ثلاثـة أيـام فقـط. بقـي أن نعلـم أن هـذه الرسـالة لـم ينقلهـا راكـب عـادي، بـل فـارس مجـرّب ذو مهـارة عاليـة، ملـم بطـرق المنطقـة الصعبـة، ومسـالك دروب الصحـراء الرمليـة، ومـدرب علـى اقتفـاء الأثـر والاهتـداء بالنجـوم فـي سـماء ليلهـا البهيـم.[24]

ومـن الأمـور البديهيـة أن يسـعى المسـؤولون فـي كل زمـان ومـكان إلـى تحسـين وسـائل الاتصـال وتطويرهـا بينهـم وبيـن وكلائهم أو الشـبكات السـرية العاملـة المنتشـره هنـا وهناك فـي بقـاع العالـم. هكـذا كان الحال مـع القيـادة في المرحلـة الجهريـة للدعـوة، ومرحلـة تكويـن نـواة الدولـة الإسـلامية خاصـة إبـان الفتـرة التـي فـرض المسـلمون فيهـا العقوبـات الاقتصاديـة علـى «مكـة»، والتـي شـهدت اصطيـاد العديـد مـن القوافـل التجاريـة التـي كانـت متوجهة إلـى «مكة» أو إلى غيرهـا من الأماكـن. وبغية كسـب الوقـت وتحسـين الأداء، لجـأت القيادة الإسـلامية إلـى الاسـتعانة بأفـراد القبائـل التـي تعيـش قريبـاً مـن الخطـوط التجاريـة، وتكليـف مراسـلين محلييـن يكونـون فـي العـادة علـى درايـة واسـعة بالمناطـق التـي يسـكنونها وبمـا يجاورهـا. وكثيـرًا مـا كان المسـلمون الأوائـل يلجـأون إلـى أسـلوب التنـاوب أو التتابـع فـي نقـل الرسـائل، أي تكليـف أكثر من شـخص واحد بالمهمـة. وهذا يعنـى أن الرسـالة الواحـدة يتتابـع علـى حملها عدة أشـخاص إلـى مسـافات محـددة يتـم الاتفـاق عليهـا سـلفاً حتى تصـل فـي خاتمة المطـاف إلى الجهـة المطلوبـة. ورغم محاسـن هذا الأسـلوب ونجاعته فـي تحقيق السـرعة فـي نقـل البريـد إلا أن كثـرة الناقليـن وتعددهـم واختـلاف مشـاربهم لم يكن أمراً مستسـاغاً مـن الناحية السـرية. لذلك لم يكن هذا الأسـلوب هـو الوحيد الـذي كان معتمداً لدى القيـادات الإسـلامية الأولى، الحريصة على عدم انكشـاف مضامين الرسـائل السـرية أو غيرها من الخطابـات. ونتيجة لذلك فقـد ظل العمل متواصـلاً بـكلا النظاميـن ـ نظـام الفـارس الواحـد ونظـام التتابـع.[25]

ولم يكن معظم الرسل على اطلاع بمضامين الرسائل التي كانوا ينقلونها، والتي كانت تكتب في الغالب الأعم بلغة مشفرة أو بأسلوب يشوبه الإبهام المقصود والغموض المتعمد. وقد تفنن العرب القدامى في استعمال الرسائل المشفرة من خلال تأليفهم للنصوص المرجوزة أو المنثورة. وهنا تكون نية الرسالة مستترة لا يفهمها إلا المستلم لها عادة. ولا يخفى أن هذه الوسيلة كانت ولو إلى درجة محدودة أكثر أمنًا من الخطابات الصريحة لإيصال المعلومات الحساسة أو تبادلها، سواء أكانت تلك الخطابات شخصية أم ذات صلة بأسرار الدولة. فاستعمال اللغة الغامضة في الرسائل من شأنه أن يضمن بقاء المحتوى خافيًا على الأطراف غير المخولة بقراءتها حتى لو قُدّر أن حامل الرسالة بدّل ولاءه أو هرب، بسبب صعوبات غير متوقعة، أمثال التعذيب، أو القبض أو الحصار.[26]

وبخلاف نصوص الوثائق المشفرة أو المرجوزة كان العرب الأوائل يستعملون أيضاً الرسائل الشفوية التي ينقلها أشخاص مشهود لهم بقوة الذاكرة والخصائص البدنية الممتازة ويتقنون إلى جانب كل ذلك لهجات أهل الجزيرة. وكانت الرسائل الشفوية تؤلّف عادة عندما لا تكون وسائل الكتابة متوفرة، أو عندما يكون المستلم لا يعرف القراءة. ومثالٌ على هذا التواصل الشفوي يمكن رؤيته في مهمة بعث بها رسول الله ﷺ باثنين من أصحابه هما: سعد بن معاذ وسعد بن عبادة، وإن شئت قلت اثنين من « عناصره الأمنية»، إلى يهود «بني قريظة» للتأكد عما إذا كان اليهود لا يزالون ملتزمين بالعهد الذي بينهم وبينه ﷺ للدفاع عن «المدينة»، أو أنهم نقضوه. وعندما رجعا من المهمة التي أرسلهما النبي ﷺ من أجلها، حيث طلب منهما أن لا يبلغاه الرد علنًا على مسمع من قواته، وأن يلحنا له في القول، ولا يذكرا ذلك لمن لا صلة له بالأمر. وعندما عادا أبلغاه كلمات مشفرة لا يكاد يفهم منها شيء حيث قالا: «عضل والقارة» في إشارة إلى أنهم يريدون الغدر كما غُدر بخُبيب وأصحاب

الرجيع الذي سبق ذكرهم. ثم لم يزيدا على ذلك شيئًا وجلسا. وكان هذا الكلام المشفر تدبيرًا وقائيًا لابد منه لتجنيب القوات المسلمة التأثير النفسي للأخبار السيئة.[27] ثم كشف الرسول ﷺ لأصحابه عن الأمر وما خفي عليهم بعد ذلك، وأن «بني قريظة» قد نقضت العهد فعلاً.

ومن الوسائل الأخرى لنقل الرسائل الشفوية ما كان يقوم به بعض العملاء أو الحراس الذين كانوا ينفذون مهامهم على نحو مشابه لما كان «منادي المدينة» يقوم به في الأيام الخوالي حين يتم الإعلان في الأسواق والطرقات والأماكن العامة عن وقوع أمر جلل أو لإذاعة خبر فقدان شخص أو وصول بضاعة أو غير ذلك. فهؤلاء أي العملاء أو الحراس كانوا يصرخون برسائل مشفرة تتكرر من شخص إلى آخر حتى تصل الرسالة في آخر الأمر إلى صاحب الشأن أو القرار. وقد استُعملت هذه الطريقة في أيام الأزمات لاسيما عندما تكون تضاريس الأرض وعرة ويصعب عبورها. فلكي تتغلب على تحديات التضاريس، كانت «قريش» تلجأ إلى وضع الأرصاد على رؤوس الجبال حول «مكة» وعلى الطريق الجبلي المؤدي إليها كي تسهل مراقبة العدو.

وعندما قرر الرسول ﷺ، بعد ست سنوات من الهجرة إلى «المدينة»، الرجوع إلى مسقط رأسه كي يؤدي العمرة توقع أن تمنعه «قريش» من دخولها لذلك أرسل أحد عيونه «عنصر جمع معلومات» لجمع المعلومات عن الحالة العامة هناك ويأتي بالأنباء عن استعدادات «قريش» ونواياها. وبالفعل جاء ذلك العنصر بأخبار تفيد بأن «قريشًا» كانت تعتمد أسلوب المناداة بالتتابع، كي تراقب كل تحرك للرسول ﷺ عندما كان يقترب من «مكة». ولضمان أن المستهدف لا يغيب عن نظرهم ، أي الرسول ﷺ عندما يقترب من «مكة»، وُضع عشرة مخبرين تحت قيادة الحكم بن عبد مناف عند نقاط تشرف على الطريق المؤدية إلى «مكة». وبذلك استطاعوا أن ينقلوا تفاصيل تقدم قافلة الرسول

ﷺ، حيث بدأوا من مكان بعيد عن «مكة»، هو جبل وزر، وحتى مقر قيادة الاستخبارات في مكان يدعى بلدح في «مكة».[28]

وقد استخدمت المرأة في بعض الأحايين لنقل رسائل سرية نظرًا لأن المرأة تتمتع ببعض «الامتيازات الأمنية» التي لا يتوافر عليها الرجل لاسيما أن شريعة الإسلام كانت توصي المؤمنين أن يرفقوا بالقوارير. وإلى جانب ذلك ينبغي أن نستذكر أنه باستثناء الوجه والكفين في الصلاة ، فإن بقية جسد المرأة يعد «عورة» في الإسلام، وبالتالي كان عليها أن تغطي كل جسدها على نحو مناسب وتخفيه عن الجميع سوى الزوج والأطفال. وكان هذا الوشاح أو الغطاء الذي يرتديه النساء لحجب أنفسهن عن الرجال في الخارج، يستغل أحيانًا لحمل الرسائل السرية. وقد يكون أشهر مثال على ذلك قصة الجاسوسة «سارة» التي كانت تحترف الغناء قبل الدعوة الاسلامية. وللوقوف على تفاصيل أوفى مما سبق أن أوردناه نقرأ في «الرحيق المختوم» ما يلي:

> "رغم تحسن العلاقة بين «مكة» و«المدينة» بعد صلح الحديبية، فقد نقضت «قريش» معاهدة السلام التي مدتها عشر سنوات. فكانت «قريش» أغارت عدة غارات على أحد حلفاء المسلمين، «قبيلة خزاعة». وعندما سمع الرسول ﷺ بالهجمات، أمر رجاله على الفور بأن يستعدوا للحرب. ثم دعا الله وقال: (اللّهم خذ العيون والأخبار عن «قريش» حتى نبغتها في بلادها).[29] وبينما المسلمون ينهون استعداداتهم لهجوم عام على «قريش»، جاءت امرأة تدعى سارة، إلى الرسول ﷺ واستغاثت به، قائلة إنها تمر بأوقات عصيبة وتحتاج إلى المأكل والملبس. فحث الرسول ﷺ بعضاً من أتباعه بأن يتولوا الأمر وأن يعطوها ما يعينها على سفرها إلى بيتها في «مكة». ولكنها ما أن تركت الرسول ﷺ، إذا بأحد

من المسلمين يكلمها. فقد طلب منها «حاطب بن أبي بلتعة»، الذي أعطاها مالاً، أن تحمل له رسالة إلى «مكة». ونصحها بأن تسلك طريقاً غير معهودة وحذرها ألا تخبر أحدًا عن الرسالة. وكان «حاطب» كتب في الرسالة المختومة إلى أهل «مكة» "أن محمداً قادم يريدكم، فاحذورا". [30]

وعندما علم الرسول ﷺ بذلك، وقد أطلعه الله على هذا السر، بعث بثلاثة رجال ليحولوا بينها وبين إيصالها، كان فيهم «علي بن أبي طالب» و«الزبير بن العوام». وتمكن هؤلاء من اللحاق بالمرأة والعثور عليها. وفي الحال طلبوا الرسالة منها. لكن «سارة» أصرت على أنها لا تعرف شيئا عما يقولون. ثم هددها الرجال فقالوا «والله لتخرجن الكتاب أو لنُجَرِّدنَّك». وعندما رأت «سارة» الإصرار منهم، أخرجت الرسالة التي كانت تخفيها في قرون شعرها. [31]

وعند العودة الى مقر رسول الله ﷺ واجهوا «حاطبًا» بالأدلة واتهمه «عمر بن الخطاب» بأنه لم يعص مشيئة الخالق فحسب بل خان الرسول ﷺ والمؤمنين أيضًا. وكعقوبة مناسبة للجريمة، طالب «عمر» بأن يقطع رأسه، ولكن الرسول ﷺ غفر له بسبب ماضيه الجهادي، وتضحياته في سبيل الإسلام حيث قال لـ «عمر» رداً على ما طالب به: "ألم يشهد «حاطب» بدرًا؟ لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: افعلوا ما شئتم فقد غفرت لكم"، أو قال «لقد غفرت لك». وعند ذاك ذرفت عينا «عمر» وقال «الله ورسوله أعلم». [32]

وقد استعمل العرب الأوائل أدوات متعددة ومواد مختلفة لتحرير خطاباتهم السرية. ومن أشهر مواد الكتابة الجلود وسيقان الخيزران، بينما كانت الأقلام الخشبية تنحت من عدة أنواع من الخشب الصلب، لا سيما من شجر الزيتون والتوت. وفي الوقت الذي كان الورق معروفاً ومستعملاً في

الأيـام الأولـى للإسـلام، فـإن العـرب الأوائـل اسـتعملوا أيضًـا الرقـاع مـن أنواع مختلفـة، وقطـع الخشـب والعظام، لاسـيما عظمـة الكتـف الواسـعة للجمـال، أو سـعف النخيـل وألـواح الحجـر الأبيـض.[33]

وكان القلـم الأداة الأكثر اسـتعمالاً في التحريـر. وقد ورد ذكـره في القرآن الكريم عـدة مـرات. وكان القلم يصنع مـن قطعة خشـب صغيرة طولهـا يتراوح في العـادة مـا بيـن 10 إلـى 15 سـنتمتراً، حيـث يتـم تهذيبهـا وتشـذيبها حتـى تكون حافتهـا نحيفة حـادة. وكان هـذا القلـم البدائي رخيص الثمن وسـهل الاسـتعمال ويسـتهلك القليـل مـن الحبـر الـذي كان حينـذاك سـلعة نـادرة باهظـة الثمـن لا يمكـن التفريـط بها.[34]

وفـي المراسـلات الاسـتخبارية كانـت الوثائـق الورقيـة تُكتَـب بنيـة الإخفـاء والمواراة. وكان المبعوثون والرسـل السـريون لا يألون جهداً في إخفاء رسـائلهم تحت أغطيـة أو أغلفة مختلفـة أو حتى داخل غمـد الخنجر أو السـيف أو يخبئون رسـائلهم داخل العصا أو أي شـيء يحمله المسـافر فـي الصحراء سـواء أكان ما يحمله في يده أم علـى ظهر الجمـل أو الجواد. ولكي يتحاشـى افتضـاح أمره، فقد يلجـأ العميـل إلـى إخفاء رسـائله فـي سـرج الحصـان، أو يطويهـا فيخفيهـا داخل ظفيرة شـعر طويلـة، أو حتـى بين ثنايـا عقاله أو ملابسـه أو غمد سـيفه.

ومـع مـرور الوقـت واتسـاع رقعـة الدولـة الإسـلامية التـي ترامـت أطرافهـا شـرقاً وغربـاً وبـكل الاتجاهـات، شـهدت وسـائل الاتصـال والاسـتخبارات نمـواً وتطـوراً ملحوظيـن. ففـي جانـب سـرعة تمريـر المراسـلات وضمـان تسـلم الرد عليهـا بسـرعة، وتحقيـق الاتصـال بأقصـر فتـرة زمنيـة بيـن مقـرات وأمصـار الدولة، سـواء في «دمشـق» خـلال الحكم الأمـوي، أو فـي «بغداد» خـلال العهد العباسـي، وصولاً إلى «اسـطنبول» في فترة الامبراطورية العثمانيـة، فقد التفتت

القيادات عبر العصور إلى الأهمية التي تنطوي عليها الاتصالات السريعة بين المركز والأطراف لا سيما إبان الأزمات وزمن الحرب. فالاتصالات السريعة كانت من ضرورات الحكم ودعائمه، وبدونها لا يستتب الأمن، ولا يتم متابعة سياسة الدولة أو فرض القانون، ومراقبة الأقاليم والتخوم الواسعة التابعة لدولة المركز. ومن خلال تحسين سبل الاتصال والبريد وتطوير طرق المواصلات أيضاً فقد أصبح من الممكن التدقيق في العديد من القضايا الأساسية بالنسبة للدولة كالتثبت من جمع الضرائب وهويات دافعيها ومن مداخيلهم والإشراف على حجم المنتجات الزارعية والواردات والصادرات والتجارة الدولية على وجه العموم. أي أن تحسين وتطوير طرق الاتصال والتراسل أدى إلى رفد خزينة الدولة بالكثير من العوائد التي لم تكن لتعرف على وجه التحديد والدقة لو لم يلتفت الى هذا الجانب اللوجستي المهم.

وبسبب هذا التطور الذي أشرنا إليه أصبحت سلالات بعض الخيول المشهورة بالسرعة والرشاقة سلعة مطلوبة أكثر من ذي قبل، وكذا الحال مع البغال التي كثر استخدامها في هذا المجال. فتم استيراد سلالات أكثر خفة وسرعة من الخيول العربية، من بلاد فارس ومن آسيا الصغرى. وأصبح الحصان لاحقاً وسيلة النقل الرئيسة للعاملين في حقل الاستخبارات. ومع التطور العمراني وتحسن وسائل بناء الطرق أخذت العربات التي تجرها الخيول، تستعمل بشكل أكبر في نقل الناس والبضائع والبريد. فيما أصبح الحمام الزاجل يستعمل أيضًا في نقل الرسل السرية. وقد لا يعرف كثيرون أن كلمة الزاجل مشتقة من الفعل الثلاثي زجل ومعنى الزاجل هو «الرامي» أو «المرسِل» أو «الباعث».

وعلى أية حال كان العرب الأولون يقومون ببناء أبراج خاصة للحمام الزاجل حتى تستطيع الهبوط عليها، ومن ثم يتم تجميع الرسائل التي تحملها،

أو تحميلها رسائل أخرى إلى وجهات معينة. وكان يعمد إلى تمويه وإخفاء هذه الرسائل بعناية كبيرة حول جسمها، أو تحت جناحيها خشية ملاحظتها، أو وقوعها في أيدي من لا يعنيهم الأمر.

ويمكن ملاحظة أن البريد كان معروفًا عند عرب الجاهلية والإسلام حيث ورد في الحديث الشريف قوله ﷺ: "إذا أبردتم إليّ بريداً فاجعلوه حسن الوجه، حسن الاسم"[35] وقد اهتم به الخلفاء الراشدون وفي عهد الأمويين خصص له ديوان وكان من مهامه التجسس.[36] وقد قسّم البريد آنذاك إلى ثلاثة أقسام، البريد البري وهو الرئيسي حيث أنشئت له محطات للبريد وخصص له من الدواب الخيل والبغال. أما البريد البحري فكان فقط للمدن الواقعة بمحاذاة السواحل البحرية التي يصعب الوصول اليها بالطرق البرية العادية، ويتم التواصل معها عبر مراكب خاصة سريعة. وقد اعتنى العرب أيضاً بالبريد الجوي وأولوا بعض أنواع الطيور اهتمامًا خاصًا لا سيما الحمام الزاجل وكان أوج استخدامات الزاجل في العصر الفاطمي.[37]

5.4: الكتابة المشفرة Encryption

كانت الرسائل التي تتضمن معلومات حساسة أو سرية تنقل شفوياً بين الأطراف المعنية بها. وكانت أحياناً تنقل ملحونة[38] أو جلية وعلى أشكال مختلفة من أهمها الشعر والعبارات القصيره جداً والأمثال العربية القديمة. ثم طور هذا الأسلوب بعد توفر مواد الكتابة وأدواتها واستخدمت الرسائل المكتوبة لتمرير المعلومات الحساسة والسرية. ولمنع اعتراض هذه الرسائل وكشف محتوها كان ولابد من إيجاد وسيلة تحمى بها تلك المعلومات السرية. فابتكر أسلوب «الكتابة المشفرة» أو مايطلق عليه مصطلح التشفير (Encryption). ويعود اكتشاف أول دليل كسر للشفرة إلى العلماء العرب في القرن التاسع

الميلادي.[39] ونعني بالكتابة المشفرة ترميز النصوص المكتوبة وإعدادها بهيئة يستحيل معها فهم النص المكتوب أو استجلاء معانيه اللهم إلا لمن لهم إلمام بسر هذه الرموز أو الهيئة المعتمدة في كتابة الخطاب المشفر. وقد تطورت فنون الكتابة المشفرة مع مرور الوقت، نظرًا لاتساع حاجة الدولة الإسلامية المتنامية الأطراف إلى حماية أسرارها وصيانة مؤسساتها، وإدارة شؤونها وتنظيم خدماتها، مما أدى إلى تطوير المهارات الإدارية للعاملين في قطاع الدولة ومنها البريد والاستخبارات. ويتضح مما ورد في كتب التاريخ والسير الذاتية المتوفرة لدينا أن العاملين في حقل الاستخبارات كانوا يمارسون مهامهم غالبًا تحت مظلة ديوان الخليفة. لهذا تميزوا عن سواهم بالحظوة لديه فأحيطوا برعاية خاصة، مما جعل لهم جانبًا كبيرًا من الأهمية والنفوذ.[40] ومنذ القدم تعددت الوسائل التي يلجأ اليها العاملون في حقل الاستخبارات للتواصل فيما بينهم، فمنها استخدام الرسائل الشفوية المشفرة أي «الملحونة» ومنها الرسائل المكتوبة المشفرة، ولاحقًا الكتابة السرية.

كانت الجمل الشفوية القصيرة المشفرة تفي بالغرض وفقًا للموقف التي يضطر إلى استخدامها فيه، وكان المنافقون أو مايمكن أن نطلق عليهم «عملاء أعداء الإسلام» يستخدمون هذا اللون من الحديث إلا أن الله سبحانه وتعالى فضحهم لنبيه فقال تعالى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾[41] ولحن القول هنا يعني معرفة معناه ومقصده الباطني وليس الظاهري.[42] وفي مرحلة بناء الدولة أيضاً نجد أن الرسول ﷺ عندما بعث السّعدَين إلى «بني قُريظة» بعد أن تواترت له المعلومات التي تفيد بنقضهم للعهد قال: "إن أصَبتُماهُم على العهد فأعلِنا ذلك وان أصَبتُماهُم على غير ذلك فالحنَا لي لَحْناً أعرفه ولا تَفُتّا في أعضاد المسلمين".[43] وعندما عادا قالوا له بشفرة مرمزه «عضل والقارة»[44] مشيرين له بأنهما نقضوا العهد كنقض عهد عضل والقارة. ولم يقتصر العرب على هذين الأسلوبين النمطيين بل كان هناك أسلوب ثالث غير نمطي والذي استخدم

فيه بعض فنون الشعر لإيصال الرسائل والتعليمات ومنها قول الشاعر الكلابي منشداً للقتال:

"ولقد لحنت لكم لكيما تفهموا   ووحيت وحياً ليس بالمرتاب"[45]

ورغم قدم هذا الأسلوب وشيوع استخدامه في العصر الجاهلي والمرحلة المحمدية إلا أنه لايزال يستفاد منه حتى وقتنا الحاضر. وقد التفت الامريكيون مؤخراً إلى هذا الأسلوب الذي يبدو أنه لا يزال مستعملاً في أكثر من منطقة حول العالم. فقد بلغت مخاوف الأمريكيين من احتمال لجوء التنظيمات المتشددة لهذا الأسلوب حدًا جعلهم يتثبتون من سلامة النصوص التي يتداولها المعتقلون في سجونها، لا سيما في معتقل «غوانتانامو، Guantanamo». وقد فرض السجانون هناك رقابة مشددة جداً بعد اكتشاف حرس المعسكر بعض الأبيات الشعرية المكتوبة على أكواب الشاي التي كان النزلاء يستخدمونها للتواصل فيما بينهم. وفي الحال تمت مصادرة هذه الأكواب حسب ما أوردته صحيفة «الاندبندنت، The Independent» اللندنية خوفا من أن تكون العبارات المكتوبة تتضمن رسائل سرية مشفرة. فالشعر بالنسبة للجيش الأمريكي يمثل مجازفة قد تعرض الإجراءات الأمنية المشددة إلى خروقات هم في غنى عنها وفق معايير وزارة الدفاع، ذلك أن أخشى ما كان يخشاه «البنتاغون» هو استخدام الصور البلاغية والمحسنات البديعية لنقل رسائل مشفرة إلى التنظيمات المسلحة في الخارج.[46]

ويحفظ لنا التاريخ العربي العديد من الأمثلة التي تم فيها تبادل الرسائل السرية بين أطراف لم تكن اتفقت حتى على شفرة سرية بينها. ومن أبرز هذه الأمثلة القصة الشعبية المعروفة عن المهلهل الزير سالم التي توارثتها الأجيال، والتي وردت إلينا في عدة روايات بل في عدة أجناس أدبية. وتتحدث تلك القصة عن رجل مسن كان طلب، بعد عمر طويل، من ابن أخيه أن يساعده

كي يسافر عبر الصحراء فيستمتع بالمناظر الطبيعية ويجدد بعض شبابه بالفضاءات المفتوحة والهواء النقي. يستجيب ابن الأخ على الفور وحتى يكمل أسباب الراحة لعمه أثناء السفر، أمر اثنين من عبيده بأن يُلبّيا للزير سالم كل ما يطلبه ويبتغيه. ويبدأ الثلاثة الرحلة عبر الصحراء متوقفين عند هذه الواحة أو تلك، وبعد فترة من الزمن شعر العبدان بالإرهاق التام بعد أن أعياهما الحل والترحال، حتى لم يعد بمستطاعهما تحمل المشقة أبداً. لذلك اتفق هذان الرجلان على قتل العجوز والتخلص منه وإلى الأبد.[47] بيد أن العجوز لم يكن غافلاً عن ما كان يدور في خلد العبدين فقد شعر هو الآخر أنهما سئما من خدمته وتلبية احتياجاته وأنهما أخذا يتآمران على قتله. لذلك رجاهما أن يلبيا له طلباً عزيزاً على نفسه وهو نقل وصيته الأخيرة إلى كل من ابن أخيه وإلى أخته حيث أنه بات يشعر بدنو أجله في الصحراء. وطلب منهما أن يتأكدا من أن رسالته تُنقل حرفياً وكما يمليه عليهما بالضبط كي لا يسيء أحد فهمها. وهكذا قضى يوماً كاملاً يقرأ عليهم الرسالة ذات الجملة الواحدة مراراً وتكراراً حتى حفظاها عن ظهر قلب. ثم تعهدا بأن يوصلا هذه الرسالة إلى ابن أخيه وإلى شقيقته وكما أملاها عليهما بالضبط والتي كان نصها:

من مبلغ الاقوام إن مهلهلا   لله دركما ودر أبيكما

في تلك الليلة اقدم العبدان على قتل العجوز، ثم دفناه. وقفلا راجعين إلى مولاهما لإبلاغه بخبر موت عمه. وقاما أيضاً بتلاوة الرسالة التي أملاها عليهما العجوز المجنى عليه. وحيث أن ابن أخيه لم يفهم من مضمون الرسالة شيئاً طلب أخته «يمامة» المساعدة، وكانت من أكثر العقول المتنورة بين العرب. وحالما سمعت الرسالة ذات الجملة الواحدة أيقنت أن هذه الجملة أو البيت الشعري مشتق من قصيدة قديمة. ولم تمض لحظات حتى فكت يمامة طلاسم اللغز، وعرفت معنى الرسالة السرية ومغزاها. فأخذت يمامة تولول وتلطم خديها، وقد تملكها الحزن الشديد. ثم أخذت تقول: « كان عمي يفهم الشعر

ولا يقول أبياتا مجتزأة منقوصة الكلمات عديمة المعنى». وما أن استذكرت النص الاصلي للبيت الشعري المنقوص حتى تمكنت من الوقوف على الحقيقة واستنباط الأدلة الدامغة على قيام العبدين بقتل أخيها العجوز. ثم قرأت البيت صحيحاً لا كما قاله العبدان:

من مبلغ الأقوام أن مهلهلا   أضحى قتيلا بالفلاة مجندلا
لله دركما ودر أبيكما   لايبرح العبدان حتى يقتلا

وكما هو واضح من النص المذكور أعلاه فإن كلماته تضمنت أكثر من رسالة: الأولى خبر مقتل العجوز في الصحراء، والثانية تضمنت تحديد نوع الجزاء الذي ينبغي أن يناله القاتلان. وعلى أية حال تمضي الرواية إلى أن العبدين قد اعترفا بجرمهما بعد إلقاء القبض عليهما ومحاكمتهما وقد دفعا حياتهما ثمنا لخيانتهما. وهكذا بفضل النباهة والحنكة استطاع هذا الشيخ العجوز أن يشفر رسالته، وأن يُعرّف بقاتليه ،وأن يرتب أمر الانتقام منهما حتى قبل وقوع الجريمة.[48]

5.5: الأمن والاستخبارات المضادة

كان النسيج الاجتماعي المدني بيثرب عند قدوم النبي ﷺ يتكون من المهاجرين والأنصار والمشركين من قبائل الأوس والخزرج وقبائل اليهود. وكان بين الأوس والخزرج حروب طاحنة لم تهدأ إلا بعد «حرب بعاث»، بعد أن اتفقت هاتان القبيلتان على أن يُنصّب «عبدالله ابن أبي» ملكاً عليهم الذي رأى في قدوم النبي ﷺ للمدينة سلباً لملكه. فكان هو وأعوانه يكيدون لرسول الله ﷺ ولربما كانوا يتخذون بعض الأحداث وضعاف العقول من المسلمين عملاء لهم لتنفيذ خططهم.[49] وفي الطرف الآخر رأت القبائل اليهودية في الإسلام، ديناً منافساً لدينهم وخطراً عليهم فتصدوا له بكل قوة وانبروا له بالكيد والتآمر.

وبالرغم مـن ذلك فقد بدأ الرسـول ﷺ عند وصولـه بوضع اللبنـات الأولى لتكوين نـواة مجتمـع إسـلامي متماسـك ينبـذ الفرقـة ويوحـد الكلمـة. فآخـا بيـن الأوس والخـزرج والمهاجريـن والأنصـار وأبـرم العهـود والمواثيـق مـع اليهود مؤسسـاً بذلـك دعائم كيـان جديـد لمجتمع الأمة الإسـلامية فـي «المدينـة». علـى أن البنية الاجتماعيـة فـي «المدينـة» تعرضـت إلـى العديد مـن التحديـات بل إلـى الاهتزاز والتخلخـل فـي ظل وجـود القبائـل اليهوديـة الحاقـدة على ظهـور نبي مـن العرب وكراهيـة «عبدالله ابن أبي» ومن سـانده لقـدوم النبي ﷺ للمدينـة. وكذلك لوجود بعض المشـركين مـن قبائـل «المدينة» الذيـن كانوا يضمـرون الكراهية للرسـول ﷺ، ويتحينون الفـرص للانقضـاض عليه. وفي مثل هـذه الأجواء المشـحونة فإن التوجـس والريبة والشـائعات وجـدت أرضها الخصبـة آنذاك. وقد حذر الرسـول ﷺ المسـلمين مراراً من الريبة والشـائعات والأخبار غير المسـندة التـي يتناقلها النـاس. فيقـول ﷺ «إياكـم والظـن فـإن الظـن أكـذب الحديـث، ولا تحسسـوا، ولا تجسسـوا، ولا تحاسـدوا، ولا تباغضـوا، ولا تدابـروا، وكونـوا عبـاد الله إخوانـاً».[50] ولكـن الأمـر كان مختلفـاً جـداً عندمـا كان يتعلـق بأمـن الدولـة أو المصلحـة العامة. فعلـى صعيد الجبهـة الداخليـة فـي «المدينة» التي كانت شـغل المنافقيـن واليهـود الشـاغل، كان لابـد مـن التصدي لمـا يهددهـا. وحتـى يكون ملمـاً بما يحدث خـارج «المدينة»، وحتى ينشـر الإسـلام ويعزز موقفه فـي الجزيرة ومـا بعدهـا، كان لابد مـن توفير الأمـن وإيجاد شـبكة مـن العيون تجلـب خبر كل مـا يهدد أمـن الدولـة الفتية.

بعد أن وردت من «قريش» رسـائل تهديـد للمهاجرين بالاسـتئصال والإبادة، كان لابـد من أن يكـون للقيادة رجـال أمن يحرسـونها، فقد رُوي عن عائشـة رضي الله عنهـا أنهـا قالـت: كان رسـول الله ﷺ يُحـرس ليلاً حتـى نـزل «والله يعصمك مـن النـاس»[51] وكان من أهـل الصفـة ممن كانـوا معنين بحراسـة رسـول الله ﷺ، كمـا كانـت هنـاك أحيانـاً دوريـات تجـوب «المدينـة» لا سـيما فـي أيـام الحـروب

لإشاعة الأمن ومعرفة تحركات الأعداء واليهود المناهضة للمسلمين وقد رصد لهم ذلك في معركة الخندق كما رأينا.

على الصعيد الخارجي ولدرء الأخطار عن «المدينة» أوجد الرسول ﷺ شبكة من العيون تخدم هذا الدين الحنيف وتتفانى في سبيله وتضحي من أجله. ونعني هنا شبكة العيون الاستخبارية ذلك الجمع من العناصر البشرية المنتشرة في «مكة» وباقي قبائل وهجر الجزيرة العربية ممن كانوا قد أسلموا وكتموا إسلامهم وأُبقُوا في مواقعهم ليكونوا روافد للمعلومات عن كل ما يشكل خطرًا على المسلمين، وكان إلى جانب هؤلاء «الوكلاء» المكتومين عدد من المتعاونين الآخرين الذين لسيوا على دين الإسلام، وأعداد أخرى من الذين كانوا مكلفين بمهمات الأمن والمراقبة والاستطلاع. ومن المتطوعين المتحمسين الذين كانوا يقدمون خدمات أمنية واستخبارية جليلة، لا سيما إبان السنوات الأولى من الدعوة. فهؤلاء كانوا يعملون بسرية تامة كـ «وكلاء متمركزين» «Agent in Place» مناطق مختلفة من الجزيرة. وكانوا يجهدون في جمع المعلومات عن طريق المعاينة الشخصية وما يردهم من ثقاتهم. ولم تكن المعلومات التي يستجمعونها قاصرة على شئون الحرب فحسب بل كانت تتعداها إلى الاستخبارات الاستراتيجية، كالأنشطة السياسية والاجتماعية والعسكرية والأمنية والاقتصادية، بما في ذلك تحركات القوافل، وطرق سيرها، وعالم الأسواق والتجارة، وموارد المياه ومناطق الكلأ والرعي، ومشاعر الناس عموماً إزاء زعمائهم وقادتهم، ومدى استعداد هذه القبيلة أو تلك لتقبل الدين الجديد والعيش في ظل تعاليم الإسلام.

وهنا يبرز الدور الخطير الذي نهض به المتعاونون الأوائل من الذين أمدوا الرسول ﷺ بمعلومات كان الرسول ﷺ والمسلمون عموماً في أمس الحاجة إليها. وأول من تشرف بهذه المهمة من كان مسئولاً عن أهم محطة

استخبارية للرسول ﷺ إن جاز التعبير خارج «المدينة»، ونقصد بذلك «مكة» المكرمة. أما الشخص الذي كان يقوم بتلك المهمة الشاقة فكان «العباس» عم الرسول ﷺ الذي آمن بالدين الجديد لكنه لم يشهر إسلامه. وإذا صنفنا العباس ضمن «الوكلاء» صح لنا أن نصفه على أنه «وكيل تأثير» الذي أبدى مهارة استثنائية في عمله، لا سيما في نقله رسالة خطيرة إلى الرسول ﷺ في وقت قياسي، وقد ذكرنا القصة في موضع سابق. علمًا بأن «ابن سعد» في طبقاته، يذكر «ابن عباس» رضي الله عنه ضمن الصحابة الذين «أسلموا قديمًا ولم يشهدوا بدرًا».[52]

وكان العديد من العيون منتشرين في أنحاء الجزيرة العربية، منهم من كان ضمن سكان المدن، وآخرون بين أفراد القبائل المتنقلة في الصحراء، أو القاطنة على طرق التجارة الدولية كقبيلة خزاعة القوية.[53] ومن أبرز من أرسلهم الرسول ﷺ في مهمات تحسسية هو «حسيل بن نويرة». الذي كان يجوب أرجاء الجزيرة ليجمع المعلومات من مصادر متنوعة ومتعددة عن الأوضاع العامة للقبائل المختلفة وعن زعمائها.[54] وكان هذا الرجل دليل النبي ﷺ إلى خيبر. كذلك كان هو الذي قدم على رسول الله ﷺ من الجناب فأخبره أن جمعاً من غطفان بالجناب. فبعث رسول الله ﷺ حينئذ «بشر بن سعد» ومعه ثلاثمائة من المسلمين إلى «الجناب» فلقوهم بيمن وخيار.[55] من جهة أخرى، وقبل غزو المسلمين بلاد فارس وبيزنطة بوقت طويل، أرسل الرسول ﷺ عيونه إلى عمق مناطقهم.[56]

كانت الشهور الأولى في «المدينة» على وجه التحديد صعبة على الرسول ﷺ وعلى الذين هاجروا معه من «مكة». فكان محمد ﷺ يحذر ما كانت «قريش» تحيك له من مكائد ودسائس خبيثة. فقادة «قريش» لم يتوقفوا لحظة واحدة عن مواصلة سعيهم للانقضاض على الرسول ﷺ وأتباعه وتصفيتهم جسدياً.

من هنا كان لزاماً على المسلمين أن يراقبوا الأوضاع في «مكة» عن كثب حتى يكونوا مستعدين لأية تحركات ضدهم. ولهذه الأسباب كان الرسول ﷺ قد بعث بسرية تجمع له الأخبار، وتزوده بتقارير مفصلة عن تحركات القرشيين ومخططاتهم وكانت تلك السرية تدعى «سرية النخلة» التي كانت قد كلفت بمهمات استطلاعية عن «قريش».[57]

وفي معرض الحديث عن «الاستخبارات» و «الاستخبارات المضادة» ينبغي أن نستذكر أن الغرض الأساس من الأمن ومكافحة التجسس «الاستخبارات المضادة» هو تنفيذ إستراتيجيات معدة سلفاً، وخطط محددة مرسومة تهدف أساساً إلى تضليل الأعداء وحماية الأمن العام، وخلخلة أية مخططات خبيثة لهم، وفي الجانب الحربي منه ما قاله الرسول ﷺ في هذا الإطار: «إن الحرب خدعة». فمعظم المعلقين يذكرون هذا الحديث للتدليل على أهمية الدور الذي يلعبه العين في خدمة قضايا الدولة الإسلامية. فيؤكد «العسقلاني» على سبيل المثال أن «الحرب الطيبة هي التي تكون فيها الحاجة إلى الخداع أكثر منها إلى القتال. وفي الوقت الذي تكون المواجهات محفوفة بالأخطار، فإن النصر يمكن تحقيقه من خلال الخداع ودون الإنكشاف للخطر».[58] وبالمثل فإنه بالنسبة للعيني، فإن أهمية هذا الحديث تكمن في أنه ينصح «باستعمال الخداع في الحرب كلما تسنى ذلك، ثم يقاتل إذا فشل في ذلك». بمعنى آخر، فإن استعمال السلاح يجب أن «يكون آخر خيار».[59]

6.5: السرية والكتمان

كانت السرّية -منذ بزوغ فجر الإسلام- أساسًا ومنهجًا لاستراتيجية الرسول ﷺ طويلة المدى. فقد حرص ﷺ على تطبيقها في جميع مناحي الدعوة الإسلامية، ويؤكد ذلك ما اتخذه من إجراءات في السنوات الثلاث الأولى من

البعثة النبوية الشريفة، والتي تعرف في التاريخ الإسلامي بالمرحلة السرية للدعوة. فخلال تلك السنوات الحرجة، كانت تحركات الرسول المصطفى ﷺ وأداؤه لواجباته الدينية أو اتصالاته بأصحابه تتم بسرية تامة وبكتمان شديد. بل استمرذلك حتى في المرحلة العلنية، حين بدأ الرسول ﷺ يجهر بدعوة الناس إلى اعتناق دين الإسلام، كان فيها لا يتخلى عن أخذ الحيطة والحذر فيما يتعلق ببعض المعاملات أو العمليات التي تتطلب التزام السرية والكتمان.

وفي «المدينة» بعد الهجرة ولكي يستبق أية محاولة لتسريب المعلومات، ويكون مطلعاً على الدوام على مخططات عملاء الأعداء، كان الرسول ﷺ يبعث بالعيون والكشافة إلى كل أنحاء المناطق المحيطة بـ «المدينة». وباستثناء دعوته إلى عبادة إله واحد، ودعوته العرب إلى حظيرة الإسلام، فإن معظم تحركات الرسول ﷺ ونشاطاته على المستوى الشخصي والعام، كانت ملبوسة بالكتمان والسرية. ويروى أنه كان يشجع المسلمين على الدوام على التزام السرية في الأمور التي تستحق التكتم. من ذلك ماذكره «ابن عبد البر» من الخبر المروي عن رسول الله ﷺ : «من أسر إلى أخيه سراً لم يحل له أن يفشيه عليه».[60] ومن أقوال عمر في هذا المقام، وكان صحابياً جليلاً يتسنى بسنة الرسول ﷺ: «من كتم سره كان الخيار بيده».[61] ويقول ﷺ : «استعينوا على إنجاح الحوائج بالكتمان، فإن كل ذي نعمة محسود».[62] وهي أحاديث أو آثار تشهد على تفضيله للتستر عموماً. أما بالنسبة لقضايا الأمن فإن الرسول ﷺ كان يعتبر الالتزام بالسرية فيها، شرطاً واجباً لا مناص من الالتزام به.

ومن الأمثلة المبكرة لإصرار الرسول ﷺ على السرية نجده في موقفه الذي اتخذه بعد وصول بعثة من حلفائه من «بني خزاغة» إلى «المدينة»، والتي شكت إليه أن «قريشاً» نقضت عهد الحديبية. فأخبرت الرسول ﷺ أن «قريشاً» ناصرت «بني بكر» على «بني خزاعة» في نزاع وقع بين القبيلتين،

وتحملت «خزاعة» خسائر كبيرة جراء هذا الاعتداء. وهكذا وبوقوع هذا الاعتداء على حليف من حلفاء الرسول ﷺ نقضت «قريش» نص الاتفاق أي معاهدة الحديبية. وعندما انتهى اجتماعه ببعثة «خزاعة» طلب من الرجال أن ينفَضُّوا سراً، ودون إثارة الانتباه. فكان يحذر من أن تعلم «قريش» بأن المسلمين يعلمون بأمر مخالفاتها لشروط الاتفاق. وعليه فإن جهلهم بالأمر سيحرمهم فرصة الاستعداد لمواجهة محتملة مع المسلمين.[63] وبعد أن علم «أبو سفيان» بخطورة موقفه حاول أن يستدرك الأمر بأن زار «المدينة» بنفسه ليسترحم الرسول ﷺ في الخطأ الذي وقعت فيه «قريش»، بل وطلب توسط بعض المقربين لرسول ﷺ في هذا الأمر لعل النبي ﷺ يسامح «قريشاً» على ما فعلت، ولكن الرسول ﷺ رده رداً قوياً حاسماً، ورجع «أبو سفيان» إلى «مكة» لا يدري ماذا يخبيء الرسول ﷺ له ولـ «قريش».

وعزم النبي ﷺ السير إلى «مكة»، ولكنه وحتى يخفي تحركات جيشه ، أمر بأن يسير الجيش من منتصف الليل وحتى الفجر، فيكون ذلك لهم غطاء يخفيهم عن عيون «قريش» وحلفائها، وهو بذلك يخفي تحركات جيش وصل قوامه إلى عشرة آلاف مقاتل.[64] وكان الرسول ﷺ يحرص على تذكير من يمكن أن نسميهم بوكلائه السريين، ألا يتفوهوا خطأً بأية كلمة تنم عن طبيعة مهماتهم أو وجهاتهم السرية. بمعنى آخر أن السرية أصبحت مبدأ من المبادئ الأساسية التي يجب الالتزام بها.

وكان ﷺ في معظم الأحيان يميز ويكرم من ينجز ما يوكل إليه ويؤدي المهمات الصعاب للإسلام، بأن يخلع عليه ألقاباً تشجيعية مشرفة تشحذ من همته وتعترف بمنجزاته. من ذلك تسميته لـ «خالد بن الوليد» بـ «سيف الله المسلول» مثلاً. أما في «الأداء السري» فإن قصة «الزبير بن العوام» ذات دلالة واضحة:

وكما في الصحيحين عن «جابر بن عبد الله» رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: من يأتيني بخبر القوم يوم الأحزاب قال «الزبير»[65] أنا. ثم قال من يأتيني بخبر القوم قال «الزبير» أنا، فقال النبي ﷺ إن لكل نبي حواريّاً وحواريّ «الزبير». والحواري هو: الناصر المخلص.[66]

يتضح لنا من ذلك أن الرسول ﷺ كان يعلق، وفي كل تعاملاته، أهمية كبرى على السرية. ذلك أن أي تحرك غير محسوب منه ﷺ قد يعرض مصيره ومصير أصحابه إلى الخطر. من هنا كان يحمي وبحرص شديد أصغر التفاصيل حتى لا تُستغل وتُستعمل ضده. من ذلك أنه في ليلة «غزوة بدر»، وبينما الرسول ﷺ وبعض من أصحابه في طريقهم لمعاينة جيش «قريش» قبل اللقاء بهم، إذ هم برجل عجوز. فأوقفه الرسول ﷺ وسأله عن نفسه. ودار حوار ذكره بعض أهل السير كما يلي:

«من الرجل؟ - بلى من أنتم؟ - فأخبرنا ونخبرك. -فسلوا عما شئتم. -أخبرنا عن «قريش»؟- بلغنى أنهم خرجوا يوم كذا وكذا من «مكة»، فإن كان الذى أخبرنى صادقاً فإنهم بجنب هذا الوادى. - فأخبرنا عن محمد وأصحابه.

خبرت أنهم خرجوا من يثرب يوم كذا وكذا، فإن كان الذى خبرنى صادقاً فهم بجانب هذا الوادى. - فمن أنتم؟ - نحن من ماء».

ولقد أدى هذا الجواب الغامض من رسول الله ﷺ «نحن من ماء» غرضه على ما يبدو، فقد لوّح الرجل بيده جهة العراق وقال: من ماء العراق.[67] اي إنكم إذاً من ماء العراق. ولربما أن الرسول ﷺ لم يقصد ماء العراق كما فسره ذلك الرجل ولكنه قصد أنه (خُلق من ماء). كما ورد في أيات القران الكريم ﴿ من مَّاء مَّهين﴾.[68]

ولضمان السرية عمد إلى المواراة في تحركات الجيش، فكان الرسول ﷺ يأمر جيشه أحيانًا بالتجمع عند مكان معين لكي يستعد لعملية عسكرية أو هجوم وشيك. ثم في المكان المحدد كان يصدر أوامره ويخبر قادة الميدان ورؤساء المجموعات فقط، بوجهتهم الدقيقة ومهماتهم. ومن ذلك أنه حين كان يستعد لمعركة مؤتة، أمر الرسول ﷺ جيشه بالالتقاء بمكان يدعى الجرف، فاتجه الجيش برمته هنالك وانتظر أوامره. وعندما اجتمع الرسول ﷺ مع قادة الجيش بعد ذلك، فصل لهم التفاصيل التكتيكية، فأخبرهم أن:

> زيد بن حارثة أمير الناس، فإن قتل زيد بن حارثة فجعفر بن أبى طالب، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة، فإن أصيب عبد الله بن رواحة، فليرتض المسلمون بينهم رجلاً فليجعلوه عليهم.[69]

وإلى جانب الموارة، كان الرسول ﷺ يلجأ في بعض الأحيان إلى اعتماد التمويه والخداع لهزيمة أعدائه. فإلى جانب اتفاقه ضمناً في المبدأ العام مع فيلسوف العلوم الحربية «صن تزو، Sun Tzu»، على أن "كل الحروب قائمة على الخداع"[70] فإن الرسول ﷺ نفسه صرح بالحرف الواحد بأن «الحرب خدعة».[71] ولخداع خصومه وأخذهم على حين غرة، كان الرسول ﷺ يأمر جيشه بأن يسلك طريقاً متعرجة إلى هدفه. فعلى سبيل المثال، في حملة «بني لحيان»، أعلمهم بأن وجهته «سوريا»، وأمر قواته بالفعل بالتحرك نحو «سوريا»، ولكن سرعانِ ما أمرهم بالرجوع جهة «مكة»، نحو هدفهم الحقيقي أرض «بني لحيان»، الذين أُخِذوا على حين غرة وفّروا إلى الجبال.[72]

مثال آخر على أساليب التمويه عند رسول الله ﷺ، أنه في ليلة ذهابه لفتح «مكة»، بعث بسرية من ثمانية رجال تحت قيادة «قتادة بين الربيع» الى «إضم»، على مقربة من «المدينة»، ليصرف الأنظار عن هدفه الاساسي وذلك عندما كان

الجيش المسلم، وقوامه عشرة آلاف رجل، يجري استعداداته النهائية للتوجه لفتح «مكة»، وقد اتخذ الرسول ﷺ كل احتياطاته حتى لا تصل أخبار الهجوم الوشيك إلى «قريش»، فيداهم «مكة» على حين غرة. واستعد القادة في ساعة الصفر ليصدر لهم أوامره، وطلب منهم توخي الحذر الشديد والالتزام بأقصى درجات السرية. ولضمان أن «قريشاً» لا تفطن إلى مخططاته ﷺ العسكرية، تم وضع حزام أمني حول «المدينة» وفُرض «تعتيم اعلامي» عليها. وقبل إصدار الأوامر بالتحرك بليلة لم يكن يُسمح لاحد بمغادرتها او دخولها. وقبل التحرك مباشرة، وعندما طلب من زوجته «عائشة» أن تعد له طعاماً للسفر، كان يحذر من أن يكشف وجهته حتى لها. ثم طلب منها ألا تفوّه لأحد بأمر السفر. ولم يكن أحد سوى «أبي بكر» رضي الله عنه، مستشار النبي ﷺ وخاصته وأبي زوجته، يعلم بخطط فتح «مكة»، حيث اضطُّر «أبو بكر» نفسه أن يستعلم عن الأمر من الرسول ﷺ قبل أن يأمر بالتحرك بيوم:

> "أبو بكر: يا رسول الله أردت سفراً؟ الرسول: نعم. أبو بكر: أفأتجهز؟ الرسول: نعم. أبو بكر: وأين ترىُ يا رسول الله؟ الرسول: «قريشاً»، وأخف ذلك يا أبا بكر. فظانّ يظن أن رسول الله ﷺ يريد الشام وظانّ يظن ثقيفاً، وظانّ يظن «هوازن»".[73]

وكان الالتزام بمبدأ «التكتم والسرية» يتخذ أشكالاً عدة. فقد استخدم المسلمون كلمات السر للتثبت من هوية من يخاطبهم أو لتأمين الخروج أو الدخول الآمن إلى أية منطقة محظورة. وإلى جانب كل ذلك كانت كلمات السر من أساليب التوثق والسرية لكل لواء من ألوية الجيش. ولضمان أعلى درجات الأمن، كانت هذه الكلمات المتفق عليها مسبقاً تُستبدّل باستمرار. وهي عبارة عن كلمات أو إشارات يتم الاستعانة بها وقت الحاجة الملحة إما لتوحيد الصفوف على كلمة سواء، أو لشحذ الهمم، أو لتأكيد الهوية.

ومـن بيـن كلمـات السـر التـي اسـتعملها «خالـد بـن الوليـد»، أبـرز أبطـال حروب الردة، كلمـة «أموت» وتعنـي «أقتل». [74] أما فـي «غزوة حنيـن» فكانت كلمة السـر التـي اسـتعملها جيش الرسـول ﷺ لإحيـاء الـروح فيه بعـد أن تولـى وكاد ينهـزم تماماً، هـي «أهل البقـرة» و «الخير كلـه». [75] وفي «بـدر» كانت كلمة السـر، والتـي تبـوأت الآن مكانـة بيـن المسـلمين عظيمة، هـي «أحـد، أحـد». [76] وكلمتان وردتنـا عبـر التاريـخ هـي كلمـة «عبـدالله» اسـتعملها لـواء الأنصـار وكلمـة «عبدالرحمـن» اسـتعملها لـواء المهاجرين. [77] مـن كلمات السـر المشـهورة أيضاً التي اسـتعملتها جيـوش المسـلمين كلمـة «الله أكبـر». فهـذه الكلمة التـي تردد مـن المنابـر كل يـوم عـدة مـرات لا يسـمعها مسـلم إلا عـرف أن صاحبهـا مسـلم. واسـتعملت بفاعليـة كبيـرة عندما أرسـل الخليفـة «عمر بـن الخطـاب» رضي الله عنه قوات إضافية لمسـاندة جيـش «أبو عبيـدة بن الجـراح» الذي كان يقـود حملة المسـلمين ضـد البيزنطييـن. ولم يتعـرف الجيشـان المسـلمان علـى بعضها إلا عندمـا سُـمعت صرخـة «الله أكبـر» عنـد الجانبين. [78]

وكان معظـم الخلفـاء الذيـن جـاءوا بعـد الرسـول ﷺ ينصحـون أصحابهـم بالسـرية ويشـيرون على القادة وأولـي الأمر فـي الولايـات كافة بضرورة التسـتر على نقـاط ضعفهـم والعمل علـى تحين الفـرص المناسـبة والالتزام التـام بالتكتم فـي معاملاتهـم واتصالاتهم حتـى تكون لهـم الأفضليـة العسـكرية، فعندما أرسـل «عمر بـن الخطـاب» «عبيـد بـن مسـعود الثقفـي» لقيـادة حملـة ضد الفـرس في العـراق، كانـت نصيحته له بـأن «احفظ لسـانك ولاتفش سـرك. فالذيـن يحفظون سـرهم محصنون ولا يؤخـذون علـى حين غـرة ولا يجـدون ما يسـوؤهم». [79]

كان «معاويـة بـن أبـي سـفيان» (661-680) يلجأ الـى التكتم كثيراً فـي إدارة شـؤون الدولـة. فمن مقولاته المشـهورة: «ما أفشـيت سـري إلـى أحـد إلا أعقبني طول النـدم، وشـدة الأسـف، ولا أودعته جوانـح صـدري فحكمته بيـن أضلاعي،

إلا أكسبني مجداً وذكراً، وسناء ورفعة».[80] مقولة أفضل منها في هذا الإطار هي نصيحته العامة بأن «ما كنت كاتمه من عدوك فلا تظهر عليه صديقك».[81]

ويقول الجاحظ في هذا الشأن :

«يقال لكاتم سره، من كتمانه إحدى فضيلتين: الظفر بحاجته والسلامة من شره، فمن أحسن فليحمد الله وله المنة عليه، ومن أساء فليستغفر الله. وقال بعضهم: كتمانك سرك يعقبك السلامة، وإفشاؤك سرك يعقبك الندامة، والصبر على كتمان السر أيسر من الندم على إفشائه. وقال بعضهم: ما أقبح بالإنسان أن يخاف على ما في يده من اللصوص فيخفيه، ويمكن عدوه من نفسه بإظهاره ما في قلبه من سر نفسه وسر أخيه، ومن عجز عن تقويم أمره فلا يلومن إلا نفسه إن لم يستقم له.

كما يضيف الجاحظ ما قالته العرب عن كتمان السر في ذكره هذه الأبيات:

صن السر بالكتمان يرضك غبه
فقد يظهر السر المضيع فتندم
ولا تفشين سراً إلى غير أهله
فيظهر خرق السر من حيث يكتم
وما زلت في الكتمان حتى كأنني
برجع جواب السائلي عنه أعجم
لنسلم من قول الوشاة وتسلمي
سلمت وهل حي على الدهر يسلم»[82]

7.5: الرشوة والخداع وأساليب التضليل

لسنا نجافي الحقيقة إن قلنا أن الرشاوى والعطايا والعمولات، كانت تستعمل منذ قدم الزمان للحصول على الخدمات الخاصة، وتسهيل المعاملات، سواء أكانت تلك المعاملات أو الخدمات مشروعة أم غير مشروعة. وفي الجزيرة العربية كما في غيرها من بقاع الأرض، كان سكان الصحارى والمدن على حد سواء يستخدمون هذه الأساليب الفعالة جداً لتحقيق أغراض معينة، وكوسائل للتأثير على صنع القرار أو على سلوك مسؤول أو شخص يشغل موقعاً مهماً. ويمكن القول بأن معظم العمليات السرية تدخل فيها الرشوة بشكل أو بآخر وذلك من خلال تزويد المصدر بالمال أو الهدايا العينية أو سد احتياجات محددة أو تنفيذ خدمات موعودة.[83]

فعندما أدركت «قريش» بأن المهاجرين من المسلمين من «مكة»، الذين وصلوا الحبشة، مُنِحوا ملاذاً آمنا هنالك حتى يمارسوا دينهم دون مضايقة أو تدخل من لدن أصحاب البلاد الكرماء،[84] خافوا مما قد يخبيء لهم المستقبل لو سُمِح لهم بالازدهار والنمو. من هنا قرروا التقدم إلى النجاشي، ملك الحبشة، حتى يقنعوه بإخراج المسلمين وتسليمهم إلى «مكة». وفي هذا السبيل أرسل القرشيون بعثة عالية المستوى تتألف من «عمرو بن العاص» و «عبدالله بن أبي ربيعة».[85] وقبل انطلاقهم إلى الحبشة، جمع القرشيون مجموعة جذابة من الهدايا للنجاشي ولكل مستشار من مستشاريه. وطلبوا من البعثة أن تقدم الهدايا لرجال البلاط الملكي قبل أن يصلوا إلى الملك نفسه. وفي اجتماعهم مع مستشاري الملك، شرح لهم الرجلان طبيعة مهمتهم وأكدا بأن الذين وصلوا حديثاً من «مكة» خانوا دين آبائهم ويدعون إلى دين غريب لايعرفه أحد، وأضافا أن هذا الدين يناقض ما عليه الحبشة من المسيحية. وادعى المبعوثان أنهما كلفا من لدن قادة القبائل التي ينتمي

إليها هؤلاء المارقون حتى يعيدوهم معهم. وطلب الرجلان أيضاً من حاشية الملك أن يعينوهما في هذه المهمة من خلال حث النجاشي على الموافقة على طلب «قريش». وعندما تقابل المبعوثان مع الملك نفسه، قدما له هدايا «مكة» وأخبراه بأن مجموعة من الجاهلين والغلمان المشاغبين جاءوا إلى بلادهم. وأكدا له بأنهما جاءا نيابة عن أكابر القوم في «مكة» وزعمائها بل نيابة أيضًا عن آباء الهاربين وأقاربهم وزعماء قبائلهم. وأخبراه أيضاً بأن الذين بعثوهم يعلمون جيداً خبث وخداع هؤلاء المارقين. واتفق رجال الملك جميعاً على أنه من الأفضل أن يعيدوا هؤلاء الهابطين على أرض الحبشة حديثًا، إلى أرض الجزيرة. ولكن الملك رفض طلبهم، قائلاً بأنه لن يرد أبداً من جاء يطلب حمايته. ولكنه أكد للمبعوثين بأنهم إن كانوا كما قالوا بالفعل، فإنه سيسلمهم لـ «قريش»، ولكن لو أثبت المهاجرون بأنهم ليسوا كما يدعي مبعوث «قريش»، فإنه سيرحب بإقامتهم على أرضه.

وبعد أن فشلا المبعوثان في تحقيق أهدافهما، رغم العطايا الغالية التي قدماها للملك ورجاله، لجأ المبعوثان إلى خطة غدر بديلة. فقبل الوصول إلى الحبشة كانا قد درسا شخصية الملك النجاشي وتعرفا على طباعه الشخصية، ونقاط ضعفه، فعلما أنه وقبل كل شيء آخر كان رجلاً صالحًا ملتزمًا بالديانة المسيحية. فلو أنهما استطاعا أن يقنعاه بأن هؤلاء المهاجرين يعتقدون في دينهم بما يخالف ويسيء إلى العقيدة المسيحية، فإنه بالتأكيد سيغضب منهم ويأمر بترحيلهم. من هنا قررا أن يطلبا مقابلة الملك للمرة الثانية، حيث أخبراه بأن المسلمين يقولون كلامًا يسيء لـ «عيسى بن مريم» عليه السلام، وللتأكد من ذلك فإنه بإمكانه أن يرسل في طلبهم، ويستفسر منهم بنفسه. وهنا استدعى الملك المسلمين إلى بلاطه وطلب منهم أن يشرحوا له تعاليم دينهم. وهنا قام «جعفر بن أبي طالب» وخاطب الملك هكذا:

«أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل

الميتـة، ونأتـى الفواحـش، ونقطـع الأرحـام، ونسـيء الجـوار، ويأكل القـوي منا الضعيف، فكنـا على ذلك حتى بعـث الله إلينا رسـولاً منـا، نعرف نسـبه وصدقـه وأمانتـه وعفافـه، فدعانـا إلى الله لنوحـده ونعبده».[86]

هنـا، وقـد أخـذت النجاشـي الرغبـة بالتعـرف علـى المزيـد عـن هـذا الديـن الجديـد، فطلب الملك مـن «جعفـر» أن يقرأ عليـه بعضًا مـن آيات القـرآن الكريم، فاسـتجاب له «جعفر بـن أبي طالـب» رضـي الله عنه علـى الفـور، وقرأ عليـه آيات مـن سـورة «الـروم والعنكبـوت والكهـف»، فطلـب منـه الملـك تـلاوة المزيـد مـن الآيـات، ثم سـأله عـن مـا يقولون فـي «عيسـى بـن مريـم»؟ فأجابـه «جعفـر» قائلاً: (نقـول فيه الـذي جاءنا بـه نبينا ﷺ، هـو عبـد الله ورسـوله وروحه وكلمتـه ألقاها إلى مريـم العـذراء البتـول). فـرد النجاشـي قائلاً:

إن هـذا والـذي جاء بـه عيسـى ليخرج مـن مشـكاة واحدة، انطلقـا، فـلا والله لا أسـلمهم إليكمـا، ولا يـكادون يخاطـب «عمرو بن العـاص» وصاحبـه....... ثم قال للمسـلمين: اذهبوا فأنتـم شُـيُومٌ بأرضي.[87]

ويشـار في هـذا الصـدد الـى ان «عمـرو بـن العـاص» الذي قـاد هـذه البعثة كان يشـتهر بفراسـته ودهائـه وحنكتـه، ليس كفـارس محـارب فقط بـل كمحاور سياسـي خبيـر أيضًـا. ولكـن رغـم هـذه السـمعة وهـذه الخبـرة فقـد بـاءت مهمته بالفشـل الذريـع. ولأنـه بطبيعتـه عصامـي، فقـد أعـد خطـة غـدر بديلـة لتضليل المسـلمين المهاجريـن إلـى الحبشـة بهـدف إعادتهم مـن تلقـاء أنفسـهم. فبمجرد رجوعـه إلـى «مكـة» قـام بحملـة تضليـل معلوماتيـة مدروسـة، سـرب مـن خلالهـا معلومـات مغلوطـة تسـتهدف المسـلمين المهاجريـن، وتتمحـور حـول أن جميـع أهل «مكـة» قـد اعتنقـوا الإسـلام، وباتـت الحيـاة مزدهـرة لمحمـد ﷺ وأصحابه. وعندما وصلت هذه الشـائعة، بفضـل مناورات قريـش، إلى أرض الحبشـة، تلقاها

المهاجرون بفرح كبير، وأقفلوا راجعين إلى «مكة» على الفور. وعند وصلولهم إلى ديارهم اكتشفوا حقيقة الوضع ولكن بعد فوات الأوان. فمن تمكن من الرجوع إلى أفريقيا نجا، ومن أخذ منهم على حين غرة، ناله ما ناله أذى، ودفع الثمن غالياً لوقوعه فريسة لخداع القرشيين.[88]

8.5: الاستخبارات العسكرية

يسعي القائد العسكري المحنك دائماً الى حجب معلومات قواته الحقيقية عن العدو مستخدماً الطرق والوسائل كافة لتحقيق ذلك. أي أنه يسعى في كثير من الأوقات إلى ممارسة أساليب التضليل والخداع، وبث المعلومات المغلوطة بهدف التشويش على الخصوم الذين يسعون في المقابل جاهدين للحصول على أية معلومات تتصل بتعداد القوات التي يحاربونها ونوعية تسليحها ومدى جاهزيتها وما إلى ذلك من تفاصيل مهمة. فمن الأهمية القصوى لأي قائد عسكري أن يتناسب تعداد قواته المشاركة في أي معركة مع تعداد قوات الخصم، ليصبح نجاح الغزوة أو المعركة متكافئة العدد، معتمداً على القدرات القتاليه للقوة ونوع تسليحها بالإضافة الى ما تمتلكه من معلومات نكتيكية وطوبوغرافية عن تضاريس أرض المعركة، وتوظيف ذلك لصالح قواته لتحقيق الانتصار. إن تسخير كافة الموارد والخبرات اللازمة لانجاح أي حملة عسكرية لايكفي إن لم يكن هناك معلومات استخبارية دقيقة يتحرك القائد بقواته على ضوئها ويرسم خططه وفقًا لها.

وتتحدث كتب السير والمغازي للعهد النبوي عن بعض تفاصيل تلك الغزوات والمعارك التي خاضها رسول الله ﷺ في جميع مراحل الدعوه. وفيها نجد أنه لأهمية الاستخبارات العسكرية فقد عمد رسول الله ﷺ إلى العمل على جمعَ المعلومات واستطلاع أرض المعركة ومراقبة العدو عند الانسحاب.

وبالرغم من تطور استخداماتها وبشكل مطرد خلال مراحل الدعوة المحمدية، إلا أنه قد أنتج ذلك الإيفاد المتكرر للطلائع والرايا والكشافة والأدلاء، إبقاء العدو القرشي وغيره تحت الملاحظة والرقابة المستمرة وتحقيق الحماية اللازمة للحدود المتاخمة للمدينة من أي اعتداء. إن التمرس في أنشطة المراقبة المكثفة ضد العدو لابد لها أن تتطور مع الزمن وتبتكر لها أساليب جديدة يتمكن الجيش الإسلامي من خلالها خداع العدو وتضليله. كما لابد أن تؤدي أساليب الخداع المطورة هذه إلى حرمان الخصوم من معرفة اهتمامات القادة وإلى إخفاء نواياهم، وعدم معرفة تعداد القوة العسكرية، ونوع تسليح القوة ومدى جاهزيتها.

لقد أظهرت الغزوات النبوية العبقرية لرسول الله ﷺ في تمكنه وتطبيقه وتطويره للعمل الاستخباري بنشاطاته المختلفة وذلك من خلال استخدامه الأمثل للمصادر البشرية والجواسيس والاستفادة من معلومات الأسرى والمساجين، وتطبيق مبادئ السريّة، والكتمان، والتورية في مقاصد الحملات العسكرية، إلى جانب تطبيقه لعنصر الأمن ومكافحة التجسس، وحرمان الخصم من أي امتيازات قد يحصل عليها للفوز في المعركة أو الغزوة. لقد نوقش ذلك في فصول الكتاب وباستفاضة. ولكن يجدر التنويه هنا الى ان الرسول الكريم ﷺ قد تعامل مع جواسيس العدو، الذين ينكشفون له كالمنافقين، فأبقاهم تحت الملاحظة المستمره كـ «عبد الله بن أبي» ومن معه، أما الجواسيس الذين يلقى القبض عليهم في الغزوات أو المعارك أو داخل «المدينة»، فيتم عادة استجوابهم وعرض الإسلام عليهم ونادراً ما يتم قتلهم. ولم يكن الإجراء الأخير مستغرباً في تلك الحقبة من الزمن، لا سيما بعد أن نزلت آيات الأمر بالقتال. فمن يعتنق الإسلام إما يلحق بجماعته أو يبقى في «المدينة» مع أصحاب رسول الله ﷺ، وقليل منهم من تم توجيهه وفقاً لأهمية موقعه بين قبيلته لخدمة الدين الحنيف أو يطلب منه الاضطلاع بموقف معين

يصب نتاجه في مصلحة الإسلام. لانبالغ هنا عندما نجد أن عبقرية رسول الله ﷺ قد وجهت بعضاً منهم بالبقاء في أماكنهم وإحاطة ذلك بستار من السرية والكتمان، فعمل بعضهم كعين لصالح المسلمين، ولنا في «العباس بن عبد المطلب» مثال يوضح هذ النوع من العيون.

إن العيون المتمرسة آنذاك تستطيع قبل أي معركة أو غزوة أن تستطلع القوات الغازية، وتقدر تعداد قواتها، وتعطي تقييماً أقرب للواقع وذلك من خلال استدلالات مستمدة من تطورات الموقف على الأرض التي تقوم برصدها، ومن تلك الموشرات عدد الركائب التي يمتطونها أو الماشية التي ينحرونها لوجبات أفراد قوتهم العسكرية، وقد رأينا ذلك التقييم من قبل المسلمين في أحداث معركة بدر ومعركة أحد. كما أن الوقوف على استعداد وجاهزية السرايا للغزوات أو للتصدي لأي اعتداء قد يكون وشيكاً أو قادماً للمدينة، يمكن ملاحظته في بعض ما دُوّنَ في كتب المغازي «كغزوة السويق» التي قام فيها «أبو سفيان» وهو على أطراف «المدينة» من قتل بعض المسلمين ثم ولى هارباً خوفاً من أن تدركه سرايا رسول الله ﷺ.

ولابد لنا هنا من الإشارة إلى أن العيون والجواسيس في عهد النبوة لم يكونوا يعملون لمراقبة أشخاص بعينهم على قدر ما كانوا موزعين بين القبائل المنتشرة في الجزيرة العربية لدرء المخاطر عن الدولة الفتية في «المدينة». وبصفة عامة يمكن أن نلحظ أن ممارسة الأنشطة الاستخبارية في العهد النبوي بكل مراحله قد تدرجت في التطور والاتقان. فانتقلت من ممارسات بسيطة تعتمد على الملاحظة لتحركات العدو وطرق سيره ونقل أخباره وصفياً مع إعطاء التوقعات المحتمله نحو ذلك إلى تكثيف لأعمال الكشافة، والربايا، والعيون، وتحليل المواقف السياسية والعسكرية واستغلالها لتنفيذ أنسب الحلول والإجراءات التي تصب في مصلحة الإسلام والمسلمين. إن دراسة

هـذه التكتيـكات الاسـتخبارية وأنشـطتها المبينـة فـي كتـب التاريـخ والمغـازي التي تعد مـن المصادر الغنيـة الوافية يمكـن أن تـزود القادة العسـكريين وصناع السياسـة على حـد سـواء بمعلومـات جمة وعلـى مـدى العصـور القادمة.

الفصل السادس

مصادر المعلومات البشرية

6.1: أهمية المصادر البشرية

منذ الأزل ومصادر المعلومات يشكلون العمود الفقري لأي عمل استخباري في السلم والحرب. وقد أدرك اهميتهم المفكرين والاستراتيجيين والقادة العسكريين والسياسيين، فأولوهم قدر من العناية والاهتمام واستعانوا بقدراتهم لتحقيق الإنجازات. يذكر المفكر الصيني «سون تزو» في كتابه «فن الحرب» الذي ظهر قبل 2000 سنة وهو أقدم كتاب عسكري ومرجعاً للاستراتيجيات والوسائل العسكرية - وقد أفرد أحد فصوله للحديث عن «توظيف الجواسيس» حيث يبدأه بجملة تقول « ما يجعل حكومة ذكية وجيش حكيم يتغلب على حكومة أخرى، ويحرز عليها انتصارات رائعة، إلا المعرفة المسبقة والتي يتم التحصل عليها من الناس ، الناس الذين لهم دراية بوضع العدو» ثم يستمر المفكر الصيني في مناقشة الأصناف الخمسة للجواسيس، والخمس وسائل المختلفة التي يستطيع القائد من خلالها معرفة قوة موقف ونويا العدو.[1]

والعرب، كبقية شعوب العالم، أدرك الأوائل منهم أهمية مصادر المعلومات البشرية فاعتنوا بهم ووظفوهم وصنفوهم واستخدموهم لتوفير "المعرفة المسبقة ، Foreknowledge"[2] وذلك لدرء المخاطر وديمومة البقاء.[3] ويمكن تصنيف مصادر المعلومات البشرية، السرية منها أو العلنية، سواء في العصر الذي سبق ظهور الإسلام أو في العهد النبوي، وفقًا لطبيعة عملها أو المكان الذي شغلته أو القبيلة التي تنتمي إليها أو نوع القيادة التي ترتبط بها. وإبان العهد النبوي في «المدينة» كان من بين هذه المصادر «العيون» التي لها ارتباط مباشر بالقيادة النبوية، تتلقى منها الأوامر والتوجيهات، وترفع له ما يتوفر لديها من تقارير واستنتاجات. وقد تم استعراض ذلك في

الفصول السابقة بشيء من التفصيل. وبدراسة خارطة توزيع تلك المصادر، نجد أنها لم تكن تقتصر على موقع جغرافي معين أو قبيلة بحد ذاتها، بل إنها كانت منتشرة لتغطي معظم شبه الجزيرة العربية وما حولها. ورغم ورود العديد من الأسماء التي تبين ارتباطها الوثيق بهذا العمل إلا أن الكثير منها ظل مجهول الاسم والانتماء، وبقي في كنف الكتمان الشديد، فلم يشر له من بعيد أو من قريب، ذلك أن الكتمان والسرية كانت ولا تزال الصبغة الدامغة للعمل السري. أما المصادر التي ورد ذكرها في الأدبيات العربية، فنجد أنها كانت موزعة في تشكيلتها والتي تشبه الخلايا الصغيرة العدد يربطها دافع العقيدة الدينية أو الأحلاف القبلية، أو على شكل عناصر منفردة أو مزروعة في مواقع مستهدفه.

على أن العناصر الرسمية العلنية لم تكن من ناحية الأهمية الأمنية تقل أهمية عن تلك العناصر السرية. فالسفراء والوفود والدعاة والتجار كانوا من أهم تلك المصادر البشرية التي توفر المعلومات الهامة والموثوق بها. والتراث العربي الإسلامي مليء بمثل هذه الممارسات والأنشطة الاستخبارية التي زودت مستخدميها بأهم المعلومات، ووفرت لهم أسس بناء القرار السليم. وقد نقلت لنا كتب التراث العربي روايات ومواقف مختلفة لتؤكد ممارساتهم لأنشطة كهذه، لا سيما ما دونته كتب التاريخ والسير، التي بينت أهمية الدور الذي اضطلعت به المصادر العلنية في القدرة على تجنيد الأتباع، ونقل الرسائل السرية، وتمرير المعلومات، واستخلاصها، واستغلال المنشقين لتحقيق الأهداف الاستخبارية المرسومة. وسنحاول فيما يلي التعرف على أبرز سمات التقسيمات الإدارية أو بواكير «الهيكل التنظيمي» العام للعمل الاستخباري الإسلامي في أوائل نشأته.

2.6: العناصر الرسمية في المدينة

يقصد بها هنا العناصر الرسمية التي كانت تعمل تحت إشراف وتوجيه مباشر من رسول الله ﷺ في «المدينة»، وتعد هذه العناصر العاملة العمود الفقري لأنشطة الاستخبارات، لكونها تتعامل على نحو مباشر مع المعلومات المستجمعة وتتلقى من القائد التوجيهات والتعليمات نحوها وتنفذها. وقد اهتم الرسول ﷺ بالأمن والاستخبارات وكان على علم بما يدور في «المدينة» وخارجها، وما السرايا التي كان يبعثها فتفاجئ من كانوا يعدون العدة لمهاجمة «المدينة» وتأخذهم على حين بغته قبل أن ينطلقوا إلا أكبر دليل على ذلك. فعظم قدراته الاستخبارية لا تقدر، وكثرة انتشار مصادره في أنحاء الجزيرة واليمن ومصر والحبشة وبلاد الشام جعلته على علم تام بما يحاك نحو الإسلام والمسلمين. وبسبب الضرورات الأمنية فقد أبقي رسول الله ﷺ دائرة ضيقة جداً من أصحابه على اطلاع عن كثب بالمستجدات الأمنية وتطوراتها. وكان يوكل لبعض عناصر تلك الدائرة الضيقة مهمة البحث والتحري والتحقق عند وروده معلومات من مصادره السرية أو عند ورودها من مخبر ما للتأكد من صحتها، كما كان يبعث بالعناصر للتتبع والمراقبة أو لرصد تحركات الخصوم أو معرفة نواياهم.

1.2.6: عناصر استخبارات المقر الرئيسي بالمدينة

كثيراً ما كان الرسول ﷺ يشرف بنفسه على تقديم الطلائع في الغزوات ويرسل فرق الكشافة لاستطلاع مواقع المعارك وتقييم الجيوش الغازية قبل ملاقاتها، وذلك لتحليل معلوماتها واتخاذ القرارات اللازمة وفقًا لها. وكان رسول الله ﷺ كما أسلفنا يحيط بعض كبار الصحابة بشيء مما يرده من معلومات إلا أنه لا يطلب الشور والرأي إلا في الأمور الحربية. ويمكن القول

أن الرسـول ﷺ كان أول مـن عمـل وطبـق القاعـدة الاسـتخبارية المعروفـة في عصرنـا هـذا «الحاجـة للمعرفـة، الحاجـة للوصـول». فقـد كان لا يطلـع أحداً على المعلومـات إلا من اقتضـت الحاجة الأمنيـة والضـرورة العملياتية لاطلاعه عليها. وكانـت الدائـرة المطلعة ضيقـة جداً.

ويسـتدل من دراسـة كتب المغازي والسـير أن «عمر بـن الخطاب» -رضي الله عنـه- كان الأقرب والأكثـر اطلاعاً علـى المعلومـات وإبداء الـرأي في كثير مما يعنـي العيون. فـكان -رضي الله عنـه- ملازماً رسـول الله ﷺ وملمـاً إلى حد كبير بأمـور الأمن والاسـتخبارات على نحو خـاص. ومما أنيط به الإشـراف على الحرس عنـد الاسـتعداد لأهم المعـارك وذلـك في «فتح مكـة» و«فتـح خيبر».[4] ولا بد مـن الإشـارة إلى أن مـا ورد مـن التفاصيـل في كتـب المغازي والسـير ليؤكد كثرة اطلاعـه ومتابعتـه لقضايا الأمـن. كما كان لـ «علي بن ابـي طالب» وكبار الصحابـة رضي الله عنهـم أدوار مهمـة في تنفيـذ العمليات الاسـتخبارية السـرية.[5] وكانت أسـماء المنافقيـن موكلة لـ «حذيفة بـن اليمان»[6] والذي يشـابه فـي مهامه أعمال مـا قد يطلـق عليه في عصرنـا هـذا (مكافحة الجاسوسـية). أما قراءة الرسـائل والمكاتبات السـرية والمراسـلات والترجمة فكان مسـندة لـ «أبي بن كعب» و«زيد بـن ثابت». فـالأول كان مختصـاً بالمكاتبـات العربيـة [7] والثاني بالأعجمية [8].

لم تشـر المصادر الأدبيـة التـي اطلعنا عليهـا إلى ارتبـاط أي مـن العيون بغيـر رسـول الله ﷺ إلا ما نـدر. ومـن ذلـك أن «عمر بـن الخطـاب» رضي الله عنـه كان له من يـزوده بالمعلومات الاسـتخبارية على نحو مباشـر كمـا تبين ذلك حين أبلـغ «ابن الخطـاب» -رضي الله عنـه- عن نقـض «بني قريظـة» للعهد و ما ورد على لسـانه نفسـه بأنه كان لـه صاحب مـن عوالي «المدينـة» يأتيـه بالخبر.[9] أمـا عناصـر العمليـات المرتبطيـن برسـول الله ﷺ مباشـرة، والذيـن كلفـوا

بعمليات سرية أو باستطلاع أو تأكيد معلومات أو تأثير على اتخاذ قرار أو رصد ومراقبة فكان منهم: «الزبير بن العوام» و«عاصم بن ثابت الأنصاري» و«جابر بن عبدالله» و «أبو عبيدة بن الجراح» و«سعد بن أبي وقاص» و «طلحة بن عبدالله» و «عمار بن ياسر» و «عبدالله بن أبي بكر» و«بسبس بن الزغباء» و «عدي بن الزغباء» و«سعيد بن زيد» و«بسر بن سفيان الخزاعي» و «عبدالله بن أبي حدر الأسلمي» و«طلحة بن عبدالله» و«خبيب بن هدي الأنصاري» و«جبلة بن عامر البلوي» و«غالب بن عبدالله الليثي» و «عمر بن أمية» و«حسيل بن نويرة الأشجعي» و«مؤنس بن فضالة» و«أنس بن فضالة» و«عبدالله بن جحش» و«عبدالله بن مسعود».

2.2.6: السفراء والدعاة وعمال الزكاة

كان السفراء والدعاة وعمال الصدقات منذ قدم الزمان من أهم المصادر البشرية التي تشكل المعلومات الهامة الموثوق بها. ويوفر الغطاء الرسمي الذي تعمل تحته هذه الفئة فرصاً مميزة للوصول إلى أدق المعلومات وأهمها دون إثارة الريبة والشك في البيئة التي يعملون فيها. وتتميز معلومات السفراء والدعاة عن الدول التي يبعثون إليها أو يعبرون من خلالها أثناء مزاولتهم لمهامهم بقربها من الواقع. وبالرغم من القيود التي عادة ما تفرض عليهم وتحد من حركتهم، إلا أنهم غالبًا ما يتمكنون من تحاشيها والإفلات منها، ليحصلوا على معلومات تعنى بالجوانب العامة للدولة كالأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية والأمنية والعسكرية. ومن الطبيعي أن وجودهم في تلك الدول يوفر لهم فرصاً واسعة للاختلاط بالعامة والوصول أحياناً لمن لهم دراية مباشرة بما يحدث خلف الكواليس وفي دهاليز السياسة وذلك ممن هم على اطلاع تام من علية القوم وأصحاب القرار. أن فرصًا كهذه تتيح لهم الوقوف على كم لا يستهان به من المعلومات العميقة التي تعينهم على فهم الواقع الحقيقي الذي يعيشه ذلك المجتمع ونقاط ضعفه وقوته.

وليس الدعاة وعمال الزكاة أقل شأناً في تلك المهام من زملائهم السفراء بل إن إيجابية غطاء الدعاة وعمال الزكاة أكثر فعالية، ذلك أن هؤلاء يستطيعون التنقل بين مكونات المجتمع وشرائحه المختلفة، والتعرف على المؤثرين فيه، وأصحاب النفوذ، والقادرين على الوصول لمتخذي القرار وبناء الروابط وعقد الصلات معهم، التي عادة ما تكون نتائجها إيجابية خاصة عند الحاجة لها. ومن مهامهم أيضًا رصد ما قد يكون مخالف للعقيدة بين القبائل التي يمرون بها، ومن أمثال ذلك ما قام به عامل الزكاة على قبائل «بني مالك» «سنان بن أبي سنان» عندما كتب لرسول الله ﷺ عن ادعاء «طليحة الأسدي» النبوة.[10] لقد تميز العهد النبوي في «المدينة» بكثرة بعث عمال الصدقات والدعاة والسفراء إلى أنحاء شتئ لأغراض عده منها جلب الزكاة أو تفقيه الناس في الدين وإرسال كتب التبليغ والدعوة إلى الدين الإسلامي.[11]

كان أول سفير في الإسلام بعثه رسول الله ﷺ إلى يثرب هو «مصعب ابن عمير» [12] رضي الله عنه وكان ذلك بعد أن تمت بيعة العقبة الأولى وانتهاء موسم الحج. وكانت مهمته تتمحور حول تثقيف المسلمين بأمور الدين، والقيام بنشر الإسلام بين أهل يثرب.[13] يصف «المباركفوري» في كتابه «الرحيق المختوم» كيف استطاع ذلك السفير المحنك أن يكسب إسلام «سعد بن معاذ» سيد الأوس وكافة قبيلته، فيقول:

> "من أروع ما يروى من نجاحه في الدعوة أن «أسعد بن زرارة» خرج به يوماً يريد دار بني عبد الأشهل ودار بني ظَفَر، فدخلا في حائط من حوائط بني ظفر، وجلسا على بئر يقال لها «بئر مَرَق»، واجتمع إليهما رجال من المسلمين و«سعد بن معاذ» و«أُسَيْد بن حُضَيْر» سيدا قومهما من «بني عبد الأشهل» يومئذ على الشرك فلما سمعا بذلك

قـال «سـعد» لـ «أسـيد»: اذهـب إلـى هذيـن اللذيـن قـد أتيا ليسـفها ضعفاءنـا فازجرهما، وانههما عـن أن يأتيـا دارينا،.... فأخـذ «أسـيد» حربتـه وأقبـل إليهمـا، فلمـا رآه «أسـعد» قال لـ«مصعـب»: هذا سـيد قومه قـد جاءك فاصـدق الله فيـه، قال «مصعـب»: إن يجلـس أكلمـه. وجـاء «أسـيد» فوقـف عليهما متشـتماً، وقـال: مـا جـاء بكمـا إلينـا؟ تسـفهان ضعفاءنـا؟ اعتزلانـا إن كانت لكما بأنفسـكما حاجـة، فقال لـه «مصعب»: أو تجلس فتسـمع، فـإن رضيـت أمـرا قبلتـه، وإن كرهته كف عنـك مـا تكـره، فقـال: أنصفـت، ثـم ركـز حربتـه وجلـس، فكلمـه «مصعـب» بالإسـلام، وتـلا عليه القـرآن. قـال: فو الله لعرفنا فـي وجهه الإسـلام قبـل أن يتكلم، فـي إشـراقه وتهلله، ثم قال: مـا أحسـن هـذا وأجملـه؟ كيـف تصنعـون إذا أردتم أن تدخلـوا في هـذا الديـن؟ قالا لـه: تغتسـل، وتطهـر ثوبك، ثم تشـهد شـهادة الحـق، ثم تصلـي ركعتيـن. فقام واغتسـل، وطهر ثوبه وتشـهد وصلـى ركعتين، ثـم قـال: إن ورائى رجلاً إن تبعكمـا لم يتخلـف عنـه أحد مـن قومـه، وسأرشـده إليكما الآن «سـعد بن معـاذ» ثم أخـذ حربتـه وانصرف إلى «سـعد» فـي قومه، وهم جلـوس فـي ناديهم. فقـال «سـعد»: أحلف بالله لقـد جاءكم بغيـر الوجه الـذي ذهب به مـن عندكـم. فلما وقف «أسـيد» على النادى قال له «سـعد»: مـا فعلت؟ فقـال: كلمت الرجليـن، فـوالله مـا رأيـت بهمـا بأسـاً، وقـد نهيتهمـا فقالا: نفعل مـا أحببت.... فقـام «سـعد» مغضبًا للذى ذكـر له، فأخذ حربتـه، وخرج إليهمـا، فلمـا رآهمـا مطمئنين عرف أن أسـيدًا إنمـا أراد منه أن يسـمع منهما، فوقـف عليهما متشـتمًا، ثم قال لـ «أسـعد بن زرارة»: والله يا «أبـا أمامة»، لولا مـا بينى وبينك

من القرابة ما رُمْتَ هذا مني، تغشانا في دارنا بما نكره؟ .... فقال «مصعب» لـ «سعد بن معاذ»: أو تقعد فتسمع؟ فإن رضيت أمرًا قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره، قال: قد أنصفت، ثم ركز حربته فجلس. فعرض عليه الإسلام، وقرأ عليه القرآن، قال: فعرفنا والله في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم، في إشراقه وتهلّله، ثم قال: كيف تصنعون إذا أسلمتم؟ قالا: تغتسل، وتطهر ثوبك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلى ركعتين. ففعل ذلك. ثم أخذ حربته فأقبل إلى نادى قومه، فلما رأوه قالوا: نحلف بالله لقد رجع بغير الوجه الذي ذهب به. فلما وقف عليهم قال: يا «بني عبد الأشهل»، كيف تعلمون أمرى فيكم؟ قالوا: سيدنا وأفضلنا رأياً، وأيمننا نقيبة، قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم علىّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله. فما أمسى فيهم رجل ولا امرأة إلا مسلمًا ومسلمة...وأقام «مصعب» في بيت «أسعد بن زرارة» يدعو الناس إلى الإسلام، حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون."[14]

ولما كانت المهمة الربانية التي أنزلها الله على رسوله ﷺ تقتضي القضاء على الشرك ونشر الاسلام في العالم بأسره فقد توسع ﷺ في ابتعاث السفراء ليبشروا بالإسلام دون أن يخص قبائل أو أقوامًا عن سواهم في الجزيرة العربية وخارجها. ومن أصحاب رسول الله ﷺ الذين ابتعثهم «خالد بن الوليد» رضي الله عنه الذي أرسله إلى أهل همدان ليدعوهم إلى الإسلام فمكث فيهم ستة أشهر فلم يجيبوه. فأعقبه بعد ذلك بـ «علي بن أبي طالب» رضي الله عنه فدعاهم للإسلام فاسلموا جميعاً.[15] وقد أسلم كثير من القبائل على أيدي سفراء بعثهم رسول الله ﷺ لهذا الغرض.

ولـم يكـن الـدور الـذي يضطلـع بـه السـفير آنـذاك يقتصـر علـى العمل السياسـي أو العسـكري أو أنه كان بمثابة جسـر أو همـزة وصل بيـن القادة من خـلال حمـل الرسـائل ونقـل الهدايـا أو التحذيـرات والإبلاغ عـن نوايـا زعماء الـدول التـي يُعتمَدون فيهـا ، بـل كان سـفراء الدولة الاسـلامية ينهضـون بمهام وواجبـات أخـرى كثيـرة. فالدعـوة إلى اعتنـاق ديـن الإسـلام وتمرير الرسـائل الشـفوية التطمينية ورسـائل أخـرى سـرية لفئة معينة مـن الأتبـاع والأعوان هي بعـض مـا كان يلقى علـى عاتقهـم. فقـد كان «عثمـان بن عفـان» رضـي الله عنه من أوائل الرسـل الذين بعثهم رسـول الله ﷺ إلـى قريش ، وكان ذلـك في صلح الحديبيـة حيـن بعثه وقـال لـه «أخبرهـم أنا لم نـأت لقتـال، وإنمـا جئنـا عماراً، وادعهـم إلى الإسـلام، وأمـره أن يأتي رجالاً بـ «مكـة» مؤمنين، ونسـاء مؤمنات، فيبشـرهم بالفتـح، ويخبرهـم أن الله عـز وجـل مظهـر دينـه بـ «مكـة»، حتى لا يسـتخفي فيهـا أحـد بالإيمـان».[16] وفـي الجانـب الآخـر، كان سـفراء النبي ﷺ يأتـون لـه بالأخبـار فيبلغونه كيـف عوملوا مـن قبل مـن وفـدوا اليـه، فالاحتفاء بالسـفير والاهتمام به دليـل على ما يتمتـع به قائد دولتـه من حظوة لـدى الجهة المسـتضيفة ورغبتهـا في تطويـر العلاقـات بينهما. ففـي كتاب لرسـول الله ﷺ بعثه إلـى حاكم البحريـن «المنذر بن سـاوي»، أوضح فيـه له ثناء رسـل نبي الله عليه قائـلاً « وإن رسـلي قد أثنـوا عليك خيـراً».[17]

وكان للـدول والامبراطوريـات الأجنبيـة نصيـب من بعـث السـفراء الذين أوفدهم النبي ﷺ لدعـوة زعماء تلك الـدول والامبراطوريات إلى الاسـلام. فبعث «دحية بن خليفـة الكلبي»، إلى «قيصـر» ملك الـروم. وبعث «عبـدالله بن حذافة السـهمي» إلى «كسـرى» ملـك الفـرس. وبعث «عمـرو بـن أمية الضمـري» إلى «النجاشـي» ملك الحبشـة، وبعث «حاطـب بن أبي بلتعـة» إلـى «المقوقس» ملك الإسـكندرية.[18] وبعـث «عمرو بـن العاص السـهمي»، إلـى «جيفر» و«عيـاد ابني الجلنـدي الأزدييـن» ملكي عمـان، وبعث «سـليط بـن عمـرو أحد بنـي عامر بن

لؤي» إلى «ثمامة بن أثال»، و«هوذة بن علي الحنفيين»، ملكي اليمامة. وبعث «العلاء بن الحضرمي» إلى «المنذر بن ساوى العبدي» ملك البحرين، وبعث «شجاع بن وهب الأسدي» إلى «الحارث بن أبي شمر الغساني» ملك دولة الغساسنة في تخوم الشام، كما بعث «شجاع بن وهب» إلى «جبلة بن الأيهم الغساني»، وبعث «المهاجر ابن أبي أمية المخزومي» إلى «الحارث بن عبد كلال الحميري» ملك اليمن.»[19]

6.3: شبكة المعلومات السرية

كان العيون وما زالوا - بصرف النظر عن مسمياتهم الحديثة- من أهم الموارد المعلوماتية البشرية السرية "Humint" التي يجب البحث عنها بدقة واستهدافها وتجنيدها، إن أراد الحاكم أو القائد تحقيق الاستقرار أو الظفر بأعدائه وتحقيق الانتصارات عليهم. ولم يغفل العرب دور العيون وأهميتهم منذ القدم، -وكما أوردنا فيما تقدم- فإن العيون كانت تؤدي دوراً عظيم الأهمية في توفير المعلومات السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية والأمنية، مما مكن زعماء القبائل آنذاك من معرفة ما قد يحدث لقبائلهم وحساب النتائج مسبقًا واتخاذ القرارات المدروسة المناسبة لتحقيق الانتصارات على الخصوم فضلاً عن الاستفادة منها في النواحي الاقتصادية. أن توفر المعلومات الدقيقة في الظروف الصعبة لاسيما في أيام الحروب والغزوات، ترجح كفة المتحصل عليها عند قيامه باستغلالها وتوظيفها لصالحه وذلك من خلال اتخاذ القرارات المبنية على الحقائق وليس على أسس الظن والتخمين. فتحقيق النجاح المنشود من قبل أي قائد، يتطلب منه الاطلاع والاستنارة نحو ما يتخذه من قرارات بما يتوفر من معلومات ذات مصداقية ترده من مصادره البشرية المنتقاة بعناية. وكما أشرنا سابقاً فإن تلك المصادر الموثوقة زودت المسلمين الأوائل، إبان المرحلة السرية من الدعوة الإسلامية في «مكة» والتي اتصفت بالكتمان والسرية، بمعلومات

دقيقة، لاسيما في إطار الكشف عن مؤامرات ومكائد قريش لرسول الله ﷺ وأصحابه.[20] لقد ساعد اعتناق العديد من قاطني «مكة» للدين الإسلامي في استمرار تدفق المعلومات الجارية عن كل ما يحدث في «مكة». ولقد شكل هؤلاء الرواد المسلمون وغيرهم من المصادر البشرية المختلفة رافداً معلوماتياً مهماً لدولة «المدينة»، مكنها من البقاء باستمرار على معرفة دائمة بتحركات الأعداء والخصوم والعلم بنواياهم مسبقاً، مما ساعد في إجهاض مخططاتهم والقضاء عليها بأقل الخسائر الممكنة.

1.3.6: المصادر السرية في مكة

كان عماد المصادر السرية لجهاز استخبارات «المدينة» أولئك العناصر الذين أسلموا ولم يستطيعوا الهجرة من «مكة» أو الذين أسلموا وأخفوا إسلامهم، أو فضّل رسول الله ﷺ بقاءهم في «مكة». وكان على رأس هذه المجموعة عم رسول الله ﷺ «العباس بن عبد المطلب» الذي لم يقتصر عمله على إفادة رسول الله ﷺ بالمعلومات الهامة والآنية فقط،[21] بل كان عضواً مؤثراً في دار الندوة، المقر الرئيسي لاجتماعات كبار زعماء قريش، وكان بمثابة ما يمكن أن يطلق عليه في عصرنا هذا «وكيل تأثير». ليس لكونه فقط من «بني هاشم» ذي المكانة الاجتماعية المتميزة، بل لكونه يمثل ثقلاً اقتصادياً في «قريش». كما هيأت له طبيعته المسالمة قبولاً لمشاركته زعماء «قريش» في الاجتماعات والتخطيط وإبداء المشورة بدار الندوة.

ويظهر أن هذه المواصفات قد أهلت عم الرسول ﷺ أيضاً ليؤثر في القرارات الصادرة عن دار الندوة ضد «دولة المدينة». فقد كان «العباس» ذا حصافة فائقة وشخصية اجتماعية مرموقة مكنته من إخفاء علاقته بالنبي ﷺ ومن صرف الانتباه إلى ميوله تجاه عترته. وكان قد أسلم وأخفى إسلامه وقد أبلغ رسول الله ﷺ عن اعتزامه الهجرة إلا أنه رد عليه: «إن مقامك مجاهد

حسـن»[22]. وقد تبيـن أهميـة دور «العباس بن عبـد المطلب» ليـس فقط كوكيل تأثير على قرارات «قريـش» في دار النـدوة وغيرها، بل أيضًا كمصـدر معلومات نافذ لرسـول الله ﷺ عندمـا قام في أحلـك الظروف بـدور «الإنـذار المبكر» عن تحرك «قريـش» لغزو المدينة ممـا نتج عنه حقن دمـاء المسـلمين، وإلحاق الذل والهزيمة بـ«قريـش». وتمثل ذلك في بعثه «حامل رسـائل» بمعلومات لرسـول الله ﷺ في «المدينـة» كانت عاجلة جداً مع شـخص غفاري اشـترط عليـه أن يوصلها في غضون ثلاثة أيـام، وكان مفادها اعتزام قريـش غزو «المدينـة»،[23] التي تعرف في «كتـب المغازي» والسـير بـ «غـزوة الخندق».

ولم يكن «أبـو الفضل» كمـا كان يلقبـه رسـول الله ﷺ الوحيد الذي أسـلم سـرًا، فقد أسـلم أيضًا «نعيم بن مسعود الأشـجعي»[24] وكتم إسـلامه، واستطاع بذلـك أن يلعـب هـو أيضًـا دورًا مؤثرًا فـي «غـزوة الخنـدق» عندمـا أدار مكيدة محكمـة تمكـن مـن خلالهـا مـن إحـداث الوقيعـة بيـن يهـود «بنـي النضيـر» و«قريـش» و«غطفـان» مما جعلـه «عميل تأثيـر» بامتيـاز. فقد اسـتطاع أن يؤثر فـي قـرارات الأعـداء، وأسـهم ببراعـة بالتلاعـب بهـم وتغليـب كفة المسـلمين عليهم. كمـا ناقشـنا في حالـة أخرى اسـتخدام «سـليط بـن النعمان الأسـلمي» لمهاراتـه فـي الاسـتدراج مقتنصًـا معلومات تهـم «اسـتخبارات المدينـة» وذلك عند منادمتـه لبعض مـن رجـال «غطفـان» و«يهـود المدينـة» حلفـاء قريش[25].

ولـم يقتصر هذا الـدور الاسـتخباري علـى الرجال فقـط فكان من النسـاء ممن أسـهمن في توفير المعلومات الاسـتخبارية كـ «أم شـريك» الدوسـية [26] و«أم كلثـوم بنت عتبـه بن أبـي معيـط»[27]. لقـد تمكنت هـذه الفئة مـن المصـادر، من التحـرك في أنحـاء «مكة» بحريـة وأمان، وذلـك لعدم معرفـة «قريـش» باعتناقهم لدين الإسـلام، مما سـاهم في تمريـر المعلومات المهمـة لـ«اسـتخبارات المدينة» في الوقت المناسـب.

وتضم هذه الفئة من المصادر أولئك المستضعفين الذين بقوا في «مكة» بعد هجرة رسول الله ﷺ إلى «المدينة» وهم الذين شاع إسلامهم لكنهم لم يجدوا طريقا للهجره واللحاق برسول الله ﷺ وصحبه حيث قال تعالى عنهم: ﴿إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾﴾[28] وكانت قريش تكيل لهم أصناف العذاب والتنكيل، لا لشيء إلا لأنهم نبذوا دينهم الوثني ولحقوا بركب المسلمين. ومن هؤلاء «عبدالله بن أبي بكر الصديق» و«عامر بن أبي فهيرة» و«صهيب الرومي» و«سهل بن بيضاء» و«سلمة بن هشام» و«خباب بن الأرث» و«الوليد بن الوليد المخزومي» و«عمار بن ياسر» و«عياش بن أبي ربيعة المخزومي» و«أبو جندل بن سهيل السهمي»[29] و«عبدالله بن نعيم النحام العدوي». ومما زاد الأمر سوءاً على بعض من هؤلاء، أنهم لا يملكون حريتهم وبقوا رهن العبودية المفروضة عليهم من قريش. وبالرغم من ذلك استطاعوا أن يتواصلوا خفية مع «المدينة». وقد مكنتهم ظروف البقاء في «مكة»، من معرفة كثير من المعلومات عن مخططات قريش، كأوقات تحركات قوافل الشتاء والصيف والتي كانت على جانب كبير من الأهمية لـ«استخبارات المدينة».

ويشير «ابن سعد» في كتابه «الطبقات الكبرى» أن «غزوة ذي العشيرة» التي خرج فيها رسول الله ﷺ مع مائة وخمسين رجلاً من أصحابه "ليعترض عيراً لقريش ذاهبة إلى الشام، وكان قد جاءه الخبر بفصولها من «مكة»"[30]. لقد كان لمعلومات مصادر «مكة» بالغ الأثر في فرض الحصار الاقتصادي على «مكة» الذي أنهك قريش وركّع قادتها فيما بعد. فقد تمكنت تلك المصادر من رصد زيارات سادة اليهود الذين يقدمون إلى «مكة» ليؤلبوا زعماء «قريش» ويحرضونهم على غزو رسول الله ﷺ في «المدينة». ولم يقتصر دعم هذا النفر المؤمن للمسلمين على توفير المعلومات السرية فحسب، بل قدموا الدعم اللوجستي لبعض العمليات السرية التي نفذها

عناصـر المسـلمون فـي «مكـة» [31]. لقـد سـاهمت طبيعـة أعمـال العبوديـة التي امتهنهـا البعـض منهـم في منـازل كبـار قـادة «قريـش» مـن الوصول إلـى أدق المعلومـات عمـا يحاك ضـد المسـلمين فـي «المدينة». وهـذا ما يفسـر بوضوح بقـاء «اسـتخبارات المدينة» علـى علم بتحـركات قوافـل «قريش»، وكل شـاردة وواردة تحدث فـي ربـوع «مكة».[32]

2.3.6: مصادر من القبائل المجاورة لمكة والمدينة

قـام رسـول الله ﷺ بإبـرام «موادعـة» بينـه وبيـن القبائـل التـي تقـع علـى الطـرق المؤدية مـن «مكة» إلـى «المدينـة»، ومنهـا خزاعـه وجهينة وأسـلم. من هـذه الأحلاف ما بقي سـراً ومنـه ما تـم توثيقه وبـان للعلـن. وقد شـكلت العيون السـرية التابعة لرسـول الله ﷺ بين هذه القبائل رافداً معلوماتيـاً مهماً. ومن هذه القبائل:

1.2.3.6: قبيلة خزاعة

قبيلـة خزاعـة هي إحـدى القبائـل العربيـة المنتشـرة علـى الـدرب المؤدي لـ«يثـرب» [33] وكان لهـا حلـف قديم مـع «بنـي هاشـم» [34] بقي واسـتمر مـع ظهور دعـوة رسـول الله ﷺ فشـكل رافـداً اسـتخبارياً مهمـاً. وكان الحلـف المبرم مع «عبـد المطلب بن هاشـم» ينص علـى نصـرة «عبدالمطلـب» وأبنائه، وقـد أورد نصه «البـلاذري» فـي كتابه «أنسـاب الأشـراف»:

> "باسـمك اللهـم، هـذا مـا تحالـف عليـه «عبـد المطلـب بن هاشـم»، ورجـالات «عمرو بـن ربيعة» مـن «خزاعـة» ومن معهم من «أسـلم» و«مالـك ابنـي أفصى بـن حارثـة»، تحالفوا على التناصر والمؤاسـاة مـا بلَّ بحـر صوفة، حلفـاً جامعاً غير مفـرق، الأشـياخ علـى الأشـياخ، والأصاغـر علـى الأصاغـر، والشـاهد على الغائـب. وتعاهدوا وتعاقـدوا أوكد عهـد وأوثق عقد، لا يُنقض ولا يُنكث، ما أشـرقت شـمس علـى ثبير، وحن



أهم القبائل العربية عند ظهور الإسلام

بفلاة بعير، وما قام الأخشبان، وعمّر بـ «مكة» إنسان، حلف أبد لطول أمد، يزيده طلوع الشمس شداً، وظلام الليل سداً. وإن «عبد المطلب» وولده ومن معهم دون سائر «بني النضر بن كنانة»، ورجال خزاعة، متكافئون متضافرون متعاونون. فعلى «عبد المطلب» النصرة لهم ممن تابعه على كل طالب وتر، في بر أو بحر أو سهل أو وعر. وعلى خزاعة النصرة لـ «عبد المطلب» وولده ومن معهم على جميع العرب، في شرق أو غرب، أو حزن أو سهب. وجعلوا الله على ذلك كفيلاً، وكفى به حميلاً. هذا حلف «عبد المطلب بن هاشم» لـ «خزاعة»، إذ قدم عليه سراتهم وأهل الرأي، غائبهم مقر بما قضى عليهم شاهدهم، أن بيننا وبينك عهود الله وعقوده ما لا ينسى أبداً ولا يأتي بلداً، اليد واحدة، والنصر واحد ما أشرف ثبير وثبت حراء وما بل بحر صوفه، لا يزداد فيما بيننا وبينكم إلا تجدداً أبداً أبد الدهر سرمد."[35]

ومما يظهر أهمية وقيمة المعلومات التي وردت من مصادر تنتسب لقبيلة «خزاعة»، فأحد زعمائها «عمرو بن سالم الخزاعي» قدم معلومات هامه لرسول الله ﷺ عن توجه جيش قريش لغزو «المدينة».[36] كما قام آخر من الخزاعيين وهو «معبد الخزاعي» بدور مهم في حمراء الأسد استطاع ان يجعل «أبا سفيان» يتخذ قراراً بالعودة إلى «مكة».[37] كما قام بنفس الدور من خلال التخذيل والفتّ في عضد «أبي سفيان» لمنع حدوث معركة «بدر الموعد»،[38] المعركة التي هدد «أبو سفيان» بشنها انتقاماً لمن قتل في معركة «بدر الكبرى». "ودعا رسول الله ﷺ «بسر بن سفيان» من «ذي الحُليفة» فأرسله عيناً له، إن «قريشًا» قد بلغها أني أريد العمرة فخبر لي خبرهم ثم القني بما يكون منهم"[39] كما كان دليله إلى «تبوك» «علقمة بن الفغواء الخزاعي».[40]

2.2.3.6: قبيلة جهينة

كانت «قبيلة جهينة» تقطن مناطق شاسعة على امتداد الطريق البري الممتد من «المدينة» إلى «مكة» بما في ذلك المناطق الساحلية، وقد مكنتها هذه الميزة المهمة من النهوض بدور استراتيجي مهم فيما يتصل بأعمال الرصد الاستخباري والتعاون السري ضد القرشيين. وتشير كتب التاريخ إلى أن أول تعاون لها مع استخبارات «المدينة» كان في أحداث سرية «حمزة بن عبد المطلب» حين كانت تستعد لمهاجمة مجموعة الحماية الخاصة بقافلة «قريش» التجارية على طريق الساحل إلى «مكة». فقد تدخل سيد قبيلة جهينة «مجدي بن عمرو» بروية وحكمة وحال دون وقوع منازلة بين أفراد السرية ورجال الحماية. وقد كان لهذا الموقف الأثر الكبير لدى رسول الله ﷺ الذي أثنى على القبيلة وعلى زعيمها «مجدي بن عمرو» عند قدوم وفد منها إلى «المدينة».[41]

وضمن أحداث معركة بدر الكبرى كان لخمسة من قبائل جهينة دور في القيام بالتحري ورصد المعلومات عن قافلة «أبو سفيان» التجارية العائدة من الشام وأولئك الرجال هم: «كشد الجهني» و«بسبس بن عمرو الجهني» و«عدي بن أبي الزغباء الجهني» و«ابن الأريقط الجهني».[42] ومن المهم الإشارة إلى أن «مجدي الجهني» الذي كان قد منع الاقتتال مع سرية حمزة أدلى لـ «أبي سفيان» بمعلومات عن مكان مناخ بعيري عيني رسول الله ﷺ، مما أدى إلى تبديل طريق قافلة قريش التجارية ونجاتها. ويمكن وصفه في هذه الحالة بأنه كان «عميلاً مزدوجاً» يعمل لصالح المسلمين وعدوهم «أبي سفيان»، أو لربما رضخ في هذه الحالة لتهديد «أبي سفيان» إذا كان خاطبه قائلاً «لئن كتمتنا عدونا لا يصالحك رجل من قريش ما بل بحر صوفه»[43] ففضل الإدلاء بما لديه.

3.2.3.6: قبيلة ضمرة

تقع مضارب قبيلة ضمرة على الطريق الجنوبي بين «مكة» و«المدينة» وهي أقرب إلى «المدينة» من «مكة» وقد توصل النبي ﷺ إلى اتفاق مع زعيم هذه القبيلة «مخشي بن عمرو».[44] وقد تم توثيق هذا الاتفاق كتابياً وورد في النص:

> (هذا كتاب من محمد رسول الله لبني ضمره، فإنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم، وإن لهم النصر على من رامهم إلا أن يحاربوا دين الله ما بل بحر صوفة وأن النبي إذا دعاهم لنصره أجابوه).[45]

وبهذا الاتفاق المفتوح الواسع فقد ضمن النبي ﷺ نصرة هذه القبيلة حين يتعرض المسلمون إلى أي خطر وبأي شكل من الأشكال، وضمن الإتفاق أيضاً، ولو أن ذلك لم يرد في النص حرفياً، الإبلاغ عن أي عمل تجسسي ضد المسلمين أيضاً. ويتجلى التزام «بني ضمرة» بذلك عندما أبلغ «سفيان الضمري» رسول الله ﷺ عن موقع قريش قبيل غزوة بدر.[46] وإلى جانب «أبي سفيان الضمري» فقد شارك «عمرو بن أمية الضمري» في العديد من العمليات السرية الاستخبارية ثم أوكلت إليه فيما بعد مهمة المبعوث الخاص لرسول الله ﷺ إلى النجاشي في الحبشة.[47]

4.2.3.6: قبيلة أسلم

تقع مضارب قبيلة أسلم على الطريق التجاري بين «مكة» و«المدينة» وقد بادرت منذ أوائل الهجرة بالتعاون المعلوماتي مع رسول الله ﷺ. ولدى مرور النبي محمد ﷺ على القبيلة حين هاجر للمدينة ولما دعاهم النبي ﷺ للإسلام استجاب له عدد منهم فيما أتمت بقية القبيلة إسلامها في السنة الثانية

للهجرة.[48] ومن أشـهر مـن ورد ذكره مـن هذه القبيلـة هو «أبو تميم الأسـلمي»، عندما بعـث غلامه «مسـعود بن هنيـدة» إلـى رسـول الله ﷺ عشـية معركة أحد ليخبره عن قدوم جيش قريش لغزو المسـلمين بـ «المدينة» مبينـاً العتاد والعدة والخيـل والسـلاح.[49] كما شـارك عـدد مـن بني أسـلم فـي العمل الاسـتخباري وأدوا دوراً هامـاً فـي حمراء الأسـد حيـث تتبعوا الجيـش القرشـي المنصرف إلى «مكة» وواصلـوا مراقبته للتأكد مـن وجهته والتثبت من أن ذلك الانسـحاب كان حقيقيـاً ولـم يكن مـن بـاب الالتفـاف أو الخديعة. وقد شـارك آخـرون منهم في جلـب المعلومات لرسـول الله ﷺ مثـل «ناحية الأسـلمي» في صلـح الحديبية و«بريدة بـن الحصيب» فـي غزوة بنـي المصطلـق [50]، و«أبـي حَدْرَد الأسـلمي» في غـزوة حنيـن [51] وسـرية الغابـة [52]. كمـا كان «سـلمة ابـن الأكوع» فـي عملية سـرية ضمن سـرية «أبي بكر الصديق» إلى وادي القرى وأسـهم أيضـاً في غزوة ذي قرد.[53]

5.2.3.6: قبيلة غطفان

تسـكن قبيلة «غطفان» مضـارب متفرقة تقع شـمال يثرب، ومنهـا ماهو قرب «خيبـر»، وقـد أدت عيونهـا الاسـتخبارية أدواراً ذات أهميـة حيويـة لنـواة دولة الإسـلام بـ «المدينـة». ولا تكمن أهميـة القبيلـة في كونها تشـرف علـى الطريق المـؤدي للمدينة من بلاد الشـام فحسـب بـل لقربها وتحالفهـا مع «يهـود خيبر» الذيـن كانوا يشـكلون خطـراً على الإسـلام لكثـرة نقضهـم للعهـود المبرمة مع المسـلمين.[54] ومن أشـهر مـن تعامـل مـع رسـول الله ﷺ مـن «غطفـان» «نعيم بن مسـعود» الـذي كان قد قـدم «المدينـة» قبل إسـلامه فنـزل علـى «كنانة ابن أبي الحقيـق» أحد زعمـاء «يهود بنـي النضير» فشـرب معهم الخمر، وسـامرهم وعلم منهـم "بخروج صفـوان بن امية فـي عيره وما معهـم من الأمـوال، فخرج من سـاعته إلى النبي ﷺ فأخبره" .[55] وقد لعـب دوراً مؤثراً قبل إسـلامه في منع وقوع «غزوة بـدر الآخرة» مـن خـلال تخذيل «أبـي سـفيان» وترهيبـه من المسـلمين

عندما قدم إلى «مكة» وأخبر «أبا سفيان» بقوله: "ما رأيت محمداً وأصحابه يصنعون من إعداد السلاح والكراع، وقد تجلب إليه حلفاء «الأوس» من «بلي وجهينة» وغيرهم، فتركت «المدينة» أمس وهي كالرمانة."[56] وكان قد استخدمه «أبو سفيان» في ترهيب المسلمين من خلال أغرائه بالمال فعاد إلى «المدينة» حاملاً أخبارًا تفتّ في عضد المسلمين قائلاً:

> "خرجت معتمراً إلى «مكة». فقالوا: لك علمٌ بـ «أبي سفيان»؟ قال: نعم، تركت «أبا سفيان» قد جمع الجموع وأجلب معه العرب، فهو جاء فيما لا قبل لكم به، فأقيموا ولا تخرجوا فإنهم قد أتوكم في داركم وقراركم، فلن يفلت منكم إلا الشريد، وقتلت سراتكم وأصاب محمداً في نفسه ما أصابه من الجراح. فتريدون أن تخرجوا إليهم فتلقوهم في موضع من الأرض، بئس الرأي رأيتم لأنفسكم وهو موسم يجتمع فيه الناس والله ما أرى أن يفلت منكم أحد! وجعل يطوف بهذا القول في أصحاب رسول ﷺ حتى رعبهم وكره إليهم الخروج، حتى نطقوا بتصديق قول «نعيم»، أو من نطق منهم."[57]

وفي معركة الخندق وقبل أن يشيع إسلام «نعيم بن مسعود الأشجعي» فقد أدى هذا الرجل دوراً استخبارياً عظيماً تمثل في التخذيل بين الأحزاب. ولم يكن «نعيم بن مسعود هو الأشجعي» الوحيد الذي كان يعمل مع استخبارات «المدينة» فهناك اخرون مثل «خارجة بن حسيل الأشجعي» الذي نقل معلومات عن محاولة قائد «يهود خيبر» «أسير بن زرام» إبرام تحالف مع غطفان ضد رسول الله ﷺ.[58]

وهناك أشجعي آخر يدعى «حسيل بن نويرة» الذي عمل دليلاً لرسول

الله ﷺ إلى خيبر حيث زوده بمعلومات حساسة عند قدومه إليه قائلاً: "تركت جمعاً من «غطفان» بالجناب، قد بعث إليهم «عيينة» يقول لهم: إما تسيروا إلينا وإما نسير إليكم. فأرسلوا إليه أن سر إلينا حتى نزحف إلى محمد جميعاً، وهم يريدونك أو بعض أطرافك"[59] وقد أشار «الواقدي» إلى أنه بعد أن قتلت «بنو قريظة» ذهب «حسيل» إلى «يهود بني النضير» و«يهود خيبر» جالسين في ناديهم فأبلغهم بمقتل «بني قريظة» وزودهم بكامل تفاصيل ما حدث لهم. ويبدو من الرواية أن «حسيلاً» كان يعمل إما عميلاً مزدوجاً أو أنه كان بائع معلومات لمن يتلقفها منه. أما «حسيل بن خارجة» و«عبد الله بن نعيم» فقد كانا دليلين لرسول الله ﷺ.[60]

6.2.3.6: مصادر من القبائل اليهودية: (بنو قريظة وبنو قينقاع وبنو النضير).

استطاع النبي ﷺ أن يخترق المجتمع اليهودي مباشرة من خلال تجنيد يهود منهم، أو عبر عملاء آخرين يثق اليهود بهم، أو بواسطة من كانت لهم رابط قربى أو صلة أرحام معهم. وقد لا نجد تفاصيل كل هذه العمليات أو نتعرف على أسماء العملاء من داخل المجتمع اليهودي نظراً لخطورة الأمر وحساسيته ولأن هؤلاء العملاء كانوا تحت غطاء من السرية والكتمان الشديدين. إلا أن هناك بعض الإشارات الأدبية التي تفيد بأن عملاء قد أبلغوا رسول الله ﷺ عن مؤامرات اليهود ضده دون الإتيان بأسمائهم. ففي «غزوة الخندق» نجد أن أحد مصادر رسول الله ﷺ والذي لم يذكر اسمه قد أبلغه عن قدوم «حيي بن أخطب»[61] إلى «يهود بني قريظة» يسألهم نقض العهد الذي أبرموه مع رسول الله ﷺ ويطلب أن "يكونوا معهم عليه فامتنعوا من ذلك ثم أجابوا إليه وبلغ ذلك النبي ﷺ".[62] وهناك امرأة من «بني النضير» لم يذكر اسمها أيضًا قد مررت معلومات غاية في الخطورة الى رسول الله ﷺ عن طريق قريب لها أبلغها أن توصل رسالة الى رسول الله ﷺ مفادها

اعتزام «يهود بنو النضير» الغدر برسول الله ﷺ من خلال اغتياله عند قدومه إليهم.[63] كما قامت امرأة من «بني النضير» بالدلالة على مكان منام «أبي رافع اليهودي» الذي نفذت ضده سرية من مسلمي الخزرج عملية استخبارية سرية تخلصت فيها منه.[64] كما علم رسول الله ﷺ من مصادره أن «أبا الحقيق» كان قد دس مسكاً فيه مال كثير وحلي لـ «حيي بن أخطب» عندما أجلوا «بني النضير» وقد أودعه لدى «كنانة الربيع».[65]

3.3.6: مصادر من التجار والمتجولين

يعد التجار والمتجولون من المصادر الثرية التي تمتاز بنقل المعلومات الحديثة عن الجهات التي يقدمون منها. فكما كان للمسلمين مصادر من أنحاء مختلفة تنقل لهم الأخبار، كان أعداء الإسلام في الشام يتلقفون من يفد إليهم من تجار أو رحالة باحثين عن أخبار دولة الإسلام بـ «المدينة». فعندما قدم «أبو سفيان» إلى الشام في رحلة الصيف لغرض التجارة، وكان قد ورد «هرقل» عظيم الروم معلومات وفيرة عن ظهور نبي في «مكة» فوقع الرعب في قلبه، فما كان منه إلا أن تحين فرصة قدوم تجار قريش فاستدعاهم ليستجلي حقيقة ما لديهم من معلومات، وكان من بين الذين استُدعوا «أبو سفيان»، وفي ذلك يقول «المباركفوري» في «الرحيق المختوم»:

> "روي البخاري عن ابن عباس أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش، كانوا تجاراً بالشام، في المدة التي كان رسول الله ﷺ مادَّ فيها أبا سفيان وكفار قريش، فأتوه وهم بإيلياء ، فدعاهم في مجلسه وحوله عظماء الروم، ثم دعاهم ودعا ترجمانه فقال: أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ قال «أبو سفيان»: فقلت: أنا أقربهم نسباً، فقال: أدنوه مني، وقربوا أصحابه، فاجعلوهم عند ظهره، ثم قال لترجمانه: إني سائل هذا عن

هذا الرجـل، فإن كذبنـي فكذبـوه، فو الله لـولا الحيـاء من أن يأثـروا على كذبـاً لكذبت عليـه. ثم قـال: أول ما سـألني عنه أن قـال: كيف نسـبه فيكـم؟ فقلت: هـو فينا ذو نسـب، قـال: فهل قال هذا القـول منكم أحد قـط قبله؟ قلـت: لا . قـال: فهل كان مـن آبائه مـن ملك؟ قلـت: لا . قـال: فأشـراف النـاس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ قلـت: بـل ضعفاؤهم. قـال: أيزيـدون أم ينقصون؟ قلت: بـل يزيـدون. قـال: فهـل يرتد أحـد منهـم سـخطة لدينه بعـد أن يدخـل فيه: قلـت: لا . قـال: فهـل تتهمونه بالكـذب قبل أن يقـول ما قـال؟ قلت: لا . قـال: فهل يغـدر؟ قلـت: لا ، ونحن منه في مـدة لا ندري ما هـو فاعل فيها قـال: ولـم تمكنني كلمة أدخل فيها شـيئاً غير هـذه الكلمـة قال: فهـل قاتلتمـوه؟ قلت: نعم. قـال: فكيـف كان قتالكـم إيـاه؟ قلت: الحـرب بيننـا وبينه سـجال، ينال منـا وننال منه. قـال: مـاذا يأمركم؟ قلـت: يقول: (اعبـدوا الله وحـده، ولا تشـركوا به شـيئاً، واتركوا مـا يقول آباؤكـم)، ويأمرنـا بالصلاة والصـدق والعفـاف والصلة.[66]

فقـال للترجمـان: قل لـه: سـألتك عن نسـبه، فذكـرت أنه فيكـم ذو نسـب، وكذلك الرسـل تبعـث في نسـب مـن قومها. وسـألتك: هل قال أحد منكـم هذا القـول قبله؟ فذكـرت أن لا . قلت: لـو كان أحـد قال هـذا القـول قبله لقلـت: رجل يأتسـي بقول قيـل قبله. وسـألتك: هل كان مـن آبائه من ملـك؟ فذكرت أن لا . فقلـت: فلـو كان مـن آبائه مـن ملـك قلت: رجـل يطلب ملك أبيه. وسـألتك: هـل كنتـم تتهمونـه بالكذب قبـل أن يقول مـا قـال؟ فذكـرت أن لا . فقـد أعرف أنـه لم يكـن ليـذر الكذب علـى النـاس، ويكـذب علـى الله. وسـألتك: أشـراف النـاس اتبعوه أم ضعفاؤهـم؟ فذكـرت أن ضعفاءهم اتبعـوه، وهم أتباع

الرسل. وسألتك: أيزيدون أم ينقصون؟ فذكرت أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم. وسألتك: أيرتد أحد سخطه لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فذكرت أن لا ، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب. وسألتك: هل يغدر؟ فذكرت أن لا ، وكذلك الرسل لا تغدر.وسألتك: بماذا يأمر؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله، ولا تشركوا به شيئاً وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف، فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج، ولم أكن أظنه أنه منكم، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه. ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ فقرأ، فلما فرغ من قراءة الكتاب ارتفعت الأصوات عنده وكثر اللغط، وأمر بنا فأخرجنا، قال: فقلت لأصحابي حين أخرجنا: لقد أَمِرَ أَمْرُ ابن أبي كَبْشَة، إنه ليخافه ملك بني الأصفر، فما زلت موقنا بأمر رسول الله ﷺ أنه سيظهر حتى أدخل الله علي الإسلام.[67]

لم يكن تجار قريش الوحيدين في نقل المعلومات فقد كانت التخوم الشمالية لشبه الجزيرة العربية وجنوبها مركزاً للتجارة والتبادل التجاري وكانت معيشة سكان أهل «مكة» كغيرهم تعتمد في المقام الأول على التجارة سواء من الحبشة في الشتاء أو إلى بلاد الشام في الصيف مروراً بيثرب. وقد ازدهرت هذه التجارة حتى أصبح أهل «مكة» متمرسين بالتجارة يقدم إليهم من جميع أرجاء الجزيرة لغرض العمرة والاتجار معهم. كان من بين هذه الوفود التجارية القادمة إليهم الأنباط الذين كانوا يمتهنون التجارة والتنقل من أجلها في بلاد العرب.[68] ومن الطبيعي أن يكون من بين هؤلاء من كان يرصد ويتسقط الأخبار ويحملها عند عودته إلى «المقوقس» عظيم مصر

«جريج بن منى». ويبدو أن رسول الله ﷺ كان محط اهتمام «المقوقس»، فكان يتابع أخبار النبي ﷺ في «مكة» وما لقيه من قومه، وما شنته «قريش» ضده من حملة تضليل إعلامية خبيثة بهدف النيل منه ﷺ، وإيذائه وذمه، من خلال اتهامه تارة بالجنون وأخرى بالسحر والكهانة. ويتضح مدى علم «المقوقس» وتواتر المعلومات لديه عن حقيقة دعوة رسول الله ﷺ في ثنايا رده على سفير رسول الله ﷺ «حاطب بن أبي بلتعة»، عندما قدم عليه بكتاب منه حيث قال:

"إني قد نظرت في أمر هذا النبي، فوجدته لا يأمر بمزهود فيه. ولا ينهي عن مرغوب فيه، ولم أجده بالساحر الضال، ولا الكاهن الكاذب، ووجدت معه آية النبوة بإخراج الخبء والإخبار بالنجوى، وسأنظر."[69]

وقد أدى التجار دوراً كبيراً في نشر دين الإسلام وإقناع الكثير من المشركين باعتناق الدين الجديد وهو ما أسهم وعلى نحو متصاعد في ازدياد عدد من نبذوا الشرك والكفر واتخذوا من الإسلام ديناً. فهذا «منقذ بن حيان» من «عبد القيس» الذي كان يتردد على «المدينة» لأغراض التجارة وعندما علم بالإسلام وأسلم، عاد بكتاب من رسول الله ﷺ إلى قومه فأسلموا. وهناك تجار وسفراء آخرون كثر بعثهم رسول الله ﷺ إلى جميع الأرجاء[70] لينشروا الدين الإسلامي.[71]

وكان للأنباط في شمال الحجاز شان كبير في التجارة مع «المدينة» آنذاك. فكانوا يفدون للاتجار «بالدرمك والزيت.... وكانت أخبار الشام عند المسلمين كل يوم»[72]. وقد بلغ المسلمين عن طريقهم أن "هرقل قد هيأ جيشاً عرمرماً قوامه أربعون ألف مقاتل، وأعطى قيادته لعظيم من عظماء الروم، وأنه أجلب معهم قبائل لَخْم وجُذَام وغيرهما من متنصرة العرب، وأن مقدمتهم بلغت إلى البلقاء، وبذلكً تمثل أمام المسلمين خطر كبير."[73]

وكان الأنباط بدورهم يتسقطون الأخبار عن المسلمين وأحوالهم وتحركاتهم، وينقلون ما يردهم من معلومات إلى هرقل واستخباراته، ويذكر «كعب بن مالك»، وهو ممن غضب عليهم رسول الله ﷺ لتخلفهم عن غزوة تبوك، قائلاً: "فبينا أنا أمشي بالسوق فإذا نبطي من نبط الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالسوق، يسأل عني يقول: من يدلني على «كعب بن مالك»؟ فجعل الناس يشيرون له، فدفع إلى كتاباً من «الحارث بن أبي شمر» ملك غسان أو قال من «جبلة بن الأيهم» في سرقة من حرير، فإذا في كتابه: أما بعد، فقد بلغني أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالحق بنا نواسك."[74]

ويبين المؤرخ العسكري «محمود شيت خطاب» في كتابه (الرسول القائد) مدى دراية استخبارات الروم وحلفائهم من العرب «الغساسنة» بتحركات المسلمين، ونواياهم، حيث كانوا من خلال علاقاتهم بالتجار «الأنباط» الذين كانوا يجوبون ديار المسلمين على اطلاع شبه تام بما يجري في ديارهم. ولولا تلك العيون المنتشرة هناك لما تناهى إليهم علم غضب رسول الله ﷺ على أحد صحابته «كعب بن مالك»، وما كانوا ليبعثوا له برسالة يؤلبونه فيها على رسول الله ﷺ ويعرضون عليه الانشقاق، والعمل لصالحهم. وهذا ما يشير إلى رصدهم لمسألة تفصيلية كتلك مما يدل على قدرة مخابراتهم على الوصول إلى المعلومات التي لها تأثير على الموقف العسكري آنذاك.[75]

4.3.6: الأسرى والسجناء

يشكل الأسرى والمقبوض عليهم قبل أو أثناء الحملات العسكرية أو الغزوات أو نتيجة الإستسلام عند الهزيمة في المعركة، مصدراً معلوماتياً مهماً. وغالباً ما يكون التركيز فيه على استجلاء معلومات عن مواقع العدو

ونواياه والوضع العسكري له. ويأتي القبض على هؤلاء أما نتيجة لتقدم الرواد والطلائع أمام الحملة العسكرية أو بالصدفة أو محصلة للجهد الاستخباري والأمني الذي يبذل لهذا الغرض بعينه. وعلى الرغم من أهمية الأسرى والسجناء باعتبارهم من الموارد المعلوماتية المباشرة إلا أن هناك عدداً من المشاكل التي تصاحب مثل هذا النوع من المصادر، كتعمد اختلاق المعلومات «الكاذبة» والتخيل والخداع والتضليل المتعمد أو مجرد الإدلاء بمعلومات غير دقيقة نتيجة ضعف مستوى اطلاع المقبوض عليه أو نقص في كفاءة المستجوِب وفشل أساليب الاستجواب المطبقة. [76]

وكما هي الحال عند الأقوام التي سبقت العرب الأوائل عبر العصور السحيقة، تنتهي الغزوات في معظم الأحيان بأسر بعض المقاتلين وغيرهم من رجال العدو بل إن بعضاً من العيون أو الربايا والطلائع يتم القبض عليهم حتى قبل بدء الغزوات أو الأعمال الحربية. وكان من الدارج أن يقوم المنتصر بسبي النساء والذراري ويغنم الأموال والممتلكات. وما يهمنا في ذلك هو المعلومات التي يملكها المقبوض عليهم، ومساهمتهم في التعريف بقوة الخصم ومواطن ضعفه ومقاصده ونواياه.

وقد أوضحنا في الفصل الأول من الكتاب إسهامات العيون والطلائع والربايا والرواد والأدلّاء الذين يتم القبض عليهم في الغزوات قبل فجر الإسلام.[77] وعلى السواء فإن المسلمين الأوائل تمكنوا أيضاً وأثناء حملاتهم العسكرية من القبض على من أدلوا لهم بمعلومات بالغة الأهمية، بنوا عليها تكتيكهم العسكري واطلعوا منهم على وضع الروح المعنوية لسرايا الخصم وعساكره. ومن ذلك ما قامت به سرية «علي بن أبي طالب» قبل «معركة بدر» عندما قامت بأسر ثلاثة من الغلمان -يسار وأسلم وأبو رافع- وهم سقاة ماء لجيش قريش. ورغم أن الاستجواب المبدئي لهم كان عنيفاً جعل المستجوَبين

يدلون بمعلومات كاذبة. إلا أن الاستجواب الأمثل قام به رسول الله ﷺ عرف من خلاله أين يعسكر جيش قريش، وكم قوة الجيش العددية، ومن كان فيه من القادة، ومن رفض المشاركة في تلك الحملة، وغير ذلك من معلومات حساسة. وفي «غزوة بني المصطلق» ألقى القبض على جاسوس لـ «لحارث بن ضرار» كان قد بعثه لجلب أخبار سرية رسول الله ﷺ وعند استجوابه من قبل القائد المحنك «عمر بن الخطاب»، أفاد قائلاً: "أنا رجل من «بني المصطلق»، تركت «الحارث بن أبي ضرار» قد جمع لكم الجموع، وتجلب إليه ناسٌ كثير، وبعثني إليكم لآتيه بخبركم وهل تحركتم من «المدينة»."[78]
كما ألقى «علي بن أبي طالب» القبض على عين لبني سعد في الهمج وذلك عندما بعثه رسول الله ﷺ في مائة رجل إلى حي سعد بفدك حينما وردته معلومات عن أنهم يرغبون في دعم «يهود خيبر» وعند استجوابه قال:

"لا علم لي به. فشدوا عليه فأقر أنه عين لهم بعثوه إلى خيبر، يعرض على يهود خيبر نصرهم على أن يجعلوا لهم من تمرهم كما جعلوا لغيرهم ويقدمون عليهم، فقالوا له: فأين القوم؟ قال: تركتهم وقد تجمع منهم مائتا رجل، ورأسهم وبر ابن عليم. قالوا: فسر بنا حتى تدلنا. قال: على أن تؤمنوني! قالوا: إن دللتنا عليهم وعلى سرحهم أمناك، وإلا فلا أمان لك. قال: فذاك! فخرج بهم دليلاً لهم حتى ساء ظنهم به، وأوفى بهم على فدافد وآكام، ثم أفضى بهم إلى سهوله فإذا نعم كثير وشاء، فقال: هذا نعمهم وشاءهم. فأغاروا عليه فضموا النعم والشاء. قال: أرسلوني! قالوا: لا حتى نأمن الطلب! ونذر بهم الراعي رعاء الغنم والشاء، فهربوا إلى جمعهم فحذروهم، فتفرقوا وهربوا، فقال الدليل: علام تحبسني؟ قد تفرقت الأعراب وأنذرهم الرعاء. قال علي رضي الله عنه: لم نبلغ معسكرهم. فانتهى بهم إليه فلم ير

أحداً، فأرسلوه وساقوا النعم والشاء، النعم خمسمائة بعير، وألفا شاة."[79]

وفي «غزوة خيبر» ألقت طليعة يقودها «عباد بن بشر» القبض على عين لليهود وعند استجوابه رفض في بادئ الأمر التعريف بنفسه وقال إنه يبحث عن أبعرة ضلت له وهو على أثرها سائر. فسألوه عن معلوماته عن خيبر فأجاب بأنه حديث عهد بها وماذا يريدون أن يعرفوا عنها؟ فسئل عما يعرفه عن اليهود؟ فأجاب بمعلومات مضللة يهدف بها بث الرعب في قلوب المسلمين ويؤكد ما كان قد أشيع أن من دعم «بني سعد» لليهود قائلاً:

"نعم، كان «كنانة بن أبي الحقيق» و«هوذة بن قيس» ساروا في حلفائهم من غطفان، فاستنفروهم وجعلوا لهم تمر خيبر سنة، فجاءوا معدين مؤيدين بالكراع والسلاح يقودهم «عتبة بن بدر»، ودخلوا معهم في حصونهم، وفيها عشرة آلاف مقاتل، وهم أهل الحصون التي لا ترام، وسلاحٌ وطعامٌ كثير لو حصروا لسنين لكفاهم، وماءٌ واتنٌ يشربون في حصونهم، ما أرى لأحدٍ بهم طاقة."[80]

ولكن «عباد بن بشر» -رضي الله عنه- استشعر الكذب والتضليل في إجابته، ولاستجلاء حقيقة أمرِهِ، استخدم الشدة معه والتهديد بضرب العنق إن لم ينطق بالحقيقة، كما واجهه بمعلومة مؤكداً له أنه لا يغدو كونه يعمل عيناً لليهود ولابد له من قول الحقيقة، وهكذا لم يكن له من مناص إلا قول الحقيقة فاعترف قائلاً:

«أفتؤمنني على أن أصدقك؟ قال عباد: نعم. فقال الأعرابي: القوم مرعوبون منكم خائفون وجلون لما قد صنعتم بمن كان بيثرب من اليهود، وإن يهود يثرب بعثوا

ابن عمٍّ لي وجدوه بـ «المدينة»، قد قدم بسلعة يبيعها، فبعثوه إلى «كنانة بن أبي الحقيق» يخبرونه بقلتكم وقلة خيلكم وسلاحكم. ويقولون له: فأصدقوهم الضرب ينصرفوا عنكم، فإنه لم يلق قوماً يحسنون القتال! وقريش والعرب قد سروا بمسيره إليكم لما يعلمون من موادكم وكثرة عددكم وسلاحكم وجودة حصونكم! وقد تتابعت قريش وغيرهم ممن يهوى هوى محمد، تقول قريش: إن خيبر تظهر! ويقول آخرون: يظهر محمد، فإن ظفر محمد فهو ذل الدهر! قال الأعرابي: وأنا أسمع كل هذا، فقال لي كنانة: اذهب معترضاً للطريق فإنهم لا يستنكرون مكانك، واحزرهم لنا، وادن منهم كالسائل لهم ما تقوى به، ثم ألق إليهم كثرة عددنا ومادتنا فإنهم لن يدعوا سؤالك، وعجل الرجعة إلينا بخبرهم."[81]

وعندما أحضروه إلى رسول الله ﷺ أمر «عمر بن الخطاب» عبادة بضرب عنقه إلا أن «عبادة» أجابه بأنه قد منحه الأمان لقاء اعترافه وتقديم المعلومات الحقيقية. فأمر رسول الله ﷺ عبادة باستمرار سجنه، وفي خيبر عرض عليه الرسول ﷺ الإسلام فأسلم. وهناك أمثلة كثيرة أخرى في السيرة النبوية، حيث يتم فيها استجواب وكلاء العدو وعيونه. ففي «فتح مكة»، وعندما كان رسول الله ﷺ بين العرج والطلوب، حيث كانت تتقدم جمع المسلمين طليعة استخبارية رصدت رجلاً على راحلته يختفي مرة وتارة يعتلي أماكن مرتفعة فاشتبهوا فيه، وعندما اتجهوا إليه حاول الهروب فألقوا القبض عليه واستجوبوه، فأفاد أنه من «بني غفار» وعندما توالت الأسئلة عليه شعر المستجوبون أنه لا يقول الحقيقة فهددوه بضرب العنق إن لم يصدقهم، فطلب الأمان مقابل أن يدلي بالحقيقة، وعندما وُعد بذلك قال:

"فإنـي رجـل مـن «هـوازن» مـن «بنـي نضـر»، بعثنـي «هـوازن» عينـاً. وقالـوا: ائـت «المدينـة» حتـى تلقـى محمداً فتسـتخبر لنـا مـا يريـد فـي أمـر حلفائـه، أيبعـث إلـى قريش بعثـاً أو يغزوهـم بنفسـه، ولا نـراه غلا يسـتغورهم، فـإن خرج سـائراً أو بعـث بعثاً فسـر معه حتـى تنتهـي إلى بطن سـرف، فإن كان يريدنا أولاً فيسـلك في بطن سـرف حتى يخـرج إلينا، وإن كان يريد «قريشـاً» فسـيلزم الطريق. فقال رسول الله ﷺ: وأيـن «هـوازن»؟ قـال: تركتهـم ببقعاء وقـد جمعـوا الجموع، وأجلبوا فـي العرب، وبعثوا إلـى ثقيف فأجابتهـم، فتركت ثقيفاً على سـاق قد جمعـوا الجمـوع، وبعثوا إلـى الجـرش في عمل الدبابـات والمنجنيق، وهم سـائرون إلـى جمع هـوازن فيكونون جمعاً. قال رسـول الله ﷺ: وإلى مـن جعلوا أمرهـم؟ قال: إلى فتاهم «مالـك بن عـوف». قـال رسـول الله ﷺ: وكل «هوازن» قـد أجاب إلـى ما دعـا إليـه «مالك»؟ قـال: قـد أبطأ مـن «بني عامر» أهل الجـد والجلد. قال: مـن؟ قال: «كعـبٌ» و«كلابٌ». قـال: ما فعلـت «هـلال»؟ قـال: ما أقـل من ضـوى إليـه منهم، وقد مـررت بقومك أمس بـ «مكة» وقد قـدم عليهم «أبو سـفيان بـن حـرب» فرأيتهـم سـاخطين لمـا جـاء بـه، وهـم خائفـون وجلـون. فقـال رسـول الله ﷺ: حسـبنا الله ونعـم الوكيل، ما أراه إلا صدقنـي!"[82]

وخشـية أن يتوجه الأسـير عند إطلاق سـراحه إلى قومـه لينذرهـم فقد أمر رسـول الله ﷺ «خالـد بن الوليـد» أن يحبسـه ولكنه فـي الطريق أفلـت فلحق به «خالـد» وامسـك به وقـال: لـولا أنه قـد منـح لك الأمـان لضربـت عنقـك. وفي «مكة» دعاه رسـول الله ﷺ للإسـلام فأسـلم وكان ضمـن جيشـه لـ«هوزان».

وفي «غزوة بني سليم ببحران» قبض المسلمون على رجل من «بني سليم» حول منطقة «بحران» وعند استجوابه أفادهم أن القوم الذين اجتمعوا من «بني سليم» للهجوم على رسول الله ﷺ قد تفرقوا وعادوا إلى مائهم. فتم التحفظ عليه لحين التأكد من صحة معلوماته واستمرت الحملة في السير حتى وصلت إلى «بحران» فلم يجدوا أحداً هناك وتم التأكد من صدق قوله فأطلق سراحه.[83]

وفي دومة الجندل توفرت لرسول الله ﷺ معلومات عن تجمع عدد كثير من المشركين العرب، الذين كانوا يخططون لمهاجمة المسلمين في «المدينة». فخرج إليهم على إثر ذلك رسول الله ﷺ في سرية قوامها ألف رجل من المسلمين، وقد اصطحب معه دليلاً خريت. وعند وصوله ﷺ «دومة الجندل» لم يجد أحداً منهم، حيث تفرقت الجموع عند علمها بقدومه. فأمر السرايا بأن تجوب مضاربهم بحثاً عنهم، فلم يعثروا إلا على واحداً منهم، فألقي القبض عليه، وتم أسره من قبل الصحابي «محمد بن مسلمة». وعند إحضاره لرسول الله ﷺ سأله عن مصير بقية قومه، فأفاده "بأنهم هربوا أمس حيث سمعوا بأنك قد أخذت أنعامهم."[84]

5.3.7: مصادر من بلاد الروم

لم يكن اليهود الوحيدين من الديانات التي اضطر المسلمون لاستهدافهم واختراقهم وتجنيد بعض أفرادهم، فقد كان هناك استهداف لبعض مسيحي بلاد الشام من العرب وخاصة القادة منهم حيث تم تجنيدهم لصالح دولة الإسلام. وما قصة إسلام حاكم معان «فروة الجذامي» إلا خير دليل على نجاح «استخبارات المدينة» في اختراق تلك القيادات للدولة البيزنطية. فقد تبادل «الجذامي» الرسائل السرية مع رسول الله ﷺ، إلا أن أمره قد انكشف من قبل الروم مما حدا بملكهم إلى حبسه ثم صلبه.[85]

وقد جند الصحابي «شجاع بن وهب» أحد رجال «الحارث بن أبي شمر الغساني» التابع للبيزنطيين، وكان رومياً اسمه «مري» يعمل حاجباً لدى «الحارث». وقد علم «شجاع بن وهب» من خلال هذا الرجل عن شخصية «الحارث» وشدة خوفه من «هرقل» كما أفضى الرجل إلى «ابن وهب» عن مضمون كتاب «الحارث» لـ «هرقل» الذي يستأذنه فيه لغزو «المدينة» ورد «هرقل» عليه وأمر «الحارث» بأن لا يسير الجيوش لمحمد.[86]

وفي السياق نفسه يشار إلى أن عيون «المدينة» في «الشام» قد أبلغت رسول الله ﷺ عن اعتراض «شرحبيل بن عمرو الغساني» وقتله لـ «حارث بن عمير الأزدي» الذي كان قد بعثه النبي ﷺ برسالة إلى «ملك بصرى» يدعوه فيها إلى الإسلام. وقد كان هذا الحادث سبباً للخروج في غزوة مؤتة بأرض الشام. كما علم من خلال هؤلاء العيون عن حلفاء الدولة البيزنطية وحجم القوات البيزنطية.[87] وكان بعض عيون رسول الله ﷺ أبلغوه عن تحرك الحشود التي قاتلت المسلمين في «سرية ذات أطلاح» وقد تركوا موقع المعركة وساروا إلى مكان آخر مما جعله يترك البعث بسرية أخرى إليهم.[88]

6.3.7: المنشقون والمخبرون المستقلون

يقدم المنشقون والمعارضون على الدوام معلومات استخبارية ونصائح سياسية وعسكرية واقتصادية إلى من يأويهم ويتكفل بحمايتهم، بل إنهم في الغالب الأعم يستَغلون بعلم أو بغير علم منهم في العمل على جمع المعلومات التي يستطيعون الوصول إليها عمن انشقوا عنه. ويبلغ الأمر سوئه عندما يحدث ذلك ممن ينتمي إلى قبيلة ذات شأن أو كان له ملك أو سيادة في قومه ويكون دافعه استعادة ما يعتقد أنه سلب منه. فارتباطه الوثيق بالمؤثرين في قومه يجعل له حظوة في الاطلاع على ما تسير إليه الأمور. ومن خلال ما ورد في السيرة النبوية الشريفة يمكن القول أنه كان هناك انشقاق واضح

لأحد الزعماء السياسيين لقبائل الأوس في الجاهلية ويدعى «أبو عامر الراهب» [89] ويعرف في كتب السير بما أسماه رسول الله ﷺ «أبا عامر الفاسق». حيث اشتد عليه ظهور الإسلام فجاهر بالعداوة لرسول الله ﷺ ومن كان معه من قومه. وكان قد ألب قريشاً على رسول الله ﷺ ولكنه لم يفلح في ذلك.[90] عندها فر إلى «هرقل» قيصر الروم وأقام لديه وقدم له ما بجعبته من معلومات عن رسول الله ﷺ ودين الإسلام، واستنصره وطلب العون منه وقد وعده «هرقل» بذلك.

ولكي ترسم الخطط لغزو «المدينة» كان لابد من وجود معلومات استخبارية دقيقة جارية عن الأوضاع في «المدينة» أولا بأول. ولتحقيق ذلك جند «أبو عامر الراهب» لتوفير مرصد يتمتع بغطاء دائم ويكون فعالاً في جمع المعلومات سراً. فشرع في تكليف أتباعه من المنافقين بـ «المدينة» باتخاذ بيت أمن يلتقي فيه من يبعثهم إليهم ويكون لهم نقطة للرصد والالتقاء واستلام التوجيهات ورفع التقارير. وما كان من هؤلاء إلا أن اتخذوا مسجداً أطلق عليه لاحقاً مسمى ضرار، للتضليل والتمويه. فقاموا ببنائه بـ «المدينة» وطلبوا من رسول الله ﷺ أن يصلي فيه لإضفاء الشرعية عليه لكي يصبح محطة استخبارية للروم والفاسق معاً تحت غطاء ديني شرعي عميق لا يشك فيه. ولكن أمر هذه العصابة المتآمرة قد انكشف وهدم المسجد وانفضح أمر المنافقين الذين قاموا بإنشائه.[91]

ونرى في حادثة أخرى في فتح خيبر، عندما كلف الرسول الكريم «عمر بن الخطاب» -رضي الله عنه- بالإشراف عَلَى الْعَسْكَر ومهامهم، إذ أتى بيهودي لرسول الله ﷺ كان قد أصر أن لا يتحدث إلا له، ولم يذكر المصدر أنه ألقى القبض عليه من قبل العسكر، إلا أن فحوى حديث اليهودي مع الرسول الكريم ﷺ يشير إلى أنه قد انشق عن بني جلدته ولجأ إلى المسلمين

حيث يصـف اليهود بأنهـم قوم ليـس بهم نظـام وانهـم اذلاء كما وصـف روحهم المعنويـة ورعبهـم مـن رسـول الله ودل المسـلمين علـى مخـازن أسـلحتهم الاسـتراتيجية. وعندمـا سـأله رسـول الله ﷺ قائلاً:

"(مـا وراءك ومـن أنـت)؟ فقـال اليهـودي: تؤمنـى يـا أبـا القاسـم وأصدقـك؟ فقـال رسـول الله ﷺ: (نعـم). فقـال اليهـودى: خرجت مـن حصن النطـاة من عنـد قوم ليـس لهم نظـام تركتهـم يتسـللون مـن الحصـن فـى هـذه الليلـة، قـال رسـول الله صلـى الله عليـه وسـلم: (فأيـن يذهبـون)؟ قـال: إلى أذل ممـا كانـوا فيه إلى الشـق، وقـد رعبوا منـك حتى إن أفئدتهـم لتخفـق وهـذا حصـن اليهـود فيـه السـلاح والطعام والـودك وفيه آلـة حصونهـم التـى كانـوا يقاتلون بهـا بعضهم بعضـا، قـد غيبوا ذلـك فى بيـت مـن حصونهم تحـت الأرض، قال رسـول الله ﷺ: (وما هـو)؟ قال: منجنيق مفككـة ودبابتان وسـلاح مـن دروع وبيـض وسـيوف فـإذا دخلـت الحصـن غـداً وأنـت تدخلـه. قـال رسـول الله ﷺ: (إن شـاء الله)، قال اليهـودى: إن شـاء الله أوقفـك عليـه فإنـه لا يعرفـه أحـد مـن اليهـود غيـرى، وأخـرى قيـل مـا هـى؟ قـال: تسـتخرجه ثـم أنصـب المنجنيـق على حصـن الشـق، وتدخل الرجـال تحت الدبابتيـن فيحفرون الحصـن فتفتحه من يومـك، وكذلك تفعل بحصـن الكتيبـة، فقـال عمـر: يـا رسـول الله إنى أحسـبه قد صـدق، قال اليهـودى: يـا أبا القاسـم احقـن دمى، قـال: (أنت آمن)، قـال: ولى زوجـة فى حصـن النـزار [92] فهبها لـى، قال: (هى لك)، قـال رسـول الله ﷺ: (مـا لليهـود حولـوا ذراريهم مـن النطـاة)؟ قـال: جردوهـا للمقاتلة وحولـوا الـذرارى إلى الشـق والكتيبـة" . [93]

ولا تقل أهمية معلومات المخبرين المستقلين أو بائعي المعلومات عن سواها في الحقل الاستخباري. وعادة ما تكون دوافع المتقدمين بهذا الصنف من المعلومات أما مادية أو حباً للجاه والبروز أو نيل حظوة لدى الغير من الخصوم أو لمآرب شخصية شتى. ففي العهد النبوي الشريف كان هناك الكثير من المخبرين المستقلين الذين تقدموا بمعلومات مهمة وحساسة أما مباشرة لرسول الله ﷺ أو عن طريق أحد أصحابه -رضي الله عنهم-. فقد روي أن رجلاً من طيء قدم لزيارة قريبة له كانت زوجة لأحد الصحابة وأبلغ عن قيام «طليحة الأسدي» وأخيه «سلمة» بدعوة وتجميع الجموع للتوجه لغزو «المدينة».[94] كما أن «غزوة ذات الرقاع» كانت مبنية على معلومات قدمها مخبر قدم للمدينة يفيد بأن «أنماراً» و«ثعلبة» قد جمعوا لهم الجموع.[95] وفي واقعة أخرى عند فتح خيبر جاء رجل من اليهود اسمه «غزال» ليخبر رسول الله ﷺ بمعلومات هامة عن الإمداد السري لحصون اليهود والذي بدون السيطرة عليه وقطعه سيطول الحصار، وقال:

> "يا أبا القاسم، إنك لو أقمت شهرًا ما بالوا، إن لهم شرابًا وعيونًا تحت الأرض، يخرجون بالليل ويشربون منها، ثم يرجعون إلى قلعتهم فيمتنعون منك، فإن قطعت مشربهم عليهم أصحروا لك. فقطع ماءهم عليهم، فخرجوا فقاتلوا أشد القتال، قتل فيه نفر من المسلمين، وأصيب نحو العشرة من اليهود، وافتتحه رسول الله ﷺ.»[96]

وفي «فتح خيبر» تقدم رجل من اليهود مخبراً أنه قد رأى «كنانة» يطوف بخربة كل غداة، ويعتقد أنه دس فيها كنزاً قد أودع عنده من «بني النضير» عندما تم إجلاؤهم فأحضر لرسول الله ﷺ فسأله عنه فأنكر معرفته بمكان وجوده. فأمر رسول الله ﷺ بالخرابة فحفرت، ثم استخرجت منها كنوزهم.[97]

الفصل السابع

المفهوم الاستخباري المعاصر

1.7: المفهوم الاستخباري المعاصر

على الرغم من تأكيد البرفسور «شيرمان كينت» «Sherman Kent»، الأب الروحي للاستخبارات الغربية وخاصة الاستراتيجية منها، عام 1955 بأن "الاستخبارات قد بلغت سن الرشد في معظم أنشطتها ومجالاتها"[1] إلا أنه لا يزال هناك حتى الآن العديد من القضايا التي لم تدرس بالعناية التي تستحقها، بل أن هناك الكثير من الأسئلة الملحة التي لم تتم الإجابة عنها على نحو شاف بعد. ومن هذه الأسئلة على سبيل المثال: ما هي طبيعة الاستخبارات بالضبط؟ وما هي مقوماتها وأدواتها؟ وهل الاستخبارات علم أم حرفة؟. فالأكاديميون والخبراء الاستراتيجيون وعلماء السياسة وضباط الاستخبارات السابقون والحاليون لا يزالون يناقشونها ويتداولون فيها دون أن يتفقوا أو حتى يتوافقوا على توصيف مشترك لها. ولعل جزءًا من الصعوبة في الإجابة عن تلك الأسئلة حسب «مايكل ورنر، Michael Warner» يعود إلى أن الاستخبارات لا يمكن تعريفها بسهولة أو تحديد معالمها بدقة لأنها باختصار «تعني شيئاً مختلفاً لكل فرد، حتى بات من الصعب حقاً تلخيص ما قيل فيها في تعريف واحد».[2]وسيظل الجدل قائمًا حول طبيعة الاستخبارات وماهية مكوناتها على الرغم من أن هناك نوعًا من الإقرار العام بوجود بعض الثوابت والأسس العامة التي يقوم عليها العمل الاستخباري.

وهكذا وعلى الرغم من الاعتراف بأن مصطلح الاستخبارات لا يزال عصياً على التعريف بجملة قصيرة واحدة. فهناك من يحاول اختزال الأمر كله بالقول أن الاستخبارات هي «المعلومات السرية التي يجمعها فرد ما عن شخص آخر». بينما لا يراها آخرون على هذا النحو المبسط ويؤكدون أنها أكثر تعقيدًا وشمولاً لأنها تمثل «حصيلة جمع المعلومات السرية ومعالجتها

ومجانستها وتحليلها وتقييمها وتفسير فحواها وبالتالي نشرها أو توزيعها على من يهمهم الأمر»[3].

ويرى «والتر لاكور، Walter Laqueur» خبير الاستراتيجيات الدولية والتاريخ الحديث أن الاستخبارات ليست علماً دقيقاً أو تطبيقياً، ذلك أن الذين يمارسونها ليسوا جميعاً على دراية كافية بالأساليب الاستقصائية العلمية وطرق البحث العلمي الحديثة بل أن كثيراً منهم قد يقعون فريسة لمعلومات مضللة أو مواقف متحيزة أو قد يتعجلون التوصل إلى نتائج غير صحيحة إما بسبب انعدام الكفاءة أو لشحة المعلومات... الخ.[4] ويضيف «لاكور» أن وقوع خطأ ما سيؤدي بالضرورة إلى مفاجآت غير متوقعة، وبالتالي إلى فشل الاستخبارات. ويلخص هذا الباحث الهدف النهائي لأي جهاز استخبارات فيؤكد بأن العاملين في هذا المجال ينشدون في آخر المطاف حماية الذين يخدمونهم من المفاجآت.[5] سواء أكان هؤلاء أفراداً أم كيانات أم دولاً.

وفي معرض تعليقه على مستوى أداء أجهزة الاستخبارات حول العالم، يعرض «لاكور» تقييمه لأداء وكالة المخابرات المركزية الـ «سي أي إيه، C.I.A» خلال العقود القليلة الماضية. ويركز في هذا المجال على آليات جمع المعلومات في الوكالة وكيف تمت الاستفادة منها واستغلالها من ناحية وكيف تم تجاهل المعلومات الاستخبارية المتوفرة في بعض الأحيان. ويشتق «لاكور» عدداً من الدروس ذات الأهمية الخاصة لمنتجي الاستخبارات وللمستهلكين على حد سواء. أما حكمه النهائي فهو أن أداء الـ «سي أي إيه، C.I.A.» بعد الحرب العالمية الثانية كان خليطاً من النجاحات والاخفاقات. "ففي الوقت الذي ابتُكرت فيه عدة وسائل جديدة لجمع المعلومات، إلا أن الوكالة كانت ضعيفة في الاستخبارات البشرية «HUMINT». وعلى الرغم من أن الوكالة كانت على قدر كبير من الاتقان والتميز في إصدار التفاصيل

والأرقام، لكنها في ذات الوقت كانت أقل مهارة في تجميع تلك البيانات والمعلومات في صورة مترابطة بتحليل التوجهات، وتقييم المواقف، والتحذير من احتمالات المستقبل".[6]

ويخلص «لاكور» إلى تحديد معالم العمل الاستخباري ويقول في معرض تعريفه له: "إنه حقل يتطلب الكفاءة والإتقان لا بمعرفة القضايا الراهنة، والتاريخ، والجغرافيا، وعلم النفس، والاقتصاد، والعلوم والتكنولوجيا فحسب، بل ينبغي أن تتوفر للعميل الاستخباري الخبرة الشخصية للعيش في بلد أجنبي واحد على الأقل، إلى جانب خبرة عملية للتعامل مع لغة أجنبية واحدة على الأقل أيضاً."[7]

أما «شيرمان كينت» الذي سبقت الإشارة إليه فيقول: "إن الدلالات التي ينطوي عليها مصطلح الاستخبارات هي دلالات عامة وشاملة ولا يمكن حصرها بسهولة لأنها تتناول الأنشطة البشرية كافة"، لكنه رغم ذلك يسعى إلى الخروج بتعريف جامع مانع لها فيقول: "إن الاستخبارات تعني المعرفة أولاً وأخيراً. وليس المقصود هنا المعرفة المطلقة بلا حدود، بل التسلح بتشكيلة معرفية متنوعة عامة".[8] ويرى أيضاً أن مصطلح «الاستخبارات» يشمل "نوعية المنظمة التي تنتج المعرفة" وكذلك "النشاط الذي تقوم به المنظمة الاستخبارية".[9]

وفي محاولة لتحديد الخطوات التي يمكن اتخاذها لتحسين الأداء الاستخباراتي الأمريكي في المستقبل ناقش «روي غودسن Roy Godson» وعدد من الباحثين والمتخصصين في مجال الاستخبارات في الكتاب الموسوم «متطلبات الاستخبارات في الثمانينيات»، طبيعة العمل الاستخباري، ومستوى أداء «وكالة المخابرات المركزية الأمريكية، .C.I.A» وغيرها من

الوكالات الأمنيـة القوميـة. ويركز هؤلاء جُـلّ اهتمامهـم على فحص مـا تحتاجه الولايـات المتحدة مـن العناصر الأربعة الرئيسـة للاسـتخبارات وهـي: التجميع السـري للمعلومـات، والتحليـل والتقييـم، والاسـتخبارات المضـادة، والعمـل السـري. ورغـم أن الذين أسـهموا في هـذه الدراسـة النوعية ليسـوا علـى كلمة رجـل واحد فيمـا يتعلـق بمـا يجـب عملـه لمجابهـة التحديـات، فإنهم رغـم ذلك متفقـون عمومـاً علـى أن مسـتوى الأداء عنـد تقييـم المعلومـات المسـتجمعة، لـم يكـن فـي المسـتوى المطلـوب وأن هنـاك حاجـة لتحسـين أوجـه النشـاط الاسـتخباري كافـة.[10] ويعـرّف «غودسـن» تجميـع المعلومـات علـى أنـه "قنـص المعلومـات القيمة بطـرق سـرية"، كما يعـرّف التحليل بأنـه "معالجـة المعلومات ومنتجهـا النهائـي". أمـا الاسـتخبارات المضـادة فيعرّفهـا علـى أنهـا "الجهـد المبذول لحمايـة الأسـرار والحيلولة دون اسـتغلالها مـن قبل طـرف أو أطراف أخرى لمصالـح أو أهـداف خاصـة، وتعتمد الـدول لحمايـة أسـرارها في خضم نشـاطها الاسـتخباري المضـاد، بشـكل جزئـي، علـى إجـراءات أمنيـة وتدابير مضادة". وأخيراً يعرّف «غودسـن» العمل السـري على أنه "أي محاولـة تقوم بها حكومة أو كيان، لممارسـة نفـوذ على دولة أخـرى أو إقليم آخر دون أن ينكشـف تورطهـا بذلك".[11]

من الدراسـات المهمة التي صـدرت في هـذا الموضوع ما نشـره الأكاديمي المخضرم «أنجلـو كودفيـلا Angelo Codevilla» تحت عنوان «دعـم إدارة الدولة: اسـتخبارات القـرن الجديـد». وفـي هـذه الدراسـة يتفـق «أنجلـو كودفيـلا» مـع «غودسـن» بـأن العمـل الاسـتخباري يقوم أساسـاً علـى أربعـة ركائـز هي: "التجميـع والاسـتخبارات المضـادة والتحليـل والعمل السـري".[12]

أما الدبلوماسـي السـابق واحـد أهـم رجـال المخابـرات البريطانيـة «جون بـروس لوكهـارت، John Bruce Lockhart» فقـد شـرح طبيعـة العمل الاسـتخباري

مؤكـداً علـى أنه يقـوم علـى أركان خمســة هي:
1. وجود خطة لتحديد الأولويات والأهداف والمتطلبات.
2. جمع المعلومات بوسائل وأساليب سرية «بشرية وتقنية».
3. الاهتمام بالاستخبارات المضادة ومكافحة التجسس.
4. التوسع في العمل السري غير المعرض للانكشاف.
5. تحليــل وتقييم البيانــات المجمعة، وتحويلهــا إلى معلومات اســتخبارية.[13]

ويحــاول «غــاري شــميث، Gary Schmitt» و«إبراهــام شولســكي، Abram Shulsky» وهمــا مــن أبــرز المحافظيــن الجدد فــي الولايــات المتحدة ومــن أكبر مخططــي غــزو العــراق عــام 2003م أن يحددا موقــع الاســتخبارات فــي جداول المعرفة البشــرية ويناقشــا على نحــو مفصل مقولــة الأب الروحي للاســتخبارات الاســتراتيجية «شــيرمان كينــت» حــول العناصــر الثلاثــة التــي تشــكل كُنْـهَ الاســتخبارات وهي المعرفة، والنشــاط، والتنظيم. ولكن -علــى خلاف «كينت»- يعتبر كل مــن «إبراهــام شولســكي» و«غــاري شــميت» أن تحصيــن الدولة ضد أي اختراقــات محتملــة، والحيلولــة دون حصــول الخصــوم أو آخرين أيًــا كانوا على معلومات ســرية أو اســتراتيجية، جــزءاً حيويــاً مرتبطاً بالعمل الاســتخباري الصرف.[14]

ويشرح «شولســكي» وزميله «شــميت» مستشــار الرئيس الأمريكي الأسبق «رونالــد ريغــان» في كتابهمــا المشــترك «الحــرب الصامتــة» مفاهيم وفلســفات وعمليــات التجميــع الاســتخباري، وتحليلهــا وإدارتهــا. ويؤكــدان علــى الطبيعة المزدوجــة بــل المعقدة للعمــل الاســتخباري الذي يشــمل -إلــى جانــب التعامل الفطن مــع المعلومــات الســرية المســتجمعة- الإســهام في إثــارة الخلافــات بين الخصوم والمنافســين، ســواء أكان هــؤلاء دولاً ، أم كيانات، أم فصائل مســلحة، أم تنظيمات أمنية. وهــذا يعني أن الاســتخبارات وفقًا لهذيــن الباحثين "هي أحد

فـروع العلـوم الاجتماعيـة العامة التي تسـعى إلـى استشـراف آفاق المسـتقبل والتـي تهـدف إلى إشـباع حاجـات صنـاع السياسـة والقـرار مـن معلومـات عن الدول الأخـرى، بمـا فيها مسـتقبلها". [15]

وفـي معـرض مناقشـته مسـألة مـا إذا كانـت المهمـة الاسـتخبارية ذات علاقـة بالنظريـة الاسـتخبارية، أو مـا إذا كان يجـدر أن تكـون هنـاك أصـلاً نظريـة اسـتخبارية، يشـير الدكتـور «فيليـب ديفيـز، Philip Davies» مدير مركز الدراسـات الاسـتخبارية والأمنية في جامعة «برونل» البريطانية فـي «لندن» إلى أنه في الوقـت الذي نجـد أن هنـاك نوعاً مـن الاتفاق فـي الولايات المتحـدة على المدلولات التـي ينطوي عليها مصطلح «اسـتخبارات»، إلا أنه ليـس هناك اتفاق عام فـي الـرأي على مدلـولات هـذا المصطلـح فـي الفكـر البريطاني.[16] ويخلص إلى القـول بأن:

> تصورنـا أو تعريفنـا للعمـل الاسـتخباري هـو الـذي يؤثـر فـي أسـاليب التنفيـذ التـي نلجـأ إليهـا حيـن نقـوم بالمهـام الاسـتخبارية. وعلـى أيـة حـال فـإن حجـر الزاويـة لأي فكـر اسـتخباري لابد أن يسـتند إلـى حصيلة الأفـكار والتصورات الكثيـرة المتباينـة وعواقبهـا التـي تؤثر فـي صميم المؤسسـة الاسـتخبارية وعملياتهـا.[17]

ويتنـاول الدكتـور «ديفيز» في بحث آخر بشـيء مـن التفصيـل المفهومين المختلفيـن لمصطلح الاسـتخبارات فـي كل مـن بريطانيـا والولايـات المتحدة ويقـول أنه علـى الرغم مـن وجود:

> «نظـام اسـتخباري مشـترك ومتشـابه يتعامـل مـع المعلومـات الخـام نفسـها وعلـى الرغـم مـن أن المؤسسـتين الاسـتخباريتين تشـتركان فـي وحـدة الهـدف المطلـوب عند

تقييم هـذه المعلومـات إلا أنه يمكـن ملاحظة أن المؤسسـتين تتحركان فـي اتجاهين مختلفين لأسـباب هي فـي المقام الأول ثقافيـة، لا تنظيميـة أو ظرفيـة».[18]

مـن جهـة أخـرى، يحـاول «مايـكل هيرمـان Michael Herman» المؤلـف الأكاديمـي الذي سـبق أن عمـل لأكثر مـن ثلاثيـن عاماً فـي أجهـزة المخابرات البريطانيـة أن يسـبر أغـوار المجتمـع الاسـتخباري فـي كتابـه الـذي يحمـل عنوان «سـلطة الاسـتخبارات في السـلم والحرب»، ويحلـل المكونـات المختلفة للاسـتخبارات ويناقـش قضاياهـا ويركـز تحديـداً علـى قضايـا الدقـة والكفاءة المرتبطتيـن عضويـاً بمسـتوى النجـاح والإخفـاق فـي العمـل الاسـتخباري ثم يقدم عـدة توصيات الغرض منها تحسـين أداء المؤسسـات الاسـتخبارية في ظل النظـام العالمـي الجديد.

ويرسـم «مايـكل هيرمـان» صـورة للاسـتخبارات الغربيـة أكثـر إيجابية من تلك التـي عرضهـا الدكتـور «لاكـور» -الذي أشـير إليـه سـابقاً-. ففـي تقييمه للأعـراف والأنظمـة التـي تحكـم عمـل المؤسسـات الاسـتخبارية البريطانيـة والأمريكيـة، يـرى «هيرمـان» أن أحـد عناصـر القـوة فـي النظاميـن البريطاني والأمريكـي هـو أن المتخصصيـن في جمـع المعلومـات السـرية لا تـوكل إليهم مسـؤولية تقييـم هـذه البيانـات والمعلومـات. ويؤكـد علـى أن استكشـاف جميع الأدلـة المتوفـرة مـن جميـع المصـادر المختلفـة، يوفـر مجـالاً أوسـع لتحليل المعلومـات واسـتخلاص النتائـج منهـا لا سـيما إذا مـا قـورن هـذا المنهـج مع المدرسـة الروسـية للاسـتخبارات التي تؤمن أن الاسـتخبارات في الأساس نتاج تجميع سـري للمعلومـات.[19]

ويتطـرق «محمد جمـال محفـوظ» وهو لواء سـابق فـي الجيـش المصري

فـي كتابـه المدخـل إلـى العقيـدة والاسـتراتجية العسـكرية الإسـلامية، إلـى أنـه مهمـا تعـددت التعاريف لمـا تعنيـه كلمـة الاسـتخبارات فهـي تنطـوي على خمسـة عناصـر رئيسـة هي:

1. الحصول على المعلومات عن العدو.
2. فرز وتقويم هذه المعلومات وتقدير مدى صحتها.
3. تحليل هذه المعلومات وتفسيرها.
4. إمداد المسئولين بالمعلومات واستخلاص النتائج المفيدة منها.
5. الاسـتـفـادة مـن الـمـعـلـومـات ومـا يـسـتـخـلـص مـنـهـا فـي الـتـخـطـيـط وفي اتخاذ القرارات.
6. مقاومة أعمال استخبارات العدو. [20]

وقد عـرف الاسـتخبارات بعـض القـادة العسـكريون العـرب ومنهـم اللواء الركـن محمـود شـيت خطـاب واللـواء الركن محمـد جمـال محفـوظ بأنها:

"هي الخطى المتناسـقة المدروسـة الموجهة، لاسـتخدام كل الوسـائل المتيسـرة، للحـصول علـى كافـة المعلومـات، وتصنيفها وتقديرها لإمداد المسـئولين بالحقائـق والتقديرات الواقعيـة، وفـي الوقت المناسـب، لوضـع اسـتراتيجية الدولة، ولرسـم سياسـات معينـة، ولاتخـاذ القـرارات الـسليمة التـي تكفل سـلامة الأمـن القومي للدولـة."[21]

كما عرف هيثم الأيوبي الاستخبارات في الموسوعة العسكرية بأنها:

«هـي مجموعـة مـن الأجهـزة والتشـكيلات والوسـائل المستخدمة لجمع المعلومات السياسية والنفسية والاقتصادية والعسـكرية الخاصـة بالعـدو وتحليلهـا، والمعاملـة فـي نفس الوقـت على مكافحـة عمليات التجسـس والتخريـب المعادية، وإبطـال أعمال العـدو المماثلـة» [22].

2.7: تطور الثقافة الاستخبارية

لا يمكننا إغفال إسهامات قليلة منشورة هنا وهناك في حقل الدراسات الاستخبارية في العالم العربي، بيد أن هذه الإسهامات مبعثرة، وغير مصنفة، وموزعة على دوريات ومنشورات ذات مقاربات متباينة، واهتمامات متفاوتة التركيز على الشأن الاستخباري. أي أن المشكلة الملحة المتمثلة بعدم وجود بحوث أو دراسات معمقة متخصصة في هذا المجال الحيوي من حقول المعرفة مازالت قائمة. ورغم الإنجازات الكثيرة التي تحققت في معظم المجالات العلمية لا سيما في الدول التي حباها الله بثروات طبيعية فإن العالم العربي عمومًا لا يزال يفتقر إلى مراكز ومؤسسات علمية متخصصة في الاستخبارات وعلوم استشراف المستقبل لمعالجة القصور الكبير، لا في الدراسات المتعلقة بالنشاطات السرية بصفة عامة بل في الثقافة الاستخبارية على وجه خاص. ومن المؤمل ونحن نسعى إلى استجلاء وتأصيل ركائز النموذج الاستخباري العربي الإسلامي أن نسهم في سد جزء ولو يسير من هذه الفجوة التي تعاني منها المكتبة العربية.

ركزت معظم البحوث المنشورة في السنوات القليلة الماضية التي تناولت الكيانات الاستخبارية في العالمين العربي والإسلامي على قضايا محددة تناولت على وجه التحديد العقيدة العسكرية والهياكل التنظيمية، والموارد المالية، وأساليب العمل والأطراف الممولة بالسلاح أو بالدعم المادي أو المعنوي.[23] ولم تسلط هذه البحوث ما يكفي من الضوء على هذه الكيانات باعتبارها منتجة ومستهلكة للاستخبارات.

على أن هناك عوامل عدة حالت ولا تزال تحول دون إعداد دراسات جادة

عـن منابع أو جـذور الفكـر الاسـتخباري الإسـلامي، أبرز هـذه العوامـل يتمثل في حساسـية الموضوع نفسـه التـي جعلت كثيـراً مـن الأكاديميـين والمهتمين بهذا الجانـب من المعرفـة البشـرية ينأون بأنفسـهم وببحوثهـم عما قـد يتأتى لهم بسـبب هذه الحساسـية مـن عواقـب غير سـليمة، لذلـك فضلـوا عـدم الارتباط بهذا النوع من الأبحـاث. ومن المعوقـات الجدية الأخـرى أن مصـادر المعلومات شـحيحة جدًا ومغلفـة بالسـرية والكتمان فضـلاً عـن أن معظم الكوادر السـابقة فـي الكيانـات الاسـتخبارية يتحاشـون الكشـف عـن الأدوار التـي أدوهـا أثناء انخراطهم فـي تلك التنظيمـات خشـية الانتقام.

وقـد أدت العوامـل والظـروف آنفـة الذكـر إلـى شـح المصـادر العلميـة الموثوقة والموثقة عن الأنشـطة الاسـتخبارية عمومـاً حتى أن الحديـث عن عالم الاسـتخبارات وما يدور فيه بـات ضبابياً تلفـه المبالغـات والتبريـرات والدعايات المضللـة. بيـد أن الهجـوم اليابانـي الصاعـق علـى قاعـدة «بيـرل هاربـر، Pearl Harbor» في السـابع مـن ديسـمبر 1941م الذي كان لـه وقع الزلـزال المدمر في نفوس الأمريكيين قد أحـدث تغييراً جذرياً فـي الموقف العام تجاه الاسـتخبارات ودوائرهـا. فبعـد أن كان الحديـث ينحصـر فـي الأروقة السـرية ومقـرات صنع القرار فـي أمريكا عن مدى مسـؤولية القادة العسـكريين عما يجري في سـاحات القتـال، أو عـن الاسـتعدادات الاسـتخبارية لزمن الحـرب أو عن مسـتوى أداء المنتسـبين عموماً أبـان الأزمـات والفتـرات العصيبـة، أصبح هـذا الحديث بعد هجوم «بيـرل هاربـر» مفتوحاً ومباحـاً أمـام كل مـن أراد أن يدلو بدلـوه في هذا الشـأن الذي يمس حيـاة كل فـرد. ولم يكن ذلـك ممكناً لـولا هـول الكارثة التي حلت بالقـوات الأمريكيـة التي ذهـب ضحيتهـا ألفان وخمسـمائة قتيـل أمريكي، ودمـرت فيهـا مائتا طائـرة مقاتلـة وثمانيـة بـوارج حربية وسـت حامـلات عملاقة للطائرات إلى جانب الخسـائر والأضرار البشـرية والمادية والنفسـية الجسـيمة الأخرى.

أثـار الهجـوم الياباني جـدلاً عريضًـا في الأوسـاط السياسـية والعسـكرية والإعلاميـة الأمريكية بل فـي عموم المجتمـع كله، وقـد تمحور هـذا الجدل، من بين أمور أخـرى، حول نقطتيـن أساسـيتين هما: هـل كانت واشـنطن على علم بـأن اليابانيين كانـوا يسـتهدفون القاعـدة الجويـة في «بيـرل هاربـر» ويتحينون الفـرص لدكهـا، أم أنها كانـت تجهل ذلك؟ وفـي حال علمهـا بمخططـات اليابان فلمـاذا حلـت الكارثـة؟ وأيـن الخلـل؟ وهـل فشـلت الأجهـزة الاسـتخبارية في إيصال حصيلـة معلوماتهـا الخطيـرة إلى القاعـدة البحريـة في الميـنـاء؟. [24]

الـذي يهمنا فـي هـذا المجـال أن الإدارة الأمريكية بـكل فروعهـا وأجنحتها أقدمـت إثـر الهجـوم المدمـر علـى بـذل جهـود غيـر مسـبوقة لرصـد مواضـع الضعـف علـى مسـتويي: الأداء الاسـتخباري، والأداء القتالي. وهـذا يعني أن الإخفاقـات الخطيرة فـي «بيرل هاربـر» أجبرت القيادات العسـكرية والسياسـية والاسـتخبارية وكل العامليـن فـي الحقل الأمنـي على فتح نقاشـات جـادة حول السـبل الكفيلـة بمعالجـة ضعـف الأداء الاسـتخباري والحيلولة دون تكـرار ما حدث مسـتقبلاً. وقد أسـهم في هـذا النقـاش أيضاً عـدد كبير مـن الإخصائيين والخبراء والأسـاتذه الأكاديميين في الحقـول الأخرى ذات العلاقة المباشـرة أو غير المباشـرة بعمل الاسـتخبارات كالعلـوم السياسـية والدراسـات الاجتماعية وعلم النفس ووسـائل الاتصـال بالجماهير إلى جانـب أولئـك المتخصصين في العلوم الحديثـة والتكنولوجيـا بمختلف صنوفها وفروعها. وشـهدت فتـرة ما بعد «بيرل هاربـر» صدور العديـد من الدراسـات المتخصصـة التي تعد فـي الوقت الحاضـر مـن المصـادر الرئيسـية فـي المجـال الاسـتخباري. وقـد أشـير إلى بعض هـؤلاء فـي الصفحات السـابقة.

ورغـم كل الاحتياطات التـي اتخـذت والتخصيصـات الهائلة التي سـخرت لتعزيـز وتطويـر أداء الأجهـزة الاسـتخبارية فـي الولايـات المتحدة علـى مدى

العقود التي تلت هجوم «بيرل هاربر» فإن هذه الأجهزة على كثرتها وتنوعها وعظم إمكاناتها المادية والتكنولوجية لم تتمكن من درء كارثة الحادي عشر من سبتمبر 2001م التي أدت إلى جانب الخسائر البشرية الهائلة والأضرار المادية والنفسية الجسيمة. على أن من بين أبرز النتائج العرضية لتفجيرات الحادي عشر من سبتمبر أن النقاش الاستخباري قد تضاعف كمّاً وتطور نوعًا. ولم يقتصر هذا النقاش الجاد الذي اجتاح المحافل المهنية والأكاديمية وغيرها على المؤسسات الاستخبارية والجامعية وهيئات البحوث في الولايات المتحدة فحسب، بل تعداه ليشمل العالم أجمع تقريباً حيث تم إنشاء عدد من مراكز البحوث الأمنية والاستراتيجية وتوالت الإصدارات التي تتناول جوانب عدة مما يتصل بالدراسات الاستخبارية والمستقبلية، وسبل مكافحة ما بات يشار إليه اختصاراً بمسمى «الإرهاب»، فهو لا يرتبط بدين أو بوطن محدد، ولا يرتدي زياً مميزاً، وينفذ عملياته تحت أسماء مختلفة، وهويات متعددة، ويتسم بسرعة التنقل والاختفاء. وعلى أية حال فإن أحداث الحادي عشر من سبتمبر/أيلول، وما تلاها من أعمال إرهابية دعت إلى بحث ونقاش شأن الاستخبارات وتناولها بالنقد أو المساءلة والتحليل.

وهكذا أصبح النقاش حول نجاح أو إخفاق أجهزة الاستخبارات الغربية وأجهزة فرض القانون مفتوحاً على نحو واسع، ليس في الكونجرس الأمريكي، أو البرلمان البريطاني، أو مراكز البحوث، أو أجهزة الأمن القومية في دول العالم فحسب، بل بين عامة الناس وخاصتهم وفي مختلف وسائل الإعلام المرئية والمكتوبة والمسموعة. ففي المملكة المتحدة على سبيل المثال شهدت فترة ما بعد سبتمبر/أيلول 2001م تشكيل عدة لجان برلمانية وقضائية لمناقشة الاستراتيجيات الأمنية وللتحقيق في مستوى أداء الأجهزة الاستخبارية وخرجت هذه اللجان التي ترأستها شخصيات مرموقة سياسياً وقانونياً بعدة توصيات ونتائج أعلنت على الملأ كان من أبرزها التوصيات

التي نشــرتها اللجنة التي ترأســها عضــو مجلس اللــوردات «روبن بتلــر، Robin Butler» وتلك التــي كانت برئاســة اللورد «جيمــز هانتــون، [25] James Hatton» وفي الأوســاط الأكاديمية والإعلامية في بريطانيا وفــي غيرها مــن دول أوربا والعالم عموماً، احتدمت النقاشــات والحوارات الســاخنة في الشؤون الاســتخبارية حتى أصبحت أكثر عمقاً وشــمولاً قياسًــا بما ســبق لاســيما بعد حرب العراق 2003 م وتفجيــرات مدريــد 2004 م وهجمات لنــدن الانتحاريــة 2005 م.

3.7: دورة الاستخبارات Intelligence Cycle

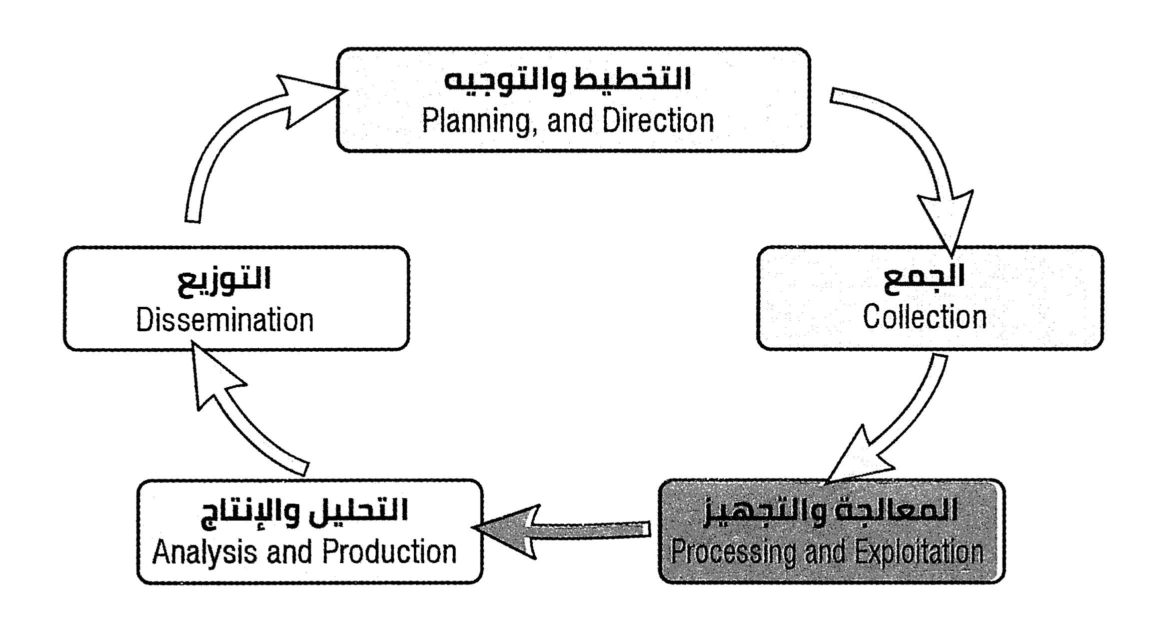
كما بينا سابقاً عند استعراض التعاريف المختلفة لمصطلح الاستخبارات، فليس ثمة اتفاق عام حول تعريف موحد لهذا المصطلح سواء بين قدامى العاملين في حقل الاستخبارات أو الممارسين الحاليين والمتخصصين الأكاديميين، ويعود ذلك ليس فقط لكون هذا المصطلح يحمل معان مختلفة متعددة يفسرها كثيرون كما يرتأون، بل أيضاً لكونه استخدم بمثابة مظلة واسعة تنضوي تحتها سلسلة من الأنشطة الاستخبارية المتنوعة التي تحتويها دورة الاستخبارات.[26] لهذا فإن أي شرح لهذا المصطلح لا بد أن يتم من خلال فهمنا لدورة الاستخبارات ومراحلها الرئيسة الخمسة التي يتم فيها:

1. التخطيط والتوجيه.
2. عملية الجمع.
3. المعالجة والتي يتم فيها التعامل مع البيانات المجزأة لتصبح «معلومات»،
4. التحليل والإنتاج.
5. التوزيع للمنتج النهائي «الاستخبارات».

وهناك أيضاً من يضيف مرحلتين لهذه الدورة وهما: الاستهلاك للمعلومات، والتغذية العكسية.[27]

إلا أن الدورة ذات الخمسة مراحل هي الشائعة الاستخدام. وهذا لا يعني بالضرورة أن كل البينات المستجمعة لابد أن تمر عبر مراحل الدورة

آنفة الذكر لتنتج «استخبارات»، فالاستخبارات كمنتج، أكبر من أن يختصر ويوصف بأنه، مجرد عملية جمع منظم لبيانات مستهدفة، وعلى أية حال فإن بالإمكان رغم كل ما يقال حول صعوبة الإحاطة بتعريف جامع مانع للاستخبارات، القول أن دورة «الاستخبارات» هي التي يمكن من خلالها أن نجد تعريفاً للاستخبارات يمكن التوافق عليه.[28]



نموذج توضيحي لمراحل دورة الاستخبارات

المرحلة الأولى:

التخطيط والتوجيه *"Planning, and Direction"*

وهي المرحلة الأولى في العملية الاستخبارية التي يتم من خلالها التوجيه والتخطيط لجمع المعلومات من المصادر المختلفه وفقاً للمتطلبات الواردة للمنظمة الاستخبارية أو المنبثقة منها. فهنا تحدد الأهدف والمعلومات المطلوبة والجهات التي يمكن الاستعانة بها لتحقيق ذلك، مع تحديد درجة الأسبقية والأهمية للموضوع. وما أن تصدر التوجيهات بذلك

حتى تقـوم الإدارات المختصة في المنظمة الاسـتخبارية بالمباشـرة في التنفيذ، من خـلال ماتم رسـمه والتخطيط لـه. ولا تقتصر المهـام في هـذه المرحلة على ذلك فقـط ، بـل أيضًـا يتـم فيهـا رسـم ووضـع الأهـداف الاسـتراتيجة المراد تحقيقهـا وفقـاً للأولوية التـي تمليهـا عليها أسـبقية تلك الأهـداف، سـواء كانت أهدافـاً اسـتراتيجية عامـة للدولـة أو تخـص المنظمـة ذاتها. كمـا أن الحكومـة ممثلـة فـي وزاراتهـا ومؤسسـاتها المتعـددة تكـون أحيانـاً مـن يوجـه بعملية الجمـع وذلـك مـن خـلال البعـث بمتطلباتهـا للمنظمـة الاسـتخبارية للإجابـة عليهـا، إلا أن معظـم الـوزراء والمسـؤولين لا يفضلـون الاتصـال مباشـرة بالمنظمة الاسـتخبارية و يتـرددون فـي إرسـال متطلباتهم التي تخدم سياسـات تلك الوزارات، ممـا يجعل المنظمة الاسـتخبارية فـي كثير من الأحيـان انتقائية فيمن تـزوده بمنتوجهـا الاسـتخباري.[29]

المرحلة الثانية:

الجمع "Collection"

يعتبر جمـع المعلومات الخـام أو ما قد نطلق عليـه البيانـات، المرحلة الثانية فـي دورة الاسـتخبارات، حيث يقـوم المختصـون بتجميـع المعلومـات المتفرقة وغير المعالجة اسـتخبارياً من المصادر المفتوحة والمصادر السـرية كالبشـرية والتقنية للاسـتفادة منها فـي تحقيق المعرفـة عن الأهـداف المرجوه.[30]

ولا خلاف في العـرف الاسـتخباري في أن تسـتمد المنظمات الاسـتخبارية الجـزء الأكبر من مادتها الاسـتخبارية من المصـادر المفتوحـة، والتي كانت قد قدرت نسـبتها في فتـرة السـبعينيات بما يقـرب مـن 80%، مقارنـة بعصرنا هذا، الذي تميز بثـورة المعلومات، واتسـاع النشـر مما رفع تلك النسـبة إلـى ما يقدر بـ 90%. ومما لا شـك فيه ان فترة السـلم تتسـم بوفـرة المعلومـات المتاحة حيث يمكن الحصول عليها بكل يسـر من خلال الإعـلام المقروء والمسـموع والمرئي

بالإضافة إلى التقارير المتخصصة والمنشورة على صفحات الإنترنت وغيرها من إصدارات مراكز الأبحاث والدوريات والكتب وغيرها. وهكذا فإن ازدياد قنوات نشر المعلومات وازدياد مساحة الحرية للتعبير والنشر أدت دوراً هاماً في تسهيل تدفق المعلومات للمصادر المفتوحة وبالتالي الاستفادة منها من قبل المنظمات الاستخبارية المختلفة.[31] وبالرغم من سهولة الوصول للمصادر المفتوحة واستقاء الكثير من المعلومات منها، إلا أنه يعيبها الكم الهائل المتوفر والذي يشكل عبئاً في تحديد القَيم والمفيد منها. كما أن التعرف على أو التثبت من موثوقية مصادر المعلومات المتاحة يجعل العملية أكثر تعقيدًا.

لم يعد جمع المعلومات مقتصرًا على الاستخبارات البشرية والذي يرمز لها بـ "HUMINT" أي Human Intelligence ، كالمخبرين والمنشقين والخصوم السياسيين والمنفيين والعملاء، بل اتسع ذلك أيضاً ليشمل الاستعانة بوسائل أخرى كأدوات الجمع التقني والذي أصبح له دور فعال في توفير كم هائل من المعلومات الدقيقة ومنها استخبارات الإشارة [32]. " SIGINT" أي Signals Intelligence ، واستخبارات القياس والتوقيع "MASINT" أي Measurement and Signatures Intelligence. واستخبارات التصوير الجوي "IMINT" أي Imagery Intelligence. واستخبارات المصادر المفتوحة "OSINT" أي Open-Source Intelligence.[33]

المرحلة الثالثة:

المعالجة والتجهيز *"Processing and Exploitation"*

وهي المرحلة التي فيها يتم تحويل الكم الكبير من المعلومات المجمعة إلى نوع من الصياغة الشاملة التي يستطيع المحلل الاستخباري عند استلامها استخدامها والبناء عليها في إعداد المنتج النهائي للاستخبارات.

ففيها يتم حذف المعلومات المتكررة والمتناقضة الواردة من المصادر المختلفة وكذلك يتم ترجمة المعلومات المدونة بلغات أخرى وفك تشفير التقارير المرمزة وإدارج معلوماتها في قواعد المعلومات الاستخبارية لتصبح في متناول من يسمح له بالاطلاع عليها.[34]

المرحلة الرابعة :

التحليل والإنتاج *"Analysis and Production"*

يتم في هذه المرحلة تحويل المعلومات الأساسية إلى «استخبارات» لتصبح صالحة للاستعمال من قبل متخذي القرار وصانعي السياسات، وتنطوي هذه العملية على دمج المعلومات المجزأة، واعداد التقييم والتقدير للمعلومات، حيث يعتبر المحلل هو المسؤول الأول والأخير عن تقدير درجة الوثوق والاعتماد والملاءمة للمعلومات موضوع التحليل، ثم يقوم بصياغتها في سياق تسلسلي للمعلومات، وبأسلوب مترابط وتكاملي، جاعلاً الاستنتاج والرأي ضمن سياق «المنتج الاستخباري النهائي» أي ما يسمى «Finished Intelligence».[35]

ولا يقتصر عمل المحلل على الاكتفاء بما يرده من معلومات من مرحلة الجمع، بل يستعين ببرامج حاسوبية تساعده في مهامه التحليلية كالبحث في قواعد المعلومات السرية والعلنية بهدف الاطلاع على المعلومات التي تنير له موضوع التحليل من كافة جوانبه. ولابد أن ندرك بان عملية التحليل ليست بالمهمة السهلة على الإطلاق، فبالرغم من سعة أفق المحلل وتوفر الإمكانات التقنية المساعدة له، إلا أن التحليل في حد ذاته ليس من العلوم الدقيقة كما هو الحال في العلوم التطبيقية، فمهما بلغ المحلل من الدقة والمهارة قد تأتي نتائج تحليله مجانبة للصواب، والعكس أيضاً صحيح، فقد يفتقد المحلل للدقة والمهارة ويأتي تحليله وافياً.[36]

ويجب ملاحظة أن المفردات والأسلوب الذي يكتب به المنتج النهائي للاستخبارات عادة ما يتصف بالحسم والجزم، رغم كونه يتعامل مع حقل يعتمد على مبادئ وأسس الاحتمالات والتقدير. لهذا فإنه من الجوهري أن تنقل الاستخبارات بدقة عالية لمتخذ القرار وصانع السياسات، ليكون ما يبنى عليها واضحاً وسليماً.

كما لا يغيب عن أذهاننا أن هناك منظمات استخبارية في كثير من الدول يكون دورها استشارياً فقط، يقدم التوصيات والاستشارات على أن ليس كل ما ينتجه ملزمًا للأخذ به، وفي الطرف الأخر، هناك منظمات استخبارية يكون دورها في الحكومة أكبر بكثير من النوع السابق، فهي ترسم السياسات وتطالب بتنفيذها وتشرف على ما يترتب عن معلوماتها.

المرحلة الخامسة:

التوزيع *"Dissemination"*

وهي المرحلة الأخيرة في الدورة الاستخبارية التي يتم فيها توزيع الاستخبارات على أصحاب القرار وصانعي السياسات، وقد يكون من نتائج هذه المرحلة أن يصار إلى وضع متطلبات أخرى مما يؤدي بالتالي إلى العودة مجددًا إلى المرحلة الأولى التي انطلقت منها. و ليس هناك ما يميز هذه المرحلة، عدا طغيان الاستعانة بالمفردات «التجارية» على الأطراف المكونة لها. فتستخدم كلمة «المنتج» لتعني الاستخبارات وتطلق كلمة «زبون» على من يرسل له «منتج الاستخبارات»، وأحيانًا تطلق عليهم تسمية «المستهلكين» للاستخبارات. ولكون عصر استخدام الورق والحبر قد بدأ في الإنقراض وأصبحت الاتصالات الألكترونية (الإنترانت والانترلنك... الخ) الأكثر يسرًا وشيوعًا في تبادل المعلومات بين المنظمات الاستخبارية الرسمية وفروعها والمستفيدين منها، إلا أنه لا يمكن استبعاد من قد

يحتاجون إلى تقارير ورقية، أو إيجاز سريع باستخدام الحاسوب المحمول. وتعتمد تقارير الاستخبارات عند توزيعها على من سيستفيد منها أو من يجب أن يطلع عليها، وليس بالضرورة أن كل تقرير يتم إنتاجه لابد أن يمرر ويوزع، فهناك من التقارير الذي يبقى في دائرة الاستخبارات ويتم التحفظ عليه ضمن قواعدها الاستخبارية. [37]

الخـــاتمة

الخاتمة

مارس العرب كغيرهم من شعوب الأرض كافة، العمل الاستخباري واستخدموه بأشكاله المتعددة على امتداد التاريخ البشري. ومن المعلوم أن هذه المهنة الضاربة في أعماق التاريخ لم تكن لتنشأ منذ فجر التاريخ لولا النزعات والصراعات المحتدمة، أحيانًا والمستترة في أحيان أخرى، بين بني الإنسان على اختلاف أديانهم ومعتقداتهم وألوان بشرتهم. ولا غرابة إذن أن تصاحب هذه الحروب والنزاعات انشطة استخبارية متنوعة وحثيثة. وعلى الرغم من أن الإشارات في المصادر الأولية التي بحوزتنا عن العمل الاستخباري قديما ليست واضحة تمامًا أو أنها كثيرًا ما ترد تحت مسميات مصنفه تختلف عن مسميات عصرنا هذا، إلا أنه يمكن للمهتم بهذا الصنف من المعرفة استبيانها بيسر من خلال قرائن وتلميحات متواترة وإشارات ضمنية ليست عصية على الفهم على الرغم من أنها ليست صريحة أو مكشوفة.

فالمعرفة المسبقة عن الاعداء والخصوم والمنافسين كانت ولا تزال مطلبًا أساسيًا لكل من يسعى إلى القيادة أو إلى فرض إرادته أو الانتصار أو تحقيق أهداف معينة كتوفير الحماية والأمن والحيلولة دون تفشي الجريمة أو اندلاع التمرد والعصيان. والعكس صحيح، فالفشل في التوافر على هذه المعرفة أو الإخفاق ولو جزئيًا في التثبت من درجة مصداقيتها ستكون له عواقب وخيمة وتكون القرارات المتخذة عليها وفق «الحقائق» غير المؤكدة مضرة وغير سليمة.

وبالرغم من بدائية الأنشطة الاستخبارية وبساطتها في العصر القديم

مقارنة بما هو متوفر في عصرنا هذا إلا أنها عمومًا كانت تفي بحاجة ممارسيها في تلك الأزمان. وتؤكد الكتب والوثائق التاريخية أن العمل الاستخباري أسهم عبر العصور في إرساء قواعد اتخاذ القرار السليم. فمتى ما توفرت المعلومة اللازمة أصبح مالكها على قدر كبير من الجاهزية والتنبؤ بما قد يضمره الآخرون أو يخططون له، وفي ضوئها يستطيع درء المخاطر المحدقة واتخاذ الإجراء المناسب.

وكغيرهم من بني الإنسان فقد طور العرب العمل الاستخباري وأجادوا مهاراته وطوعوا أنشطته لخدمة أهدافهم وحماية وجودهم. وليس ثمة ما يشير إلى أن العرب الأوائل أنشأوا كيانًا مؤسساتيًا يعنى بهذا الصنف من العمل أي بجمع المعلومات وتحليلها، سواء على مستوى القبيلة أو التحالفات أو الدولة والذي يمكن لنا أن نشير إليه ككيان استخباري مستقل. إلا أنهم كانوا بسبب تواتر المعلومات والحقائق لديهم من روافد عدة جعلتهم متسلحين بالمعرفة المسبقة عند الحاجة إليها. وكان كل ما يحتاجه زعيم العشيرة أو الحاكم أو قائد الغزوة أثناء الأزمات هو إصدار أوامره لأحد ثقاته للقيام بجمع المعلومات بأساليب مختلفة عن الأهداف المطلوبة ثم يبعثها له أو يعود له بها شخصيًا.

وكانت هذه الممارسات وغيرها واسعة الشيوع، ذلك أن غريزة حب البقاء وديمومة السيطرة وتوفير الحماية من القبائل الاخرى كانت تتطلب ذلك. ومن هنا تطورت الانشطة الاستخبارية وتنوعت اشكالها وأساليبها. وكان الانسان العربي على مر الزمن يتقدم في ممارساته الاستخبارية بكافة عناصرها، فالمعلومات الآنية او ما يسمى في عصرنا هذا «الاستخبارات الجارية» “Current Intelligence” كانت اغلب ما كان يحتاجه، فمارس الاستطلاع وكافح التجسس وضلل الاخصام ووفر الامن له ولعشيرته بل قام بعمليات سرية ضد أعدائه ليتخلص منهم أو لإعاقتهم ودرء مخاطرهم.

ويتضح مما وصل لنا من روايات عن أيام العرب، ومن مصادر أخرى متعددة أن العرب القدماء تعلموا من خلال نزاعاتهم وحروبهم الطويلة فيما بينهم، ومع الشعوب الأخرى كيف كانوا يستطيعون الحصول على المعلومات الضرورية لنيل الظفر وانتزاع النصر في النزالات. فتعلموا مثلاً كيف يراقبون المنافسين والأضداد والأعداء بل حتى الأصدقاء على حد سواء، وكيف يرسلون إنذاراتهم المعبرة عن حلول الخطر، أو اقترابه وكيف يمررون معلوماتهم للأطراف المعنية بها مستخدمين الطليعة والربيئة والدليل ونحوه كأهم عناصر الاستخبار لديهم. وما غزارة المسميات المتخصصة لمحترفي هذا الحرفة وكثرة ترددادها في الأدب العربي إلا دليلاً على ازدهار وتوسع هذه النشاطات واستخداماتها آنذاك.

إن وفرة المسميات والنعوت الوظيفية التي أطلقها العرب الأوائل على من امتهن الاستخبار وفروعه أو ما عرف لاحقاً بـ «صاحب الخبر» تشير وعلى نحو واضح إلى أن العمل الاستخباري كان من المهن والأنشطة الهامة التي كان لها قواعدها و أصولها ومتطلباتها في المجتمعات العربية على مر العصور. فالمسميات الوظيفية المحددة لم تكن تطلق جزافًا على كل من يجمع المعلومات سرًا أو ينهض بمهمة استخبارية سرية، بل كانت تلك المسميات تنطوي على توصيف دقيق موضوعي لطبيعة العمل المناط بكل فئة من فئات العاملين في هذا الحقل الضروري والحساس. فالأدلّاء على سبيل المثال صنفوا وفقًا لمهارتهم، وحذقهم، وهدوئهم، ودهائهم ومعرفتهم الدقيقة بطبيعة الأرض وخصائص الروابط الاجتماعية بها. وكذا الحال مع الربيئة والطليعة والعين والسهار والنذير العريان وغيرهم. وتمثل هذه الأنشطة جزءًا من الميراث الثقافي لعرب شبه الجزيرة الذي لم يتبدد أو ينقطع بل توارثه المسلمون فيما بعد، وطوروه لخدمة حاجاتهم الخاصة ومتطلباتهم حسب ما اقتضت ظروفهم الاجتماعية والسياسية وأوضاعهم العامة.

وعلى الرغم من أن العمل الاستخباري العربي قديمًا يبدو لأول وهلة أنه كان بدائيًا لا سيما عند مقارنته بالتطورات الهائلة في ميدان الاستخبارات في عصرنا الحديث، كالمجال التقني ونحوه، إلا أن تلك البواكير لم تكن سوى البذرات الأولى لهذا العمل الشاق المنظم الذي طوره المسلمون وشرعه القرآن ونظمه وذلك في القرون اللاحقة، ليبقى مصدر إلهام على مر الزمن لمن أراد أن يقيس عليه أو يحاكيه.

فإلى جانب كون القرآن الكريم والسنة المطهرة هما المصدران الرئيسيان للشريعة الإسلامية، فإنهما يؤلفان النبع الدائم الذي يتوجه نحوه المسلمون جميعًا على الدوام ومنهم العاملون في عالم الاستخبارات استلهامًا واستقاءً للتعاليم النيرة المكتنزة في هذين المَعينَين. وعلى الرغم من أن الاستخبارات لم تحظ باهتمام استثنائي منفرد سواء في القرآن الكريم أو في الأحاديث النبوية الشريفة إلا أن هناك -كما سبق تبيانه- إشارات واضحة ومباشرة تنير درب العاملين في الحقل الاستخباري وترشدهم إلى السبيل الأمثل لأداء واجبهم الحساس. وهناك أيضًا من الصور الضمنية من عوالم الغيب وقصص الحيوان والأمثلة غير المباشرة ما يمكن عدّه إضاءات إرشادية لكل المنخرطين في الجهد الاستخباري الحساس من الراغبين في الاغتراف من المنهل الخصب الذي يجسده القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

ومن يتمعن في الآيات التي وردت في العديد من السور التي سبقت الإشارة إليها في الفصول السابقة سيجد بما لا يقبل الشك أن العناصر التي تؤلف ما اصطلح على تسميته بالاستخبارات واردة وعلى اختلاف درجاتها في القرآن الكريم منذ أكثر من أربعة عشر قرناً. وليس أوضح من ذلك من الآية الكريمة التي قال فيها يعقوب لبنيه في سورة يوسف ﴿يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه﴾ التي تشير فيما تشير إليه إلى التجميع السري للمعلومات.

أما التثبت من المعلومات وتأكيدها فليس بأقل أهمية، حيث قال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾.

ولتحليل التقارير وصد الشائعات وتحصين المجتمع والحؤول دون ما قد يحدث من تبعات ومخاطر قد تصيب جسد الأمة في الحاضر أو المستقبل، يأمر القرآن المسلمين بالتروي في نقل ما يسمعونه وأن يوافوا صناع القرار والمكلفين بتحمل مسؤولية الحكم ما قد يقفون عليه من أخبار أو شائعات، لا سيما تلك التي تنطوي على ما يثير الريبة أو الخوف وما إلى ذلك. ففي سورة النساء الآية ٨٣ قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٣﴾.

ففي سورة النساء نقرأ تحذيرًا قرآنيًا صريحًا موجهًا إلى كل المؤمنين، يأمرهم القرآن الكريم فيه بأن يكونوا على حذر وتأهب في كل حين، بينما يأمر الله المؤمنين في سورة الأنفال ﴿لا تخونوا الله ورسوله﴾. ومن ضمن أنواع الخيانة المشار إليها هنا التجسس لصالح أعداء الإسلام لتقويض سلطة الدولة الإسلامية وإمرار المعلومات التي تنفع أعداء المسلمين، إما بوعي أو بغير وعي. إن هذه التحذيرات سواء ما كان يندرج منها في إطار خدمة غير المسلمين أو موالاتهم والعمل معهم أو ما يقترب من ذلك، تشير على نحو جلي إلى الأهمية الكبرى التي يوليها الإسلام للاستخبارات المضادة.

هكذا إذًا، وقياسًا على ما سبق فإن القرآن يحوي ثوابت عناصر وأخلاقيات النشاط الاستخباري ويقدم أيضًا نماذج حية تجسد حالات فعلية للنشاط الاستخباري كما جاء ذلك في سورة يوسف مثلاً والتي سبقت الإشارة اليها.

ويوضح القرآن أيضًا وفي عدد من المناسبات، كما في قصة الملك سليمان مثلاً، فنون العمل الاستخباري وتشعباته كالاستطلاع واستكشاف المواقع وجمع المعلومات وإعداد التقارير وتحليل المعلومات وصناعة القرار. ولا بد من الإشارة إلى أن الفترة الأولى من الإسلام، لا سيما في حياة الرسول ﷺ وبدء الدعوة، كانت مليئة بالنشاطات التي يمكن من خلالها استشراف المفهوم القرآني للاستخبارات واستجلاء معالمه. وهذه الممارسات تجسد دون شك أساس المنهج الفكري للاستخبارات وفق المنظور الإسلامي.

إن ما استعرضناه من أنشطة العمل السري في زمن الرسول ﷺ يتضح بجلاء أن الرسول الكريم ﷺ كان منذ البدء يعي تمامًا الدور الذي تؤديه «الاستخبارات» في ضمان نجاح عملياته المتصلة بنشر الدعوة وتثبيت دعائم دولة الإسلام في المدينة وفي تحقيق الأهداف الاستراتيجية والتكتيكية لها. فخلال المرحلة السرية من الدعوة والتي استمرت ثلاث سنوات، شعر الرسول الكريم ﷺ بأنه لابد من اللجوء إلى التكتم التام وتغليف تحركاته واتصالاته كافة بستار كثيف من السرية المحكمة اتقاء لشرور المشركين ومكائدهم. وفي هذا الجو المكي الخانق الذي كان القرشيون يراقبون فيه كل حركة يقوم بها النبي ﷺ ويسعون إلى سماع كل كلمة ينطق بها توجه الرسول ﷺ بادئ ذي بدء نحو الذين يعرفهم وبعد أن ضمن ولاء هذه الصفوة المختارة، أخذ يعلم ويدرب «المنظمين» الجدد ويعرّفهم بالإسلام ويثقّفهم في أمور الدين دون خشية من غدر أو خيانة. أي أن السرية التامة التي باتت أبرز سمات تلك الفترة المبكرة من الدعوة كانت ضرورة حتمتها الظروف التاريخية التي نشأ الرسول الكريم ﷺ في كنفها والتي كانت تهدف أولاً وقبل كل شيء إلى الحيلولة دون دحر الدين الحنيف قبل أن ينمو ويتجذر.

وخلال الفترة التالية، أي بعد أن انتظم في الدين الجديد مسلمون

آخرون من «قريش» وبعد أن تم تأسيس قاعدة صغيرة لكنها قوية مقتدرة، قرر الرسول ﷺ أن يطور اسلوب الدعوة ويرفع جزءًا من السرية التي كانت تغلف جميع أوجه الدعوة الإسلامية وذلك داخل المجتمع المكي، وأصبح أقل سرية في دعوته الى الإسلام، ليس في أوساط أهل مكة فحسب، بل مع من جاءوا إلى مكة لأسباب تجارية أو دينية أو شخصية أيضًا.

وتبدأ المرحلة الثالثة عندما هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة حيث نجح في تثبيت دعائم أول دولة إسلامية عرفتها البشرية. وقد شهدت هذه المرحلة الأخيرة مواجهات عنيفة ودامية بين المسلمين الجدد وبين الذين رفضوا التخلي عن دين آبائهم واجدادهم وحاولوا وأد الدعوة الجديدة في مهدها. وخلال هذه الفترة تحديدًا يمكن القول أن العمل الاستخباري الإسلامي قد بلغ مرحلة مشهودة من النضج الوظيفي والتطبيقي وقد توضحت معالم شرعيته وتثبتت الفروق بين ما هو حلال وما هو محرم فيه. وتم تبني تكتيكات وأساليب جديدة لحماية الدولة الناشئة ونشر الدين الجديد خارج حدود نواة دولة الاسلام.

ومن المؤكد أن النشاطات الاستخبارية التي قسمناها إلى التجميع السري والتحليل والتوزيع والاستخبارات المضادة والعمليات السرية أسهمت على نحو كبير في إقامة أولى قلاع الإسلام في المدينة. بل إنها أثرت على نحو جلي في الفترات التي تلت العصر النبوي والتي امتدت عبر التاريخ الإسلامي في مختلف العصور. وهنا لا بد أن نقرَّ مجددًا ونؤكد على أن العناية الالهية والأبعاد الروحية والأخلاقية السامية المتجسدة في الدعوة الاسلامية هي الأسس المتينة التي استندت إليها نجاحات الرسول ﷺ أولاً وأخيرًا. بعد ذلك يبقى القول أننا إذا ما أردنا أن ننظر إلى نشوء الدعوة واتساعها من منظور تاريخي إنساني فإنه لا يمكن أن ننكر الدور الذي نهضت به الاستخبارات

الإسلامية في المساعدة على إقامة الإسلام ونشره في أنحاء الجزيرة. فهذه العمليات والنشاطات والأساليب «الاستخبارية» التي تم تطبيقها خلال المراحل الثلاث من الدعوة الإسلامية، أنشأت لنفسها وبقوة، مكانة في التاريخ الإسلامي كجزء من الميراث الذي يحاول المسلمون أن يتبعوه ويستلهموه ويقتدوا به.

لقد حظيت الاستخبارات السياسية "Political Intelligence" والاستخبارات العسكرية "Military Intelligence" باهتمام في الدولة الإسلامية منذ أوائل عهدها. فنجد أن كتب السير والمغازي للعهد النبوي تتحدث بشيء من التفصيل عن الغزوات والمعارك التي خاضها رسول الله ﷺ في جميع مراحل الدعوة. وفيها ما يشير وبوضوح لا شك فيه إلى أنه كان يولي الاستخبارات العسكرية أهمية بالغة. فقد عمد رسول الله ﷺ إلى العمل على جمع المعلومات واستطلاع أرض المعارك ومراقبة العدو قبل النزال بعد الانسحاب من أرض المعركة أيضًا. ومن جانب آخر تمكن الرسول الكريم ﷺ من خلال الإيفاد المتكرر للطلائع والربايا والكشافة والادلّاء، وإبقاء العدو القرشي وغيره تحت الملاحظة المستمرة وتحقيق الحماية اللازمة للحدود المتاخمة للمدينة من أي اعتداء، أن يشيد صرح الإسلام ليشع بهاءًا من «المدينة المنورة» فيغمر أرجاء الدنيا كافة. وإلى جانب كل ذلك فقد عمل الرسول الكريم ﷺ على حرمان الأعداء والخصوم من معرفة خطط وتحركات واهتمامات القادة ونواياهم حيث أظهرت الغزوات النبوية الشريفة العبقرية الفذة التي يتمتع بها سيد الخلق رسول الله ﷺ والتي مكنته من تطوير العمل الاستخباري بنشاطاته المختلفة. وكان ذلك من خلال استخدامه الأمثل للمصادر البشرية والجواسيس والاستفادة من معلومات الأسرى والسجناء وتطبيق مبادى السرية والكتمان والتورية في مقاصد الحملات العسكرية، ومكافحة التجسس، وحرمان الخصم من أي امتيازات قد يحصل عليها.

وقد نوقش ذلك باستفاضة في فصول الكتاب السابقة. ويجدر التنويه هنا إلى أن الرسول الكريم ﷺ قد أمهر في تعامله مع جواسيس العدو الذين ينكشفون له كالمنافقين في المدينة حيث أبقاهم تحت الملاحظة المستمرة «كعبد الله بن أبي» ومن هم على شاكلته، أما الجواسيس الذين يلقى القبض عليهم في الغزوات أو المعارك أو داخل المدينة، فيتم عادة استجوابهم وعرض الإسلام عليهم ونادرا ما يتم قتلهم. ولم يكن الإجراء الأخير مستغربًا في تلك الحقبة من الزمن لا سيما بعد أن نزلت آيات الأمر بالقتال. أما من يعتنق الإسلام فيلحق بجماعته أو يبقى في «المدينة» مع أصحاب رسول الله ﷺ وقليل منهم من تم توجيهه وفقًا لأهمية موقعه بين قبيلته لخدمة الدين الحنيف أو يطلب منه الاضطلاع بموقف معين يصب نتاجه في مصلحة الإسلام والمسلمين. ولا نبالغ هنا عندما نجد أن عبقرية رسول الله ﷺ قد وجهت قسمًا منهم بالبقاء في أماكنهم وإحاطة ذلك بستار من السرية والكتمان، فعمل بعضهم كعين لصالح المسلمين ولنا في «العباس بن عبد المطلب» رضي الله عنه مثال يوضح هذا الصنف من العيون.

إن العيون المتمرسة آنذاك كانت قبل أي معركة أو غزوة تستطلع القوات الغازية، وترصدها، وتقدر تعداد قواتها، وتبعث لقياداتها بتقييم أقرب للواقع وذلك من خلال استدلالات مستمدة من الحقائق الماثلة على الأرض. ومن المؤشرات التي كانت تنطوي على معلومات استخبارية مهمة عدد الركائب التي يمتطيها الخصوم أو الماشية التي ينحرونها لوجبات أفراد قواتهم العسكرية. وقد رأينا ما استنبطه النبي ﷺ وأصحابه من تفاصيل مهمة جدًا في أحداث معركتي «بدر» و«أحد». وإلى جانب الرصد المتواصل لجيش العدو وتحركاته فإن الوقوف على استعداد السرايا للغزوات أو جاهزيتها للتصدي لأي اعتداء قد يكون وشيكا كان من الأسباب التي أدت إلى تحقيق النصر على أعداء المسلمين.

وبصفة عامة يمكن أن نلحظ أن ممارسة الأنشطة الاستخبارية في العهد النبوي بكل مراحله قد تدرجت في التطور والاتقان. فانتقلت من ممارسات بسيطة تعتمد على الملاحظة لتحركات العدو وطرق سيره ونقل أخباره وصفياً مع إعطاء التوقعات المحتملة أو نحو ذلك إلى تكثيف لأعمال الكشافة والطلائع والربايا والعيون وتحليل المواقف السياسية والعسكرية واستغلال المعلومات الاستخبارية لتنفيذ انسب الحلول ولاتخاذ الإجراءات التي تصون الأمن العام وتذود عن شوكة الاسلام.

ولتحقيق النصر فإن القائد العسكري المحنك يسعى دائمًا إلى حجب معلومات قواته الحقيقية عن العدو مستخدمًا كافة الطرق والوسائل لتحقيق ذلك. ومنها أساليب التضليل والخداع وبث المعلومات المغلوطة عمدًا بهدف التشويش على الخصم، الذي يسعى جاهداً للحصول على تلك المعلومات. ومن تلك المعلومات تعداد القوات وتسليحها ومدى جاهزيتها. فمن الأهمية القصوى لأي قائد عسكري أن تتناسب قواته المشاركة في أي معركة مع قوات الخصم، وأن لا يقدم على أي تعرض دون أن تكون هناك فرصة واقعية للنصر. ولن يكون ذلك ممكنًا إلا إذا كان القائد مسلحًا بالمعلومات الاستخبارية المستقاة من الاستطلاع لأرض المعركة، ومن طوبوغرافيتها، وتوظيف كل ذلك لصالح قواته لتحقيق الانتصار. إن تسخير كافة الموارد والخبرات اللازمة لإنجاح أي حملة عسكرية لا يكفي إن لم تكن هناك معلومات استخبارية دقيقة يتحرك القائد في ضوئها ويرسم خططه وفقًا لما يرِد في هذه المعلومات الاستخبارية.

على أن الحاجة للاستخبارات الاستراتيجية "Strategic Intelligence" عند العرب لم تظهر أو تستشعر على نحو خاص إلا عند ظهور الإسلام وتكوين نواة الدولة الإسلامية في «المدينة المنورة». حينما كانت دولة الإسلام تنظر

بريبة وحذر إلى الإمبراطورتين المجاورتين: البيزنطية والفارسية. وكانت الحاجة إلى توفر المعرفة المسبقة عن نواياهم وخططهم وتحركاتهم العدائية قد تصاعدت، فنشط رجال العمل الاستخباري في جمع التفاصيل الدقيقة، والمعلومات الاستراتيجية لمعرفة تلك النوايا لدرء المخاطر المحتملة. فبعد «غزوة مؤتة» وازدياد تعداد الجيش الإسلامي أصبحت الحاجة لتوفير الاستخبارات الاستراتيجية، والاستخبارات التكتيكية "Tactical Intelligence" أكثر إلحاحًا. وقد أدت الخطوات التي اتخذت لمعالجة هذا الأمر إلى تطور أساليب جمع المعلومات، والعناصر الاستخبارية الأخرى، وفروعها حتى أصبحت أكثر تقدمًا استخباريًا من جارتيها الامبراطوريتين العظميين آنذاك اللتين ما لبثتا أن انهارتا لاحقًا أمام جيوش الإسلام الزاحفة المسلحة بالإيمان وعدالة القضية إلى جانب علوّ كعبها في المجال الاستخباري.

وختامًا لا بد من الإشارة إلى أن أحد أهم الأهداف التي كنت أرمي إلى إبرازها في هذا الكتاب هو استجلاء وتحديد معالم المفهوم العربي الإسلامي للاستخبارات وتبديد الفكرة السائدة بأن المفهوم العربي للاستخبارات كان منسوخًا من الحضارات المجاورة له قبل الإسلام وحديثًا من النموذج الغربي والأمريكي أو النموذج الروسي. فبالرغم من أن العرب كانوا في العصور التي سبقت ظهور الإسلام محدودي الاحتكاك بالقوى الأجنبية المجاورة كالبيزنطية والفارسية، عدا مملكتي الغساسنة والمناذرة شمال الجزيرة العربية في بلاد الشام والعراق، إلا أن تلك العلاقات لم ترق إلى المستوى الذي أمكن فيه تحقيق أي شكل من أشكال التعاون الاستخباري بينهم. وعلى أية حال فقد كانت القوتان العظميان آنذاك تفتقران إلى أجهزة استخبارية متطورة ولو بمقاييس ذلك العصر. وكانت قوتا امبراطوريتهما تعتمدان اساساً على جبروت القوة العسكرية وضخامة عساكرها المجندة وليس على سطوة قدراتها الاستخبارية .

الهوامش

مقدمة

1. معظم الكتابات عن الاستخبارات في الشرق الأوسط تركز على «إسرائيل». ومن بين القلائل الذين كتبوا عن الاستخبارات في العالم العربي هو الكاتب «أندرو راثميل»، على سبيل المثال انظر:

Brotherly Enemies: The Rise and Fall of the Syrian-Egyptian Intelligence Axis, 1954- 1967, Intelligence and National Security 13(1998), 230 - 253.؛ Rathmell, Andrew. Secret War in the Middle East: The Covert Struggle for Syria, 1949- 1961 (New York, 1990).

2. Dilks, D.O., The Missing Dimension (Urban, IL: University of Illinois Press, 1984), 1 .

3. سورة «الجمعة»، الآية: 2.

4. سورة «آل عمران»، آية: 314 .

5. انظر تفسير «ابن كثير» على الرابط التالي:

http://quran.ksu.edu.sa/tafseer/katheer/sura62-aya2.html

6. Neustadt R.E. and E. May, Thinking in Time (New York: Free Press, 1986), 233 .

تمهيد

1. Peter Jackson, and Jennifer Siegel. *Intelligence and Statecraft: The use and Limits of Intelligence in International Society* (Westport, Conn.: Praeger, 2005), 1.
2. Angelo Codevilla. *Informing Statecraft: Intelligence for a New Century* (New York: Free Press,1992), 1.
3. Adda B. Bozeman, *Strategic Intelligence and Statecraft: Selected Essays,* (Washington: Brassey's, 1992), 25.
4. "رغم التشابه الكبير بين النظامين في طرق تجميع معلومات الخام، يواكبه في نفس الوقت التقييم المشترك كهدف، الا انه يمكن رؤية النظامين على أنهما يتحركان في اتجاهين مختلفين لأسباب ثقافية في المقام الأول، لا لأسباب الهيكلة أو الظرفية.» انظر:
   Philip Davies, Intelligence Culture and Intelligence Failure in Britain and the United States, *Cambridge Review of International Affairs,* 17, no. 3 (October 2004): 520.
5. Bruce D. Berkowitz and Allan E. Goodman, *Best Truth: Intelligence in the Information Age* (New York: Yale University Press, 2000), 147.
6. John D. Stempel, The Impact of Religion on Intelligence, *International Journal of Intelligence and Counterintelligence,* 18:2 (2005), 282.
7. سورة «النحل»، الآية: 89.
8. انظر تفسير ابن كثير على الرابط التالي:
   http://quran.ksu.edu.sa/tafseer/katheer/sura16-aya89.html#katheer

9. يشير السجل الإنساني القديم منه والحديث إلى أن السرية والتخفي والنشاطات السرية بات جزءاً لا يتجزأ من النمط العام للحياة، وأن الصراع والتآمر والخداع باتت من معالم العلاقات السياسية والاجتماعية بين البشر وأن تصوراتنا عن العدو تتسم بالدقة، وأن القتال ينظر إليه بشكل إيجابي وعلى أنه عمل نبيل، وأن الناس لديهم استعداد عال لممارسة العنف. وإن الثقة والوئام والسلام يسود في المجتمعات الصغيرة التي يعرف أفرادها بعضهم بعضاً وتجمعهم افكار مشتركة انظر:
Bozeman, Strategic Intelligence and Statecraft, 106 -107.
10. Ahmed Youssef Rimawi, *The History Of The Palestinian National Struggle In The Twentieth Century* (Beirut: n.p. 1998), 205 -212.
11. Stempel, The Impact of Religion on Intelligence, *International Journal of Intelligence and CounterIntelligence,* 18:2 (2005), 281.
12. سورة التوبة، الآية 120.
13. محمد جمال الدين القاسمي، تفسير القاسمي: محاسن التأويل (بيروت: دار الفكر، 1978)، 5، الجزء الثامن:357.
14. تفسير بن كثير، سورة التوبة، الآية:120.
15. Samuel P. Huntington, *The Clash of Civilizations and the Remaking of the World Order* (New York: Touchstone, 1996), 263.
16. Richard Gabriel, *Islam's first great general,* (Norman:University of Oklahoma Press,2007), xviii.
17. أبو الفرج وإبراهيم إبياري، كتاب الأغاني (القاهرة: طبعة خاصة تصدرها دار الشعب، 1969)، حيث يذكر أمثلة كثيرة عن حروب طويلة، أمثال البسوس وداحس والغبراء.

الفصل الأول

1. فاتح عبد السلام هارون، رسائل الجاحظ (القاهرة: مكتبة الخانجي، 1964)، 1: 145.
2. انظر لسان العرب، 2: 1090 تحت كلمة الخبر. الكلمة مستعملة في القرآن كثيرا في شكل «خبير»، وكما في سورة فاطر، الآية 14: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ وفي سورة النمل، الآية 88: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾.
3. انظر كل من الكلمات «الرسائل» و«التقارير» و«الخطابات» و«الاتصالات» في القواميس والمعاجم: تاج العروس، لسان العرب، القاموس المتحد، الغني.
4. ومع ذلك، فقد اعتمدت بعض الدول العربية، مثل المملكة العربية السعودية، مسمى «استخبارات» للاشارة الى ما قد تطلق عليه بعض الدول العربية الأخرى مسمى «مخابرات».
5. انظر كلمة «جاسوس»، في معجم لسان العرب، والقاموس المتحد، والغني.
6. انظر كلمة «ناموس»، في المصدر السابق.
7. محمد بن علي الشوكاني، فتح القدير (بيروت: دار الفكر، د.ت.)، 40.
8. سورة الحجرات، الآية :12.
9. انظر شرح الإمام الألباني على الرابط التالي:

http://kulalsalafiyeen.com/vb/showthread.php?t=43115

10. سورة يوسف، الآية: 87.

11. تفسير بن كثير، سورة الحجرات، الاية: 12. على الرابط التالي:
http://quran.ksu.edu.sa/tafseer/katheer/sura49-aya12.html

12. ابن منظور. لسان العرب، تحت كلمة «عين».
http://www.baheth.info/all.jsp?term
وانظر كذلك: مرتضى الزبيدي، تاج العروس، على الرابط التالي:
http://www.alwaraq.net/Core/waraq/coverpage?bookid=282&option=1

13. الصاحب بن عباد، المحيط في اللغة: على الرابط التالي:
http://www.baheth.info/all.jsp?term
كما انظر: المرزوقي. شرح ديوان الحماسة، 447.

14. مرتضى الزبيدي، تاج العروس على الرابط السابق. وانظر الزمخشري، أساس البلاغة، 106.

15. انظر الكلمة في المصدر السابق، تاج العروس.

16. انظر الكلمة في المصدر السابق.

17. الخليل بن احمد الفراهيدي، معجم العين، 8: 113.

18. راجع كلمة «مهرول» على الرابط التالي:
http://www.baheth.info/all.jsp?term

19. انظر كلمة «حوس» في (العباب الزاخر) على الرابط السابق وتعني بِغيَةُ مُتَأنٍّ مُتَثَبِّتٍ.
http://www.baheth.info/all.jsp?term

20. انظر لسان العرب، تاج العروس تحت كلمة فيج.

21. انظر المصدر السابق تحت كلمة شيفة.

22. انظر المصدر السابق تحت كلمة بغية او حواس.

23. انظر المصدر السابق تحت كلمة خريت.

24. انظر المصدر السابق تحت كلمة مئم.

25. انظر المصدر السابق تحت كلمة نقرس.

26. انظر المصدر السابق تحت كلمة حمك.

27. الزمخشري، اساس البلاغة، 133.

28. المرزوقي، شرح ديوان الحماسه، 447.

29. تاج العروس، مصدر سابق.

30. الميداني، مجمع الأمثال، 270-288.

31. المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، 900.

32. انظر كلمة طليعة في معجم لسان العرب.

33. أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني (بيروت: دار الكتب العلمية، 2002)، 12:181.

34. الواقدي، فتوح الشام، 202.

35. الأصفهاني، الأغاني، 20:45.

36. عروة بن الورد العبسي، ديوان عروة بن الورد (بيروت: دار الكتاب العربي، 1994)، 55.

37. أوس بن هجر، ديوان ت.محمد يوسف نجم (بيروت:دار صادر، 1979)، 68 .

38. الأصفهاني، الأغاني، 8:252.
39. أبو شامة المقدسي، الروضتين في أخبار الدولتين: النورية والصلاحية، 220.
40. رينهارت دوزي، تكملة المعاجم العربي، 1147.
41. انظر كلمة الفيوج، تاج العروس.
42. الراضي الصاغاني، العباب الزاخر، 450.
43. انظر الكلمة في تاج العروس، لسان العرب، القاموس المتحد.
44. المصدر السابق.
45. طُفَيل بن عوف بن كعب، من بني غني، من قيس عيلان. شاعر جاهلي، فحل، من الشجعان وهو أوصف العرب للخيل وربما سمي (طفيل الخيل) لكثرة وصفه لها.
46. انظر معجم لسان العرب كلمة (فيج) الفَيْج، على الرابط:
http://www.baheth.info/all.jsp?term
47. انظر لسان العرب على: كلمة بغيَةُ. على الرابط:
http://www.baheth.info/all.jsp?term
48. لسان العرب، مصدر سابق.
49. لسان العرب، حرف الخاء، مصدر سابق.
50. هو رؤْبة بن العجّاج بن رؤْبة بن لبيد بن صخر، ينتهي إلى زيد مناة التميمي الراجز المشهور مِن أعْراب البصْرة. أدرك الدّوْلتين، وكان لغويًا علامة، وأراجيزه مشهورة، وتوفي بالبصرة سنة 145 هـ.
51. الميداني، مجمع الأمثال، 176.
52. لسان العرب، مصدر سابق.
53. انظر كلمة أمم في المصدر السابق.
54. الأصفهاني، الأغاني، 21:386.
55. انظر ص 82.
56. http://krc.orient.ox.ac.uk/resources/publications/macdonald/Ancient%20Arabia%20a%20Brief%20History%20and%20Time-Line.pdf
57. المصدر السابق، 5-7.
58. علي عزالدين هبن الأثير، الكامل في التاريخ (بيروت: دار سادير، 1982)، 139.
59. منقولة بتصرف من: P. Youle, Putzger, historic world atlas
60. Sir John Glubb, *A Short History of the Arab Peoples* (London: Hodder and Stoughton, 1969).
61. Ibid., 234.
62. Ibid., 236.
63. الأصفهاني، الأغاني، 12: 159.
64. خيرالدين زركلي، الأعلام (بيروت: دار العلم للملايين، 2002)، 2: 153 – 154.
65. ابو فرج الاصبهاني. الأغاني. (د.ت) 12: 158.
66. الأصفهاني، الأغاني، 5: 2-130.
67. A.F.L. Beeston, *Warfare in ancient South Arabia* (2nd-3rd centuries A.D.): studies in

old South Arabian epigraphy Series fasc. 3 (London: Luzac, 1976), 711.

68. Glubb, *A Short History of the Arab Peoples,* 25.

69. Philip K. Hitti, *The Arabs: A Short History* (London: Macmillan, 1950), 13.

70. للاستزادة ينظر الفصل الخامس والخمسون «الحروب» في الجزء الثاني من موسوعة الدكتور جواد علي الموسوعة (المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام) الجزء الثاني الطبعة الثانية من منشورات جامعة بغداد 1993.

71. عبداللطيف الطيباوي، محاضرات في تاريخ العرب والإسلام (بيروت: دار الأندلس، 1963)، 176.

72. المصدر السابق، 169.

73. للمزيد من التفاصيل ينظر: الدكتور شوقي ضيف، تاريخ الادب العربي: العصر الجاهلي (بيروت: دار المعارف).

74. أوس بن حجر، الديوان، ت. محمد يوسف نجم (بيروت: دار صادر، ب.ت.)، 66.

75. سوق عكاظ بالقرب من مدينة الطائف، أعيد إحياؤه في مكانه القديم ويقوم سنوياً باستلهام ماضيه ومحاكاته، فيحضره المثقفون والمؤرخون وفطاحلة الشعراء ليدلي كل منهم بما تجود به قريحته، حتى أصبح هذا المهرجان السنوي يترقبه من هو متعطش للشعر العربي من ادباء ونقاد وشعراء ويشرف عليه أمير منطقة مكة المكرمة الشاعر الأمير/خالد الفيصل.

76. طه إبراهيم أحمد، تاريخ النقد العربي عند العرب من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري (بيروت: دار الكتب العلمية 2003)، 153.

77. معاهدة حرب البسوس،

http://encyclopedia.aarabiah.net/soundboards-and-war

العرب يستعملون كلمة «الأيام» بشكل رمزي ليرمز إلى أيام الحرب. انظر الأغاني:

http://lexicons.sakhr.com/openme.asp?fileurl=/html/3063614.html (accessed July 05, 2008).

78. أبوفرج الأصفهاني، الأغاني (بيروت: دار الكتب العلميه،2002)، 5: 25.

79. علي عز الدين بن الأثير، الكامل في التاريخ، 1: 507.

80. المصدر السابق، 1: 521.

81. أبوفرج الأصفهاني، الأغاني (بيروت: دار الكتب العلمية،2002)،24: 29-35.

82. محمد التونجي، ديوان لقيط بن يعمر الإيادي، (بيروت: دار صادر، 1998)، 26.

83. انفرد ياقوت بنسبه إلى قبيلة «الأزد» من بين المؤرخين فقال إن اسمه «لقيط بن يعمر الأزدي».

84. ابن عبدربه، العقد الفريد، 1: 80.

85. ديوان لقيط، مصدر سابق ذكره، 22.

86. ابن قتيبة الدينوري، الشعر والشعراء، 1: 103.

87. محمد التونجي، مصدر سابق ذكره، 22.

88. قبيلة اياد هي أكبر القبائل العربية التي هاجرت من تهامة غرب الجزيرة العربية، واستقر بها الحال في العراق وعلى مقربة من بلاد فارس، وكانت هذه القبيلة ذا باس وسؤدد، هاجمت جيوش كسرى فخطط لأبعادها عن حدوده الا انها هزمته المرة تلو الأخرى.

89. محمد التونجي، مصدر سابق ذكره، 72 - 73. ؛ ابن قتيبة الدينوري، مصدر سابق، 1: 103.

90. محمد التونجي، مصدر سابق ذكره، 74 - 90. ؛ الاصفهاني، الأغاني، 22: 357.

91. ديوان لقيط، مصدر سابق ذكره، 23. حيث يوضح المحقق ان القصيدة تلك بلغ علمها لكسرى فسخط عليه،

وقطع لسانه ثم قتله.

92. الأغاني مصدر السابق، 1: 181.
93. المصدر السابق، 24 :29ـ35.
94. المصدر السابق، 1: 586.
95. انظر أعلاه ص: 33
96. علي عز الدين بن الأثير، الكامل في التاريخ، 1: 492.
97. انظر أعلاه ص: 47 و 48.
98. انظر ما ورد من شرح عن معنى النذير العريان في معجم لسان العرب؛ محمد اسماعيل البخاري، صحيح البخاري، (دار ابن كثير، 1993)، 6: 2656.
99. المصطلح «عيون» كان حتى بداية القرن العشري اسماً شاع إطلاقه على الجاسوس، خصوصًا في الجزيرة العربية. انظر محمد سلام زناتي، نظم العرب القبلية المعاصرة، (بيروت: 1994)، 2: 1326.
100. انظر كلمة «ربيئة» في تاج العروس، القاموس المحيط، الأغاني.
101. على عز الدين بن الأثير، الكامل في التاريخ، 1: 116. انظر موقع الباحث العربي على كلمة الرواد على الرابط: http://www.baheth.info
102. أبو عبيد عبدالله بن عبدالعزيز البكري، معجم ما استعجم (د.م.، د.ت.) 1: 80.
103. وجاء في لسان العرب ان كلمة «الرُّوَّاد» وهي جمع كلمة «رائد»، "وأصل الرائد الذي يتقدّم القوم يُبْصِر لهم الكلأ ومساقط الغيث، ومنه حديثِ الحجاج في صفة الغيث: ... وفى حديث وفد عبد القيس: إِنَّا قوم رادَةٌ؛ وهو جمع رائد كحاكة وحائك، أي نرود الخير والدين لأَهلنا".
104. أبو عبيدة معمر بن المثنى، أيام العرب قبل الاسلام: نقائض جرير والفرزدق (بيروت: دار الكتاب العربي، 1908ـ09)، 2: 650 ـ 75، 781ـ84.
105. رعد محمود أحمد برهاوي، العيون والجواسيس في الدولة الإسلامية منذ عهد الرسول ﷺ وإلى نهاية العصر الأموي (إربد: دار المتنبي، 2001)، 26.
106. أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك ت. عبد السلام هارون (د.م.، 1960)، 1: 617ـ625.
107. عثمان بن عمرو الجاحظ، البيان والتبيين، ت. عبد السلام هارون (الكويت: المكتب العربي، 1968)، 1: 98.
108. البكري، معجم، 1: 92.
109. المصدر السابق، 2: 411.
110. مصعب بن عبد الله الزبيري، كتاب نسب قريش، صححه وعلق عليه ليفي بروفنسال (القاهرة: دار المعارف للطباعة والنشر، 1953)، 210.

الفصل الثاني

1. سورة فصلت، الآية: 42.
2. سورة يوسف، الآية: 111.
3. سورة الحجر، الآية: 9.

4. ابو عبدالله محمد القرطبي، تفسير القران (دار إحياء التراث العربي: بيروت، 1985) ، 84:40. و
Philip Hitti, *History of the Arabs,* 116.
5. صحيح البخاري، باب جمع القرآن. حديث رقم 4701.
6. "روى البخاريّ عن زيد بن ثابت قال: أرسل إليّ أبو بكر مقتل أهل اليمامة وعنده عمر، فقال أبو بكر: إن عمر أتاني فقال إن القتل قد اسْتَحَرّ يوم اليمامة بالناس، وإني أخشى أن يستحرّ القتل بالقراء في المواطن، فيذهَب كثير من القرآن إلاّ أن تجمعوه، وإني لأرى أن تجمع القرآن؛ قال أبو بكر: فقلت لعمر كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول ﷺ؟ فقال: هو والله خير؛ فلم يزل يراجعني حتى شرح الله لذلك صدري، ورأيتُ الذي رأى عمر. قال زيد: وعنده عمر جالس لا يتكلم، فقال لي أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل ولا نَتّهمك، كنتَ تكتب الوحي لرسول الله ﷺ، فتتبع القرآن فاجمعه، فو الله لو كلّفني نقلَ جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ مما أمرني به من جمع القرآن؛ قلت: كيف تفعلان شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ، فقال أبو بكر: هو والله خير؛ فلم أزل أراجعه حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر، فقمت فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع والأكتاف والعُسُب وصدور الرجال، حتى وجدت من سورة «التوبة» آيتين مع خُزيمة الأنصاري لم أجدها مع غيره".
7. انظر الرابط التالي: https://goo.gl/images/OJE3DY
8. سورة الروم، الآية: 37.
9. سورة يوسف، الآية: 111.
10. سورة الزمر، الآية :27.
11. سورة الكهف، الآية: 54.
12. ابو عبد الله محمد الدمشقي، الأمثال في القرآن الكريم (د.م.، د.ت.)، 1.
13. سورة القصص، اية: 4-13.
14. سورة يوسف، اية:67-87.
15. تفسير الآيتين، 67 و87 من سورة يوسف: سمرقندي المسمى بحر العلوم، تفسير القرآن (بيروت: دار الكتب العالمية، 2006)، 165:2. انظر ايضاً: محمد طاهر عاشور. تفسير التحرير والتنوير (تونس: دار سحنون،1997). 20:13. كما انظر: تفسير الوسيط الطنطاوي على الرابط:
http://quran.ksu.edu.sa/tafseer/qortobi/sura39-aya27.html
16. أبو الفرج جمال الدين البغدادي، زاد المسير (بيروت: دار الفكر، 1987)، 190:4.
17. سورة النساء، الآية: 71.
18. أبو عبد الله محمد القرطبي، تفسير القرطبي (بيروت: دار احياء التراث العربي، 1985)، 275:5.
19. أحمد الصاوي المالكي، تفسير الجلالين (القاهرة: دار الفكر العربي، 1999)، 117:3.
20. عبد الرحمن بن ناصر السعدي. تفسير السعدي (القاهرة: المكتبة التوفيقية، د. ت.)، 169:1.
21. سورة النمل، الآية: 20 - 22.
22. ابو جعفر الطبري. تفسير الطبري (دار المعارف: بيروت، 1992)، 93:19.
23. سورة النمل، الآية:23.
24. سورة النمل، الآية: 24 - 25.
25. سورة النمل، الآية: 27-31. جدير بالذكر هنا أن هناك وثيقة نشرت حديثاً في الارشيف الوطني البريطاني تبين توظيف الحمام في اعمال تجسسية خلال الحرب العالمية الثانية من قبل البريطانيين والنازيين. انظر صحيفة الديلي تلغراف تحت العنوان التالي:

Ben Fenton: Documents Reveal Role of Winged Spies The Daily Telegraph, 21 March 2007. على الرابط التالي:
http://www.telegraph.co.uk/news/uknews/1546107/Documents-reveal-role-of-winged-spies.html

26. سورة الحجرات، الآية: 6.
27. الوليد بن عقبة بن ابي معيط، هو أخ عثمان ابن عفان رضي الله عنه من أمه، أسلم يوم فتح مكة، كان استعمله رسول الله ﷺ على جمع الصدقات من بني المصطلق ثم بني تغلب في عهد عمر ثم ولاه عثمان الكوفة قبل أن يستدعيه ويعزله. انظر: الزركلي. الاعلام. 1314.
28. بني المصطلق هم بطن من قبيلة خزاعة سكنوا قديداً، وبها وقعت غزوة رسول الله ﷺ المعروفة بغزوة بني المصطلق.
29. أبو جعفر محمد الطبري، تفسير الطبري (بيروت: دار المعارف، 1992)، 26:78.
30. سورة النساء، اية: 94.
31. انظر تفسير ابن كثير على الرابط التالي:
http://quran.ksu.edu.sa/index.php#aya=4_94&m=hafs&qaree=husary&trans=ar_mu
32. سورة النساء، الآية: 83.
33. تفسير القرطبي، 5: 291.
34. سورة التوبة، الآية: 73. وقال تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾، سورة النساء، الآية: 88.
35. سورة الممتحنة، الآية :1.
36. ساره وهي من مولاي عبد المطلب كانت، مغنية في مكة وكانت تردد بغنائها أشعار الهجاء ضد رسول الله، أهدر الرسول ﷺ دمه ثم عفا عنها عند فتح مكة وأسلمت.
37. وقد ورد في السيرة الحلبية، روايات ثلاث لنص كتاب حاطب وهي «إن رسول الله ﷺ قد توجه إليكم بجيش كالليل، يسير كالسيل، وأقسم بالله لو سار إليكم وحده لينصرنه الله تعالى عليكم، فإنه منجز له ما وعده فيكم، فإن الله تعالى ناصره ووليه. وقيل فيه: إن محمداً قد نفر فإما إليكم وإما إلى غيركم فعليكم الحذر، وقيل فيه إن رسول الله ﷺ قد آذن بالغزو ولا أراه إلا يريدكم، وقد أحببت أن تكون لي يد بكتابي إليكم."
38. صفي الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم (الإسكندرية: دار الوفاء، 2007)، 1:343.
39. ابو عبد الله محمد الدمشقي، زاد المعا دفي هدي خير العباد (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1996)، 3:252.
40. محمد بن ابي بكر التلمساني، الجوهرة في نسب النبي وأصحابه العشرة (الامارات: مركز زائد للتراث والتاريخ، 2001)، 1:130.
41. انظر معاهدة يهود المدينة على الرابط:
http://www.alhawali.com/popups/print_window.aspx?article_no=4818&type=3&expand=1
42. ابو عبد الله محمد القرطبي، تفسير القرطبي (بيروت: دار احياء التراث، 1985)، 4:396.
43. المصدر السابق، 7:397.
44. سورة الانفال، الآية: 27. انظر الألوسي، تفسير الألوسي، 4:991.
45. ابن كثير، سورة الأنفال، الآية: 27.
46. سورة التوبة، الآية: 47. انظر ابن كثير، تفسير ابن كثير، 8:141.

47. سورة الأحزاب، الآية: 13.
48. سورة الأحزاب، الآية: 12.
49. سورة الأحزاب، الآية: 60.
50. تفسير الآية 60 من سورة الأحزاب: انظر أبو جعفر محمد الطبري، تفسير الطبري جامع البيان في تفسير القرآن (بيروت: دار المعرفة،1992)، 35:22.
51. See Second World War Posters, http://www.ww2poster.co.uk/ (accessed April 14, 2008).
52. انظر سورة النساء، الآية: 83. وكذلك: سورة المائدة، الآية:2.
53. أبو جعفر محمد الطبري، تفسير الطبري جامع البيان في تفسير القران (بيروت: دار الفكر، 1978)، 114:15. الفخر الرازي، مفاتيح الغيب (مصر: د.ت)، 119:10.
54. Sherman Kent. *Strategic Intelligence for American World Policy*, 3.
55. سورة الأنفال، آية: 60.
56. الرازي، مفاتيح الغيب، 149. على الرابط:
http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?flag=1&bk_no=132&ID=2700

الفصل الثالث

1. سورة الحجرات، الآية: 6.
2. سورة الحجرات، الآية: 12.
3. سورة الإسراء، الآية: 77.
4. مناع القطان، تاريخ التشريع الإسلامي، 71 ـ 73.
5. "Major Religions of the World Ranked by Number of Adherents,". at: http://www.adherents.com/Religions_By_Adherents.html.(accessed April 01, 2008).
6. ريتشرد غبريل، امريكي الجنسية، بروفسور قسم الدراسات والتاريخ في الكلية العسكرية الملكية بكندا وقسم دراسات الدفاع في كلية القوات الكنديه بتورانتو. سبق أن عمل أستاذاً للتاريخ والسياسه كلية الحرب بالجيش الأمريكي. مؤلف أكثر من 40 كتاباً.
7. Gabriel. *Islam's First Great General*, xviii-xix.
8. البروفسور روي غودسون أستاذ فخري في جامعة جورج تاون. من 1993 ـ 2015، شغل أيضًا منصب الرئيس التعليمي، بالمركز الوطني للمعلومات الاستراتيجية. وكان الدكتور غودسون مستشارا لمجلس الأمن القومي الأمريكي، وما يتصل بها من برامج ووكالات للحكومة الأميركية، وكذلك لدى الأمم المتحدة، ومنظمة الدول الأمريكية، والحكومات الأجنبية ومؤسسات المجتمع المدني. وقد قاد أيضًا فرق البحث التي ابتكر المواد الأكاديمية الجديدة في جورج تاون وغيرها من الجامعات، وبرامج التعليم والتدريب المدني والحكومة في الولايات المتحدة والخارج.
9. "استعينوا على إنجاح الحوائج بالكتمان، فإن كل ذي نعمة محسود» حديث صحيح، أخرجة الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة 3، باب الأدب والاستئذان والصلة، رقم الحديث 1453.
10. سيف الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم (الرياض: دار السلام، 1979)، 80.

11. المرجع السابق، 80
12. عبد الملك بن هشام المعارفي، السيرة النبوية لابن هشام (بيروت: دار الجيل، د. ت.)، 2: 320.
13. سورة الأنفال، الآية :60ـ61.
14. انظر تفسير الآية أعلاه على الرابط
http://quran.ksu.edu.sa/tafseer/katheer-saadi-waseet-baghawy-qortobi-tabary-tanweer-eerab/sura8-aya60.html#eerab
15. المباركفوري، الرحيق المختوم، 183.
16. المصدر السابق،185.
17. المصدر السابق، 185.
18. المصدر السابق، 185.
19. المصدر السابق، 186.
20. المصدر السابق،186.
21. المصدر السابق، 186 ـ 187.
22. الطبري، تاريخ، 2: 296.
23. معركة أحد على الرابط
http://www.johina.net/vb/t13799.html (accessed April 01, 2008)
24. ذوالحليفة هو مكان يبعد عن المسجد النبوي بالمدينة المنورة 14 كيلومترا تقريباً ويقع في الضاحية الشهيره «أبيار علي» وهو ميقات المغادرين من المدينة إلى «مكة المكرمة».
25. غديرالأشطاط: اسم لمكان يقع وراء عُسْفان أي علىٰ بعد ثمانين كيلو من مكة.
26. الواقدي، المغازي،2:580.
27. مالك بن عوف بن سعد يلقب بأبي علي النصري، فارس وشاعر من أهل الطائف كان زعيم قبيلة هوزان قاد جيش الكفار ضد رسول الله ﷺ في غزوة حنين التي انتهت بهزيمته وفراره إلى الطائف فتحصن مع أهل ثقيف فيها، وعندما سمع بعفو رسول الله ﷺ عنه إذا أتاه، فخرج خلسة واتجه الى رسول الله ﷺ على رأس وفد من هوزان فعفى عنه ورد عليه أهله وولده ومنحه مائة من الإبل، أسلم فيما بعد ووُلي أمر قومه.
28. الواقدي، المغازي، 3: 893.
29. أسير بن زرام هو أحد زعماء اليهود أمرته اليهود عليها بعد أن قتل سلام بن أبي الحقيق، قتله الصحابي عبدالله بن أنيس عندما حاول الغدر بهم عندما اصطحباه في ثلاثين من قومه الى رسول الله ﷺ.
30. الواقدي، المغازي، 2: 566 .
31. المصدر السابق، 2: 566 – 7.
32. الواقدي، المغازي، 2:117.
33. البرهاوي، العيون والجواسيس، 82.
34. المرجع السابق، 32.
35. المصدر السابق، 1: 406.
36. المصدر السابق، 1: 407.
37. البرهاوي، العيون والجواسيس، 99ـ102.
38. الواقدي، كتاب المغازي، 2:639.

39. المصدر السابق، 2:640.
40. المصدر السابق، 2: 641.
41. ورد في النص: «شدوا عليه»، ولا يمكن تفسير هذا إلا على أنهم عاملوا الرجل بشدة وقسوة.
42. كتاب المغازي، مصدر سابق، 2:562.
43. المصدر السابق 1: 194.
44. الواقدي، كتاب المغازي، 2: 796. وانظر ايضاً: علي بن برهان الحلبي، السيرة الحلبية، (القاهرة: ب. م. 1964)، 3: 74.
45. حاطب ابن أبي بلتعة لخمي القبيلة من مشاهير المهاجرين شهد معركة بدر وكان من سفراء رسول الله ﷺ، بعثه إلى المقوقس صاحب مصر مات سنة ثلاثين للهجرة.
46. المغازي، مصدر سابق، 2: 798.
47. المغازي، مصدر سابق، 2: 798 ـ 9.
48. سورة الفتح، الآية: 24.
49. انظر ص: 149ـ152.
50. المنجنيق آلة حربية لقذف الصخور والمقذوفات الأخرى على الأعداء.
51. الواقدي، كتاب المغازي، 2: 805 – 6.
52. المصدر سابق. 3: 1047.
53. سورة التوبة، الآيتان: 107ـ108.
54. انظر ص 299.
55. علي بن علي طالب، كما نعلم هو ابن عم الرسول ﷺ. كان أول فدائي في الإسلام حيث نام على سرير رسول الله ﷺ ليلة هجرته إلى المدينة تمويها على كفار قريش الذين أرادوا قتل الرسول ﷺ. شارك في كل الغزوات مع رسول الله ﷺ وكان الخليفة الرابع من الخلفاء الراشدين بعد رسول الله ﷺ. دام في خلافته 4 سنوات و8 أشهر و22 يومًا.
56. الزبير بن العوام هو ابن عمة رسول الله ﷺ صفية بنت عبد المطلب. اعتنق الاسلام في السابعة عشرة وكان أحد الأعضاء الستة من مجلس الشورى الذي اختارهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليختاروا من بينهم خليفة بعده، رضي الله عنهم جميعا.
57. سعد بن أبي وقاص من بني زهرة، فخذ آمنة بنت وهب أم الرسول. كان أيضًا من أوائل من أسلموا. يعرف في السيرة بأنه أول رمى بساهمه في سبيل الله. افتداه الرسول ﷺ بأبويه فقال له يوم أحد: "ارم سعد فداك أبي وأمي".
58. الواقدي، كتاب المغازي، 1: 52.
59. كان «أبو سفيان» من دهاة العرب. كان يكبر رسول الله ﷺ بعشر سنوات، ومات حين بلغ التسعين، بعد وفاة الرسول بعشرين سنة. حارب الرسول ﷺ حتى فتح الله عليه مكة، وهنالك اعتنق «أبو سفيان» الاسلام.
60. الواقدي، كتاب المغازي، 1: 52.
61. الواقدي، كتاب المغازي، 1: 53.
62. ابن هشام، السيرة النبوية، 4: 1624.
63. ابن هشام، المصدر السابق، 3: 60.
64. كتاب المغازي، مصدر سابق، 1: 298.

65. Gabriel. *Islam's First Great General,* xxi
66. Ibid., xxv
67. Ibid., xxv
68. حنا الفاخوري، تاريخ الأدب العربي، الطبعة الثامنة، (بيروت: المطبعة البولسية، 1961)، 59. هذا، وفي تعليقه على تأثير الشعراء على عامة البشر، يشير بن تيمية إلى أن الشعر، على عكس النثر، بإمكانه أن يروج للشعور المعادي للإسلام ويدفع الناس عن الصراط المستقيم. وانظر أبو الفتح الشهرستاني، موسوعة الملل والذاهب، الطبعة الأولى، بيروت، 84.
69. سيرة ابن هشام، السيرة النبويه (بيروت: دار الجيل. ب.ت.)، 4: 417.
70. الواقدي، كتاب المغازي، 1: 173. كذلك انظر سيرة بن هشام (المرجع الأكبر للتراث الاسلامي)، 4: 417 وما بعده.
71. سيرة بن هشام (المرجع الأكبر للتراث الاسلامي)، 1: 243.
72. يوسف بن عبد الله بن عبدالبر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب (القاهرة: دار المعرفة، 2006)، 3: 218. وأحمد بن يحيى البلاذري، تحقيق محمد حميدالله، أنساب الأشراف (القاهرة: دار المعارف، 1987)، 1: 373.
73. طبقات بن سعد ، 1:22.
74. اللجنة العلمية لنصرة خاتم الأنبياء على الرابط التالي:
http://www.nusrah.tv/showthread.php?t=432, (accessed May10, 2008).
75. ابن كثير، البداية والنهاية، 4: 8.
76. سورة النساء، الآيتان: 51ـ52.
77. الواقدي، كتاب المغازي، 1: 189ـ99.
78. ابن هشام، السيرة النبوية، 3: 170.
79. ابن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، 3: 947.
80. الواقدي، كتاب المغازي، 1: 391.
81. ابن هشام، السيرة النبوية، 3: 171.
82. الواقدي، كتاب المغازي، 1: 391ـ5.
83. الطبري، تاريخ، 3: 156.
84. الواقدي، كتاب المغازي، 2: 468ـ9.
85. الطبري، تاريخ، 3: 30.
86. المصدر السابق، 3:35.
87. أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، كتاب اختلاف الفقهاء (مدينة لايدن: 1938)، 41.
88. محمد بن سعد، الطبقات الكبرى (القاهرة: دار التحرير، 1388هـ)، 2: الجزء 1: 69.
89. يا قوت الحموي، معجم البلدان (بيروت: دار صادر، 1979)، 5: 424.
90. ابن سعد، الطبقات الكبرى، (القاهرة: دار التحرير، 1388هـ)، 2: الجزء 1: 68.
91. علي محمد الصلابي، سيرة أبو بكر الصديق: شخصيته وعصره (القاهرة: مؤسسة إقرأ، 2006)، 162 وما بعده.
92. انظر فيروز الديلمي في حكومة دبي، إدارة الشؤون الاسلامية والنشاطات الخيرية، الموقع التالي:
http://www.dicd.gov.ae/vEnglish/detailnewspage.jsp?articleID=3627&pageFlag=1

.(accessed April 12, 2008)

93. الطبري، تاريخ، 3: 185.

94. أحمد بن يحي البلاذري، فتوح البلدان (بيروت: دار النشر للجميع، 1958)، 125ـ6.

95. المصدر السابق.3: 1383ـ1385.

96. هو أخو خالد بن الوليد (سيف الله المسلول) الذي انتزع سوريا وفلسطين من قبضة البيزنطيين (632 للميلاد). ويعتبر خالد بن الوليد أشهر قائد إسلامي على الإطلاق ومن بين القلائل في التاريخ لم يخسر معركة واحدة طوال حياته.

97. محمد بن سعد، الطبقات الكبرى،4: الجزء 1: 94.

98. الطبري، تفسير الطبري (دار المعرفة: 1990)، 4: 68.

99. المباركفوري، الرحيق المختوم، 129ـ30.

100. المصدر السابق،130.

101. يذكر سيف الرحمن المباركفوري في كتابه الرحيق المختوم أن عتبة بن أبي لهب جاء إلى الرسول ﷺ مرة وصرخ في وجهه وتعرض له بيده وشق قميصه. وفي أخرى، جاء عقبة بن أبي معيط والرسول ﷺ ساجد خلف المقام بالكعبة، فوضع رجله على عنقه الشريفة وغمزها فما رفعها حتى كادت تخرج عيناه الشريفتان من مكانهما، ص 45 وما بعدها.

102. هو كما نعلم أحد ألد أعداء رسول الله. كان زعيمًا من زعماء قريش قبل الاسلام. ولقبه هذا، «أبو جهل»، يتداوله الناس مذ سماه به رسول الله ﷺ (حسب بعض الروايات) بعد أن رفض دخول الاسلام رغم ما عُرف عنه من رجاحة عقله، حيث كان يُعرف عند قومه «بأبي الحكم».

103. المباركفوري، الرحيق المختوم، 78.

104. المباركفوري، الرحيق المختوم، 80.

105. جلال الدين السيوطي، جامع المسانيد والمراسيل (دار الفكر، 1994)، 125. انظر ابن هشام، 1: 661ـ 663.

106. ابن أبي شيبة، مصنف بن أبي شيبة، 5: 359.

107. البلاذري، أنساب الأشراف، 2: الجزء 1: 68.

الفصل الرابع

1. انظر: كتب التاريخ والسير والمغازي التي دونها ابن إسحاق والواقدي وأبن هشام وابن كثير والمبار كفوري.

2. الرحيق المختوم، مصدر سابق ذكره، 1: 194؛ ابن كثير، البداية والنهاية (بيروت: مكتبة المعارف، 1988)، 3: 256.

3. Combs, Richard E., and John D. Moorhead. The Competitive Intelligence Handbook. Metuchen, N.J.: Scarecrow Press, 1992, 197 pp. see also: Reg Whitaker (1999). Review of Evan H. Potter 'Economic Intelligence and National Security' Canadian Journal of Political Science, 32, pp 185-186. doi:10.1017/S0008423900010325.

4. أبو الفضل أحمد بن علي العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، (بيروت: دار الكتب العالمية، 1995)، 4: 31.

5. الواقدي، كتاب المغازي، 1: 13. وانظر أيضا: الإصابة في تميز الصحابة، المصدر السابق، 6: 465.

6. أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، دلائل النبوة، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1988)، 3: 31.

7. الحافظ بن حجر العسقلاني، فتح الباري (لبنان: دار الفكر، د. ت.)، 7: 218.
8. أبو بكر احمد بن الحسين البيهقي، سنن الكبرى، (بيروت: دار الفكر، 1996)، 10: 64.
9. ستار جبار الزهيري، جهاد الرسول المصطفى والسلام العالمي (بيروت: دار الأثر، 2002)، 1: 237.
10. المباركفوري، الرحيق المختوم، 184.؛ أبو نعيم احمد بن عبدالله الاصبهاني، معرفة الصحابة (بيروت: دار الكتب العلمية، 2002) 3: 402.
11. المباركفوري، الرحيق المختوم، 93.
12. الواقدي، كتاب المغازي، 1: 200.؛ البداية والنهاية، مصدر سابق ذكره، 3: 249.
13. المباركفوري، الرحيق المختوم، 96.
14. الجحفة: ميقات اهل الشام والقادم من طريقهم تقع بين بالقرب من مدينة رابغ وتبعد عن مكة 183 كم.
15. المباركفوري، الرحيق المختوم، 97.
16. المصدر السابق، 98. كما انظر البداية والنهاية، مصدر سابق ذكره، 4: 116.
17. الرحيق المختوم، المصدر السابق، 99.
18. Richard A Gabriel. *Muhammad: Islam's First Great General*, p 98.
19. الرحيق المختوم، المصدر السابق ذكره، 99.
20. الواقدي، المغازي، 1: 27.
21. المباركفوري، المصدر السابق، 100.
22. المصدر السابق، 101.
23. الزهيري، جهاد الرسول المصطفى والسلام العالمي، 1: 290.
24. البداية والنهاية، مصدر سابق ذكره، 4:4.
25. الواقدي، كتاب المغازي، 1: 198.
26. علي عز الدين بن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة (القاهرة: دار الكتب العلمية، د. ت.) 3: 165.
27. الواقدي، كتاب المغازي، 1:282.
28. المصدر السابق، 1: 204.
29. المصدر السابق، 1: 205.
30. أبي عمر يوسف القرطبي، الاستيعاب في معرفة الاصحاب (بيروت: دار الكتب العلمية، 1995) 4: 50.
31. ابن سعد، الطبقات الكبرى، 1: 17.
32. الواقدي، كتاب المغازي، 1: 207.
33. الطبقات الكبرى (ابن سعد)، مصدر سابق ذكره، 1: 185.
34. الواقدي، المغازي، مصدر سابق ذكره، 1: 208.
35. المصدر السابق، 1: 210.
36. المصدر السابق، 1: 210.
37. الرحيق المختوم، مصدر سابق ذكره، 1 :236.
38. المصدر السابق، 1: 273.
39. علي بن برهان الدين الحلبي، السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون انسان العيون (بيروت: دار المعرفة، 1980)، 2: 628.
40. الواقدي، مصدر سابق، 2: 441-3.
41. المباركفوري، الرحيق المختوم، 140.
42. المصدر السابق، 140.
43. المصدر السابق، 141.
44. المصدر السابق، 141.
45. الواقدي، كتاب المغازي، 2: 444 – 445.

46. عبد القادر التحفي، أيام الاسلام الحاسمة في القرآن (لندن: دار الحكمة، 2001)، 157.
47. أبو عبدالله أحمد الشيباني، مسند الامام احمد، (بيروت: دار احياء التراث العربي، 1993)، 4: 434.
48. الرحيق المختوم، مصدر سابق، 157.
49. ابن هشام، السيرة النبوية، 2: 224.
50. الواقدي، كتاب المغازي، 2: 57.
51. المصدر السابق، 2: 460.
52. المصدر السابق، 2: 406.
53. المباركفوري، الرحيق المختوم، 143.
54. الواقدي، كتاب المغازي، 2: 490.
55. السيرة الحلبية، مصدر سابق ذكره، 3: 61.
56. المباركفوري، الرحيق المختوم، 1: 356.
57. الواقدي، المغازي، 4: 119.
58. المصدر السابق، 4: 121.
59. المصدر السابق، 4: 114.
60. المصدر السابق، 4: 125.
61. المصدر السابق، 4: 119-120.
62. المصدر السابق،4: 116.
63. الرحيق، 1: 358-9.
64. سورة التوبة: أية: 25.
65. الواقدي، المغازي، 4: 135-140.
66. سورة التوبة: 26.
67. الواقدي، المغازي، 4: 125.

الفصل الخامس

1. سورة المزمل: آية: 10.
2. سورة النمل : آية: 70
3. سورة الحجر: من الآية: 94-95.
4. المباركفوري، الرحيق المختوم، 158.
5. ابن اسحاق، السيرة والمغازي، 150 - 151. ابن هشام، السيره، 1: 270 - 271.
6. سورة المسد، الآيات 1 إلى 5.
7. يمكن رؤية مناقشة كاملة حول الحرب النفسية التي شنها الكفار ضد المسلمين الأوائل في كتاب علي حسين الخربوطي، الرسول والحرب النفسية (القاهرة: مكتبة الأنغلو، ب. ت.).
8. المباركفوري، الرحيق المختوم، 86.
9. محمد السيد أبو يابس، الهجرة: مرحلة من مراحل التغيير الإنساني (القاهرة: دار الصحوة، 1985)، 123.
10. المصدر السابق، 127.
11. ابوعبدالله محمد القرطبي، تفسير القرطبي (بيروت: دار احياء التراث العربي، 1985)، 9:15.
12. من ذلك مثلاً، إسلام أخت عمر بن الخطاب وزوجها. فكان وقع عمر على إسلامها بمحض الصدفة، وذلك

حينما وجدهما يقرآن آيات من القرآن الكريم. وعلى أثر ذلك دخل عمر رضي الله عنه في الدين الجديد. المباركفوري، الرحيق المختوم، 49.

13. محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير (تونس: الدار التونسية للنشر، ب. ت.) 14: 87.
14. حسين بن محسن بن علي جابر، الطريق إلى جماعة المسلمين (مصر: المطبعة الأزهرية، 1320هـ)، 358.
15. ابن عبدالبر، الاستيعاب، 1: 131.
16. ابن هشام، السيرة، 1: 367 ـ 375.
17. W. Montgomery Watt, *Muhammed: The Prophet and Statesman* (Oxford: OUP, 1961), 57.
18. روي أن الرسول ﷺ عوض الأرقم عن بيته، حيث عرض عليه بيتًا بالمدينة عندما هاجر إليها.
19. W. Montgomery Watt, *Muhammed: The Prophet and Statesman*, 58 .
20. لمناقشة شاملة عن تاريخ البريد القديم في الجزيرة انظر:
Adam Silverstein, *Postal Systems in the Pre-Modern Islamic World* (Oxford, OUP: 2007).
21. Immanuel Kant and Hans Siegbert Reiss, Kant's Political Writings. Cambridge Studies in the History and Theory of Politics. [Selections.] (Cambridge Eng.: University Press, 1970), 105- 6.
22. William Curry ??Captivity and Adventures of Joesph Pills, " The Dublin University Magazine Fab 1846 No CLVIII. Vlo. XXVII, 223.
23. انظر العنوان التالي على الرابط:
http://www.livescience.com/27503-camels.html
24. الواقدي، كتاب المغازي، 1: 203 ـ 5.
25. رعد البرهاوي، العيون والجواسيس، 64 – 67.
26. المشار إليه هنا وفي أماكن أدناه، هو إلى «قصة الزير سالم كاملة»، للاستزاده على الرابط التالي:
http://www.alhandasa.net/forum/showthread.php?t=54815.(accessed January 24 , 2016)
27. الواقدي، كتاب المغازي، 2: 459.
28. الواقدي، كتاب المغازي، 2: 579.
29. المباركفوري، الرحيق المختوم، 177.
30. المصدر السابق، 178.
31. المباركفوري، الرحيق المختوم (دار الوفاء، 2007)، 1: 342.
32. المباركفوري، الرحيق المختوم، 178.
33. M. H. Haykal, *The life of Muhammad* (London: Shorouk International, 1983), ivi .
34. حسن محمد نور الدين، أدوات الكتابة(بيروت: المؤسسة العربية للدراسات، 2008)، 25. كذلك انظر:
Alwakeel Bassuani, ?Alwaragoon, at
http://www.islamonline.net/servlet/Satellite?c=ArticleA_C&cid=1182170319033&pagename=Zone-Arabic-ArtCulture%2FACALayout. accessed February 24, 2008
35. ابن حجر العسقلاني، المطالب العالية، 11: 685.

36. محمدعلي بن طباطبا، الفخري في الأداب السلطانيه (بيروت: دار القلم، 1997)، 106.
37. انظر البريد عند العرب على الرابط التالي:
http://www.alriyadh.com/72891
38. محفوظ، الاستراتيجية العسكرية، 439.
39. D. Khan, *The Codebreakers* (London: Sphere books, 1973), p. 80
40. Ibrahim A. Al-Kadi, The origins of cryptology: The Arab contribution, Cryptologia 16, no 2 (April 1992): 5 - 10.
41. سورة محمد، الآية: 30.
42. تفسير ابن كثير، مصدر سابق، 7: 297.
43. أبو الفداء إسماعيل بن كثير، البدايه والنهايه (بيروت: مكتبة المعارف، 1988)، 4: 102.
44. أي كغدر عضل والقارة بأصحاب رسول الله ﷺ أصحاب الرجيع خبيب بن عديّ.
45. ابوبكر الصولي، ادب الكتاب الصولي، (د. د. د. ت)، 1: 92.
46. Inmate's words: The poems of Guantanamo, ? The Independent, Thursday, 21 June 2007. http://www.independent.co.uk/news/world/americas/inmates-words-the-poems-of-guantanamo-454005.html. (accessed February 22, 2008).
47. انظر قصة رومانسية الزير سالم على الموقع:
http://www.alhandasa.net/forum/showthread.php?t=54815. (accessed January 24, 2016).
48. انظر المصدر السابق.
49. المباركفوري، الرحيق المختوم، 162.
50. مسلم بن الحجاج القشيري، الجامع الصحيح (بيروت: دار الآقاق الجديدة، 1988)، 4: 273 - 4. الحديث بهذا النص ونصوص مشابهة وردت في البخاري ومسند الإمام أحمد، وغيرهما من الكتب.
51. جامع الترمذي، أبواب التفسير، 2: 130.
52. محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، 2: الجزء 1: 25.
53. محمود شيت خطاب، محمد جمال الدين محفوظ وعبد اللطيف الزايد، اقتباس النظام العسكري في عهد النبي ﷺ (الدوحة: الشؤون الدينية، 1981)، 196.
54. الواقدي، كتاب المغازي، 2: 728.
55. محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، 2: الجزء 1: 25.
56. خطاب، النظام العسكري، 169.
57. المباركفوري، الرحيق المختوم، 92.
58. أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري (القاهرة: مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، 1959)، 6: 499.
59. محمود بن أحمد العيني، عمدة القاري شرح صحيح البخاري (القاهرة: إدارة الطباعة المنيرية، د. ت.) 14: 275.
60. أبي عمر يوسف القرطبي، بهجة المجالس وأنس المجالس وشحن الذهن والهاجس (المرجع الأكبر للتراث الإسلامي)، 1: 316.
61. الشيخ رشيد رضا، الفاروق عمر بن الخطاب ثاني الخلفاء الراشدين (بيروت: دار الكتب العلمية، 2002)،

.69

62. صححه الألباني في سلسلة الصحاح.
63. الحلبي، السيرة الحلبية، 3: 11.
64. عبدالله بن مسلم بن قتيبة، عيون الأخبار، ط1 (القاهرة: دار الكتب المصرية، د.ت)، 1: 140.
65. الزبير كما هو معروف هو ابن عمة النبي ﷺ صفية بنت عبد المطلب، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأحد الستة أصحاب الشورى.
66. صحيح البخاري.
67. في سورة المرسلات، الآية 20، يطرح الله على الناس سؤالا يجادلهم به: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾. وهناك إشارة أخرى في سورة السجدة، الآية 8، ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾. وفي كل ذلك ينبهنا القرآن إلى أن الحياة البشرية مخلوقة من ماء حقير. وفي سورة الأنبياء، الآية 30، ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾. لذلك فإن الرسول إنما كان يقصد بعبارته «من ماء» أنه هو وأبوكر من ماء، أي مخلوقان من ماء. إلا أن الأعرابي فهم من ذلك أن الرسول ﷺ من أرض الماء، أو بلاد ما بين النهرين كما كانت العراق تعرف وقتئذ.
68. سورة المرسلات، اية: 20.
69. الواقدي، كتاب المغازي، 2: 756.
70. Sun Tzu on the Art of War, Translated from the Chinese by Lionel Giles, at http://www.chinapage.com/sunzi-e.html;
أنظر كذلك Gabriel, "The Warrior Prophet",59.
71. الواقدي، كتاب المغازي، 1: 299.
72. المصدر السابق، 1: 536.
73. المصدر السابق، 2: 796.
74. محمد بن عمر الواقدي، فتوح الشام، ط4 (بيروت: دار ا لجيل، د. ت.)، 1: 122ـ3.
75. ابن سعد، الطبقات الكبرى، 2: 109.
76. ابن هشام، 2: 287.
77. أبو داود، سن أبي داود، 7: 257.
78. الواقدي، فتوح الشام، ط4، 1: 122 ـ 3.
79. عباس محمود عقاد، عبقرية عمر، 84.
80. محمد بن إبراهيم البيهقي، المحاسن والمساويء (بيروت: د. د. 1960)، 376.
81. المصدر السابق. 376.
82. الجاحظ، المحاسن والأضداد، ص20.
83. Ralph Sawyer and Mei-chün Sawyer. *The TAO of Spycraft* (Boulder, Colo : Westview Press, 2004), 274.
84. محمد بن قيم الجوزية، زاد المعاد في هدي خير العباد (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1996)، 1: 95.
85. الأول فتح مصر وأصبح حاكمها في عهد عمر بن الخطاب، أم الثاني فهو ابو الشاعر المشهور عمر بن أبي ربيعة أحد شعراء بني أمية.
86. المباركفوري، الرحيق المختوم، 43.

87. المصدر السابق، 44.

88. محمد بن قيم الجوزية، زاد المعاد، 1: 95.

الفصل السادس

1. Sun Tzu, Sun Pin, Ralph D. Sawyer Trans., *The Complete Art of War*, (Boulder: Westview Press, 1996), p. 117- 123.

يعتبر كتاب «فن الحرب» مرجعاً للاستراتيجيات والوسائل العسكرية حيث لايزال يدرس الى الان في كليات القيادة والاركان والدورات العسكرية المتقدمة الامريكية منها والأوربية.

2. يعرف القاموس الإنجليزي المعرفة المسبقة بانها الوعي بالشيء قبل وجوده او حدوثه. انظر الرابط التالي:

http://www.thefreedictionary.com/foreknwledge (accessed 22.11.2011).

3. انظر الصفحات السابقة 36 ـ 42.

4. المباركفوري، الرحيق المختوم، 1: 344.؛ وانظر أيضًا: الواقدي، كتاب المغازي، 4: 42.

5. ابن هشام، السيرة النبوية، 4: 151، 1: 250، 3: 59، 1: 177، 3: 280.

6. الواقدي، المغازي، 4: 275 ـ 276.

7. البلاذري، فتوح الشام، 488. الواقدي، المغازي، 1: 20، 2:7، 3: 168، 4: 8. المباركفوري، الرحيق، 1: 226.

8. ابن كثير، السيرة النبوية، 4: 681.؛ التلمساني، تخريج الدلالات السمعية، 208 ـ 209.؛ ابن هشام، السيرة، 2: 402.

9. المباركفوري، الرحيق، 1: 368.

10. الطبري، تاريخ الطبري، 4: 318. ؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق، (بيروت: دار التراث العربي)، 27: 123.

11. زاد المعاد، مصدر سابق ذكره. 1: 121.

12. مصعب بن عمير أحد المبايعين الاثني عشر رجلاً من اهل يثرب في العقبة الأولى وعند علمت امه بذلك طردته من البيت ومنعت عنه الاكل والشرب.

13. ابن هشام، سيرة ابن هشام، 2: 252.

14. المباركفوري، الرحيق، 1: 140.

15. المباركفوري، الرحيق، 1: 380.

16. المباركفوري، الرحيق، 1: 297.

17. انظر كتاب رسول الله لحاكم البحرين. «(بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوي، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أما بعد، فإني أذكرك الله عز وجل، فإنه من ينصح فإنما ينصح لنفسه، وإنه من يطيع رسلي ويتبع أمرهم فقد أطاعني، ومن نصح لهم فقد نصح لي، وإن رسلي قد أثنوا عليك خيراً، وإني قد شفعتك في قومك، فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه، وعفوت عن أهل الذنوب، فاقبل منهم، وإنك مهما تصلح فلم نعزلك عن عملك. ومن أقام على يهودية أو مجوسية فعليه الجزية).

18. محمود شيت خطاب، سفراء النبي، ط1، (جده: دار الاندلس الخضراء، 1417)، 1: 16.
19. ابن هشام، السيرة النبوية، 4: 389. خطاب، سفراء النبي، 1: 17.
20. الرحيق المختوم، مصدر سابق . 1: 183.
21. الواقدي، المغازي، 1: 282. ؛ المباركفوري، الرحيق المختوم، 1: 226، 343، 344.
22. ابن سعد، الطبقات، 2: 253.
23. المباركفوري، الرحيق المختوم، 1: 226، 343، 344.
24. ابن سعد، الطبقات الكبرى، 3: 7.
25. الحافظ ابن كثير، البداية والنهاية، 4: 5.
26. ابن سعد، طبقات الكبرى، 5: 268.
27. ابن سعد طبقات، 2: 68.
28. سورة النساء، اية: 98.
29. الواقـدي، المغازي، 3: 108. ينظـر ابن الاثير، اسـد الغابـة، 3 :39ـ40، 114ـ117.، 4: 129ـ135؛ 4: 320ـ321؛ 2: 435ـ436.؛ ينظـر ابـن عبـد البـر، الاسـتيعاب، 1558:5ـ1559؛ 3: 1230ـ 1232؛ 2: 643ـ644؛ 4: 1621ـ1623.
30. ابن سـعد، الطبقات، 1: 185. انظر ايضاً الواقـدي، المغـازي، 2: 627 و1 :10ـ13. و1: 186ـ187. و2: 747.
31. ابن سعد، الطبقات، 4: 1: 98؛ الواقدي، المغازي، 1: 259.
32. البلاذري، انساب، 1: 156ـ185.
33. انظر خريطة القبائل العربية قبل الاسلام ص 259.
34. المباركفوري، الرحيق، 1: 253.
35. البلاذري، انساب الأشراف، 31.
36. الواقدي، المغازي، 1: 283.
37. المباركفوري، الرحيق، 1: 253ـ254.
38. الواقدي، المغازي، 2: 129.
39. الواقدي، المغازي، 3: 111.
40. الواقدي، المغازي، 4: 226.
41. المباركفوري، الرحيق، 1: 185.
42. الواقدي، المغـازي، 1: 55.؛ المباركفـوري، الرحيق، 1: 190ـ191. والطبـري، تاريخ، 2: 535، 612ـ622.
43. الواقدي، المغازي، 1: 56.
44. الواقدي، المغازي، 5: 18.
45. المباركفوري، الرحيق، 1: 185.
46. ابن هشام، السيرة النبوية، 3: 59.
47. المصدر السابق، الرحيق، 260و 324و 407.
48. الواقدي، المغازي، 3: 990.

49. ابن سعد، الطبقات الكبرى، (دار الكتب العلمية، د. ت.)، 3: 23.
50. الواقدي، المغازي، 2: 214.
51. ابن هشام، السيرة النبوية، 4: 208.
52. المباركفوري، الرحيق، 1: 328.
53. المباركفوري، الرحيق، 1: 293.
54 . المباركفوري، الرحيق المختوم، 1: 317.
55. الواقدي، المغازي، 1: 274.
56. الواقدي، المغازي، 2: 189.
57. المصدر السابق. 2: 187ـ190.
58. الواقدي، المغازي، 3: 103.؛ وابن عبد البر، الاستيعاب، 1: 408.
59. الواقدي، المغازي، 3: 275.
60. الواقدي، المغازي، 2: 639.
61. حُيَيّ بن أخطب من سادة بني النضير ووالد أم المؤمنين زوجة رسول الله ﷺ صفية كان خطيباً وشاعراً وكان قد شهد للنبي بالنبوة إلا أنه ناصبه العداء.
62. ابن سعد، الطبقات الكبرى، 1: 210.
63. عبد الرازق بن همام الصنعاني، المصنف. (جنوب افريقيا: المجلس الإسلامي، 1390)، 5: 359.
64. أبو الفداء إسماعيل بن كثير، البداية والنهاية، (بيروت: مكتبة المعارف، 1988)، 4: 137.؛ الواقدي، 2: 196-198.
65. المباركفوري، الرحيق، 1: 323.
66. الرحيق، 1: 309.
67. المباركفوري، الرحيق، 1: 309.
68. المباركفوري، الرحيق، 1: 22.
69. المصدر السابق، 1: 306.
70. المصدر السابق، 1: 380.
71. انظر عام الوفود والذي سردتها كتب المغازي والسير وكانت سبعون وفدا.؛ المصدر السابق، 1: 380 – 388.
72. الواقدي، المغازي، 4: 215.
73 . المباركفوري، الرحيق، 1: 369.
74. الواقدي، المغازي، 4: 218.
75. خطاب، الرسول القائد، 282.
76. Ralph D Sawyer. *The TAO of Spy craft*, 222.
77 انظر صفحات الكتاب 36 ـ 43.
78. الواقدي، المغازي، 2: 217.
79. الواقدي، المغازي، 3: 98.

80. الواقدي، المغازي، 3: 176.
81. الواقدي، المغازي، 3: 176.
82. الواقدي، المغازي، 4: 34.
83 . الواقدي، المغازي، 1: 272.
84. الواقدي، المغازي، 2: 212.
85. أبو فرج جمال الدين الجوزي. الوفا بأحوال المصطفى، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1988)، 1: 755.
86. نور الدين الحلبي، السيرة الحلبية، 942.
87. الواقدي، المغازي، 1: 334.؛ الطبري، تاريخ الطبري، 3: 37. المبار كفوري، الرحيق، 368.
88. الواقدي، المغازي، 3: 299.
89. اسمه عبد عمرو ابن صَيفِي بن مالك الاوسي، أحد زعماء الاوس، وكان يكنى بالراهب.
90. الواقدي، المغازي، 1: 285.
91 . الواقدي، المغازي، 4: 277.
92. للاستزادة عن حصون خيبر ومواقعها انظر المباركفوري، الرحيق، 1: 318 ـ 319.
93. الواقدي، المغازي، 3: 176.
94. المصدر السابق، 2: 136.
95. المصدر السابق، 2: 202.
96. المباركفوري، الرحيق المختوم، 321.
97. المصدر السابق،1: 323.

الفصل السابع

1. C.I.A., *"The need for intelligence literature,* ? by Sherman Kent (Fall 1955), https://www.cia.gov/library/center-for-the-study-of-intelligence/csi-publications/csi-studies/studies/fall00/ch1_needForIntelligence.pdf. (accessed Oct. 15, 2009).
2. C.I.A., *"Wanted: a definition of intelligence,* ? By Michael Warner (2002), https://www.cia.gov/library/center-for-the-study-of-intelligence/kent-csi/pdf/v46i3a02p.pdf. (accessed September 15, 2009).
3. Rand Corporation, *"Toward a theory of intelligence,* workshop report (Santa Monica, CA: RAND, 2006), http://www.rand.org/pubs/conf_proceedings/2006/RAND_CF219.pdf. (accessed September 15, 2006).
4. Walter Laqueur, *The Uses and limits of intelligence,* 2nd ed. (New Brunswick: Transaction Publishers, 1993), 255.
5. Ibid., 255.
6. Ibid., 339.

7. Ibid., 308.

8. Sherman Kent, *Strategic Intelligence for American World Policy* (Princeton, New Jersey: Princeton University Press 1951), 3.

9. Ibid., ix.

10. Roy Godson, ed., *The Intelligence Requirements for the 1980?s* (Washington, DC: NSIC, 1979), 5- 7.

11. Roy Godson. *Dirty Tricks or Trump Cards: U.S. Covert Action and Counterintelligence* (New Brunswick, N.J.: Transaction Publishers, 2001), 5- 6.

12. Angelo Codevilla. *Informing Statecraft: Intelligence for a New Century* (New York: Free Press, 1992), 4.

13. John Bruce Lockhart, ' *'Intelligence: A British View, in British and American Approaches to Intelligence"*, ed. K.G. Robertson (New York: St. Martin's Press, 1987), 37.

14. Abram Shulsky and Gary Schmitt, *Silent Warfare: Understanding the World of Intelligence* (Washington DC: Potomac Books, 2002), 235.

15. Ibid., 175.

16. Philip H. J. Davies, "Ideas of Intelligence," *Harvard International Review* 24, no. 3 (Fall 2002): 62. Academic Search Complete, EBSCOhost (accessed March 09, 2006).

17. Ibid., 5- 6.

18. Philip H. J. Davies, "Intelligence Culture and Intelligence Failure in Britain and the United States," *Cambridge Review of International Affairs* 17, no. 3(2002): 495-520. Academic Search Complete, EBSCOhost (accessed October 03, 2006).

19. Michael Herman, *Intelligence Power in Peace and War* (Cambridge: Cambridge University Press, 19++96), 380.

20. عبد الله مناصره، الاستخبارات العسكرية في الاسلام (بيروت: مؤسسة الرسالة ،1991)، 180-181. محمد جمال محفوظ، المدخل إلى العقيدة والاستراجية العسكرية الإسلامية (القاهرة: دار الاعتصام، ط 2، 1976)، 150-151.

21. انظر: اللواء الركن محمود شيت خطاب ، اللواء الركن محمد جمال الدين على محفوظ اقتباس النظام العسكري في عهد النبي ﷺ ، (قطر، الدوحة: مطابع قطر الوطنية)، 165.

22. هيثم الأيوبي ، الموسوعة العسكرية، ط1،(بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٨١)، 1: 62.

23. Frank Kitson, Bunch of Five (London: Faber, 1977); Steve Bruce. *The Red Hand: Protestant Paramilitaries in Northern Ireland* (New York: Oxford University Press, 1992); Richard English, *Armed Struggle: The History of the IRA* (Oxford: Oxford University Press, 2003); Rogelio Alonso, *The IRA and Armed Struggle. Political Violence* (London: Routledge, 2007); John Andrade, *World Police & Paramilitary*

Force (New York: Stockton Press, 1985); Richard L. Maullin, *Soldiers, Guerrillas, and Politics in Colombia* (Lexington, Mass.: Lexington Books, 1973).

24. Charles Lutton, "Pearl Harbor: Fifty Years of Controversy", *The Journal of Historical Review* 11, no 4 (1991): 431- 467.
25. فشل الاستخبارات الغربية في العراق يناقشه "Philip H J Davies and Anthony Glees" في كتابهم:

    Butler's Dilemma: Lord Butler's Inquiry and the Re-Assessment of Intelligence" on Iraq's WMD" BCISS Working Paper 1. The Social Affairs Unit. © The Social Affairs Unit 2004.
26. Peter Gill and M.Phythian, *Intelligence In The Insecure World* (Cambrige: Polity Press, 2006), 1- 2.
27. https://www.e-education.psu.edu/sgam/node/15.
28. Peter Gill and M.Phythian, Intelligence In The Insecure World, 2.
29. Ibid., 62.
30. Ibid., 62.
31. Ibid., 63.
32. Abram Shulsky, *Silent Warfare*, 11 - 37.وكذلك Peter Gill and M. Phythian, *Intelligence In The Insecure World*, 63- 76.
33. https://www.e-education.psu.edu/sgam/node/15 50. Shulsky, Silent Warfare, 41- 57.؛ Peter Gill, *Intelligence In The Insecure World*, 84 – 86.
34. Peter Gill, *Intelligence In The Insecure World*, 4.

35.Ibid., 90 - 95.

36. Ibid., 84
37. Ibid., 8890-.

قائمة المصادر والمراجع

الكتب العربية

* ابن أبي شيبة، عبد الله محمد بن إبراهيم العبسي، مصنف بن أبي شيبة، بيروت: عالم الكتب، 1998.
* ابن الأثير، عز الدين أبي الحسن، أسد الغابة في معرفة الصحابة، القاهرة: دار الكتب العلمية، 1996.
* ابن حجر، أوس، ديوان أوس بن حجر، ت. محمد يوسف نجم، بيروت: دار صادر، د. ت.
* ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع الهاشمي، الطبقات الكبرى، القاهرة: دار التحرير، 1388.
* ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير، تونس: الدار التونسية للنشر،1984.
* ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، القاهرة: دار المعرفة، 2006.
* ابن عساكر، علي بن الحسن بن هبة، تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر، بيروت: دار المسيرة، 1979.
* ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، عيون الأخبار، الطبعة الأولى، القاهرة: دار الكتب المصرية، 1343.
* ابن قيم، الجوزية محمد، زاد المعاد في هدي خير العباد، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1996.
* ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1993.
* ابن هشام، عبد الملك بن هشام المعاقري، السيرة النبوية لابن هشام، بيروت: دار جليل، د.ت.
* ابن هشام، عبد الملك بن هشام بن أيوب، السيرة النبوية، د. د.، د. ت.
* أبو داود، سليمان بن الأشعث بن إسحاق، سن أبي داود، المدينة: المكتبة السلفية، 1968.
* أبو عبيد، عبد الله بن عبد العزيز البكري، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، د. د.، د. ت.
* أبو عبيدة، معمر بن المثنى البصري، أيام العرب قبل الإسلام: نقائض جرير والفرزدق، بيروت: دار الكتاب العربي، 1908.
* أبو عثمان، عمرو بن بحر الجاحظ البصري، المحاسن والأضداد، القاهرة: مكتبة الخانجي، 1994.
* أبو يابس، محمد السيد، الهجرة: مرحلة من مراحل التغيير الانساني، القاهرة: دار الصحوة، 1985.
* أحمد، طه إبراهيم، تاريخ النقد العربي عند العرب من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري، بيروت: دار الكتب العلمية ،2003.
* الأصفهاني، أبو الفرج وإبراهيم إبياري، كتاب الأغاني، القاهرة: دار الشعب، 1969.
* الأصفهاني، ابو فرج، الأغاني، بيروت: دار الكتب العلمية، 2002.
* البرهاوي، رعد محمود أحمد، العيون والجواسيس في ا لدولة الاسلامية منذ عهد الرسول وإلى نهاية
* العصر الأموي، الأردن: إربد، دار المتنبي، 02-2001.
* البلاذري، أحمد بن يحي بن جابر، أنساب الأشراف، القاهرة: دار المعرفة، 1959.
* البلاذري، أحمد بن يحي بن جابر، فتوح البلدان، بيروت: دار النشر للجميع، 1958.
* البيهقي، محمد بن إبراهيم، المحاسن والمساوئ، بيروت: د. د.، 1960.
* التحفي، عبد القادر، أيام الاسلام الحاسمة في القرآن، لندن: دار الحكمة، 2001.
* الجاحظ، عثمان بن عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، الكويت: المكتب

الكتب الإنجليزية :

* Akram, A. The Sword of Allah: Khalid Bin Al-Waleed, His Life and Campaigns. Delhi: Adam, 2007 Adam Silverstein, Postal Systems in the Pre-Modern Islamic World ‹Oxford, OUP: 2007.
* Andrew Rathmell, Secret War in the Middle East: The Covert Struggle for Syria, 19491961-, New York, 1990.
* Bozeman, Adda B. (Adda Bruemmer). Strategic Intelligence & Statecraft: Selected Essays. Brassey›s Intelligence & National Security Library. Washington: Brassey›s US, 1992.
* Dvornik, Francis. Origins of Intelligence Services: The Ancient Near East, Persia, Greece, Rome, Byzantium, the Arab Muslim Empires, the Mongol Empire, China, Muscovy. New Jersey: Rutgers University Press, 1893.
* Glubb, Sir John. A Short History of the Arab Peoples. London: Hodder and Stoughton, 1969.
* Godson, Roy ed. The Intelligence Requirements for the 1980's. Washington, D.C: NSIC, 1979.
* Godson, Roy. Dirty Tricks or Trump Cards: U.S. Covert Action and Counterintelligence. New Brunswick, N.J.: Transaction Publishers, 2001.
* Haykal, M. H. The life of Mohammad. London: Shorouk International, 1983.
* Herman, Michael. Intelligence Power in Peace and War. Cambridge: Cambridge University Press, 1996.
* Hitti, Philip Khuri. History of the Arabs. London: Macmillan, 1948.
* Hitti, Philip Khuri. The Arabs; a Short History. London: MacMillan, 1950.
* Huntington, Samuel P. The Clash of Civilizations and the Remaking of the World Order. New York: Touchstone, 1996.
* Kant, Immanuel and Hans Siegbert Reiss. Kant›s Political Writings. Cambridge Studies in the History and Theory of Politics. [Selections.]. Cambridge Eng.: University Press, 1970.
* Kent, Sherman. Strategic Intelligence for American World Policy. Princeton, New Jersey: Princeton University Press, 1951.
* Laqueur, Walter. The Uses and limits of intelligence, 2nd ed. New Brunswick: Transaction Publishers, 1993.

* Richard A Gabriel. Muhammad: Islam›s First Great General, Campaigns and Commanders, Norman, Okla.: University of Oklahoma Press, 2007.
* Rodgers, Russ. The Generalship of Muhammad: Battles and Campaigns of the Prophet of Allah, Gainsville, FL: University of Florida Press, 2012.
* Sawyer, Ralph and Sawyer, Mei-chün. The TAO of Spycraft. Boulder, Colo: Westview Press, 2004.
* Schippmann, Klaus. Ancient South Arabia: From the Queen of Sheba to the Advent of Islam. Princeton, N.J: Markus Wiener, 2001.
* Shulsky, Abram N. and Gary James Schmitt. Silent Warfare: Understanding the World of Intelligence. 3rd, rev ed. Washington, D.C.: Brassey›s, Inc, 2002.
* Watt, W. Montgomery. Muhammad: Prophet and Statesman. A Galaxy Book, 409. London, New York: Oxford University Press, 1974; 1961.

الدوريات :

* Al-Kadi, Ibrahim A. "The origins of cryptology: The Arab contribution." Cryptologia 16, no 2 (April 1992): 10.
* Brotherly Enemies: The Rise and Fall of the Syrian-Egyptian Intelligence Axis, 19541967-, ‖ Intelligence and National Security 13 (1998), 230253-. (accessed June 9, 2006).
* Davies, Philip H. J. «Ideas of Intelligence.» Harvard International Review 24, no. 3 (2002): 62. Academic Search Complete, EBSCOhost. (accessed March 9, 2006).
* Davies, Philip H. J. «Intelligence Culture and Intelligence Failure in Britain and the United States.» Cambridge Review of International Affairs 17, no. 3 (October 2004): 495520-. Academic Search Complete, EBSCOhost. (accessed March 9, 2006).
* Gabriel, Richard A. "Muhammad: The Warrior Prophet." The Quarterly Journal of Military History (MHQ) Summer (2007). (accessed March 9, 2008).
* Philip Davies, Intelligence Culture and Intelligence Failure in Britain and the United States, Cambridge Review of International Affairs, 17, no. 3 (October 2004). (accessed March 9, 2006).
* Philip H J Davies and Anthony Glees, «Butler›s Dilemma: Lord Butler›s Inquiry and the Re-Assessment of Intelligence on Iraq›s WMD» BCISS Working Paper 1. The Social Affairs Unit. © The Social Affairs Unit 2004.
* Scott, Len and R Gerald Hughes. "Intelligence, Crises and Security: Lessons from History?." Intelligence and National Security 21, no. 5 (2006): 655. (accessed July

6, 2008).

* Stempel, John D. "The Impact of Religion on Intelligence." International Journal of Intelligence and Counterintelligence 18, no. 2 (2005): 2812-. (accessed March 9, 2006).

المواقع الإلكترونية

«التفاسير» تفاسير الآيات القرانية، على الموقع:
http://www.altafsir.com/Tafasir.asp?tMadhNo=1&tTafsirNo=86&tSoraNo=60&t AyahNo=1&tDisplay=yes&Page=2&Size=1, (accessed April 18, 2008)

"تصنيف الأديان الرئيسية في العالم وفقاً لعدد أتباعها "أتباع، على الموقع:
http://www.adherents.com/Religions_By_Adherents.html. (accessed 1st April 2008).

"صحيح البخاري "الأحاديث، على الموقع:
http://www.sahihalbukhari.com/sps/sbk/sahihalbukhari.cfm?scn=searchresults. (accessed April 25, 2008).

" مفاتيح الغيب "فخر الدين الرازي، على الموقع:
http://www.daraleman.org/forum/uploads/Quraan/MafathRazi.rar. (accessed April 25, 2008).

"اللجنة العلمية لنصرة خاتم الأنبياء "على الموقع:
http://www.nusrah.tv/showthread.php?t=432, (accessed 10th May 2008).

"الرحيق المختوم "المباركفوري، على الموقع:
http://www.shamela.ws/open.php?cat=24&book=803. (accessed on July 05, 2007).

" أسباب النزول "الواحدي، على الموقع:
http://www.altafsir.com/AsbabAlnuzol.asp?SoraName=1&Ayah=0&img=A&LanguageID=2. (accessed on July 05, 2008)؛
http://www.alwaraq.net/Core/waraq/coverpage?bookid=2. (accessed on July 05, 2009).

"الوراقون "الوكيل بسيوني، على الموقع:
http://www.islamonline.net/servlet/Satellite?c=ArticleA_C&cid=1182170319033&pagename=Zone-Arabic-ArtCulture%2FACALayout. (accessed February 24, 2008).

«قصة الزير سالم كاملة» على الموقع:
http://www.alhandasa.net/forum/showthread.php?t=54815. (accessed on January 24, 2008).

«معاهدة حرب البسوس»، شبكة العربية، على الموقع:
http://encyclopedia.aarabiah.net/soundboards-and-war. (accessed on July 05, 2008).

«موقع الشئون الإسلامية»، فيروز الدليمي على الموقع:
http://www.dicd.gov.ae/vEnglish/detailnewspage.jsp?articleID=3627&pageFlag=1. (accessed 12th April 2008).

«تفسير الجلالين» فارس حمزة، على الموقع:
http://www.altafsir.com/Tafasir.asp?tMadhNo=0&tTafsirNo=0&tSoraNo=1&tAy ahNo=1&tDisplay=no&LanguageID=2. (accessed on 7th July 2008).

«المعاجم» الكلمات ومشتقاتها، على الموقع:
http://lexicons.sakhr.com/openme.asp?fileurl=/html/3063614.html (accessed July 05, 2008).

«صن تزو»، من مقولا ت على الموقع:
http://thinkexist.com/quotation/all_war_is_deception/149682.html. (accessed October 27, 2008).

«الإسلام اون لاين» على الموقع:
http://www.islamonline.net/servlet/Satellite?c=ArticleA_C&cid=1182170319033&pagename=Zone-Arabic-ArtCulture%2FACALayout (accessed February 24, 2008).

«معركة بدر» جهينة .على الموقع:
.(http://www.johina.net/vb/t13799.html. (accessed April 25, 2008

تفاسير الآيات «تفسير ابن كثير» على الموقع:
http://quran.alislam.com/Tafseer/DispTafsser.asp?nType=1&bm=&nSeg=0&l=arb&nSora=49& nAya=6&taf=KATHEER&tashkeel=1. (accessed May 15, 2009).

Michael Warner. "Wanted: a definition of intelligence"
https://www.cia.gov/library/center-for-the-study-of-intelligence/kentcsi/pdf/v46i3a02p.pdf. (accessed September 15, 2005).

Rand Corporation. "Toward a theory of intelligence." workshop report. http://www.rand.org.pdfrd/nsrd,p.7. (accessed September 15, 2006).

Rand Corporation. "Toward a theory of intelligence." workshop report. http://www.rand.org/pubs/conf_proceedings/2006/RAND_CF219.pdf. (accessed September 15, 2006).

«الرحيق المختوم» صفي الدين المباركفوري، على الموقع:
http://www.shamela.ws/open.php?cat=24&book=803. (accessed on April 25, 2008).

Sherman Kent. "The need for intelligence literature."
https://www.cia.gov/library/center-for-the-study-of-intelligence/csipublications/csi-studies/studies/fall00/ch1_needForIntelligence.pdf. (accessed Oct. 25, 2006).

«قصة أبو لبابه» على الموقع:

http://sirah.alislam.com/display.asp?f=rwd3277.htm. (accessed April15, 2008).
Stud. Intel. "Wanted: a definition of „intelligence." in Stud. Intel. v46:32002) 22-15-)
pdf. https://www.cia.gov/csi/kent_csi/default.htm. (accessed September 15, 2005).

مقولات صن تزو، كتاب «فن الحرب» على الموقع:
http://www.chinapage.com/sunzi-e.html. (accessed September 15, 2005)

عز الدين بن الأثير، الكامل في التاريخ، انظر «الباحث العربي» على الموقع:
www.baheth.info/all.jsp?term=. (accessed September 18, 2008).

«إعلانات الحرب العالمية الثانية » "على الموقع:
www.ww2poster.co.uk/ (accessed April 14, 2008).

«الوراق»، للكتب الإسلامية التراثية والمحققة، على الموقع:
http://www.alwaraq.net/Core/index.jsp?option=1. (accessed September 15, 2010).

«كتاب المغازي» للواقدي على الموقع:
http://www.alwaraq.net/Core/waraq/coverpage?bookid=39#authorbooks(accessed May 20, 2008).

«لسان العرب» ابن منظور على الموقع:
http://www.alwaraq.net/Core/waraq/coverpage?bookid=89&option=1. (accessed April 14, 2006).

«الطبقات الكبرى» ابن سعد على الموقع:
http://www.alwaraq.net/Core/waraq/coverpage?bookid=24.(accessed May 20, 2008).

«كتاب الأغاني» أبو فرج الاصبهاني، على الموقع:
http://www.alwaraq.net/Core/waraq/coverpage?bookid=9&option=1. (accessed April 14, 2006).

«تاج العروس» مرتضى الزبيدي، على الموقع:
http://www.alwaraq.net/Core/waraq/coverpage?bookid=282&option=1. (accessed April 14, 2006).

«القاموس المحيط» الفيروزآبادي، على الموقع.
http://www.alwaraq.net/Core/waraq/coverpage?bookid=276&option=1. (accessed April 14, 2006).

« فتوح الشام» الواقدي، على الموقع:
http://www.alwaraq.net/Core/waraq/coverpage?bookid=71&option=1. (accessed April 14, 2006).

«الإصابة في معرفة الصحابة» ابن حجر العسقلاني، على الموقع:
http://www.alwaraq.net/Core/waraq/coverpage?bookid=264&option=1. (accessed April 14, 2006).

«أسد الغابة» ابن الأثير، على الموقع:
http://www.alwaraq.net/Core/waraq/coverpage?bookid=142&option=1. (accessed April 14, 2006).

«تفسير القرطبي» القرطبي، على الموقع:
http://www.alwaraq.net/Core/waraq/coverpage?bookid=55&option=1. (accessed April 14, 2006).

«معجم البلدان» ياقوت الحموي، على الموقع:
http://www.alwaraq.net/Core/waraq/coverpage?bookid=94&option=1. (accessed April 14, 2006).

«معجم ما استعجم» أبو عبيد البكري، على الموقع:
http://www.alwaraq.net/Core/waraq/coverpage?bookid=2010&option=1. (accessed April 14, 2006).

«فتوح البلدان» البلاذري، على الموقع:
http://www.alwaraq.net/Core/waraq/coverpage?bookid=84&option=1. (accessed April 14, 2006).

«مجمع الأمثال» الميداني، على الموقع:
http://www.alwaraq.net/Core/waraq/coverpage?bookid=12&option=1. (accessed April 14, 2006).

«انساب الأشراف» البلاذري، على الموقع:
http://www.alwaraq.net/Core/waraq/coverpage?bookid=161. (accessed April 14, 2006).

«سيرة ابن هشام» ابن هشام، على الموقع:
http://www.alwaraq.net/Core/waraq/coverpage?bookid=2039. (accessed April 14, 2006).

اسطوانة مدمجة

المرجع الأكبر للتراث الإسلامي، شركة العريس، الرياض: المستقبل الرقمي. الإصدار الثالث.
سيرة ابن هشام، «المرجع الأكبر للتراث الإسلامي»، 3.

ترتبط الاستخبارات بالسياسة ارتباطاً وثيقاً، فمنذ فجر التاريخ و"الأنشطة الاستخبارية" جزء لا يتجزأ من فن الحكم "Statecraft" وكغيرهم من شعوب الأرض فقد برع العرب الأوائل في ممارستها واستخدامهم لها، فاستطاعوا من خلالها حماية كياناتهم والحفاظ على ديمومة بقائهم عبر العصور. قبل ظهور الإسلام واكب العرب تطورات الأحداث حولهم وسخروا تلك الأنشطة لحماية حدود أوطانهم، بل واستفادوا منها داخلياً لتوفير الأمن واحتواء المنافسين لزعاماتهم ودرء المخاطر المحدقة بمواردهم الاقتصادية. وساعدت الأنشطة الاستخبارية مستخدميها في جمع المعلومات اللازمة وتوفيرها في الوقت المناسب لاتخاذ القرارات السليمة في ضوئها. وقد شملت تلك الأنشطة مجموعة واسعة من الأعمال السرية والعلنية التي وظفت لتحقيق أهدافهم المرحلية والاستراتيجية عبر العصور المتتالية وصولاً إلى وقتنا الحاضر حتى باتت تلك الأنشطة مكونًا عضويًا لآليات الأجهزة الاستخبارية الحديثة.

بمنظور معاصر يوظف الكاتب العناصر الأربعة المكونة للمفهوم الاستخباري الحديث لتتبع الأنشطة الاستخبارية في عصور ما قبل الإسلام كأيام العرب ثم ما تلاها في الفترة النبوية، حيث شُنت خلالها معارك وغزوات عدة ونفذت فيها عمليات سرية متنوعة بدوافع مختلفة منها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية. إن أثر الدين الإسلامي في تقنين تلك الممارسات الاستخبارية وتشريعها، واضح وجلي في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وما الممارسة والتطبيق في الفترة "النبوية الشريفة" إلا برهان دامغ على مشروعية تلك الأنشطة. لقد تركت العناصر الأربعة الاستخبارية: الجمع السري، والتحليل والتوزيع، والاستخبارات المضادة، والعمليات السرية، أثرها في المصادر القديمة من كتب التراث العربي والإسلامي، مكونة بذلك نواة المفهوم الاستخباري الإسلامي، كما أن ما صاحبها من فنون استخبارية: كالتشفير والتمويه والإخفاء وأساليب التواصل والالتزام بالسرية واستخدام البيوت الآمنة وغيرها من الفنون الاستخبارية، موثقة في بطون الكتب التراثية.

هذا الكتاب يسعى ليس فقط، لتبديد الأسطورة التي طالما رددها البعض، بأن العرب استنسخوا فكرهم الاستخباري عن الحضارات المجاورة لهم، بل ليؤكد أيضاً أن هذه الأنشطة ليست اختراعاً حديثاً تنفرد به حضارة ما عن سواها، فهذه المفاهيم العربية ليست إلا امتداداً لفكر عريق من تراث أمة مجيدة جوهرها الحاضر هو صدى لماضيها القديم.

نبذة عن المؤلف:

اللواء الدكتور / عبدالعزيز بن عبدالله الأسمري، مستشار أمني، حصل على درجة الدكتوراه والماجستير من قسم العلوم السياسية بجامعة برونيل بلندن عام 2008م، فيما كانت درجة البكالوريوس من جامعة نيويورك الحكومية بالولايات المتحدة الأمريكية. قدم العديد من الدراسات الأمنية المتخصصة، كما شارك في إعداد الموسوعة الاستخبارية التي نشرتها جامعة جورج تاون بعنوان: Intelligence Elsewhere
Spies and Espionage Outside the Anglosphere

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٠٢-٥٢٠٨-٤

المؤلف: dr.azizalasmari@gmail.com

تصميم الغلاف: تيرم لايت | www.termlight.net